العِقد الثمين فى تاريخ المسلمين

أبو أدهم
عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة
أســـتاذ
كليـــة الآداب - جامعـــة القاهرة
كلية التربية الأساسية - دولـــة الكـــويت

١٤١٧ - ١٩٩٦

دار الكتاب الحديث
الكـويت

الطبعة الأولى

الغلاف هدية من الفنان سعيد المسيرى

إهـــداء

إلى محمد جمال الدين سُرور

أســـــــــتاذى

محبـــــــةً ووفـاءً

فهرس

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

هذا كتابُ أساسٍ ، أى إنه كتاب إلى قارئ فى مرحلة الطَّلَبِ ، يعنيه أن يتعلَّم ، وقارئ فى غير مرحلة الطَّلَب ، يعنيه أن يَعْلَم وربما يتعلم .

ويقصد بكتاب الأساس مجموعة المفردات التى ينتظمها موضوع ما من موضوعات المعرفة .

ولما كانت هذه المفردات ، مما ينوء بها كتاب واحد يجمعها ، فإنه يصير من اللازم أن نتعامل معها بنظرة الطائر ، أى نظرة محلقة إلى عموميات ، وليست محدِّقة إلى ما دونها من خصوصيات ، وتجمل حيث لا مندوحة من الإجمال .

وهذا الكتاب يعرض لمساحة واسعة من تاريخنا (نحو ألف عام) توخينا خلاله الموضوعات الكبيرة ، وعدلنا عن سواها ، وتوخينا مايهمنا عربًا إلى مايهمنا مسلمين .

وأفدنا – والحال هذه – بفضلاء سبقونا بفضل ريادة ، ولهم علينا واجب من العرفان وزيادة .

وما يرد - بعدُ - جهد بذلناه ، نرجو أن يحظى من القارئ برضاه .

وفقنا الله .

الهرم - الجيزة

فى السادس من ربيع الثانى ١٤١٧

الحادى والعشرين من أغسطس (آب) ١٩٩٦

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

الفصل الأول
العرب قبل الإسلام
١ - العرب وجزيرة العرب :

من الأمـور المحيرة لدى كثير من الباحثين ، تحديـد مـن هـم العـرب ، وما الذى يعنيه هذا المصطلح ، فهو يضيـق عنـد بعضهـم ، ليضـم العدنـانيين والقحطانيين وحدهم ، ويتسع عند البعض الآخر ، فيضم سائر مـن نطلـق عليهم تعبير الساميين .

ولا نعلم على نحو دقيق اشتقاق هذا المصطلح ودلالتـه ، بـل إن علمـاء اللغة لا يتفقون على رأى واحد بشأنه ، على أنه يرادف أحياناً مصطلح بدو ، أى أنه مصطلح ذو طابع اجتماعى ، إلى جانب أنه ذو طابع عرقى، وما يزال يستخدم بهذا المعنى على نحو التبسيط .

الأكثر من ذلك فإن المصطلح نفسـه - العـرب - كـانت الإشـارة إليـه قليلة فى المصادر القديمة ، من ذلك النص الذى ينسب إلى الملـك الآشـورى شلما نصر الثالث الذى قاد حملة ضد ملك دمشق الآرامى وحلفائه العرب فـى سنة ٨٥٤ ق. م. كما ورد ذكره فى العهد القديم - سفر إرميا - وكان يقصد به البدو ، ويتردد تعبير العرب عند المـؤرخ اليونـانى هـيرودوت Herodotus فى القرن الخامس قبل الميلاد ، على أنهم حلفاء للفرس .

على أن أقدم النصوص التى كتبت بخـط عربـى ، هـو نقش النَمـارة ، قرب جبل الدروز ببـلاد الشـام ، وهـو نقش نبطـى ، يعود تاريخـه إلـى سنة ٣٢٨م ويشير إلى قبر إمرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة ، وذكرت به قبائل عربية ، هى أسد ونزار ومذحج ومَعَد ، كما ذكرت به نجران .

ينتمى العرب إلى الجنس السامى (نسبة إلى سام بن نـوح) ، أى أنهـم ينتمـون إلـى الدوحـة نفسـها التـى تضـم الآشـوريين والبـابليين فـى العـراق ،

والآراميين والكنعانيين والعبرانيين - وهم غير يهود الدولة الصهيونية(١) - فى الشام ، والأحباش فى الحبشة (إثيوبيا) .

ويرتبط العرب - على نحو أساسى - بجزيرة العرب ، وهى الموطن الأصلى للساميين عند غالب الباحثين .

ومثلما تفاوت مصطلح عرب ، تفاوت أيضاً مصطلح جزيرة العرب . لكنه يشتمل بطبيعة الحال على هذه الجزيرة ، يضاف إليها فى بعض الأحيان سيناء وبادية الشام . ومن الجغرافيين المحدثين - مثل جمال حمدان (ت ١٩٩٣م) - من يضيفون الشام بأجزائه المعروفة والعراق .

جزيرة العرب ، أو شبه جزيرة العرب ، هى كبرى أشباه الجزر فى العالم ، تزيد فى مساحتها على المليون ميل ، وتحيط بها المياه من ثلاث جهات ، بحر فارس شرقاً وبحر القلزم غرباً وبحر العرب جنوباً ، بينما تقع بادية الشام فى شمالها . وتعد الجزيرة العربية امتداداً آسيوياً للصحراء الكبرى الإفريقية ، وتشتمل على خمسة أقسام ، هى تِهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن .

ويقصد بتهامة السهول الساحلية المجاورة لبحر القُلْزُم ، وتمتد من ينبع قبالة يثرب إلى نجران شمالى اليمن ، وتفصلها عن نجد جبال السَراة .

ودعيت نجد بذلك لارتفاع أرضها ، بحكم كونها هضبة تتوسط الجزيرة العربية ، وتتخذ موقع القلب فيها .

أما الحجاز فيسير موازياً لبحر القلزم من العقبة إلى عسير ، ودعى بذلك لأنه يحجز بين تهامة ونجد ، وقيل بين الشام واليمن .

---

(١) تعود الكثرة الغالبة من يهود عصرنا إلى أصول تركية صقلبية بالدرجة الأولى .

إذا انتقلنا إلى العَروض ، نجدها تضم اليمامة والبحرين وعُمان ، أى شرقى وجنوب شرقى الجزيرة العربية على نحو عام ، ودعيت بذلك لأنها تعرض بين اليمن ونجد والعراق .

أخيراً تحتل اليمن الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، وتضم بدورها ما يعرف اليوم باليمن وحَضْرَمَوْت ونجران وعسير .

شبه الجزيرة العربية فى معظمها هضبة تنحدر من الغرب إلى الشرق، تتخللها كثبان رملية فى الشمال (صحراء النفود) وفى الجنوب (صحراء الأحقاف) ، كما تتخللها جبال مرتفعة على طول بحر القلزم وفى عمان واليمن ، وتتخللها أيضاً سهول ووديان وبخاصة فى نجد .

يسود الجزيرة العربية مناخ قارى على نحو عام ، وتصاحب الحرارة رطوبة لدى الساحل مثلما هى الحال فى تهامة ، على أنه لدى الارتفاع لدى جبال اليمن وعُمان ، يصير الجو معتدلاً ، بل يصير أميل إلى البرودة .

وتعد جزيرة العرب من المناطق الجافة ، لندرة ما بها من أمطار ، بل إن هذه الأمطار تكاد تنعدم فى الأحقاف . لذا غلبت البداوة على سكانها ، على أن المياه تتوافر لدى بعض حواف هذه الجزيرة وبخاصة فى اليمن بسبب الأمطار الموسمية ، مما شجع أهلها على الزراعة ، كما تتوافر أيضاً فى بعض الواحات ، مثل الطائف ، وفى بعض أنحاء عُمان بالجبل الأخضر .

٢ - الحياة الاقتصادية - الاجتماعية :

تلعب البيئة دوراً فى حياة البشر قاطنى هذه البيئة ، ويزداد هذا الدور وضوحاً فى العصور القديمة ، بسبب التطور البطئ فى الحضارة المادية .

والسمة الأساسية للبيئة العربية قبل الإسلام هى البداوة ، نستثنى هنا مناطق متفرقة أخصُها اليمن ، وتعنى البداوة اقتصاداً مغلقاً ، أى أنه اقتصاد للاستهلاك الخاص بالمجتمع الصغير وحده ، وهو هنا القبيلة .

لما كانت الطبيعة شحيحة فيما يختص بالمياه ، كانت الرحلة سمة عامة في حياة العربي ، وهي رحلة إلى مواطن الكلأ ، أي الأعشاب الفقيرة التي ترعى بها حيوانات مثل الغنم والإبل ، وكان العرب يعتمدون عليها في طعامهم وكسائهم وسكنهم وترحالهم ، وكانوا إذا ضاقت بهم الحال أكلوا اليربوع والضَّب ، وكانت ثرواتهم تتحدد بما لديهم من ماشية .

هذا الاقتصاد المغلق ، لم يكن يسمح إلا بنشاط زراعي محدود ، حيث تتوافر المياه ، وتركز هذا النشاط في بعض الواحات ، مثل الطائف التي اشتهرت بالكروم والتمور . على أن أهم مناطق الزراعة كانت في بلاد اليمن، حيث كانت تتم زراعة القمح والشعير ومحصولات أخرى على سفوح الجبال ، أما في ظفار فكان البخور واللِّبان مصدر ثروتها وتجارتها مع الخارج .

عرف العرب أيضاً بعض الصناعات البدائية الصغيرة ، التي وجهت إلى خدمة مجتمعات قبلية حاجاتها محدودة .. من بين هذه الصناعات ، دباغة الجلود في الطائف ، كما وجدت صناعات أخرى في بلاد اليمن .

على أن العرب برعوا في التجارة ، وعلى نحو دقيق تجارة العبور ، فكانت السلع ترد من بلاد الهند وشرقي إفْرِيقِيَّة إلى عمان وحضرموت واليمن، فيسلك بها العرب طريقين ، أحدهما يتوجه إلى البحرين ، ومنها إلى العراق والشام ، والآخر يتوجه إلى الحجاز ، ومنها إلى الشام ومصر ، وكانت بعض القوافل تضم ألف بعير أو يزيد .

وقد أفادت التجارة في إثراء بعض القبائل العربية ، وبخاصة في الحجاز ، كما أفادت في الارتقاء بمستواهم الفكري ، لأنها ساهمت في انتقال بعض الثقافات الأجنبية إليهم .

لم يكتف العرب بتلقى التجارة الواردة ، فكانت لهم رحلاتهم البحرية البعيدة ، التى كانت تصل بهم إلى الهند والصين من ناحية ، وشرقى إفريقية (زنجبار) من ناحية أخرى ، واستقرت جماعات منهم هناك لآماد متطاولة قبل الإسلام ، وقد ازداد هذا النشاط الذى اضطلع بـه عرب اليمن وعمان ، بعد اكتشاف الرياح الموسمية التى أعانتهم على إرتياد هذه الأصقاع .

البيئة - بوجه عام - فقيرة قليلة السكان ، ويصل الأمر فى صحراء الأحقاف (الربع الخالى) إلى إقفارها من مظاهر الحياة .. هذه البيئة الفقيرة كانت تدفع فى أحوال كثيرة إلى الهجرة إلى المناطق الخصبة فى العراق والشام ، مثلما فعلت شعوب سامية سابقة للعرب . وكانت هذه الهجرة تتخذ أحياناً طابع الإغارة ، مما كان يدفع القوى المسيطرة على الهلال الخصيب إلى شراء سلام هؤلاء العرب بالأعطيات والأموال .

فقر البيئة من ناحية واتساع المساحة التى تقطنها جماعات بدوية متنقلة من ناحية أخرى ، لم يكن ليساعد على نشوء مجتمع واحد مستقر ، وهو النواة الأولى للدولة الواحدة ، فالوحدة الأساسية للمجتمع العربى قبل الإسلام هو القبيلة ، وهى جماعة اجتماعية - سياسية ، يتحدد من خلالها مفهوم المواطنة .

صنف النسابون العرب القبائل العربية فى مجموعات أنساب، على نحو ما فعل بنو إسرائيل فى سفر التكوين ونحن نعرض لهذه الأنساب بحذر شديد، إذ إنها موغلة فى القدم ، حفظت فى الصدور قبل عصر التدوين ، وتأثرت بدرجة أو بأخرى بالإسرائيليات وبالمصالح والأهداف السياسية ، وأول سجل رسمى لها هو ديوان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة ٢٠هـ ، ولم يصل إلينا هذا السجل ، ولسنا على ثقة من أن النسابين العرب ، استقوا معلوماتهم منه . وإذا كان العدنانيون ينسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم

عليهما السلام ، فإن الواقدى (ت حول ٢٠٧ هـ) يقول " ما وجدنا فى علم عالم ولا شعر شاعر أحداً يعرف ما وراء مَعَد بن عدنان بثبت " .

درج النسابون على تقسيم العرب إلى ثلاثة أقسام : عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة . والعرب البائدة هم أقوام عاشوا فى الماضى السحيق، ولم يعد لهم وجود قبل ظهور الإسلام بعدة مئات من السنين أو اندمجوا فى غيرهم من العرب ، وبقيت بعض آثارهم المادية فى حفريات ، بدأها علماء الغرب فى أواخر القرن الماضى ، وتمكنوا من قراءة بعض كتاباتهم كالكتابات الثمودية .

جدير بالذكر أن من هؤلاء العرب البائدة من تواترت أخبارهم فى الكتب اليونانية وغيرها من كتب الأمم المجاورة للجزيرة العربية ، ومنهم أيضاً من تواترت أخبارهم فى القرآن الكريم ، وإن كان الهدف منها العظة والاعتبار . يقول تعالى فى سورة يوسف (١١١) ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ يهمنا – على نحو أساسى – العرب الباقية ، وهم العاربة والمستعربة وينتسب العاربة إلى يَعْرُب بن قحطان ، وينتسب المستعربة إلى معد بن عدنان .

رغماً عن هذا التقسيم الثنائى ، فنحن نجد فى بعض الأحيان تناقضات بين القحطانية بعضهم ضد بعض أو بين العدنانية بعضهم ضد بعض ، أكثر مما نجده بين القحطانية والعدنانية ، كما نجد أيضاً تبايناً فى نمط التفكير والعقلية واللغة داخل قبائل قحطانية أو داخل قبائل عدنانية ، يجعلنا نشك فى جملة الأنساب .

ينقسم القحطانيون إلى فرعين رئيسيين هما حِمْيَر وكَهْلان ، وأشهر فروع حمير خَوْلان ويَحْصُب باليمن ، ومَهْرة بحضرموت ، وبَلِىْ وجُهَيْنَه وعُذْرَة بالحجاز ، وقُضاعة بشمالى الحجاز ، وكَلْب ببادية الشام . وأشهر

فروع كهلان هَمْدان وعَنْس ومَذْحِج باليمن ، والأَشْعَر بتهامة ، والأَزْد بعمان، وطَيِّ بنجد ، وغَسان بالشام ، وعاملة وجـذام ببادية الشام ، ولَخْم بالحيرة ، والأوس والخزرج بيثرب .

أما العدنانيون فينقسمون إلى فرعين رئيسيين هما ربيعة ومضر ، وأهم قبائل ربيعة بكر وتغلب وشيبان بالجزيرة الفراتية والبحرين ، وعنزة بنجد ، وعبد القيس بالبحرين ، وحنيفة باليمامة . وأهم قبائل مضر قيس عيلان ، وهى مجموعة قبلية كبيرة تدعى بالقيسية (صارت علماً على المضرية) ، منها غَطَفان وسليم وأشجع وفزارة وهلال وعبس وذبيان وثقيف وهوازن وأسد بنجد والحجاز . ومن قبائل مضر تميم بنجد والعراق ، وهُذَيل بالسراة ، وكنانة بجنوبى الحجاز ومنها قريش بمكة .

ظهرت العصبية بين القحطانية (أو اليمانية) وبين العدنانية (أو المضرية أو القيسية أحياناً) ، ودارت بين الطرفين وقائع ، اتخذ اليمانية خلالها العمائم الصفر والرايات الصفر ، فى حين اتخذ المضرية العمائم الحمر والرايات الحمر .

يقول أبو تمام (ت ٢٢٨ هـ) فى وصف الربيع :

محمـــرة مصـــفرة فكأنهـــا   عصب تيمن فى الوغى وتمضرُ

على أنه من الواضح أن هذه العصبية كانت لها أصولها من البيئة ، فغالب على اليمانية الحضارة ، وغالب على العدنانية البداوة . ومعظم اليمانية أقاموا باليمن وعمان وأطراف العراق والشام وبعض حواضر الحجاز واختصت البوادى فى معظمها بالعدنانية .

القبيلة إذن هى وطن العربى ، ويعبر عن هذه الوطنية بالعصبية ، وهى الشعور بالانتماء لها وحدها دون غيرها ، والاعتزاز بهذا الانتماء إلى أبعد الحدود ، وقد عبر الشاعر عن تضامن أبناء القبيلة الواحدة بقوله :

لا يسـألون أخاهم حين ينـدبهم   في النـائبات على ما قال برهـاناً

وفى المعنى نفسه يقول دُرَيْد بن الصِّمَّة :

وهـل أنا إلا من غُزَيَّه إن غوت   غـويت وإن ترشـد غزية أرشـدِ

ويتصاعد الانتماء بين الفرد وبين وطنه الكبير (القبيلة) عبر بنى الأب ثم الفصيلة فالفخذ فالبطن فالعمارة وينتهى إلى القبيلة .

وكان المجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات ؛ الصرحاء ، وهم أبنـاء القبيلـة، تجمعهم رابطة الدم ، وينتمون إلـى أب واحد وهم جميعـاً متضـامنون ، وإذا ارتكب أحدهم أمراً يسئ إلى المجموع ، خلعته قبيلته ، فيدعى بالخليع ونبذته، وقد يصير صعلوكاً . والموالى ؛ هم من خلعتهم قبائلهم ، فوالوا قبائل أخـرى، ويدخل فيهم العتقاء ، وهم فـى الأصـل عبيد ، وللموالـى حقـوق أبنـاء القبيلـة وعليهم واجباتهم . والعبيد أو الرقيق ؛ وهم أسرى بعضهم من العرب أو مجلوبون بالشراء ، ويقومون بالأعمال التى يأنف منها الصرحـاء والموالـى ، مثل الحدادة والحجامة والنجارة ، ويعتق الواحد منهم ، إذا أدى عمـلاً جليـلاً للقبيلة ، وكان الصرحاء يتسرّون بإناثهم ، وأبناء الإماء البيض من آباء عرب يدعون بالهجناء ، وأبناء الإماء السود من آباء عرب يعرفون بالأغربة ومنهـم عنترة .

وللقبيلة حكومة بدائية تدعى بالملأ ، ويقصد بهم أهل الحـل والعقد ، أو بياض القبيلة وخاصتها ، ويجتمعون فى مكان يدعـى بالنـادى . ويرأس هـذه الحكومة – إذا جاز التعبير – شيخ القبيلة الذى يدعى أحياناً بالملك أو الأمـير، وعليـه أن يشاور غيره مـن زعمـاء المـلأ ، ويجـب أن يتصـف بالعراقـة والشجاعة والكرم والثراء وكبر السن ، ولم يكن منصبـه وراثيـاً بـالضرورة ، ويعبر عن ذلك عامر بن الطفيل بقوله :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى أذا ها وأرمى من رماها بمنكبى

ولشيخ القبيلة المرباع وهو ربع الغنيمة ، والصفايا أى ما يصطفيه لنفسه قبل القسمة ، والحكم أى ما يستولى عليه الفارس المبارز قبل اللقاء ، والنشيطة أى ما يصيبه من مال قبل اللقاء ، والفضول أى ما لا يقبل القسمة من الغنيمة .

يقول الشاعر :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضولُ

وكان شيخ القبيلة يتصدر قبيلته فى حربها ، فكان أعداؤها يركزون عليه فى قتالهم ، لما فى موته من إضعاف لشوكة خصومهم ، ويؤدى إلى هزيمتهم فى معظم الأحوال .

إلى جانب شيخ القبيلة كان هناك الشاعر والخطيب والكاهن والعراف والقصاص . وأهم هؤلاء الشاعر ، فهو الذى يتغنى بمناقب قبيلته ومثالب غيرها من القبائل ، وقد تفتتن القبيلة بشاعرها إفتتاناً ، دفع شاعراً من خصوم تغلب لأن يقول :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كُلثومِ

أما الخطيب فهو لسان القبيلة المدافع عنها فى المحافل ، والكاهن هو مستشارَها فى الأمور العظيمة والملمات ، إلى جانب ما يقيمه من طقوس دينية ، والعراف هو عين القبيلة تتعرف من خلالها إلى المستقبل ، والقصاص هو الحافظ لماضى القبيلة وتراثها .

وكانت القبائل يرتبط بعضها مع بعض فى أحلاف ، خصوصاً عندما يهدد الخطر قبيلة ضعيفة ، فتسارع إلى الاتحاد مع قبيلة أخرى ، ولا يجمع الحلف قبائل تنتمى إلى أرومة واحدة بالضرورة ، وقد يجمع بين قبيلة يمانية وأخرى مضرية ، بل إن قريظة وهم يهود كانوا أحلافاً للأوس فى الجاهلية . ويصل الأمر بالقبائل التى تنتمى إلى حلف واحد ، فتتدرج جميعاً فى قبيلة واحدة ، مثلما هى الحال مع تنوخ وهى فى الأصل مجموعة قبائل استقرت فى البحرين ، ثم ارتحلت إلى بقاع أخرى منها الشام ، وظهر بينها – فيما بعد – الشاعر الكبير أبو العلاء المعرى (ت ٤٤٩ هـ) .

من أشهر الأحلاف العربية قبل الإسلام ؛ حلف الرباب الذى جمع خمس قبائل ، هى ضَبَّة ، ثور ، عكل ، تميم ، عدى ، وحلف الأحلاف الذى ضم بنى عبد الدار ، مخزوم ، سهم ، جُمَح ، عدى من قريش . وحلف الفضول الذى ضم بنى تَيْم ، زهرة ، هاشم من قريش أيضاً .

فرضت البيئة على العرب قانون الغاب ، أى الحق للقوة ، فدرجوا على حب القتال ، واستطاب العربى الموت فى ساحة الوغى ، وازدرى الموت حتف أنفه .

يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته المشهورة :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً ... أبينا أن نقر الذل فينا

لنا الدنيا وما أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاةً ظالمينا وما ظُلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا

وفى المعنى نفسه يقول زهير .

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

عرفت الحروب بين القبائل العربية فى البادية بأيام العرب ، أى أن الحرب تستمر يوماً واحداً ، لكنها قدِ تستمر عدة أيام ، بل عدة سنين ، ويعينون اليوم باسم الموضع الذى جرت فيه المعركة ، أو بحدث بارز فيها ، أو بأسماء القبائل التى شاركت فى القتال .

وتتحدد أسباب الحرب فى نزاع على ماء أو مرعى أو ماشية ، أو أخذاً بثأر ، أو تعسفاً فى إتاوة ، أو حتى إظهار المهارة فى القتال .

ومن أيام العرب المشهورة يوم حليمة بين المناذرة والغساسنة ، يوم بُعاث بين الأوس والخزرج ، يوم الكلاب الثانى بين مذحج وتميم . ومن الحروب الكبيرة حرب الفجار بين كنانة وهوازن ، وحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وحرب البسوس بين بكر وتغلب ، ودامت أربعين سنة ، وسببها قتل جساس بن مُرة الشيبانى (من بكر) لزوج أخته كليب بن ربيعة (من تغلب) ، ورفع المهلهل شقيق القتيل راية الثأر ، ومن أجله تخلى من ملذات الحياة ، يقول المهلهل عند قبر أخيه :

خذ العهد الأكيد على عمرى بتركى كل ما حوت الديار
وهجرى الغانيات وشرب كأس ولبسى جبة لا تستعار
ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تبيد سراة بكر فلا يبقى لها أبدًا أثار

كانت تدور فى هذه الحروب بطولات خلدها الشاعر الجاهلى ، تسفر عن مآس ، كانت موضوعًا للشاعر العربى فى كل العصور ، وكان الأسرى فى العادة يقتلون ، وفى ذلك يقول إمرؤ القيس :

ملوك من بنى حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا

وقد يكتفى أحيانا بافتداء الأسير بمال أوجز ناصيته وإطلاق سراحه ، إذ لاً له ولقبيلته ، ويحتفظ الغالب بناصية الأسير .

كذلك كانت للحرب أثرها فى تحديد مكانة المرأة فى المجتمع الجاهلى ، فكانت موضعًا متوقعًا للعار فى حال الهزيمة ، وكان الجاهلى إذا بشره أحد بولادة بنت ، يحزن ويسود وجهه ، ومن هنا درج بعض العرب على وأد بناتهمَ خشية العار أو الفاقة .

على أن ذلك لم يكن ليمنع بعض العرب من الاعتزاز بأمهاتهم ، وقد ينتسبون إليهن ، ويعتزون بهذا الانتساب ، مثل عمرو بن هند ملك الحيرة من المناذرة .

وكانت الحرب تنتهى برضاء الطرفين ، وتدفع الدية التى تختلف باختلاف منازل القتلى والقبائل ، والغالب أن تقدر بالإبل ، وقد تبلغ ألف بعير فى حال الملوك وأعيان القوم .

وجرت العادة عند العرب أن تتوقف الحرب فى الأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، يمارسون خلالها شعائر دينهم الوثنى، ويحجون إلى مكة ، ويمارسون التجارة فى الأسواق التى تقام ، ويلقى الشعراء فيها قصائدهم ، من هذه الأسواق سوق عكاظ وسوق ذى المجاز وسوق مجنة وغيرها .

وفى مناسبات محدودة لم يكن العرب يحترمون الأشهر الحرم ، مثلما حدث فى يوم الفجار الأول بين قيس وكنانة ، على أن ذلك استثناء ، ولم يكن بذاته قاعدة .

٣ - الحياة الدينية - العقلية :

يذهب الإخباريون إلى أن العرب كانوا فى بداية أمرهم على دين إبراهيم عليه السلام ، بحكم مقام ولده إسماعيل عليه السلام بالحجاز وإصهاره إلى جرهم أصحاب مكة ، ثم يذهبون إلى أن أول من غير هذا الدين ، واتخذ الأصنام ، هو عمرو بن لُحَيّْ الخزاعى، جلبها من الشام، وصار يوزعها على القبائل ، إلى أن وصل عددها بمكة حين فتحها رسول الله ﷺ فى سنة ٨هـ إلى ستين وثلاثمائة صنمًا على أننا نذهب - من ناحيتنا - إلى أن فى هذه الأخبار قدرًا كبيرًا من التزيد ، فعمرو بن لحى هذا - بفرض وجوده - عاش فى عصر سحيق، تباعدت الآماد بينه وبين من أرخوا له بعد ظهور الإسلام بمائتى سنة .

صحيح أن أبناء إسماعيل ظلوا على دين إبراهيم فترة ، لكننا نجهل حدود هذه الفترة ، ولم يلبثوا أن تركوا هذا الدين لانقطاع صلتهم بفلسطين ، أو تقطع هذه الصلة ، وتأثروا تأثرًا واضحًا بالبيئة المحيطة بهم .

كذلك فإن اعتقاد العرب بالأصنام لم يكن يعنى إيمانهم جميعهم بالبعث ، فبعضهم كانوا من الدهريين القائلين ببقاء الدهر ، مثل بعض فرق اليهود .

يقول الشاعر :

حياة ثم بعث ثم نشر   حديث خرافة يا أم عمرو

كان العرب يصنعون أوثانهم من الأشجار أو الأحجار ، وبخاصة حجارة النيازك والبراكين ، وجرت العادة عند أهل الدار أن يتخذوا فى دارهم صنمًا صغيرًا ، يتمسحون به حين السفر والعودة طلبًا للأمان .

ويروى أن أول صنم نصب عند الكعبة هو هُبَل ، جعله عمرو بن لحى فى هيئة إنسان من العقيق ، يده اليمنى مكسورة ، فجعلت قريش له يدًا من ذهب ورغمًا عن علو مكانة هبل إلا أن أشهر أصنام العرب هى اللات والعزى ومناة ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم (النجم : ١٩ - ٢٠) .

وكان العرب يتوجهون فى الحج إلى مكة حيث الكعبة فى ذى الحجة ، فيطوفون بها أسبوعًا ، ويسعون بين الصنم إساف على الصفا ونائلة على المروة ، ثم يقفون بعرفة ساعة غروب الشمس ، ويفيضون منها إلى المزدلفة عند شروقها ثم منى ، وخلال طوافهم يتبركون بالحجر الأسود ، ويتمسحون بأركان الكعبة ، وكان بعضهم يطوف وهو عريان .

ولم يكن للكعبة قبل الإسلام سقف ، إنما كان لها جدران وباب يدخل منه ، وتكسوها ستائر من الخارج ، وقد احترقت الكسوة قبيل البعثة وتصدع البيت ، وأعيد بناؤه والرسول صبيًا .

إلى جانب الحج كان العرب يقصدون الكعبة وبيوت الأصنام من أجل المشورة واستطلاع الغيب ، ويكلمون الأصنام بواسطة سدنتها من الكهان .

درج العرب على تقديس الجان ، وهى عندهم أرواح غير منظورة ، تقطن الأماكن الموحشة مثل القبور ، ويعتقدون بإمكان رؤيتها ومخاطبتها ، وأنها تتمثل أحيانًا فى هيئة كائنات غريبة ، مثل الغول الذى التقى به الشاعر تأبط شرًا ، كما تصور بعضهم الحيات على أنها بنات الجان ، وكانوا يستعيذون من الجان باستخدام عظام الموتى وقطع الحجارة والمعادن ، ويعلقونها فى مواضع ظاهرة .

تأثر العرب بمن جاورهم من الأمم ، فانتقلت إليهم المجوسية (عبادة النار) من فارس ، والصابئية (عبادة النجوم والكواكب) من العراق ، على أن أهم الديانات التى انتقلت إليهم من الحضارات الأخرى هى اليهودية والنصرانية .

يعود ظهور اليهودية فى جزيرة العرب إلى هجرة جماعات من اليهود إلى الحجاز بعد تدمير هيكلهم فى بيت المقدس فى سنة ٧٠م ، واستوطن اليهود

بعض المناطق الحضرية ومنها يثرب ، وبنوا الآطام لحماية أنفسهم من هجمات الأعراب ، وكانوا يعطونهم الإتاوات والهدايا إتقاء لشرهم.

وجدت اليهودية اتباعًا لها من العرب فاعتنقها أسعد أب كرب الحميرى من ملوك اليمن ، ثم تعصب لها ذو نواس - كما يقال - وجعلها دينًا رسميًا للدولة ، واجتهد فى نشرها بطريق العنف ، مما أدى إلى محرقة هائلة للنصارى بنجران ، ورد ذكرها فى القرآن الكريم (البروج ٤ - ٨) .

أقام اليهود لأنفسهم أماكن للعبادة ، يعرف الواحد منها بكنيس ، وهو السيناجوج معبد اليهود ، كما أقاموا دورًا يتدارسون فيها شئون دينهم وأحكام شريعتهم ، عرف الواحد منها بمدراش ، وعرف رجال دينهم بالأحبار والربانيين.

أما عن النصرانية فقد دخلت إلى بلاد العرب بطريق التبشير ، فقد لاذ عدد من النساك والرهبان بالصحراء العربية ، وكان بعضهم على دراية بالطب ، مما شجع العرب على طلب العلاج عندهم ، ولا يخفى أن ما كانت تعج به الأديرة من خمور ونبيذ كانت حافزًا لتردد هؤلاء العرب عليها ، ولا يخفى أيضًا أن بعض الرقيق الصادر إلى بلاد العرب كان من النصارى .

اعتنق عرب الشام من الغساسنة النصرانية على المذهب اليعقوبى القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح عليه السلام ، كما اعتنقته قبائل من كلب وقضاعة وعاملة وجذام .

انتشرت النصرانية أيضًا فى العراق ، فاعتنقها المناذرة على المذهب النسطورى ، القائل بطبيعتين للمسيح كما اعتنقته قبائل من إياد وتغلب وطئ ، وشارك بعض نصارى العرب فى العراق فىالمجامع الدينية ، وكان عدى بن حاتم الطائى على النصرانية ، قبل أن يأتى إلى رسول الله ﷺ مسلمًا .

لم تلبث النصرانية أن امتدت إلى أماكن أخرى فى جزيرة العرب ، وكان صاحب أيلة الذى إلتقى برسول الله ﷺ وهو يوحنا بن رؤبة نصرانيًا ،

كما كان صاحب اليمامة عند بعثة الرسول وهو هَوْذَة بن علي الحنفي نصرانيًا، كذلك كانت حال معظم الرقيق بمكة ، وكان بنو عبد القيس في البحرين نصارى .

على أن أهم معاقل النصرانية في جزيرة العرب كان في بلاد اليمن ، وبخاصة نجران ، حيث انتشرت على يدى راهب يدعى فيميون ، أقنع بنى الحارث بن كعب بالتنصر ، وقد شارك أسقف عن اليمن في أعمال مجمع نيقية المسكوني في سنة ٣٢٥م ، وذهبت سفارة نصرانية رومية إلى اليمن فانشأت كنيسة في نجران وأخرى في مأرب . كما أنشأت الحبشة كنيسة القليس في صنعاء ، وموضعها جامع صنعاء الحالي .

ورغمًا عن انتشار النصرانية انتشارًا واسعًا ، إلا أن سواد العرب من معتنقيها لم يكونوا على علم وافر بها ، واختلطت في أذهانهم بعناصر وثنية واضحة.

وهناك طائفة من العرب اعتزلوا هذه الأديان جميعها ودعوا بالحنفاء ، وقد اختلف المؤرخون بشأنهم ، على أنه من المقرر أنهم عزفوا عن عبادة الأصنام ، وانصرفوا عن الموبقات التي كانت سائدة في عصرهم ، واخذوا يتفكرون في إله واحد خالق لهذا الكون ، يتوجهون نحوه بالعبادة ، وقد أشار الله تعالى إلى الحنيفية في عدة مواضع من كتابه الكريم .

من الحنفاء الذين ظهروا قبيل الإسلام قس بن ساعدة الإيادى وكان خطيبًا ، وزهير بن أبي سلمى وكان شاعرًا ، وورقة بن نوفل من قرابة السيدة خديجة رضي الله عنها .

إذا انتقلنا إلى الحياة العقلية يفجأنا مصطلح جاهلية ، والجاهلية مصطلح مستحدث ظهر مع الإسلام ، ويعني الطيش والسف والحمق ، ولا يعني بالضرورة ما هو ضد العلم .

والحياة العقلية عند العرب نبت للبيئة ، فقد تتبعوا الأنواء ، وتعرفوا إلى الأجرام السماوية ، كما تعرفوا إلى التقويم القمرى ، ومهروا فى علم الأثر ، ومهروا أيضًا فى علم الأنساب .

تسرب إلى العرب – خصوصًا عرب الحيرة – شيء من علوم اليونان، فأقام بها عدد من أسرى الروم ومن النساطرة ، نشروا بها معارف فى الفن والهندسة والطب ، وقد أعان ذلك على ازدهار الحياة العقلية بمدينتى البصرة والكوفة فى العصر الإسلامى ، لقربهما من الحيرة .

على إن أهم مظاهر الحياة العقلية هى اللغة وآدابهاً ، ولم تكن اللغة العربية واحدة عند كل الجاهليين ، فالقاموس اللغوى عند قبيلة ، يختلف على نحو أو آخر عن القاموس اللغوى عند قبيلة أخرى ، وقد نزل القرآن الكريم بلغة قريش .

ويعد الشعر المعبر الرئيس عن اللغة العربية ، وقديمًا قالوا : الشعر ديوان العرب ، أى هو السجل الذى حفظ تراثهم . وخضع الشعر الجاهلى لمنهج الشك من قبل بعض الكتاب ومنهم طه حسين (ت ١٩٧٣م) فذهبوا إلى انتحاله جملة ، على أساس أنه دون بعد قرنين من ظهور الإسلام ، فى حين أنه يمتد نحوًا من قرنين قبل ظهور الإسلام ، ثم إنه خضع فى تدوينه لمآرب وأغراض سياسية أو عرقية أو دينية .

وقد وصل إلينا الشعر الجاهلى فى مجموعات ، أخصها المعلقات والمفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب ، وبعض من دواوين الشعراء أنفسهم وديوان الهذليين .

اكتسبت المعلقات إسمها ، لأنها كانت مكتوبة بماء الذهب فى صحف من الكتان المصرى المعروف بالقباطى ، ومعلقة بأستار الكعبة ، أو لأنها

كانت معلقة فى خزائن ملك من ملوك العرب ، لعله النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، اختارها بين القصائد التى كانت تلقى فى سوق عكاظ .

وأول الشعراء الجاهليين المعروفين هو امرؤ القيس ، ثم المهلهل سيد ربيعة ، وكان هناك شعراء قبلهم ، لم يصل إلينا شىء من شعرهم والشعر الجاهلى فى مجمله شعر غنائى ، والقصيدة الجاهلية تطول أو تقصر ، لكنها لا تجاوز فى الغالب مائة بيت ، والعرب لم يعرفوا الملاحم الطويلة كإلياذة هوميروس ، كما لم يعرفوا المسرحية الشعرية ، والسبب فى ذلك أنهم لم يكونوا ينظرون إلى الأشياء نظرة شمولية . والقصيدة الشعرية لا تتسلسل الأفكار فيها تسلسلاً منطقيًا ، ولا يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا عضويًا ، وقد أدى ذلك إلى أن حفل شعر العرب بالحكم القصار الرائعة التى جرت على الألسن آمادًا بعيدة .

أما موضوعات القصيدة الجاهلية فهى موضوعات متقاربة ، ليست فيها غزارة فى المعانى ، والصور فى الغالب متكررة ، والشاعر يتخيل أنه راحل على جمل ومعه صاحب له ، وقد يعرض له فى طريقه أثر أحبة ، فيتوقف ويبكى على رسومهم ، ويتذكر أيامًا هنيئة قضاها معهم ويتطرق إلى وصف ناقته أو فرسه ، وقد يتطرق أيضًا إلى وصف رحلة صيد ، ثم ينتقل إلى موضوع قصيدته ، وهو مآثر قبيلته أو ممدوحه ، أو هو يهجو قبيلة معادية ، ويدعو للثأر منها ، وفى هذا الإبان لا نجد للشاعر وجودًا مستقلاً عن قبيلته .

المعانى إذن واحدة تقريبًا عند الشعراء الجاهليين ، والاختلاف الرئيسى بينهم اختلاف فى الصياغة .

يقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معارًا   أو معادًا من لفظنا مكرورا

ويقول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم   أو هل عرفت الدار بعد توهم

على أنه لدى انتشار اليهودية والنصرانية ، ظهرت نغمة دينية جديدة ، نلاحظها فى شعر عدى بن زيد العبادى بالحيرة ، وأمية بن أبى الصلت بالطائف .

وجد الشعر رواجًا فى الأسواق التى كان العرب يعقدونها كل عام ، وأهمها سوق عكاظ ، حيث ألقى عمرو بن كلثوم معلقته المشهورة وأولها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمور الأندرينا

وكان النبى ﷺ من جملة من استمع إلى هذه المعلقة عندما وفد إلى هذه السوق .

وقد شجع الملوك العرب الشعراء بالجوائز والصلات ، فصارت الحيرة مقصدًا للكثيرين منهم ، مثل النابغة الذبيانى صاحب النعمان بن المنذر ، وكذا كانت حال غسان مع الأعشى والمرقش الأكبر وعلقمة الفحل وحسان بن ثابت .

إلى جانب الشعر وصلت إلينا نماذج نثرية ، وإن كانت أقل عددًا بسبب ضوابط الوزن والقافية ، وفى هذا يقال : " إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون ، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ، ولاضاع من الموزون عشره " .

ومثلما هناك شعر جاهلى منتحل ، هناك أيضًا نثر جاهلى منتحل ، على أننا نثق ببعض الأمثال النثرية ، من حيث ارتباطها بأحداث وقعت فى الجاهلية ، أو ارتباطها بالبيئة الاجتماعية الجاهلية .

وأهم النماذج النثرية التى لدينا وصلت إلينا فى مجموعات ، مثل جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى (ت بعد ٤٠٠هـ) ومجمع الأمثال للميدانى (ت ٥١٨هـ) .

وتفترق الأمثال عن الشعر فى أنه إذا كان الأخير تعبيرًا عن طبقة أرقى من الناس ، فإن المثل تعبير عن العامة ، يوضح ذلك أن لغة المثل غير مصقولة اللفظ كما إن المثل لا يتطلب خيالاً واسعًا ولابحثًا عميقًا ، إنما يتطلب تجربة محلية فى شأن من شئون الحياة . وتوضح الأمثال التى وردت بخصوص المراة ما يدل على مكانتها المحدودة عند العرب ، كما إن الأمثال التىوردت بشأن الحياة الاقتصادية ، تدل على فقر البلاد وضآلة مواردها .

إلى جانب الأمثال هناك القصص ، وأهمها أيام العرب ، وتعبر عن وقائع تاريخية ، وقصص الحب وهى عامرة بالفروسية ، وقصص على ألسنة الحيوان ، وقصص عن الأسفار ، وما يلاقيه الأبطال من أهوال ، وقصص عن النوادر ، تحكى بحضرة الملوك . ومن أشهر القصاص النضربن الحارث من بنى عبد مناف ، وكان يروى قصصًا سمعها من الفرس .

لدينا أيضًا الخطابة ، وقد تعددت موضوعاتها ، ومنها الدعوة إلى المفاخرة أو المنافرة ، والدعوة إلى الإصلاح ، والرثاء والوصايا والنكاح والتحميس فى القتال . وكان الخطيب فى موقف الخطابة يرتدى زيًا خاصًا ، ويصعد إلى موضع مرتفع ، ويعتمد فى وقفته على عصا أو قوس ، ويحرك يديه تبعًا لمقتضيات كلامه .

ومن أشهر الخطباء العرب قس بن ساعدة الإيادى ، عمرو بن كلثوم ، حاجب بن زرارة خطيب تميم ، هانئ بن قبيصة الشيبانى خطب ذى قار ، وعتبة بن ربيعة خطب قريش فى بدر .

٤ - الحياة السياسية :

أولاً : ممالك اليمن :

تعد بلاد اليمن أسبق بلاد العرب وأعرقها فى مضمار الحضارة ، والسبب فى ذلك هو طابع الزراعة والاستقرار الذى يميزها وموقعها الجغرافى الهام ، وعليه نشأت بها ممالك فى أزمنة سحيقة ، وامتد نفوذ هذه الممالك إلى أنحاء قاصية من الجزيرة العربية ، وخضعت قبائل شمالية لها .

(أ) معين :

أقدم هذه الممالك هى مملكة معين ١٣٠٠ - ٦٣٠ ق. م. قامت فى منطقة الجوف بين نجران وحضرموت ، وكانت عاصمتها القرن أو قرناو ، ودعاها اليونانيون كارنا Karna .

كانت معين مجالاً للعديد من البعوث الأثرية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وقد عثر الأثريون على أسماء ستة وعشرين ملكًا فى خرائب كارنا (معين) ، ويتضح أنهم قاموا ببناء عدة قصور تشبه الحصون ، دعى الواحد منها محفدًا ، ويعرف صاحب السحفد بلقب ذو والجمع أذواء وكان يطلق اسم مخلاف على مجموعة محافد ، يلحق بها قرى وضياع ، ويعرف صاحب المخلاف بقَيْل والجمع أقيال .

كذلك عثر الأثريون على أسماء عدد من الآلهة ، مثل عثتر (أو عثتار) ، ويرمز إلى الزهرة ، ووُد الذى استمر معبودًا عند العرب دهرًا طويلاً ، ويرمز إلى القمر .

اهتم المعينيون بالتجارة ، ووصل نشاطهم فى هذا المجال إلى بحر فارس وأطراف الشام ، حيث أنشئوا مستوطنات فى معان والعلا ، وقد عثر

على كتابات معينية فى الجيزة بمصـر وأور بـالعراق وجزيـرة ديلـوس باليونـان ، كما عثر على نقود معينية مكتوب عليها بالخط المسند .

(ب) ســبأ :

فى أواخر عصر مملكة معين ، ظهرت ممالك أخرى يمنية ، هى قتبان وحضر موت وسبأ ، ونقصر كلامنا هنا على هذه المملكة الأخيرة .

تقع سبأ بين معين فـى الشـمال وقتبـان فـى الجنـوب ، وينقسـم العصـر السبئ إلى قسمين ، تبعًا للألقاب التى اتخذها الملـوك ، ففـى القسـم الأول ٩٥٠ – ٦٥٠ ق. م. كان لقب الملك مكرب سبأ ، وهو لقـب تغلـب عليـه الصفـة الدينيـة ، ووصلت إلينا أسماء سبعة عشر ملكًا بهذا اللقب ، وإلى هذا العهد تنتمى ملكـة سبأ التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم .

يبدأ العصر السبئ الثانى فى سنة ٦٥٠ ق. م. مع ولاية كرب إيل وتـر الذى تخلى عن لقب مكرب سبأ ، واتخذ لقب ملك سبأ ، ونقـل العاصمـة مـن صرواح إلى مارب Mariaba ، وقد خلف لنا هذا الملك نقشًا ، عثر عليـه فـى صرواح ، سجل به أهم أعماله ويشير إلى الحروب التى خرج منها منتصرًا .

ورث السبئيون عن المعينيين آلهتهم ومنها عثتار ، لكن كان لهـم الههـم الخاص بهم وهو ألمقة ومعبده بمأرب ، وقد عثرنا على بقايا هذا المعبد .

ورث السبئيــون أيضًـا نشـــاط المعينييـن التجـارى ، فكـان لهـــم أسطولهم الذى يجوب البحـر الأحمر ، كمـا كـانت لهم قوافلهـم التـى تختـرق الصحراء إلى الشام وإلى العراق . ويتضح مـن المصـادر القديمـة – مصريـة ويونانية – أنه كانت تقيم فى مصر جماعة سبئية فـى عهـد الملـك بطلميـوس الثانى تشرف على تزويد المعابد المصرية بالبخور .

على أن السبئيين تفوقوا فى مجال آخر ، وهو بنـاء السدود ، مثـل سـد رحاب وسد هباذ وسد حبابض ، وأشهرها جميعًا سد مأرب ، ولعل وجود هذه

السدود ، وما ترتب عليها من نهضة زراعية ، هو السبب فى أن أطلق الجغرافيون اليونانيون على بلاد اليمن تعبير العربية السعيدة Arabia Felix ويتضح مع أطلال السد وأطلال القناطر التى أقيمت على أعمدة ، لتوصيل مياه الشرب إلى المدن ، مقدار ما وصل إليه السبئيون من تفوق فى فن العمارة، ومعرفتهم التامة بنظام الرى .

تنتهى مملكة سبأ فى سنة ١١٥ ق.م. وأهم سبب فى هذه النهاية هو تصدع سد مأرب ، بسبب سيل العرم ، فحل الخراب بالمملكة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة فى سورة سبأ (١٥ - ١٨) كما إن تصدع السد كان السبب فى هجرة العديد من القبائل اليمنية إلى بلاد الشام والعراق وغيرها من الأنحاء .

(جـ) حمـــير :

وآخر ممالك اليمن الكبيرة هى مملكة حمير المعروفة عند اليونانيين باسم Homeritae وقد نشأت فى ظفار فى سنة ١١٥ ق. م. على يدى شمرذوريدان ، وعندما استولى أحد ملوكها على مأرب صار يحمل لقب ملك سبأ وذوريدان .

فى عهد الدولة الحميرية الأولى طمع الرومان فى الاستيلاء على اليمن، من أجل السيطرة على طريق التجارة إلى المشرق ، فقاد أيليوس جاللوس Aelius Gallus والى مصر من قبل الأمبراطور أوغسطس Augustus حملة فى سنة ٢٤ ق. م. أعانه فيها عبادة الثانى Obadas ملك الأنباط . وقد سلكت هذه الحملة الطريق البرى عبر الحجاز ، فوصلت إلى مأرب ، وخلال الطريق تعرض الجنود لأمراض وأوبئة ، اضطر جاللوس معها للعودة إلى مصر ، بعد أن فقد معظم رجاله ، ولم يجد الرومان بدًا من أن ينشئوا علاقات طيبة مع ملوك اليمن .

فى سنة ٣٠٠م . بدأ الملك شمريهرعش الدولة الحميرية الثانية ، فأعاد تنظيم حكومته ، وأصدر قوانين خاصة بالبيع والشراء ، تفيدنا فى معرفة تطور التشريع عند العرب ، وقد استطاع هذه الملك أن يمتد بحدود دولته إلى عسير وتهامة ، حيث كان يوجد للأحباش بعض المواقع هناك ، كما شملت أيضًا عُمان ، واتخذ لقب " ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت " . وتزعم الروايات العربية أنه غزا العراق وفارس وخراسان ، وعبر نهر جيحون ، وابتنى مدينة سمرقند .

ولما اعتلى أب كرب أسعد الملك فى أوائل القرن الخامس ، جعل لقبه " ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها فى الجبال والتهائم " ، ومعنى هذا أن نفوذ الدولة الحميرية امتد إلى أنحاء أخرى فى الجزيرة العربية ، وربما كان منها نجد . وتنسب الأساطير إلى هذا الملك أنه غزا بدوره فارس وآذربيجان والصين ، وحاصرت جيوشه روما ، وأدت القسطنطينية الجزية له .

وآخر ملوك حمير هو زرعة ذونواس المعروف عند اليونانيين باسم Dunuas ، وقد تهود – فيما يقال – وطارد النصارى ، خصوصًا نصارى نجران، الذين حفرلهم أخدودًا فى الأرض ملأه حطبًا ووقودًا ، وصار يرميهم مقيدين إليه ، وورد ذكر هذه الواقعة فى القرآن الكريم (سورة البروج) .

انتهز الأحباش – وهم نصارى – هذه الفرصة ، من أجل أن يسيطروا على اليمن ، وكانت قد دبت فتنة بين قبائلها ، فأنفذوا فى سنة ٥٢٥ جيشًا بقيادة أرياط ، استطاع أن يهزم ذونواس ويقتله .

لم تدم الحال طويلاً بأرياط ، فقد خلعه أبرهه ، وجلس مكانه ، واتخذ لنفسه لقب الملك ، وسعى إلى نشر النصرانية فى بلاد العرب ، فابتنى كنائس أشهرها القليس فى صنعاء ، وكان يهدف إلى أن يصرف العرب عن البيت العتيق بمكة ولما وجد العرب لا يقبلون على كنيسته ، اعتزم هدم الكعبة ،

فسار فى سنة ٥٧٠ بجيش كبير ، جعل الفيلة فى مقدمته ، لكن مسعاه خاب ، كما توضح سورة الفيل ، وفنى جيشه سوى قليل عادوا بخبر الكارثة إلى اليمن .

بعد وفاة أبرهة خلفه ولداه يكسوم ثم مسروق ، وفى عهد هذا الأخير ، قامت حركة مقاومة وطنية ، تزعمها سيف بن ذى يزن ، الذى استعان بالفرس فىعهد كسرى أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٨م) واستطاع العرب والفرس معًا هزيمة الأحباش وقتل مسروق ، ودخل وَهْرَز قائد الفرس إلى صنعاء ، وصارت اليمن ولاية فارسية ، تؤدى أموالا لكسرى .

تعاقب على حكم اليمن أبناء وهرز ، وآخرهم باذان الذى استجاب فيما بعد لداعى الإسلام وأسلم .

ثانيًا : ممالك الشام والعراق :

درجت القبائل العربية على الهجرة إلى الأراضى الخصبة بالشام والعراق ، وازدادت هذه الهجرة بعد حادثة سيل العرم ، ونتج عنها قيام دول عربية فى هذه الأنحاء ، تحالفت مع القوى الكبيرة المعاصرة لها .

(أ) الأنبــاط :

ينتمى الأنباط إلى العرب ، وإن تأثروا بالآراميين - سكان سورية القدماء - فاتخذوا لغتهم ، وتحضروا وما رسوا حياة بعيدة عن التبدى .

قامت مملكة الأنباط فى القرن السادس قبل الميلاد ، وامتد نفوذها إلى أنحاء متفرقة فى سورية وفلسطين ، وجعلت عاصمتها البتراء (أو بطرة) petraea أى الصخرة جنوبى البحر الميت ، وعرفت فى المصادر العربية بالرّقيم .

يعد الحارث الثالث Aretas ٨٧ – ٦٢ ق. م. أشهر ملوك الأنباط ، وقد اتسعت حدود دولته على حساب السلوقيين فى سورية واليهود فى فلسطين ، واستولى على دمشق ، وعنى بالثقافة اليونانية ، وصار يعرف بمحب اليونانيين Philhellene .

على أن امتداد السيطرة الرومانية إلى بلاد الشام ، دفع الأنباط إلى أن يرتبطوا مع الرومان بحلف ، وشاركوا فى حملة أيليوس جاللوس وإلى مصر إلى اليمن ، كما شاركوا فى حملات الرومان ضد اليهود فى فلسطين .

وآخر ملوك الأنباط هو مالك الثالث Malichus (١٠١ – ١٠٦م) وفى عهده قضى الامبراطور تراجان Trajanus (٩٨ – ١١٧م) على هذه المملكة وأدمجت فيما بعد فى الكورة العربية Provincia Arabia التى أسسها الرومان ، لتحمى سورية من هجمات البدو ، وجعلوا عاصمتها بصرى Bostra التى ورثت البتراء .

استغل الأنباط موقع بلادهم على طريق القوافل بين اليمن والشام ومصر ، فمهروا فى التجارة ، وصارت لميناء غزة أهمية كبيرة فى عصرهم ، واستمروا يزاولون تجارتهم بعد زوال دولتهم ، على ان معظمهم لم يلبثوا أن اندمجوا فى غيرهم من العرب ومن سكان بلاد الشام .

ويعود إلى الأنباط الفضل فى تطور الخط العربى عن الخط الآرامى عبر الخط النبطى ، وهو خط قريب من الخط الكوفى القديم ، وتبقى من العمارة النبطية مبان على الطراز الهلنستى ، كما تبقت أوان خزفية ذات مستوى فنى عال .

(ب) تَدْمُر :

تقع تدمر قرب حمص ، فى منتصف الطريق بين دمشق والفرات ، وعرفت فى الكتابات اليونانية باسم بالميرا Palmyra ، لوفرة ما بها من نخيل .

ينتمى التدمريون شأنهم شأن الأنباط إلى العرب ، وتأثروا مثلهم بالآراميين ، فاتخذوا لغتهم ، وإن احتفظت هذه اللغة ببعض الخصائص العربية ، بل إن بعض أصنامهم ذات أسماء عربية .

ومع ما لتدمر من تاريخ قديم ، يعود به البعض إلى سليمان بن داود عليهما السلام ، إلا أنها لم تحظ بنصيب من الشهرة إلا فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، حين أدخلها تراجان فى الكورة العربية ، وفى سنة ١٣٠م منح هادريان Hadrianus (١١٧ - ١٣٨م) أهلها حقوق المواطنة الرومانية ، وصار منهم جنود مشهورون فى جيوش الدولة .

انتهز التدمريون فرصة انشغال الرومان بالغزوات الجرمانية والحروب الفارسية ، فسعوا إلى الاستقلال عن الامبراطورية واستطاع أذينة الذى عرف عند الرومان بأوديناثوس Odynathus فى سنة ٢٥٠ أن يصير ملكًا على تدمر ، كما استطاع ولده الذى عرف بأذينة الثانى هزيمة شابور ملك الفرس هزيمة كبيرة ، وحاصر عاصمته المدائن فى سنة ٢٦٢ ، وكافأه الرومان فمنحوه لقب أوغسطس وهو لقب لا يحمله سوى الامبراطور .

بعد وفاة أذينة خلفه ولده وهب اللات Vaballathus ، بوصاية أمه زنوبيا التى عرفت عند الإخباريين العرب باسم الزباء . وقد ادعت زنوبيا الانتساب إلى كليوباترة ، وطمحت إلى ضم مصر إلى حوزتها ، عندما نشبت فيها ثورة ضد الرومان ، ونجحت فى اقتحامها ، واستولت على الإسكندرية ، كما بسطت نفوذها على آسيا الصغرى .

وفى سنة ٢٧١ بدأ الرومان حربهم ضد زنوبيا ، ودخل الامبراطور أوريليان Aurelianus (٢٧٠ - ٢٨٦م) تدمر بعد سنتين ، وحمل الملكة أسيرة إلى روما .

لعبت تدمر دورًا كبيرًا فى تجارة المرور بين العراق والشام ، خصوصًا بعد أن أفل نجم البتراء ، وأصابت من ذلك أموالاً طائلة ، ظهر أثرها فى الهياكل والقصور والأعمدة الضخمة وأقواس النصر والقنوات المحفورة فى باطن الأرض ، كما إن ما خلفه أهل تدمر من تماثيل لرجال ونساء كانت مثار إعجاب المسلمين فيما بعد .

لم يلبث أن أصاب التدهور تدمر ، وأضحت مدينة ثغرية صغيرة فى حظ دفاعات الدولة ضد البدو والفرس ، ثم صارت فيما بعد فى ملك الغساسنة الذين كانوا يقيمون فيها أحيانًا ، إلى أن فتحها المسلمون فى سنة ٦٣٤ .

(جـ) الحيرة :

تقع الحيرة قرب الكوفة الحالية ، وقد وفدت إليها بعد تصدع سد مأرب قبائل عربية دعيت بتنوخ ، ثم وفدت إليها قبيلة لخم اليمنية ، وأنشأت فى سنة ٢٦٨م مملكة أو إمارة ، كان أول ملوكها أو أمرائها عمرو بن عدى الذى يرتبط إسمه بالزباء فى الأسطورة المعروفة .

ولما كانت مملكة الحيرة تقع على أطراف العراق ، فقد نشأت علاقة خاصة بينها وبين دولة الفرس ، فدانت لها بالطاعة ، على أن تعينها ضد الروم وضد حلفائهم من عرب الشام .

فى عهد امرئ القيس بن عمرو بن عدى (٢٨٨ - ٣٢٨) بلغت مملكة الحيرة أقصى اتساعها ، ويعد هذا الملك أول من تنصر من ملوك الحيرة ، وهو صاحب نقش النمارة الشهير قرب جبل الدروز ، أول وثيقة عربية كتبت بخط عربى .

وينسب إلى النعمان بن امرئ القيس (٣٩٠ - ٤١٨) قصرا الخورنق والسدير ، وقد ارتبط القصران معًا فى التراث العربى ، وعنى هذا الملك بجيشه الذى ضم كتيبتين من الخيالة هما الدوسر ، ورجالها من تنوخ ،

والشـــهباء ورجالهـا من الفرس وبلـغ من مكانة النعمـــان أن يزجـرد الأول (ت ٤٢٠) أرسل إليه ولده وولى عهده بهرام جورليتربى فى كنفه .

فى عهد المنذر الثالث المعروف بـابن مـاء السماء (٥١٢ – ٥٥٤) حاربت الحيرة مع فارس ضد الروم ، وتوغل المنـذر فـى بـلاد الشام ، حتـى وصل إلى أنطاكية ، واضطر الامبراطورية جستنيان Justinianus (٥٢٧ – ٥٦٥) إلى طلب المساعدة من الحارث بن جَـبَلة ملـك غسـان ، ودارت بيـن الملكين معركة فى مرج حليمة قرب قنسرين ، انتهت إلى هزيمة المنذر وقتله ويعد يوم حليمة من أيام العرب المعدودة .

على أن أشهر ملوك الحيرة هـو النعمـان بـن المنـذر (٥٨٣ – ٦٠٥) ممدوح النابغة الذبيانى وفيه يقول :

كأنك شمس والنجـوم كواكب إذا طلـعت لم يبدمنهـا كوكب

وقـد غضـب كسـرى أبرويـز (٥٩٠ – ٦٢٨) علـى النعمـــان ، لأنــه رفض مصاهرته ، فاستدعاه إلى بلاطه وحبسه إلـى أن مـات ، وجعـل مكانـه إياس بن قبيصة الطائى (٦٠٥ – ٦١٤) .

كان النعمان قبل أن يتوجه إلى كسرى قد استودع أهله وماله عنـد بنـى شيبان فى ذى قار ، فطالب إياس بن قبيصة هانئ بن مسعود سيد بنــى شـيبان بما استودعه النعمان فامتنع ، مما أغضب كسرى ، ودارت حرب بين العـرب والفرس انتهت إلى هزيمة الفرس فى ذى قار فـى سـنة ٦١٠ . وعندمـا سـمع النبى ﷺ بخبر هذه المعركة قال : هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجـم وبى انتصروا " .

عاد الملك مـرة أخـرى إلـى البيـت اللخمـى ، فولـى الحيرة المنـذر بـن النعمان بن المنذر ، الذى عرف بالمنذر المغرور ، إلى أن دخلت الحيرة فـى فتوح خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ .

كان عرب الحيرة ينقسمون إلى ثلاث طبقات ؛ تنوخ وهم بدوها ، والعباد وهم حضرها ، والأحلاف وقد أتوا إلى الحيرة فى وقت لاحق . وكانت النصرانية على المذهب النسطورى هى الديانة السائدة بين الجميع ، وإن وجد بينهم وثنيون يتعبدون لأصنام ، كما وجد بينهم مجوس يعبدون النار .

ازدهرت الحياة العلمية بالحيرة ، وتطور الخط العربى ، وكان الملوك يستقدمون الشعراء ويجزلون عطاءهم ، فقدم إليهم الكثيرون ، وكان النعمان يجتمع بهم فى قصره الخورنق ويقيم لهم مهرجاناً كبيراً . كما تقدم الطب ، وكثير من الأطباء فى العصر الإسلامى يرجعون فى أصولهم إلى نصارى الحيرة .

كذلك ازدهرت حركة البناء ، فإلى جانب الخورنق والسدير وغيرهما من القصور ، ابتنيت كنائس عديدة وأديرة ، منها دير عبد المسيح ودير الجماجم ودير هند ، نسبة إلى هند بنت النعمان بن المنذر ، وكانت قد ترهبت وعاشت حتى أدركت الإسلام ، وأبت أن تدخل فيه ، وبقى الدير معروفاً لمدة طويلة فى العصور الإسلامية .

(د) غســـان :

يعود الغساسنة فى أصلهم إلى الأزد ، فقد استقر بعض بطونهم لدى ماءفى تهامة يدعى غسان فنسبوا إليه ، كما دعوا أيضاً بآل جفنة ، نسبة إلى أحد أجداهم ، وهو جفنة بن عمرو مُزَيْقِياء .

أقام الغساسنة مملكة فى حوران قرب جبل الدروز ، وجعلوا بُصرى عاصمة لهم ، على أن حدود مملكتهم كانت تمتد فى أحيان إلى دمشق التى دعوها جِلَّق ، كما كانت تمتد فى أحيان أخرى إلى أجزاء من فلسطين .

تحالف الغساسنة مع الروم فى حروبهم ضد الفرس والحيرة ، ويعد الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩) أعظم ملوكهم ، ولحسن بلائه فى الحرب

أنعم عليه الأمبراطور جستنيان بلقب Phylarcus أى شيخ القبائل ، ولقب بطريق Patricius ، وهو أكبر لقب رومانى بعد لقب الإمبراطور .

زار الحارث القسطنطينية في سنة ٥٦٣ ، ولقى حفاوة واسعة بها ، وسعى لدى الإمبراطورة تيودورا Theodora من أجل تعيين يعقوب البرادعى مؤسس الكنيسة السورية أسقفاً ، مما كان له أبلغ الأثر فى نشر المذهب اليعقوبى فى بلاد الشام ، كما إنه سعى إلى التقريب بين هذا المذهب والمذهب الملكانى .. مذهب الدولة .

واصل المنذر بن الحارث سياسة أبيه فى مناهضة الفرس فحظى لدى الإمبراطور تيبريوس الثانى Tiberius (٥٧٨ - ٥٨٢) الذى استقبله استقبالاً حافلاً بالقسطنطينية ، ودعاه بملك العرب على أن العلاقات بين الاثنين لم تلبث أن توترت بسبب الاختلاف المذهبى ، وبسبب تراخى المنذر فى الحرب ضد الفرس ، فأمر الإمبراطور بنفيه فى سنة ٥٨٢ إلى صقلية حيث مات فى العام نفسه .

تصدع ملك الغساسنة بعد وفاة المنذر ، وقطع الروم معونتهم المالية عنهم ، مما يسر مهمة كسرى أبرويز فى هجومه على الشام واستيلائه على بيت المقدس ودمشق فى سنة ٦١٣ - ٦١٤ .

بيد أن الغساسنة عادوا مرة أخرى إلى مسرح الأحداث ، بعد رجحان كفة الروم على الفرس ، وكان أحدهم وهو الحارث بن ابى شمر الغسانى أمير مؤتة هو الذى قتل رسول محمد ﷺ إلى الغساسنة .

وآخر ملوك غسان هو جبلة بن الأيهم ، ارتحل إلى المدينة المنورة بعد معركة اليرموك فى سنة ١٥ هـ / ٦٣٦م والتقى بالخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واسلم ، لكنه عاد وارتد إلى النصرانية ، والتحق بأرض الروم ، ونسجت حوله فيما بعد أساطير نتلمسها فى المأثور الشعبى العربى .

ينسب إلى الغساسنة اهتمامهم بالزراعة ، فأفادوا من مياه حوران فى تعمير العديد من القرى والضياع ، كما أقاموا أبنية كبيرة مثل قصر المشتى الذى يعود إلى القرن الخامس ، وقلعة القسطل المجاورة ، وهى من آثار جبلة ابن الحارث ويستدل من هذه الأبنية على تأثر الغساسنة بالعمارة الساسانية ، أكثر من تأثرهم بالعمارة البيزنطية .

وفى شعر حسان بن ثابت – وهو من المخضرمين – ما يلقى ضوءاً على حضارة الغساسنة، وكان دائب الترحال إليهم ، ومدائحه فيهم كثيرة ومن شعره :

لله دَرُّ عصـــابة نادمتهـــم   يوماً بجلق فى الزمـان الأول

٣ – مدن الحجاز :

(أ) مكة :

تقع مكة على طريق التجارة بين اليمن والشام فى واد غير ذى زرع ، يتفرع من جبال السراة ، ودعيت أيضاً ببكة ، ودعاها بطليموس فى جغرافيته باسم Macoraba ، وربما كان لهذا الإسم صلة بالكلمة السبئية مكرب ومعناها كاهن .

تمتد مكة فى تاريخها إلى فترة سحيقة ، فقد وفد إليها إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام ، وتزوج إسماعيل فى قبيلة جرهم التى استقرت بمكة ، إلى أن نازعتها السيطرة قبيلة خزاعة اليمنية ، وأزالتها عن البيت العتيق ، وظلت خزاعة فى مكة إلى زمن قصى بن كلاب .

تنازع قصى مع خزاعة ، وانضمت كنانة إلى قريش فى هذا النزاع الذى انتهى بطرد خزاعة من مكة ، وجمع قصى بطون قبيلته من تهامة ، وأنزل بعضهم بالأبطح ، وهو وادى مكة فدعوا بقريش البطاح ، وأنزل بعضهم الآخر بظاهرها ، فدعوا بقريش الظواهر .

وعاشت خارج مكة جماعة دعيت بالأحابيش ، وقد اختلف الرأى بشأنهم ، ويذهب البعض إلى أصلهم الإفريقى ، أو ربما هم أخلاط من العرب والأحباش ، أو تجمع من أخلاط قبلية .

بنى قصى دارا ملاصقة للبيت الحرام ، دعيت بدار الندوة ، يجتمع فيها شيوخ القبيلة للتداول فى شئونها ، كما قام بترميم الكعبة ، وجعل لها سقفا من الخشب وجريد النخل ، وعين لخدمة البيت وظائف ، منها الحجابة والسدانة والسقاية والرفادة ، أى إطعام الحجيج واحتفظ لنفسه بمفاتيح الكعبة ، وجلب الأصنام إليها ، وحفر الآبار لخدمة الوافدين ، وفرض على أبناء قبيلة خراجاً لإطعامهم .

لما مات قصى قام بالأمر بعده ولده عبد الدار إلى أن مات ، فدب النزاع بين بنى عبد الدار بن قصى وبنى عبد مناف بن قصى ، وأيدت كل طرف بعض بطون قريش ، فشكل بنو عبد الدار ومن والاهم حلف الأحلاف، وشكل بنو عبد مناف ومن والاهم حلف المطيبين .

ثم الصلح بين الطرفين على أن يلى بنو عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة ، وبنو عبد الدار الحجابة واللواء ودار الندوة ، وقد بقيت الحجابة فى بنى عبد الدار إلى اليوم . وقسم بنو عبد مناف المناصب بينهم ، فولى هاشم وبنوه من بعده السقاية والرفادة ، وولى عبد شمس وبنوه من بعده القيادة .

عندما ولى عبد المطلب مهام ابيه هاشم ، أعاد حفر بئر زمزم ، وهى مأثرة كبيرة تحفظ له ، لأن اهل مكة كانوا يأتون بالماء من خارجها ، واشتهر بموقفه الشجاع ، وهو بمجلس أبرهة ، حين أتى إلى مكة غازياً . وعند وفاته ولى ولده العباس مكانه ، حتى دخول الرسول ﷺ مكة فاتحاً .

إلى جانب خدمة الحجيج سعت قريش إلى توفير الحماية لهم وللقوافل التجارية ، وعقدت الأحلاف من أجل إقرار الأمن ، مثل حلف الفضول الذى

تم الاتفاق فيه على ألا يقع بمكة ظلم على أحد من أهلها ، أو من الوافدين عليها .

أسفر الاستقرار الواقع بمكة عن ازدهار للحركة التجارية ، فكانت عير قريش تحمل من عمان واليمن الطيب والبخور والمنسوجات الحريرية والجلود والأسلحة والمعادن النفيسة ، وتحمل من الشام القمح والخشب والمصنوعات وزيت الزيتون ، ومن مصر المنسوجات المعروفة بالقباطى ، وكانت السفن ترد من مصر وغيرها إلى الشعيبة ميناء مكة قبل جدة .

أثرت قريش من التجارة ثراءً عظيماً ، يوضحه أن عبد الله بن جدعان أسهم فى حرب الفجار بتجهيز مائة رجل من قريش بالعتاد الكامل ، كما إن أبا أحيحة أسهم بثلاثين ألف دينار فى رأسمال القافلة التى ولى قيادتها أبو سفيان بن حرب قبيل غزوة بدر .

(ب) يثرب :

تقع يثرب على بعد ثلاثمائة إلى الشمال من مكة فى منطقة خصبة ، تكثر بها العيون والآبار ، فضلاً عن طيب جوها ، وتعد من المدن القديمة ، ورد ذكرها فى النصوص البابلية ، كما ورد ذكرها عند بطلميوس فى جغرافية باسم Jathrippa .

وتاريخ يثرب القديم يلفه الغموض ، فيقال إن العماليق هم سكانها الأوائل ، إلى أن توافد عدد من اليهود فى نهاية القرن الأول الميلادى .

كانت أهم القبائل اليهودية فى يثرب ، بنو قينقاع ، بنو النضير ، بنو قريظة.

اختص اليهود بأطيب مواقع يثرب مستقراً لهم ، وابتنوا بها الحصون ، وأقاموا أحلافاً مع بعض القبائل العربية المجاورة لهم ، كما اتخذوا أسماء عربية ، وتحدثوا بلغة عربية مشوبة برطانة عبرية ، وظهر بينهم فى فترة متأخرة عدد من الشعراء .

مارس اليهود فى يثرب الزراعة والصياغة والحدادة والنجارة والتجارة ، وبخاصة تجارة الحبوب ، كما مارسوا الصيرفة والربا الفاحش ، ويذكر أن النبى ﷺ رهن درعاً له بالمدينة عند يهودى ، لحاجته إلى شعير أخذه لأهله .

فى مرحلة تالية هاجرت قبيلتان من الأزد ، هما الأوس والخزرج ، إلى يثرب حيث عاشتا عيشة صعبة ، لأن اليهود اختصوا أنفسهم بأحسن المواقع فى المدينة ، فاستنصرت القبيلتان بأقربائهما من الغساسنة ، فنصروهما على اليهود ، واتخذ العرب لأنفسهم ما شاءوا من يثرب مقاما لهم .

حدثت نزاعات بين الأوس والخزرج ، كان النصر فى معظمها للخزرج ، فسعت الأوس إلى طلب حلف قريش ، فلما لم تجد آذاناً صاغية ، اتجهت للتحالف مع اليهود ، وبذا رجحت كفتها يوم بعاث ، وإن لم تمض فى النصر إلى نهايته ، خوفاً من أن ينقلب اليهود عليها ، وانتهى الأمر بالصلح ، وفى أعقابه جرت هجرة الرسول من مكة إلى يثرب .

نتيجة لهذه النزاعات ، لم تتهيأ ليثرب حكومة مستقرة ، مثلما هى الحال فى مكة ، وحاول أهلها حل المشكلة على قاعدة أن يلى الأوس سنة والخزرج سنة أخرى ، لكنهم لم يتفقوا حتى مقدم النبى ﷺ .

اشتهرت يثرب قبل الإسلام بالخصب ، وكانت أهم زراعاتها النخيل والشعير والقمح والكروم والفواكه ، كما نشطت التجارة بها ، وحقق أثرياؤها ثروتهم منها ، وكانت التجارة ترد إلى يثرب من الشام واليمن والحبشة ومصر ، كما قامت بها صناعات ناشطة ، وبخاصة الأسلحة والدروع ، ومهر فيها اليهود ، وقد غنم المسلمون عدداً جماً منها ، لدى ظفرهم بهم واجلائهم عن المدينة .

(جـ) الطائف :

تقع الطائف شرقى مكة على جبل غَزْوان من جبال السراة ، ويقترن اسمها فى العادة بمكة ، حتى كانتا تسميان معاً بالقريتين ، على أنها فى الزمن القديم كانت تدعى بوج ، نسبة إلى أحد العماليق ، وهم - فيما يروى - سكانها الأوائل ، إلى أن هاجر إليها قوم من هوازن دعوا بثقيف ، وأقاموا حولها سوراً يطيف بها ، لذا دعيت بالطائف ، وفى ذلك يقول الشاعر :

منعنا أرضنا من كل حى ‏ ‏ ‏ ‏ كما امتنعت بطائفها ثقيف

كانت ثقيف تتألف من بطنين كبيرين هما الأحلاف وبنو مالك ، ودارت بين الفريقين حروب ، سعى الأحلاف خلالها إلى طلب معونة الأوس بيثرب ، ثم هدأت الحال إلى أن دخلت المدينة فى حوزة الإسلام .

كان أمر الطائف فى أيدى ملأ من أهلها ، يديرون شئونها ، ولم يصل إلينا أنهم اختاروا حاكماً ، إنما كان لكل بطن من بطون القبيلة رئيس .

اشتهرت الطائف بطيب جوها ، مما حدا ببعض أهل مكة - ومنهم العباس بن عبد المطلب - لأن يتخذوا لأنفسهم بيوتا بها ، كما اشتهرت أيضاً بخصب أرضها . وتنوع ثمرها وبخاصة الحنطة ، التى كانت تعتمد عليها حواضر الحجاز ومنها مكة ، وكذلك التمور والكروم .

إلى جانب الزراعة كان أهل الطائف يقومون بالصيد وتربية النحل والتجارة ، ومارسوا بعض الحرف التى يأنف منها العربى ، مثل الدباغة والنجارة والحدادة .

كانت الطائف تلى مكة من الناحية الدينية ، فكان بها بيت تعظمه العرب ، كما تعظم البيت العتيق ، هو بيت اللات ، وقد هدمه المغيرة بن شعبه ، عندما أرسله النبى ﷺ إلى الطائف ، بعد هزيمة ثقيف فى غزوة حنين .

الفصل الثانى

الرســالة(*)

١ - الرسول فى مكة :

(أ) من الميلاد إلى البعثة :

ولد محمد ﷺ فى مكة فى عالم الفيل (حوالى سنة ٥٧٠م) وهو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، توفى أبوه وهو حمل فى بطن أمه ، وتوفيت أمه ، وهو فى السادسة من عمره ، فكفله جده عبد المطلب ، إلى أن مات فكفله عمه أبو طالب .

نشأ محمد يتيمًا فقيرًا ، اشتغل برعى الغنم ، ثم التجارة مع عمه أبى طالب ، الذى خرج به إلى الشام ، والتقى هناك ببحيرا الراهب فى مدينة بصرى من بلاد الغساسنة ، وقد لمح الراهب فى محمد علامات النبوة ، وحذر أبا طالب من شر اليهود .

فى الخامسة والعشرين تزوج محمد بالسيدة خديجة بنت خويلد ، وكانت ذات يسار خرج ذات مرة بتجارة لها إلى بلاد الشام ، وأعجبت به لماراعها منه من أمانة وصدق .

عاش محمد صباه وشبابه حاله حال غيره من أهل جيله ، يمارس المهنة التى برع فيها أسلافه ، وهى التجارة إلى الشام وإلى اليمن ، ويشارك فى الحياة السياسية ، بالمفهوم السائد فى ذلك الوقت ، فشارك فى حرب الفجار التى اندلعت بين قريش وهوازن قرب الحرم ، ودامت هذه الحرب أربع سنوات متصلة .

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل اعتمادًا فائقًا على أستاذنا الفاضل الراحل محمد جمال الدين سرور فى كتابه " قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد ﷺ "

على أن الله تعالى عصم نبيه الكريم من موبقات سادت فى عصره ، وفى الوقت نفسه حظى باحترام قومه وتقديرهم ، فلقبوه بالصادق الأمين .

اهتدى محمد قبل البعثة بسنوات إلى ما اهتدى إليه غيره من الحنفاء ، فكان يخلو إلى نفسه بغار حراء شرقى مكة ، يقيم به ليال ، يتفكر فى هذا الكون وفى إله واحد لا شريك له .

فى سن الأربعين ، وبينما محمد فى الغار ، ظهر له جبريل وقال له : إقرأ . قال : ما أنا بقارئ ؟ فضم ضمه قوية ثم أطلقه وقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ ، فضمه ثانية ثم قال : ﴿ إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾(١) فكانت هذه الآيات أول من أنزل من القرآن الكريم .

كان ما حدث فى غار حراء مفاجأة لمحمد ، لم يكن يتوقعها ، فهرع إلى زوجه خديجة ، التى هدأت من روعه ، وعاود الذهاب إلى الغار . وذات يوم ظهر له الملك وأوحى إليه : ﴿ يأيها المدثّر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر ﴾(٢) .

كانت هذه الآيات الكريمة بداية الدعوة إلى الإسلام ، وقد استمرت سرية ثلاث سنوات ، وبطبيعة الحال كان المسلمون الأوائل من أقرب الأقرباء وأصدق الأصدقاء ، كخديجة زوج النبى ، وعلى ابن عمه ، وزيد بن حارثة مولاه ، وأبى بكر صديقه الأثير ، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة عامر بن الجراح .

اعتنق الإسلام إلى جانب هؤلاء نفر من قريش الظواهر ، وهم البطون المستضعفة من القبيلة ، كما اعتنقه عدد من الموالى ، مثل صهيب الرومى مولى عبد الله بن جُدَعان .

---

(١) سورة العلق : آية ١ – ٥

(٢) سورة المدثر : آية ١ – ٧

(ب) الجهر بالدعوة وموقف قريش منها :

بعد ثلاث سنوات من البعثة أنزل الله تعالى على محمد : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾(١) .

صدع رسول الله لأمر ربه ، وصعد إلى جبل الصفا ، ونادى فى قبائل قريش : " إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبًا ، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله " .

فقال له عمه أبو لهب : " تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ " فأنزل الله تعالى بشأنه وزوجه : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ما له وما كسب ، سيصلى نارًا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾(٢) .

كان رد أبى لهب تعبيرًا طبيعيًا عما كان يجيش فى صدور بنى قومه ، وبخاصة أبناء البيوتات منهم . وكثيرة هى الأسباب التى دفعت القرشيين إلى مناهضة الدعوة ، ولا شك أن من بينها إنهم اعتادوا أسلوبًا فى الحياة وفى ممارسة عقائدهم ، ورثوه عن آبائهم ويطمئنون إليه ، ولم يكونوا ليشغلوا أنفسهم بجديد مجهول بالنسبة لهم ، خاصة وأن هذا الجديد دعوة فيها قدر من التأمل فى الكون وخالقه ، وإلى توحيد ما تزال أذهانهم قاصرة عن استكناهه ، فالإكتفاء فى مجال العقيدة بوثن يقدمون له القرابين ، ويتوجهون نحوه بالعبادة أحيانًا أمرهين يسير ، لا يكلفهم الكثير ، وهو أيسر من التوجه بالعبادة إلى رب واحد ، لا يشاهدونه وليست له صفات مادية يلمسونها .

---

(١) الشعراء : ٢١٤ – ٢١٦

(٢) المسد : ١ – ٥

كذلك فإن القرشيين بحكم ما وصل إليهم من أخبار عن اليهود الذين جاوروهم بيثرب ، كان من الصعب لديهم التصديق بنبى عربى ، لأن النبوة ارتبطت فى أذهانهم بأقوام غيرهم .

ثم إن هناك من الأسباب المادية ، وما كان لها تأثيرها الوافر ، فالكعبة كانت مقصدًا للعرب يحجون إليها ، وقد انبثت داخلها وحواليها تماثيلهم وأصنامهم . وكان مقدم هؤلاء العرب للحج مغنمًا اقتصاديًا هائلاً ، وظنوا فى الدعوة الجديدة ضياعًا لهذه المكاسب ، ومما أكد ذلك عندهم ، توجه الرسول فيما بعد بالصلاة إلى بيت المقدس .

زاد من معارضه قريش ما اتضح فى هذا الدين الجديد من جانب اجتماعى ، وهو دخول عديد من الأرقاء والموالى وأحابيش قريش وظواهرها فى هذه الدعوة التى تجعل المؤمنين بها سواسية ، فخافت قريش ، ما قد يترتب عليها من خلل فى البنيان الاجتماعى الذى درجت عليه قبل ذلك .

ولا يبعد إن من جملة هذه الأسباب أن حسبت قريش فى نبوة محمد تشريفًا لنبى هاشم وتمييزًا لهم عن غيرهم من بطونها ، فتصدت للدعوة من منطلق العصبية .

سعت قريش إلى أن تصرف محمدًا عن الدعوة لهذا الدين ، فمضت إلى عمه أبي طالب عدة مرات ، وضغطت عليه حتى يكف محمدًا عنهم ، ولكنها لم توفق فى مسعاها فسعت إلى أن تغرى محمدًا بأن يملكوه عليهم ، إذا هو عدل عن دعوته ، لكنه أعرض عنهم ، ونفى أن يكون هدفه الملك ، وأنه إنما جاء بشيرًا لهم ونذيرًا مبلغًا لرسالة ربه .

فكرت قريش فى دحض هذه الرسالة ، فذهب بعض رجالها إلى اليهود الذين شاع عند العرب اختصاصهم بالنبوة ، وأخبروهم بحال النبى الذى ظهر بمكة ، فقالوا لهم : " سلوه عن ثلاثة ، فإن أخبركم بهن ، فهو نبى مرسل ،

وإن لم يجب فهو متقول ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول وعن رجل طواف وعن الروح " .

عندما ذهب الكفار بهذه الأسئلة إلى محمد أرتج عليه في بداية الأمر ، لكن الله تعالى أوحى إليه بأن الفتية هم أصحاب الكهف ، والرجل الطواف هو ذو القرنين ، أما الروح فقد نزلت الآية الكريمة : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾(١) .

كانت تلك هى نهاية مساعى قريش مع محمد ﷺ ، ولم يكن ثم بديل للعنف ، ولما كان المسلمون الأول أخلاطاً من قبائل قريش جميعها شريفها وضعيفها ، إلى جانب بعض الموالى والعبيد ، رأت قريش أن تتوجه باضطهادها إلى الفئات المستضعفة التى لن تجد من يحامى عنها ، واتخذ هذا الاضطهاد هيئة التعذيب ، فكان الكفار يضربون المسلم ويجيعونه ويعطشونه ، فى حر الصيف ، بل إن الأمر وصل إلى حد القتل ، فقد قتل ياسر وسمية ، والدا عمار بن ياسر ، واضطر عدد من هؤلاء المسلمين إلى أن يظهر الكفر ، وهو مبطن الإيمان ، وهم الذين عناهم تعالى بقوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾(٢) .

حاول الرسول وصحبه – وبخاصة من اتصف منهم بالثراء – معالجة الموقف بشراء بعض من يعذب من الرقيق ثم اعتاقه ، فاشترى أبو بكر بعضهم ، ومن بينهم بلال بن رباح وهو عبد حبشى كان لأمية بن خلف الجُمحى ، من زعماء الكفار ، وصار فيما بعد أول مؤذن فى الإسلام ، ودعاه الرسول بأول ثمار الحبشة .

---

(١) الإسراء : ٨٥

(٢) النحل : ١٠٦

(جـ) الهجرة إلى الحبشة :

نتيجةً للاضطهاد اذن الرسول لبعض صحبه بالهجرة إلى الحبشة ، وقال فى هذا الشأن : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه " .

نتساءل لماذا اختار ﷺ الحبشة دار هجرة للمسلمين ، مع أنها كانت نصرانية ، وثمة خشية أن يفتتن بعض المسلمين عن دينهم ، وقد تتصر أحدهم بالفعل !!

يذهب الدكتور هيكل (ت ١٩٥٦م) إلى أن رسول الله بحكم بصيرته وحسن سياسته ، كان يدرك أن الإسلام ما يزال فى صفاء جوهره لم تشبه شائبة ، فى حين أن نصرانية الحبشة أصابتها – كما أصابت نصرانية غيرها من البلدان – شوائب الخلاف والمنازعات الفكرية بين النصارى بعضهم وبعض ، فلم يكن ثم خطورة كبيرة على عقيدة المسلمين .

مهما يكن من أمر، فقد هاجر أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، وكان قد سبقهم عثمان بن عفان وزوجه رقية ابنة الرسول ﷺ ، وحين ترامى إلى هؤلاء أن المسلمين صاروا بمأمن فى مكة ، عاد بعضهم ليتجدد عسف قريش معهم ، فعاودوا الهجرة إلى الحبشة ، صحبة عدد آخر من المسلمين ، وكان جملة المهاجرين هذه المرة ثلاثة وثمانون رجلاً وثمانى عشرة امرأة .

كان لهجرة المسلمين إلى الحبشة أثر حسن فى الدعوة إلى الإسلام ، فقد ذاع بين العرب خبر الدين الجديد الذى آمن به بعضهم ، وتحملوا فى سبيله مشاقاً عدة ، فلم تزدهم إلا صلابةً ، مما دعا قريشاً إلى تدارك الأمر ، فأرسلت سفيرين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعه ، ليلتمسا من النجاشى تسليم هؤلاء إلى ذويهم ، وادعيا أنهم يقولون فى عيسى بن مريم عليه السلام قولاً عظيماً .

بيد أن جعفر بن أبى طالب رد على هذا الإدعـاء ، فتحدث عما كـانت عليه حال العرب قبل محمد ، وما جاء بـه هذا الدين الجديد ، وما ورد فـى القرآن الكريم بشأن عيسى وأمه البتول ، وتلا صدراً من سورة مريم ، حتـى بكى النجاشي وقـال : " إن هـذا والـذى جـاء بـه عيسـى ، ليخـرج مـن مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما " .

ظل المسلمون المهاجرون مقيمين بالحبشة ، حتى تمت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، فعاد معظمهم ، ولحق بهم الباقون فى السنة السابعة للهجرة .

كان فشل السفارة التى أوفدتها قريش إلى الحبشـة مكسباً للدعـوة الجديـدة ، وزاد منه اسلام حمزة بـن عبـد المطلـب عـم الرسـول وأخـوه فـى الرضـاع ، وعمر بن الخطاب من سـادات بنـى عدى ، فقـوى بهمـا المسـلمون ، وصـار بامكانهم أن يقيموا صلواتهم عند الكعبة .

عندما وجدت قريش أن العنف لن يثمر عن نتيجة إيجابية ، وجدت فـى المقاطعة سلاحاً جديداً ، وإن بدا سلبياً بطيئاً إلا أن نتيجته كبيرة ، فكتبوا فيمـا بينهم كتاباً ، تقرر فيه أن يقاطعوا بنـى هاشـم وبنـى المطلـب ، فـلا يتـاجرون معهم ولا يكلمونهم ولا يزوجونهم ولايـتزوجون منهـم ، حتـى يسـلموا محمـداً اليهم كى يقتلوه ، وعلقت صحيفة المقاطعة فى جوف الكعبة .

استمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، لقى خلالها بنـو هاشـم وبنـو المطلب عنتاً كبيراً ، لا يخرجـــون من مأواهم فى شعب مـن شـعاب الجبـــل بظـاهر مكة ، إلا فى الأشهــر الحــرم ، ولايجدون أحياناً وسـيلة إلـى الطعام يدفعـــون بهـا جوعهـــم ، إلـى أن أشـفق عليهـم بعـض القرشـيين ، فنقضـــوا المقاطعـة وشقوا الصحيفة ، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى دورهم التـى غـابوا عنهـا طويلاً .

(د) الهجرة إلى يثرب :

كان رسول الله ﷺ على قناعة بأن النضال بينه وبين قريش سجال ، وكانت قد مرت عشر سنوات ، منذ أن نزل عليه الوحى ، حقق الإسلام خلالها نتائج طيبة ، لكنه بعد انتهاء المقاطعة ألم به حدثان جليلان ؛ أولهما وفاة عمه أبى طالب ، والثانى وفاة زوجه خديجة ، فعمه - وإن كان ما يزال على دين أبائه - إلا أنه تكفل بحمايته والدفع عنه ، وكانت قريش تخشاه رغماً عن علو سنه ، وقد عبر ﷺ عن ذلك بقوله : " ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب " . أما خديجة ، فكانت الزوج والأم والصديقة ، يسكن إليها حين تشتد مساءات قومه ، وقد عبر عن ذلك أيضاً بقوله : " آمنت بى حين كفر بى الناس ، وصدقتنى حين كذبنى الناس ، وأعطتنى من مالها حين حرمنى الناس " .

لهذا كله فقد دعا محمد العام الذى فقد فيه هذين الحبيبين بعام الحزن .

بدأ رسول الله يفكر جيداً فى مفارقة ديار آبائه إلى ديار أخرى يلتمس فيها النصرة والمعونة ، فحزم أمره وتوجه إلى الطائف صحبة مولاه زيد ابن حارثة ، وكانت أمه من ثقيف . لكنه لم يجد فى أهلها ما كان يأمله ، بل إنهم سخروا من دعوته ، وصار أحداثهم يرمونه بالحجارة ، فانصرف عائداً إلى مكة . وبعد قليل أسرى به الله تعالى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وتقررت الصلوات الخمس للمسلمين .

اتجه الرسول إلى دعوة قبائل العرب إلى الإسلام فى موسم الحج ، لكنه لم يجد آذاناً صاغيةً ، بل إن بنى حنيفة - الذين ظهر بينهم فيما بعد مسيلمة - ردوا عليه رداً قبيحاً .

على أن نفراً من الأوس - وكانوا قد وفدوا إلى مكة يطلبون حلف قريش ضد بنى عمهم الخزرج - وجدوا فى محمد ودعوته خيراً مما جاءوا

من أجله . وفى موسم الحج التالى لقى الرسول عند العقبة بمنى ستة من الخزرج ، فدعاهم إلى الإسلام وصدقوه ، وعادوا إلى مدينتهم ينشرون الإسلام بين أهلهم .

عندئذ بدأت تختمر فى ذهن الرسول فكرة الهجرة إلى يثرب . ومما لاشك فيه أنه كانت لدى أهل يثرب أفكار يسرت مقدم الرسول إليهم ، فالمدينة أقرب من مكة إلى بلاد الشام ، فوصلت إليها بالتالى بعض التأثيرات الثقافية عن طريق النصارى واليهود الذين استقر عدد منهم بها ، كما إن فكرة النبوة واقتراب موعد بنى جديد كانت ذائعة فى المدينة ، وخشى العرب من أهلها أن يسبقهم اليهود إلى هذا النبى .

من جملة هذه الأسباب أيضاً ما جرى من نزاعات وحروب بين الأوس والخزرج دامت سنوات ، ولم يدن منها كون هاتين القبيلتين شقيقتين ، مما جعل رجالها يدركون أن رابطة الدم لاتكفى وحدها لتهدئة الصراع ، وأنه لا بأس من مقدم شخص خارج عنهما يحكمهما .

ويذهب أرنولد (ت ١٩٣٠ م) إلى أن أهل يثرب فعلوا ما كانت تفعله الجمهوريات الإيطالية فى العصور الوسطى ، من حيث دعوة أجنبى ، ليحفظ التوازن داخلها .

ولا شك أن تعدد مجالات عمل أهل يثرب ، كان يجعلهم أوسع أفقاً ، وأكثر تقبلاً للدعوة الجديدة من أهل مكة .

وغير خاف أنه كانت تربط رسول الله بأهل يثرب صلات دم ، فأم جده عبد المطلب من بنى النجار ، أحد بطون الخزرج ، كما إن أباه عبد الله مات فى يثرب ودفن هناك ، بينما كان فى زيارة لأخوال أبيه ، وماتت أمه آمنة إبان زيارتها لقبره ، ودفنت غير بعيد من يثرب .

فى العام الثانى عشر للبعثة أتى إلى مكة إثنا عشر رجلاً من أهل يثرب ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فبايعوا النبى عند العقبة بمنى ، وهى البيعة التى دعيت ببيعة العقبة الأولى ، وأصحبهم النبى فى عودهم مصعب ابن عمير الدارى ، يعرفهم بالإسلام وفرائضه وبفضل هؤلاء اتسع نطاق الإسلام بين عرب يثرب .

فى العام التالى قدم من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من الأوس والخزرج ، ومعهم مصعب بن عمير ، واجتمعوا بالرسول فى العقبة ، وحضر هذا الاجتماع أبو بكر وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب - وكان ما يزال على دين آبائه - وبايعه القوم على منعه ونصره ، ورحبوا به مهاجراً إليهم ، وانتخبوا من بينهم اثنى عشر نقيباً (أى رئيس) تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وقد دعيت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية أو الكبرى .

لم يكن تفكير محمد فى الهجرة عفو الخاطر ، إنما أدرك ﷺ بثاقب فكره وبصره وبصيرته ، أن بقاءه فى مكة يعنى النهاية لهذا الدين القيم ، لأن المسلمين ما يزالون قلةً فى قومهم ، ولم تزد الأيام قريشاً إلا صلابةً فى موقفها وصلافة ، يخشى معها على حياة محمد نفسه ، ولو لاقدر الله وحدث له شيء ، لكان معنى هذا نهاية الإسلام ، لأن الدين لم تكتمل تفاصيله بعد ، ولم يعد البقاء فى مكة شجاعة ، إنما كان انتحاراً ، لأنه لم تعد ثم قضية يدافع عنها .

بعد أن ترامت الأخبار إلى قريش بتحالف بين محمد وأهل يثرب ، انصرفت إلى مزيد من الأذى للمسلمين ، فأذن رسول الله لأصحابه بالهجرة إلى يثرب ، وقال لهم : " إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون

بها " ، فصاروا يهاجرون فى الخفاء فرادى ، حتى لاتتنبه قريش إليهم ، بحيث لم يتبق فى مكة سوى الرسول وأبى بكر وعلى وقليل غيرهم .

اجتمع زعماء قريش فى دار الندوة ، يتباحثون فى شأن محمد ، واستقر رأيهم على أن يؤخذ من كل قبيلة فتى جليداً ، ويعطى كل منهم سيفاً صارماً ، فيضربون محمداً ضربة رجل واحد ، ويتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع قومه أن يحاربوا سائر القبائل ، فيرضون بالدية وينتهى الأمر .

أوحى الله تعالى إلى نبيه الكريم بما تدبره قريش ، فخرج وأبو بكر من داره ليلاً ، وترك ابن عمه على بن أبى طالب فى فراشه ، وسارا معاً حتى وصلا إلى غار بجبل ثور قرب مكة ، فدخلاه وأمضيا ثلاثة أيام ، خلالها كانت أسماء بنت أبي بكر تأتى اليهما بما يحتاجانه من طعام .

فى هذه الأثناء كانت قريش تجد فى البحث عن الرسول وصاحبه ، حتى كاد بعضهم أن يقتحم عليهما الغار ، لولا أن حفظهما الله تعالى ، وفى ذلك تقول الآية الكريمة : ﴿ إلاَّ تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم ﴾(١) .

ركب رسول الله وصاحبه راحلتين فى طريقهما إلى يثرب ، حتى بلغا ضاحيتها قباء ، فأقاما بها أربعة أيام ، أسس الرسول خلالها مسجده بها ، ولحق به على بن أبى طالب ، ثم خرج إلى يثرب ، فوصل إليها فى ١٦ من ربيع الأول سنة ١هـ (٢ من سبتمبر سنة ٦٢٢م) وحطت راحلته لدى المكان الذى ابتنى فيه مسجده وداره .

---

(١) التوبة : ٤٠

٢- تنظيم الدولة العربية الإسلامية :

كانت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بداية عهد جديد للدعوة إلى الإسلام ، فقد حظى المهاجرون الذين سبق اضطهادهم فى مكة بالأمان ، وأتيح للدعوة الفرصة لأن تنمو وتزدهر ، وتتسع معها رقعة الإسلام .

صار الرسول فى المدينة مؤسس دولة ، صحيح أن الرسالة هى الصفة الأساسية له ، لكن الأحداث التى أعقبت هجرته إلى المدينة ، أضافت إلى هذه الصفة صفةً أخرى ، هى رئاسة الدولة الناهضة ، صحيح أيضاً أنه لم يتخذ لقباً جديداً من ألقاب الملك ، لكن مضمون الرئاسة كان متحققاً بالفعل .

لكل ذلك اعتبر المسلمون الهجرة بداية التقويم عندهم .

(أ) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

كانت المشكلة الأولى التى واجهت النبى ﷺ لدى حلوله بالمدينة المنورة ، هى مشكلة المهاجرين الوافدين الذين فارقوا ديار آبائهم بمكة ، وتركوا وراءهم أموالهم الثابتة وعقاراتهم والمهن التى كانوا يمارسونها ، أى أنهم صاروا بدون أمان مادى ، ثم إنهم أيضاً فارقوا أهلهم وذويهم ، أى أنهم صاروا بدون أمان معنوى .

من أجل ذلك اهتدى رسول الله إلى حل لهذه المشكلة بإعلان مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وجعل لكل مهاجر أخاً من الأنصار ، وأضحت هذه المؤاخاة مقدمةً على المؤاخاة فى الدم ، وسمح الأنصار لإخوانهم المهاجرين بمشاركتهم تجارتهم ومزارعتهم أرضهم ، وكانوا يتوارثون فيما بينهم .

ظل مبدأ المؤاخاة قائماً إلى أن تم انتصار المسلمين فى غزوة بدر ، وحازوا مغانم طائلة ، وأضحى المهاجرون فى غنى عن إخوانهم الأنصار ،

فنزلت الآية الكريمة : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم ﴾(١) .

ترتب على ذلك أن انتهى مبدأ المؤاخاة، وان ظلت الصداقة والمودة قائمتين بين المهاجرين والأنصار.

(ب) الصحيفة :

فى العام الأول بعد الهجرة شعر الرسول ﷺ بحاجته إلى دستور ، أو نظام أساسى للتعامل بين عناصر هذا المجتمع الجديد ، وكانت هذه العناصر هى المهاجرون والأنصار - أوسهم وخزرجهم - واليهود ، فأصدر صحيفة تقررت فيها المبادىء الآتية :

١ - المسلمون - جميعهم - أمة واحدة من دون الناس ، والإنتماء إلى هذه الأمة يسبق الانتماء إلى القبيلة ويزيد عليه درجة .

٢ - والدولة الإسلامية تعبير عن الأمة الإسلامية ، والطاعة لها ملزمة ، يحارب مواطنوها إذا حاربت ، ويسالمون إذا سالمت ، ويقيمون ما أقامت من عهود ومواثيق .

٣ - وعليه فهم يقاطعون قريشاً باعتبارها عدواً لهذه الدولة ، ولا يتعاملون معها ولا مع حلفائها ، وتنسحب هذه القاعدة على التجارة .

٤ - وهم معاً يد واحدة على من يظلم منهم ، أو يبتغى إثماً أو عدواناً ، دون النظر إلى صلة من قرابة أو دم ، والمؤمن الذى يقتل مؤمناً مثله عن عمد : وجب القصاص عليه ، إلا اذا تنازل أولياء المقتول عن حقهم .

---

(١) الأنفال : ٧٥

٥ - وإذا اختلف المسلمون فى أمر من أمورهم ، فإن مرجعهم إلى كتاب اللـه ونبيه عليه الصلاة والسلام .

٦ - تحقيق الأمن والنظام داخل المدينة المنورة ، وتحريمها شأنها شأن مكة المكرمة .

٧ - أما عن اليهود فلهم الحرية فى أن يظلوا على دينهم ، مع الأمان لهم وذويهم ، وإذا أسلم أحدهم يصير له ما للمسلم وعليه ما عليه ، وفى حال الحرب يتعاون المسلمون واليهود معاً ، وينفقون على هذه الحرب كل حسب دوره .

(جـ) الجهـاد :

بعد أن وضع النبى أساس الجماعة الإسلامية فى المدينة المنورة ، صار عليه أن يتهيأ لأمرين ؛ الدفاع عن المسلمين ضد أذى محتمل من جانب قريش ، أو غيرها من قبائل العرب ، ثم السعى لأن يحصل المسلمون المهاجرون على حقوقهم التى أجبروا على تركها وراءهم بمكة .

من أجل ذلك نزلت الآية الكريمة : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾(١) . وتلتها الآية الكريمة : ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، ويكون الدين لله فإن انتهوا ، فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾(٢) .

ويتوافق مبدأ الجهاد هنا مع ما سبق واتفق عليه الأنصار مع النبى فى بيعة العقبة الكبرى ، لأنهم عاهدوه على نصرته والدفاع عنه .

عندما اتسع مجال النضال ، ودخلت فيه أطراف أخرى إلى جانب قريش ، نزلت الآية الكريمة : ﴿ وقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونكم

---

(١) الحج : ٣٩ - ٤٠

(٢) البقرة : ١٩٣

كافة ﴾(١) . ولما نقض اليهود عهدهم ، ومالوا مع أعداء المسلمين ، أنزل تعالى قوله : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانةً فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين ﴾(٢) .

ووعد الله المؤمنين نصراً على أعدائهم فى الدنيا ونعيماً مقيماً فى الآخرة : ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾(٣) .

٣- سياسة الرسول مع عرب الحجاز :

فى أعقاب تشريع الجهاد بدأ رسول الله ﷺ فى مناوأة قريش ، فعقد محالفات مع القبائل الضاربة بين مكة والمدينة ، وبعث بسرايا تتقصى أخبار قريش وأحوال تجارتها وقوافلها المترددة إلى الشام . وفى إحدى هذه السرايا جرى صدام بين المسلمين والقرشيين فى شهر رجب ، وظفر المسلمون بالكفار وغنموا منهم ، لكن رسول الله عنف أهل السرية ، لأنه لم يطلب منهم القتال فى الشهر الحرام ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾(٤) .

(أ) غزوة بدر :

فى رمضان من سنة ٢ هـ. أرسل رسول الله نفراً من أصحابه ، لاعتراض قافلة لقريش قادمة من الشام ، فلما علم أبو سفيان بن حرب

---

(١) التوبة : ٣٦

(٢) الأنفال : ٥٨

(٣) النساء : ٧٤

(٤) البقرة : ٢١٧

الأموى بذلك ، بعث إلى قريش ، وسلك بالقافلة طريقاً آخر على طول ساحل البحر إلى أن وصل إلى مكة .

اتخذت قريش أهبتها ، وسارت إلى لقاء المسلمين فى عدد يتراوح بين تسعمائة وألف ، ورغماً عن إفلات أبى سفيان بالقافلة ، إلا أن قريشاً رأت أن تلقن المسلمين درساً حتى لا يعاودوا تهديد تجارتها .

رأى رسول الله أن يستشير المسلمين فى شأن المواجهة مع قريش ، وكان الاتفاق بينه وبين الأنصار فى العقبة الكبرى أن يساندوه فى الدفاع ، وليس فى الهجوم على قريش ، وقد عبر سعد بن معاذ عن موقف الأنصار بقوله : " إمض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك فو الذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد " .

سار الرسول فى ثلاثمائة وخمسين أو نحوها من المهاجرين والأنصار ، والتقى بالكفار فى ١٧ رمضان عند بدر ، وقاتل المسلمون قتالاً بدت فيه روح الاستشهاد ، فنصرهم الله ، وقتل من الكفار سبعون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر .

أسفرت غزوة بدر عن مكاسب عظيمة للمسلمين ، فلأول مرة ينتصفون من الكفار الذين كانوا ثلاثة أمثالهم ، وكان لذلك أثره فى رفع الروح المعنوية للمسلمين ، كما إنهم حازوا – فى الوقت نفسه – غنائم وافرة ، نزلت بشأنها الآية الكريمة : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾(١) .

أما الأسرى فقتل منهم إثنان أحدهما عقبة بن أبى معيط وتم الفداء لغيرهم أو المن عليهم ، وتولى عدد من هؤلاء تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

---

(١) الأنفال : ٤١

كذلك قوى أمر المسلمين إزاء المنافقين من عرب المدينة واليهود الذين أشاعوا هزيمة المسلمين ومقتل رسول الله .

لهذا كله دعا المسلمون غزوة بدر بالكبرى ، كما دعوها بغزوة الفرقان ، لأنها فرقت بين الحق والباطل ، وعلى مدار التاريخ الإسلامى كله ، كان المسلمون يتفاءلون بالنصر فى المعارك التى يخوضونها فى شهر رمضان ، وهو الشهر الذى وقعت فيه غزوة بدر ، وصار كل من شهد بدراً ذا مكانة خاصة فى صدر الإسلام .

(ب) غزوة أحد :

كان وقع الهزيمة على قريش ثقيلاً ، فقد قتل فى بدر عدد كبير من أشرافها ، الأمر الذى جعل أبا لهب يموت بعد أيام من المعركة غماً ، والأهم من ذلك أن قريشاً فقدت هيبتها فى قبائل العرب ، بينما علا شأن المسلمين ، كما إن طريق تجارتها مع الشام صار مهدداً ، مما اضطرها فى أعقاب المعركة لأن تغير مسار إحدى قوافلها إلى طريق نجد .

أخذ الكفار يتجهزون للمعركة التالية لمدة عام كامل ، وكرست أموال القافلة التى كانت السبب فى الهزيمة لهذا الأمر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾(١) .

لم تكتف قريش بذلك ، بل دعت غيرها من قبائل الحجاز وتهامة لمشاركتها حرب المسلمين ، ولما اتخذت أهبتها سارت إلى المدينة فى ثلاثة آلاف فى شوال من سنة ٣ هـ ، وكان يقود الكفار أبو سفيان بن حرب .

---

(١) الأنفال : ٣٦

لما علم رسول الله بقدوم قريش استشار أصحابه ، فانقسموا إلى فريقين ؛ أحدهما وكثرته من الشباب رأى أن يلقى المسلمون الكفار خارج المدينة ، والآخر ويمثله الرسول وكبار الصحابة رأى البقاء في المدينة لحصانتها وامتناعها .

عسكر المسلمون على مقربة من المدينة ، وجعلوا جبل أحد وراءهم ، وعليه الرماة وعدتهم خمسون رجلاً بقيادة عبد الله بن جبير ، وطلب منهم ألا يغادروا مواقعهم ، انتصر المسلمون أو انهزموا .

فى مواجهة المسلمين نزلت قريش وحلفاؤها ببطن الوادى ، على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل . وأخذت نساء قريش - وعلى رأسهن هند بنت عتبة - التى قتل أبوها وأخوها وعمها فى بدر - ينشدن :

إن تقبلوا نعانق　　　ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق　　　فراق غير وامق

بادر المسلمون بالهجوم ، فتقهقر الكفار إلى الوراء ، وتبعهم المسلمون وأخذوا يجمعون ما خلفوه من غنائم ، فظن الرماة أن المعركة قد حسمت ، فغادروا مواقعهم على الجبل ، يشاركون فى الغنيمة ، ولم يلتفتوا إلى معارضة قائدهم ابن جبير .

فطن الكفار إلى أن المسلمين أضحوا بغير ظهير ، فانتهز خالد بن الوليد الفرصة ، وكر على المسلمين فى خيله ، فأخذتهم البغتة واضطربت جموعهم وتخاذلوا ، خاصة بعد أن شاع بينهم أن رسول الله ﷺ قتل .

وإذا كان هذا الخبر قد فت فى عضد المسلمين ، إلا أن قريشاً رأت أن تكف عن القتال ، بعد أن قتلت من المسلمين ، مثل من قتل منها فى بدر ،

وأن تعود إلى مكة ، لاسيما وأن عدداً من المسلمين صمدوا إزاءها ، وقاتلوا قتالاً شديداً .

أسفرت غزوة أحد عن استشهاد أكثر من سبعين من المسلمين، بينهم حمزة بن عبد المطلب الذى مثلت به هند بنت عتبة زوج أبى سفيان، كما أن رسول الله جرح فى هذه المعركة .

إرتد المسلمون إلى المدينة ، وعسكروا إلى جوارها ، تحسبًا لهجوم قد تقوم به قريش ، وبعث الرسول بعلى بن أبى طالب ، يتحسس أخبار الأعداء ، فلما شاهدهم متجهين إلى مكة اطمأن الرسول ودخل مدينته .

كانت الهزيمة فى أحد أول هزيمة يصادفها المسلمون ، وجعلت بعض قبائل العرب تغدر بهم ، وكذا فعل اليهود ، بل وصل الأمر إلى محاولة اغتيال الرسول نفسه ، ثم إنها أعادت الثقة إلى قريش ، وهيأت لها الفرصة لمعاودة الحرب ضد المسلمين ... يوضح ذلك قول أبى سفيان : " يوم بيوم بدر ، والموعد العام المقبل " .

(جـ) غزوة الخندق (الأحزاب) :

سعى اليهود من بنى النضير وبنى قينقاع الذين أجلاهم الرسول عن المدينة إلى الكيد بالمسلمين ، وأخذوا يحرضون العرب على محمد ، وذهب وفد منهم – وعلى رأسه حُيَىّ بن أخطب النضرى – إلى قريش ، يغريهم بغزو المدينة ، ويعدهم بالمال والسلاح .

تألف حلف كبير ، قوامه عشرة آلاف من قريش وغطفان واليهود .. قاد قريشاً أبو سفيان بن حرب ، وقاد غطفان عيينة بن حصن الفزارى ، بينما قاد اليهود حيى بن أخطب ، ودعى هذا الحلف بالأحزاب .

عندما ترامت أنباء الحشد إلى رسول الله استشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالبقاء في المدينة والدفاع عنها ، ثم اقترح سلمانِ الفارسى ، أن يحفروا خندقاً حول المدينة .

اختار رسول الله موضعاً شمالى المدينة لحفر الخندق ، وما أن انتهى من الحفر ، حتى جعل للخندق أبواباً ، يقوم على حراستها نفر من المسلمين ، أوكلت رئاستهم للزبير بن العوام ، ووقف الرسول ينتظر الكفار ، ومعه ثلاثة آلاف ظهورهم لجبل سِلَع .

عندما اقترب الكفار من المدينة ، أوفد أبو سفيان حيى بن أخطب إلى بنى قريظة – وهى القبيلة اليهودية الوحيدة المتبقية بالمدينة – من أجل أن تنقض العهد الذى بينها وبين رسول الله ، وتردد كعب بن أسد زعيم القبيلة ، إلا أنه ما زال به حتى رضخ .

كان الموقف خطيراً ، لأن قريشاً امتلأت زهواً بعد النصر الذى حققته فى أحد ، ثم إنها جاءت إلى المدينة بجيش معد إعداداً جيداً ، يزيد على ثلاثة أضعاف الجيش الذى جاءت به قبلاً . أضف إلى ذلك خيانة اليهود من بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين ، فتخلى عن رسول الله عدد من المنافقين ، تسللوا هاربين أثناء الحصار .

يقول تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾(١) .

أقبلت قريش وحلفاؤها ، فلما شاهدوا الخندق ، حاولوا أن يعبروه فلم يستطيعوا ، ومر شهر على الحصار ، تخللته مبارزات فردية ، ونال

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ١٠ – ١١

المسلمين كثير من الجهد والجوع والبرد ، حين أقبل إليهم نعيم بن مسعود الغطفاني مسلماً ، وعرض خدماته على رسول الله .

اقترح نعيم أن يستعين على الأحزاب بالخدعة ، فذهب إلى قريظة ، يطلب منهم ألا يقاتلوا ، حتى يأخذوا من قريش وغطفان رهناً من أشرافهم ، فوافقوه على ذلك ، ثم توجه إلى قريش وغطفان ، وأعلمهم بأن قريظة خذلوهم ، واتفقوا مع محمد على أن يسلموه سبعين من أشرف حلفائهم العرب ، ليضرب أعناقهم ، في مقابل أن يرد بنى النضير إلى المدينة .

انطلت الخدعة على الأحزاب، وعندما أرسل أبو سفيان بعكرمة بن أبى جهل فى شوال من سنة ٥هـ إلى قريظة ، يطلب منهم التأهب لقتال المسلمين، قالوا : " إن غداً السبت لانقاتل فيه ولانعمل عملاً ، وإنا مع ذلك لانقاتل معكم، حتى نعطونا رهاناً من رجالكم ، لئلا تبرحوا ، فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب ، أن تشمروا إلى بلادكم ، وتدعونا إلى محمد ، ولا طاقة لنا به " .

ترتب على ذلك أن تردد الكفار فى متابعة غزوتهم بالمدينة ، وبينما هم كذلك أرسل الله تعالى ريحًا عاتية وبردًا ، جعلهم يحزمون أمرهم ، ويشرعون فى العودة أدراجهم ، وفى هذا الشأن يقول تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا ﴾(١) .

ترتب على غزوة الأحزاب أن استرد المسلمون الثقة فى أنفسهم ، وأصبحوا على يقين من قوتهم ، الأمر الذى جعل رسول الله يقول : " الآن نغزوهم ولا يغزوننا " . وفى الوقت نفسه انتقم المسلمون من بنى قريظة ، وأصبحت المدينة فى مأمن من الخيانة .

---

(١) الأحزاب : الآية ٩

(د) صلح الحديبية :

فى العام السادس للهجرة كان المسلمون قد قوى أمرهم ، واتسع مجال نفوذهم السياسى ، ليمتد إلى بقاع أخرى خارج المدينة ، وتهيأت لرسول الله غزوات صغيرة ضد بعض القبائل ، كتب الله له النصر فيها .

عندئذ فكر رسول الله فى دخول مكة معتمرًا ، وكان يرى أن هذا من حقه ، ومن حق المسلمين ، لأن البيت الحرام ليس ملكًا لقريش وحدها . وفى ذى القعدة خرج من المسلمين ألف وأربعمائة ، ليس معهم من سلاح سوى السيوف ، وعسكر الرسول فى الحديبية .

عندما تناهى الخبر إلى قريش ، قررت أن تمنع رسول الله من دخول مكة ، وبعثت إلى حلفائها تطلب منهم مساندتها ، وفى الوقت نفسه أرسلت سفارة إلى الرسول ، كى تحمله على العدول عن عزمه .

بعث رسول الله عثمان بن عفان إلى قريش ليوضح لهم " إنا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زوارًا لهذا البيت معظمين لحرمته ، ومعنا الهدى ننحره وننصرف " .

رفضت قريش طلب الرسول ، وأقام عثمان لدى ابن عمه أبان ابن سعيد بن العاص ، لمدة ثلاثة أيام ، فشاع بين المسلمين أنه قتل مع عشرة منهم ، كانوا قد توجهوا لزيارة أهليهم ، فوقف رسول الله وخطب قائلاً : " إن كان حقًا ما سمعنا ، فلن نبرح الأرض حتى نناجز القوم ، البيعة البيعة أيها الناس " فبايع المسلمون البيعة التى عرفت ببيعة الرضوان ، والتى يقول فيها تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾(١) .

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٠

لما تيقنت قريش من عزم المسلمين ، أوفدت سهيل بن عمرو فى وفد ، ليتفاوض مع رسول الله فى الصلح ، فاتفق الطرفان على أن يتبادلا الأسرى ، وبذا أطلقت قريش عثمان بن عفان ورفاقه ، ثم تم الإتفاق بين الرسول وسهيل على :

١ – أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنوات .

٢ – أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلمًا دون إذن وليه .

٣ – ولا تلتزم قريش برد من يأتيها من عند محمد .

٤ – ومن أحب الدخول فى عقد قريش فله ذلك ، ومن أحب الدخول فى عقد محمد فله أيضًا ذلك .

٥ – يعود الرسول هذا العام دون أن يؤدى العمرة ، على أن يأتى فى العام المقبل ، فيدخل وصحبه مكة ، بعد أن تخرج قريش منها ، ويقيمون بها ثلاثة أيام ، ليس معهم من السلاح سوى السيوف فى القرب (الأغماد) .

أعقب الصلح دخول خزاعة فى عهد محمد ، ودخول بكر (من هوازن) فى عهد قريش .

لم يكن المسلمون جميعهم يؤيدون فكرة الصلح مع قريش ، فقد كانوا فى منعة وقوة ، وحسبوا أن رسول الله تساهل مع الكفار ، وعز عليهم أن يعودوا إلى المدينة دون أن يعتمروا ، وكان عمر بن الخطاب يتزعم فريق المتشددين، ثم إنهم وجدوا فى شروط الصلح ما لا يناسبهم ، مع رجحان كفتهم .

فى الطريق إلى المدينة أنزل تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا، وينصرك الله نصرًا عزيزًا ﴾(١) .

(١) سورة الفتح : الآية ١ – ٣

عندئذ أدرك المسلمون سداد رأى النبى ﷺ فى عقد الصلح مع قريش واعتبروا هذا الصلح نصرًا .

وإذا كنا نلاحظ قدرًا من عدم التكافؤ فى شروط الصلح ، وبخاصة رد الرسول من يأتى من قريش دون إذن وليه ، فى حين لا تلتزم قريش برد من يأتيها من عنده ، فضلاً عن عودة المسلمين دون دخول مكة هذا العام ، فإن الرسول كان فى غنى عن أن يأتيه أحد من قريش ، ثم إنه ليس متوقعًا أن يأتيها أحد من عنده ، وفى الوقت نفسه ، فإنه فى مقابل عدم دخوله مكة هذا العام ، توافرت له سنوات استطاع خلالها أن يدعم موقفه ، ويسعى إلى نشر الإسلام ومراسلة الملوك داخل الجزيرة العربية وخارجها ، والزهرى - المؤرخ (ت ١٢٤) - يذكر أنه أسلم خلال السنتين التاليتين لصلح الحديبية عدد يفوق من أسلم قبل ذلك ، وغير خاف أن قريشًا فى هذه الصلح اعترفت بمحمد ، ولم تكن معترفة به قبلاً .

(هـ) غزوة الفتح :

فى العام الثامن للهجرة تعاظمت قوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقضى على آخر جيوب المقاومة اليهودية فى خيبر ، وفى الوقت نفسه امتد نفوذه امتدادًا واسعًا فى بلاد العرب وجاوزها إلى تخوم الشام ، وهو ما يتضح فى غزوة مؤتة ، التى تعد بداية الزحف الإسلامى خارج الجزيرة العربية .

لا حظت قريش هذه القوة المتنامية للمسلمين ، وراقبتها بعين الحذر ، وبخاصة حين أتى الرسول إلى مكة معتمرًا عمرة القضاء فى ذى القعدة من سنة ٧هـ ، وصحبه فى هذه العمرة ألفان من المسلمين .

بدأ القرشيون الذين كانوا يكنون العداوة لهذه الدعوة يغيرون مواقفهم تدريجيًا ، وأيقنت قريش أن ليس لها من سبيل معه ، وفى الوقت نفسه ظهر

تيار لدى أهلها جعلهم يعيدون النظر فـي رسـول اللـه والديـن الـذى أتـى بـه ، ورأوا فى صبره على عناء نشر هذا الدين ، ما يرجح كفه صدقه ثم إنه فى الوقت نفسه منهم ، وما يحصل عليه من مجد هو مجدهم .

على ذلك بدأ بعض أعيان قريش يـأتون إلـى المدينـة مسلمين ، وكـان بينهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، ونعلم جميعًا مكانـة كـل منهمـا فـى تاريخنا .

كان رسول الله والمسلمون بعد أن انتهوا من أداء عمرتهـم ، يتطلعـون إلى يوم يستطيعون فيه أن يأتوا إلى مكة بسلام ، وبخاصـة أنـه فـرض عليهـم الحج بعد هذه العمـرة . وعلـى ذلـك فبمجـرد مـا تواتـر إلـى سـمعه أن قريشـا نقضت العهد بعون حلفائها من بنى بكر ضد حلفاء رسول اللـه مـن خزاعـة ، حتى تهيأ المسلمون لغزو مكة ، ورفض الرسـول مسـعى أبـى سـفيان ، حيـن جاءه يطلب تجديد الصلح .

بعث الرسول إلى المسلمين كافة يقول : " مـن كـان يؤمـن باللـه واليـوم الآخر ، فليحضر رمضـان فـى المدينـة " ، فوافتـه قبـائل عديـدة ، منهـا أسـلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، وبذلك اجتمع له فى شهر رمضـان مـن سـنة ٨هـ عشرة آلاف توجه بهم إلى مكة .

فى الطريق التقى الرسول بأبى سفيان الذى أسلم بين يديه ، وأعلنه بـأن " من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليـه بابـه فهـو آمـن ، ومـن دخل المسجد فهو آمن " . فهرع أبو سفيان إلى مكة ، وخاطب قومه قـائلاً : " يا معشر قريش : ويحكم!! إنه قد جاء مـا لا قبـل لكـم بـه ، هـذا محمـد فـى عشرة آلاف عليهم الحديد ، فأسلموا تسلموا " .

دخـل المسلمون مكـة مـن جهاتهـا الأربـع ، ولـم يلاقـوا سـوى مقاومـة بسيطة عنـد أحد مداخلها ، قادها عكرمة بن أبى جهـل ، وقضـى عليهـا خـالد

ابن الوليد وانتهى الرسول إلى الكعبة ، وطاف سبع مرات ، ثم خاطب أهل مكة بآية من القرآن الكريم ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(١) .

ثم سألهم : " يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ، قالوا : " أخ كريم وابن أخ كريم " . قال : " فاذهبوا فأنتم الطلقاء " .

أصدر الرسول عفوا عامًا شمل عكرمة بن أبى جهل وهند بنت عتبة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح وغيرهم . وانصرف يكسر الأصنام ويقول : " وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا "(٢) وأمر بلالاً فأذن وصلى الناس بإمامة محمد .

فى الوقت نفسه أصدر الرسول أمره ، فإتجه المسلمون إلى ضواحى مكة يكسرون ما يجدون بها من أصنام .

(و) غزوة حنين :

بعد فتح مكة أوجست قبيلة هوازن من المسلمين ، وأزمعت غزوهم ، وتجمعت بقيادة مالك بن عوف النصرى ، وانضمت إليها قبيلة ثقيف ، وصار الغزاة نحو عشرة آلاف ساقوا معهم نساءهم وأموالهم ، حفزًا لهم على القتال ، ونزلوا حنين على مبعدة ثلاثة أميال من مكة .

لما وصل الخبر إلى رسول الله خرج فى عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وانضم إليهم ألفان من القرشيين حديثى العهد بالإسلام بينهم أبو سفيان.

فى ١٠ شوال من سنة ٨هـ دارت رحى المعركة ، وكان المسلمون قد أخذهم الزهو لكثرتهم ، فحمل عليهم الكفار ، وفرقوا شعثهم ، وفى هذا الصدد

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣

(٢) سورة الإسراء : الآية ٨١

يقول تعالى : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾(١) .

صمد رسول الله في فئة قليلة من الأنصار ، وأخذ يحمس أصحابه إلى أن أقبلوا ، وتم لهم النصر ، وكان من جملة من قتلوا من الكفار الشاعر المخضرم دريد بن الصمة ، وولى الناجون منهم الأدبار ، فذهب مالك بن عوف إلى الطائف ، وكان الرسول في أثره ، بينما ذهب غيره إلى نخلة وأوطاس ، تاركين أموالهم وذراريهم غنيمة للمسلمين .

تحصن المشركون في الطائف ، وكانت مدينة منيعة ، توافر بها الطعام والمئونة ، وأخذوا يرمون المسلمين بنبالهم ، فاضطر رسول الله إلى أن ينصب المنجنيق ، وسير جنده في دبابات تحميهم ، كي ينقب جدار المدينة ، لكن الكفار ألقوا عليهم قطع الحديد المحمية ، فأحرقوها ، ثم قتلوا رجالها بالنبل .

ظل رسول الله يحاصر الطائف خمسة عشر يومًا ، وانصرف إلى حرق بساتينها ، وعندما اقترب شهر ذى العقدة ، رفع الحصار عنها ، ليعاوده بعد انقضاء الأشهر الحرم .

أقبل الرسول إلى الجعرانة ، حيث اجتمع من السبى ستة آلاف ، فأتاه وفد هوازن معلنين إسلامهم وإسلام قبيلتهم ، ويلتمسون رد السبى والأموال ، وضربوا على وتر حساس عند رسول الله ، إذ ذكروه بأن حاضنته أيام كان طفلاً صغيرًا ، هى حليمة السعدية من هوازن ، كما كانت ابنتها الشيماء بنت الحارث في جملة السبى . وقالوا : " يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، وقد

---

(١) سورة التوبة : الآية ٢٥

أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك ، فأمنن علينا من الله عليك ، إنما فى هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك " .

رق قلب الرسول لطلب هوازن ، وخيرهم بين السبى أو الأموال فاختاروا السبى ، وقسم الرسول الأموال على المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرها ، فغضب الأنصار وقالوا : " لقى والله رسول الله قومه " . فاسترضاهم الرسول ، حتى اطمأنت نفوسهم ، وعاد المسلمون إلى المدينة .

ظلت ثقيف ممتنعة بمدينتها الطائف ، وقتلوا عروة بن مسعود – وهو أحد زعمائهم – حين دعاهم إلى الإسلام وبيعة رسول الله . على أن ما وقفوا عليه بعد فترة من إسلام العرب وصعوبة الموقف الذى صاروا فيه ، أرسلوا إلى المدينة وفدًا التقى برسول الله ، وكان قد عاد من غزوة تبوك فى رمضان سنة ٩هـ ، وأعلنوا إسلامهم ، فجعل عليهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وأرسل المغيرة بن شعبة ، فهدم صنمهم اللات .

٤ – محمد واليهود :

(أ) لماذا العداوة بين محمد واليهود :

لم يكن اليهود أدنى خطرًا على الدعوة الجديدة من مشركى مكة ، والحقيقة أنه اجتمع عنصران ، ساعدا على جعل هذا الخطر جسيمًا .

العنصر الأول هو طبيعة الديانة اليهودية نفسها ، وهى الديانة التى تجعل من المسيح المخلص ركنًا أساسيًا فيها ، فاليهود – على الأقل منذ زمن أشعياء – فى انتظار مقدم هذا المسيح ، والمسيح عند اليهود ، ليس هو المسيح الذى نعرفه جميعًا ، إنه المُخلِّص المدجج بالسلاح الذى يجدد بناء الهيكل ، ويجدد دولة إسرائيل ، وينتقم لها من أعدائها .

فكرة المسيح هذه اتخذت طابعًا أكثر حدة فى زمن البعثة النبوية ، لأن اليهود شاهدوا ديناً جديدًا ، نسب إلى مسيح غير المسيح ، ووجدوا هذا المسيح قد انتشرت ديانته فى الأرض التى يعتبرونها أرضاً مقدسة – وهى فلسطين – وجاوزتها إلى أقطار أخرى ، واعترفت بها الدولة قبل ثلاثة قرون ، وتحولت اليهودية إلى ديانة ثانوية .

فى مطالع القرن السابع الميلادى دبت الحرب بين الدولتين الكبيرتين الفرس والروم ، واستطاعت خيل الفرس أن تجتاح بلاد الشام وفلسطين ثم مصر ، وتهدد القسطنطينية على أنه بعد سنوات قليلة عاود الروم هزيمة الفرس ، وإسترد هرقل ما سبق أن فقده من أراض ، بل إسترد أيضًا صليب الصلبوت ، وعاد به ثانية إلى بيت المقدس ، ووصل تهديده إلى قلب فارس وحاصر عاصمتها المدائن .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب فى سورة الروم : " غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون " .

من المعروف أن اليهود كانوا على علاقة قديمة طيبة بالفرس ، وكانت هذه العلاقة تنمو طرديًا مع الاضطهادات التىكانت تصادفهم على أيدى الروم وعلى أيدى النصارى ، وبطبيعة الحال تورط اليهود فى الصراع ، فأعانوا الفرس فى حربهم ، ولما انقلب الميزان ، تعرضوا للاضطهاد من جديد ، وفى أزمنة الضعف لابد وأن تنمو فكرة المخلص الذىيقتص لهم من أعدائهم.

وهم عندما يجدون شخصًا عربيًا يدعى – من وجهة نظرهم – النبوة بل والرسالة ، ويدعى أيضًا أنه النبى الذى بشر به أنبياء قبله ، فإنهم لن ينظروا إلى دعوته بعين الرضا ، وهم إذا صانعوه يومًا ، إلا أنهم فى أعماقهم يضمرون له كل سوء .

العنصر الآخر الذى حدد موقف اليهود من الرسالة ، أنهم كانوا يعدون المدينة المنورة مدينتهم ، فقد استقروا بها وعمروها قبل مقدم العرب من الأوس والخزرج ، بل إنهم كانوا يعدون مدنًا ومواقع صغيرة تقع على الطريق إلى الشام مدنا ومواقع يهودية .

قبل هجرة النبى إلى المدينة سعى اليهود إلى الإيقاع بين القبيلتين الشقيقتين ، فشبت بينهما حروب أنهكتهما معًا ، وإن رجحت كفة الخزرج خلالها ، فاتجه اليهود إلى محالفة الأوس وأيدوهم ، وكان قمينًا بهذا الصراع أن يمتد لسنوات لا ندرى عددها لولا مقدم محمد ﷺ .

شاهد اليهود محمدًا يضع نهاية لهذا الصراع ، وأطلق على الأوس والخزرج – معًا – تعبير الأنصار ، صحيح أنه لم يقض على العصبية القبلية ، التى كانت نسيج الحياة العربية ، إلا أنه جعل مفهوم الأمة الإسلامية يتقدم على مفهوم العصبية القبلية ، وكانت شخصية النبى – وحدها – تكفى لمنع أى تدفق جديد للعصبية .

اقتنع اليهود بأن محمدًا ورسالته العقبة فى طريق حلمهم القديم للسيطرة على المدينة ، وزاد من هذا التصور عندهم ، ما أحرزه المسلمون من نجاح عظيم فى العام التالى للهجرة ، نعنى غزوة بدر .

هذان العنصران ؛ فكرة المسيح المخلص أو النبى المنتظر ، والرغبة فى السيطرة على المدينة وغيرها من مدن الحجاز ، جعلاً اليهود يبادرون إلى إتخاذ موقف مناهض من الدعوة الإسلامية ، ولم يأبهوا بما ورد فى الصحيفة بشأنهم ، وما أبداه النبى من تسامح تجاههم .

(ب) بنو قينقاع :

زاد الأمر سوءًا ما حققه المسلمون من نصر عظيم فى بدر ، فطفق عدد من شعراء اليهود يرثون قتلى قريش ، بل أن كعب بن الأشرف ، لم

يكتف برثائهم ، إنما ذهب إلى مكة وحرض قريش على الأخذ بثأرهم ، ولدى عوده إلى المدينة صار يشبب بنساء المسلمين ، فقتله أحدهم .

تصاعد الموقف عندما قدمت امرأة من المسلمين إلى سوق بنى قينقاع ، ففاجأها أحد اليهود وكشف سوأتها ، فضحك اليهود وصاحت المرأة ، فوثب رجل من المسلمين ، وقتل اليهودى ، وتجمع اليهود على المسلم وقتلوه .

بدا واضحًا أن بنى قينقاع قد نقضوا العهد بينهم وبين النبى ﷺ ، ونزلت فى هذا الشأن الآية الكريمة : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾(١) .

ذهب الرسول إلى بنى قينقاع وقال لهم : " يا معشر يهود أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فو الله إنكم تعلمون أنى رسول الله ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم " . فتحدوه قائلين : " يا محمد : لا يغرنك من لقيت ، إنك قهرت قومًا أغمارًا وإناوا الله أصحاب حرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن إنك لم تقاتل مثلنا " .

سار الرسول إلى بنى قينقاع ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، حتى لم يجدوا بدًا من مفاوضته ، واتفقوا معه على أن يأخذ أموالهم ، ويأخذواهم النساء والذرية ، وصفح رسول الله عنهم ، بعد أن توسط فى الصلح عبد الله ابن أبى بن سلول حليفهم ، وغادروا المدينة ، ونزلوا بأذرعات على مشارف الشام .

(جـ) بنو النضير :

كان من نتائج غزوة أحد فى سنة ٣هـ أن فرح اليهود بما أصاب المسلمين من انكسار ، وأبدوا شماتتهم قائلين : " ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب بمثل هذا نبى قط ، أصيب فى بدنه وأصيب فى ماله " .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٨

تفجر الوقت حين ذهب الرسول إلى بنى النضير ، يطلب منهم إعانته فى دفع دية بعض العرب قتلهم مسلمون بطريق الخطأ ، فوعدوه أن يقرضوه مالاً ، على أنهم تآمروا فيما بينهم على قتله بإلقاء حجر من فوق البيت الذى كان يجلس تحته .

علم الرسول بما يدبره اليهود ، فبادر بالعودة أدراجه ، ثم بعث إلى بنى النضير ، يطلب منهم الجلاء ، وأمهلهم عشرة أيام ، فلما امتنعوا توجه إليهم فى ربيع الأول سنة ٤ ، وحاصرهم عشرين يومًا ، وجهد اليهود من الحصار، خصوصًا وأن قريظة خذلتهم ، كما إن عبد الله بن أبى زعيم المنافقين تخلى عنهم .

اضطر بنو النضير ، وزعيمهم حيي بن أخطب إلى الرحيل بأموالهم ونسائهم وذريتهم وتركوا لرسول اللـه عدا ذلك من أرض ونخيل وسلاح ، واستقر أكثرهم بخيبر ، ورحل بعضهم إلى الشام . وأفاد المسلمون بما حصلوا عليه من غنائم وكانوا قد خرجوا من أحد مرهقين فصلحت أحوالهم .

أنزل الله تعالى بخصوص غزوة بنى النضير : ﴿ سبَّح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾(١) .

(د) بنو قريظة :

بعد جلاء بنى النضير عن المدينة أخذ زعيمهم حيى بن أخطب يحرض العرب وقريشًا على المسلمين ، ويعدهم إذا نصروه بمنحهم غلة خيبر سنة ، ولما استجاب هؤلاء ، سار جيش الأحزاب إلىالمدينة ، وشكل اليهود جزءًا منه .

---

(١) سورة الحشر : الآية ١ - ٢

لم يكتف حيى بذلك ، بل إنه عمد إلى بنى قريظة – وهم آخر من تبقى بالمدينة من اليهود – وأخذ يحرضهم على أن ينقضوا العهد بينهم وبين محمد ﷺ ، وما زال بكعب بن أسد – زعيمهم – حتى إنضم إلى الكفار ، وكشف ثغرة فى الدفاع عن المدينة .

عندما علم الرسول بعزم قريظة على النكث ، بعث إليهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة – وهما سيدا الأوس والخزرج – علهم يعودون عن نكثهم ، لكنهم قالوا : " لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد " . فلم يجد الرسول إلا أن يخصص لمراقبتهم كتيبة من خمسمائة مقاتل ، كى تحول بينهم وبين أن يقتحموا مواقع المسلمين .

على أن ما قام به نُعَيْم بن مسعود الغطفانى من وقيعة بين الكفار واليهود ، ترتب عليه أن اضطرب أمر الأحزاب المحاصرة للمدينة ، ولم تلبث بعد فترة أن دهمتها العواصف والبرد ، فرحلت دون أن تحقق هدفها، مما يعد نصرًا للمسلمين .

فى أعقاب الرحيل تجهز الرسول ونادى : " من كان سامعًا مطيعًا ، فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة " . وسار إليهم وحاصرهم ، فلما أيقنوا بعدم الجدوى من الصمود ، حاولوا أن يجربوا معه ما سبق أن فعله بنو قينقاع وبنو النضير ، فبعثوا إليه يسألونه أن يصالحهم الصلح نفسه ، لكن رسول الله أبى أن يعاود اليهود خداعه ، واشتد فى حصارهم خمسة وعشرين يومًا ، حتى لم يجدوا مفرًا من الاستسلام .

أراد الأوس أن يهبهم رسول الله بنى قريظة ، لأنهم كانوا حلفاءهم ، فقال : " أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم " فوافقوا ، فاختار سعد بن معاذ حكمًا رضى به بنو قريظة ، فقضى سعد بأن يقتل الرجال ، وتسبى النساء والذرية ، وتقسم الأموال بين المسلمين .

كان عدد من قتل من بنى قريظة سبعمائة رجل ، بينهم حيى بن أخطب الذى كان قد أقام عندهم ، منذ مقدم الأحزاب ، وأسلم أربعة من اليهود ، فأنجاهم الله من القتل .

يقول تعالى فى شأن بنى قريظة : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان قويًا عزيزًا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرًا ﴾(١) .

(هـ) خيبر :

بعد صلح الحديبية فى سنة ٦ أضحى الصراع مع قريش مسأله وقت فحسب ، وكان معظم بلاد الحجاز قد دان للمسلمين ، فاتجه رسول الله ﷺ إلى خيبر فى قاصية الشمال ، حيث تجمعت فلول اليهود التى غادرت المدينة المنورة ، وانضم إليهم يهود آخرون وصاروا يدبرون السوء للمسلمين .

أعد أسير بن رزام زعيم يهود خيبر عدته لحرب المسلمين ، ومكر بعبد الله بن رواحة رسول النبى إليه ، وكاد يفتك به ، كما أجرى اتصالات مع عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين بالمدينة .

فى سنة ٧ سار النبى ومعه نحو ألف أربعمائة من أصحابه ، صوب حصون خيبر ، وكان اليهود لا يتوقعون مقدم المسلمين ، ودارت رحى المعركة ، وأصيب بعض الحصون عنوة ، وأصيب بعضها الآخر صلحًا ، فمن الحصون التى أصيبت عنوة الشق والنطاة وناعم والصعب بن معاذ ، ومن الحصون التى أصيبت صلحًا الوطيح والكتيبة والسلالم .

---

(١) سورة الأحزاب : ٢٥ - ٢٧

أضحت الحصون المفتتحة عنوة ملكًا للمسلمين ، أما الحصون التى افتتحت صلحًا ، فاتفق المسلمون مع أهلها ، على أن يصير لهم نصفها ، وعلى هذه الحال تم الاتفاق مع أهل فَدَك .

كان من جملة أسرى خيبر صفية بنت حيي بن أخطب النضرية التى خيرها رسول الله بين أن يعتقها ويتزوجها ، أو يردها إلى أهلها ، فاختارت أن تصير زوجًا له ، وأصبحت من أمهات المؤمنين .

يقول تعالى فى شأن خيبر : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آيةً للمؤمنين ويهديكم صراطًا مستقيمًا ﴾(١).

لم يكن معنى الصلح انتهاء خطر اليهود تمامًا ، فقد أهدت زوجة أحد زعمائهم إلى رسول الله شاة فجلس وأصحابه يأكلون ، ولما أخذ منها لم يستسغها ولفظها ، وهلك واحد من أصحاب ، لكن رسول الله عفا عن اليهودية .

٥ - تحقيق الوحدة السياسية - الدينية للعرب :

(أ) كتب الرسول إلى ملوك عصره وأمرائه :

كان من نتائج صلح الحديبية فى سنة ٦ أن تفرغ رسول الله إلى مخاطبة ملوك عصره وأمرائه ، داخل الجزيرة العربية وخارجها ، يدعوهم إلى دين الله ، ولا شك أن فى ذلك تأكيدًا لعموم رسالة الإسلام وعالميته التى لا تتوقف عند حد الحجاز وحده أو قبائله وحدها .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة فى غير موضع ، فورد فى سورة الفرقان : ﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٠

نذيرًا ﴾(١) . وفى سورة سبأ : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٢) . وفى سورة الأعراف : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾(٣) .

أرسل رسول الله كتبًا إلى أمراء العرب ، فصدق بعضهم وأسلم ، مثل المنذر بن ساوى امير البحرين ، وجيفر وعباد ابنى الجُلَنْدَى أميرى عمان ، كما أسلم بنو عند كلال من أمراء اليمن .

على أنه كان من العرب من رفض دعوة الإسلام ، مثل أمراء اليمامة من بنى حنيفة ، وأمراء غسان الذين لم يكتفوا بذلك ، بل إن أحدهم قتل الحارث بن عمير الأزدى ، رسول النبى إلى صاحب بصرى .

ومثلما تفاوتت ردود العرب على رسول الله تفاوتت ردود غير العرب، فإن نجاشى الحبشة – فيما يروى – أعلن إسلامه ، أما هرقل ملك الروم فإن الإخباريين يذكرون أنه رد على كتاب الرسول إليه ردًا حسنًا ، وادعى أنه يؤمن به وبرسالته ، لكن الروم لم يوافقوه فيما يذهب إليه .

أما عن كسرى ملك الفرس فقد رد على كتاب النبى إليه بأن مزقه ، وبعث إلى بإذان عامله على اليمن ، يأمره بأن يأتى له بمحمد . وقد رد النبى على ذلك بقوله : " مزق الله ملكه " .

ورد المقوقس (قيرس) حاكم مصر ردًا حسنًا يشبه رد هرقل ، وبعث مع رسول النبى إليه بهدية ، منها مارية القبطية التى أنجب منها رسول الله ولده إبراهيم .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٨

(ب) غزوتا مؤتة وتبوك وحملة أسامة :

كان قتل شرحبيل بن عمرو الغسانى للحارث بن عمير الأزدى السبب فى أن جهز رسول الله حملة فى جمادى الأول من سنة ٨ ، جعل عليها مولاه زيد بن حارثة ، وبلغت عدة هذه الحملة ثلاثة آلاف ، وكانت وصيته لقائدها دستورًا لمعاملة المسلمين لغير المسلمين فى حروبهم .

عندما وصل المسلمون إلى بلدة – معان فى أرض البلقاء ، بلغهم خبر مائة ألف من الروم احتشدوا لهم ، ومعهم مائة ألف آخرون من بهراء ووائل وبكرو لخم وجذام وبلى ، فتردد المسلمون فى قتالهم ، وفكروا فى أن يكتبوا إلى رسول الله يسألونه النصيحة ، على أنهم عدلوا عن ترددهم ، ومضوا فى سيرهم ، فوصلوا إلى مؤتة ، ودار قتال استشهد فيه زيد بن حارثة ، فخلفه جعفر بن أبى طالب فاستشهد أيضًا ، فخلفه عبد الله بن رواحة ، فتابعه فى الاستشهاد فاختار المسلمون خالد بن الوليد قائدًا لهم ، فاستطاع أن يعود بهم إلى المدينة وقد سلم أكثرهم .

أدت عودة المسلمين من مؤتة دون أن يحققوا نصرًا على الروم ، ومن شايعهم من العرب ، إلى عزم رسول الله ﷺ على الرد بغزوة يتولاها بنفسه ، خصوصًا وأن الروم عاودوا جمع جموعهم ، ومعهم قبائل من لخم وجذام وغسان .

بعد فتح مكة فى سنة ٨ أرسل النبى إلى القبائل يحثها على الجهاد ، فهرع إليه الكثيرون ، كما لبى بعضهم دعوته إلى بذل المال للنفقة على الجيش ، وبلغ نصيب عثمان بن عفان رضى الله عنه فى هذه النفقة – على ما يقال – مقدار الثلث .

خرج الرسول إلى الشمال ومعه ثلاثون ألفًا فى أول رجب من سنة ٩ ، وتخلف عن الخروج عدد من المنافقين على رأسهم عبدالله بن أبى بن سلول .

سار الرسول حتى وصل إلى تبوك ، فصالحه أهلها على الجزية ، ثم شاور أصحابه فى التقدم ، فأشاروا بالرجوع والعودة ثانية إذا شاء الله .

توافد على رسول الله فى تبوك بعض الأمراء المجاورين ، ومنهم يُحنه ابن رُؤبة صاحب أيلة ، فصالحه الرسول على ثلاثمائة دينار ، وصالح أهل جرباء وأذرح كل منهم مائة دينار ، أما أهل مقنا وكان يهودًا ، فصالحهم على ربع غزولهم وربع ثمرهم .

كذلك أرسل الرسول خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وملكها الذى كان يدين بالنصرانية أُكيْدر بن عبد الملك الكندى ، فسلم مدينته للمسلمين ، وصالحهم على أن ينزل لهم عن ألفى بعير و ثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح .

بعد حجة الوداع فى سنة ١٠ عاود رسول الله التفكير فى حملة جديدة إلى بلاد الشام ، فجهز جيشًا جعل عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، واختياره لهذا الفتى – وكان حديث السن – قائدًا لجيش ضم عددًا من كبار الصحابة أمر له مغزاه ، فوالد أسامة قتل على أيدى من سوف يذهب اليهم ولده .

عاود رسول الله نصح أسامة بمثل ما نصح به أباه ، من حيث التعفف عن قتل صغار السن والشيوخ والنساء ، وقتال من يتصدى له فحسب .

كان أسامة على أهبة الرحيل بالجيش ، حين أتاه خبر اشتداد المرض على رسول الله ثم وفاته .

رغمًا عما جرى من ردة الأعراب بعد وفاة الرسول واضطراب أمر المسلمين ، إلا أن أبا بكر الصديق أصر على أن ينفذ أمرًا إعتزمه النبى ، وعلى ذلك خرج أسامة فى ربيع الثانى ، فسار إلى أرض البلقاء ، حتى وصل إلى أُبنى ، وهى قرية قريبة من مؤتة التى استشهد فيها أبوه ، وقضى على مقاومة أهلها ، وعاد بالغنائم إلى المدينة ، بعد أن استغرقت حملته شهرين .

أدت حملة أسامة إلى الأخذ بثأر المسلمين الذين استشهدوا فى مؤتة ، وفى الوقت نفسه أمنت تخوم المسلمين مع الروم ومن أعانهم من نصارى العرب ، كما إنها كانت مقدمة للفتوح الإسلامية العظيمة فيما بعد ، هذا إلى أن حملة أسامة وعودتها ظافرة من الشام كان لها أثرها الإيجابى فى الروح المعنوية للمسلمين فى نضالهم ضد المرتدين .

(جـ) عام الوفود وإتمام الرسالة :

يقول ابن هشام (ت ٢١٨هـ) " لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه " .

دعى العام التاسع للهجرة بعام الوفود ، لأنه فى هذا العام أرسلت أغلب قبائل العرب إلى رسول الله وفودًا تبايعه على الإسلام .

يقول تعالى : فى سورة النصر " ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾

أحسن الرسول لقاء هذه الوفود ، فكان يرحب بهم ويحسن إليهم ، ويعرفهم بشئون دينهم ، فيعودون إلى قبائلهم ، وينشرون الإسلام فيها .

كان أول هذه الوفود وفد ثقيف التى كانت محاصرة فى الطائف عقيب غزوة حنين ، فلقيهم المغيرة بن شعبة - وهو من ثقيف - ثم صحبهم إلى رسول الله ، فما زال بهم حتى أعلنوا إسلامهم وصحبهم فى عودهم المغيرة وأبو سفيان ، وبادر الأول لدى وصوله إلى الطائف إلى هدم اللات وقد صارت ثقيف - بعد - من أشد القبائل حماسة للإسلام ودفاعًا عنه .

تتابعت وفود العرب إلى المدينة بقية عام ٩ وعام ١٠ ، منهم بنو أسد ابن خزيمة وبنو تميم وحمير وفزارة وبلى وبهراء وعذرة . على أنه ظلت بقية من العرب ، لم تعلن إسلامها بعد ، فأنزل تعالى سورة براءة ، ليمهل هؤلاء أربعة شهور يحاربون بعدها .

قرر رسول الله أن يحسم أمره مع من أعطاه عهدًا من العرب فى موسم الحج سنة ٩ ، وليبلغهم أيضًا بما أنزله الله فى سورة براءة ، وأوكل هذه المهمة إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأعلن بدوره أنه لن يحج بعد هذا العام مشرك، ولن يطوف بالبيت عريان، وأما من له عهده فإلى مدته.

تتابعت وفود العرب إلى المدينة فى العام العاشر ، وكان معظم هذه الوفود يمانية ، من بينها الأزد وزبيد وخولان ومراد وكندة وحضرموت وغسان وغامد وطئ .

وفدت أيضًا وفود من غير اليمانية كوفد بنى حنيفة ، برئاسة مسيلمة بن حبيب ، فأسلموا وعادوا إلى اليمامة ، على أن مسيلمة لم يلبث أن أعلن أنه شريك محمد فى النبوة ، وأن له نصف الأرض ولقريش نصفها ، ورد عليه رسول الله ، ففند دعواه ودعاه بالكذاب .

فى الوقت نفسه بعث رسول الله بعض قواده إلى القبائل البعيدة ، فبعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب فى نجران يدعوهم إلى الإسلام أو يقاتلهم ، فاستجابوا وعاد خالد إلى المدينة ، ومعه وفد منهم بايعوا الرسول وأكدوا إسلامهم .

وبادر نصارى نجران ، فأرسلوا وفدًا إلى المدينة معلنين بقاءهم على نصرانيتهم ، وصالحهم الرسول على ألفى حلة كل عام ، وأن يساعدوه إذا وقعت حرب فى اليمن ، وظل أهل نجران نصارى حتى وفاة الرسول .

أصبحت بلاد اليمن فى معظمها إسلامية ، فأوفد رسول الله أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل ، يعلما هم أمور دينهم .

أما من ظل على الوثنية من أهل اليمن ، فقد أرسل النبى إليهم على بن أبى طالب فى ثلاثمائة فارس ، فأصاب قومًا من مذحج ، لم يلبثوا أن أسلموا ،

وكتب على إلى رسول الله بذلك ، وفى المحرم من سنة ١١ جاء آخر وفود اليمن ، وهو وفد النخع .

فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ١٠ سار الرسول من المدينة إلى مكة ، قاصدًا الحج ، وصحبه فى رحلته نحو مائة ألف من المسلمين ولدى وقوفه بعرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة ألقى خطبته المشهورة ، التى بها تمت رسالته عليه الصلاة والسلام ، وانزل الله تعالى الآية الكريمة : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾(١) .

مما قاله رسول الله فى خطبته : " أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى " .

بعد انتهاء الحج عاد رسول الله إلى مكة راضيًا ، فقد أنجز رسالة ربه ، ولأول مرة لم يحضر إلى الحج أحد من الوثنيين ، واطمأن رسول الله إلى أن دين الله أضحى دين العرب ، ماخلا عددًا قليلاً بقى على دينه النصرانى القديم .

بعد شهرين من عودة الرسول إلى المدينة ، أصيب بالمرض ، فصبر عليه أيامًا ، فلما اشتدت به الحال ، طلب من أبى بكر أن يصلى بالناس ، فصلى بهم إماما ... ثم توفى رسول الله ﷺ فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١١هـ/٨ من يونيو سنة ٦٣٢م ، وكان فى الثالثة والستين من عمره .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣

الفصل الثالث

الخلافة الراشدة

١ - الخلافة وتطورها :

كانت المشكلة الأولى التى جبهت الجماعة الإسلامية ، بعد وفاة النبى ﷺ هى الخلافة ، فقد اختلف المسلمون بشأنها ، بل وقبل أن يتم دفن نبيهم ، وما يزالون حتى يومنا هذا مختلفين .

والحقيقة أنه لم يحظ مبحث من مباحث الحضارة الإسلامية باهتمام المسلمين ، قدر هذا المبحث ، وفى الوقت نفسه لم يختلف المسلمون فى مبحث من مباحث هذه الحضارة ، قدر اختلافهم فيه .

نشأت الدولة الإسلامية عقب الهجرة ، نتيجة لتطور مفهوم السيادة ، من القبيلة إلى الأمة ، التى تعبر الدولة عنها .

وليس ثم ضرورة لأن نؤكد على أن الإسلام بطبيعته الفارقة عن غيره من الأديان دين ودنيا وهما معًا نسيج واحد ، يصعب بل ويستحيل فصلهما ، ولا بد للجماعة الإسلامية الناشئة من دولة تسوسها ، والآن وقد مات رئيس هذه الدولة ، كان على المسلمين أن يفكروا فيما تصير إليه حالهم .

أدرك المسلمون أن دينهم لم يحدد نظامًا معينًا ، تتداول به السلطة ، كما لم يحدد تفاصيل هذه السلطة وكيف تمارس ، وإنما أتى تناوله لهذه المسألة على الإجمال ، وما دام الأمر كذلك فلا بد من الاجتهاد .

هناك خطأ كبير يقع فيه بعض مؤرخينا ، عندما يضعون تصورًا عامًا للنظرية السياسية الإسلامية ، وأهم معالمها وهو الخلافة ، فيبدأون بتفاصيل معينة ، مثل صفات الخليفة وطريقة اختياره وأسلوبه فى ممارسة سلطاته ، ثم هم بعد ذلك يبدأون فى عرض الأحداث السياسية المرتبطة بهذه التفاصيل ،

وما ترتب عليها من منازعات بين أدعياء الخلافة بعضهم وبعض ، وما نشب من ثورات أعقبها قيام دول وغير ذلك .

والحقيقة أن الأحداث التاريخية - السياسية على نحو خاص - سابقة للأفكار ، والفقهاء الأول الذين تعرضوا لمشكلة الخلافة ، ظهروا بعد فترة طويلة من قيامها ، فجاء تقنينهم للنظرية السياسية الإسلامية محصلة للظروف الزمانية السابقة لهذه النظرية والمحيطة بها ، ومع أن مصادرهم فى تشريعهم كانت هى المصادر الشرعية من قرآن وسنة ، إلا أن طريقة التعامل مع هذه المصادر ، تأثرت بأحداث التاريخ الإسلامى ، منذ وفاة النبى عليه الصلاة والسلام وسير خلفائه ، وما شجب من نزاعات تأثر بها هؤلاء الفقهاء على نحو أو آخر ، ثم هم تأثروا بالثقافات الأجنبية التى استوعبتها الحضارة الإسلامية وتمثلتها ، بحيث أصبحت جزءًا منها .

هذه الأفكار المتصلة بمشكلة الخلافة لم تكن فى أذهان المسلمين حين دهمتهم الأحداث ، ونبيهم الكريم لم يتوسد التراب بعد .

المشكلة كانت بسيطة للغاية ، وتتحدد فى أن صاحب السيادة على هذه الأمة الناهضة مات ولم يعد لهذه السيادة صاحب .

على أن المشكلة إلى جانب كونها بسيطة كانت أيضًا خطيرة ، بسبب مارافقها من تمرد، قامت به قبائل البادية، وحصارها للمدينة فيما بعد، وادعاء بعض زعمائهم وراثة النبوة ، بل إن منهم من ادعاها قبيل وفاة النبى عليه الصلاة والسلام .. فى الوقت نفسه كان المسلمون مختلفين فيما بينهم ، لمن تكون السلطة ؟ فانقسموا أحزابًا ، لكل حزب مبرراته ، وله أيضًا أنصاره.

(أ) بيعة أبى بكر :

اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، واختاروا للخلافة سعد بن عبادة سيد الخزرج ، ووصل الخبر إلى كبار الصحابة الذين كانوا مشغولين إذ ذاك بخطب جلل ، هو تجهيز النبى ﷺ .

تشاور الصحابة فى الأمر ، ثم هرع ثلاثة منهم ، هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى السقيفة ، من أجل أن يتداركوا الأمر .

كانت حجة الأنصار نصرتهم لرسول الله ، وأنه بدونهم لم يكن يستطيع لدعوته نجاحًا ، ولا أدل على ذلك من أن ثلاث عشرة سنة قضاها فى مكة ، لم يتمكن خلالها من أن يجمع قومه على دين الله ، ولم يطاوعه فى هذا الشأن سوى قلة .

وكانت حجة المهاجرين أنهم أول المسلمين ، وهم الذين تحملوا الصدمة الأولى ، وهى مناهضة قريش لدعوتهم واضطهادها لهم ، ثم تصديهم لهذا الاضطهاد وصمودهم إزاءه ، هذا الصمود الذى كانت فيه نجاة الدعوة الإسلامية ، ثم هم فى الوقت نفسه أهل صاحبها .

الصراع إذن بين المهاجرين والأنصار على السلطة ، لم يكن بين حق وباطل ، إنما كان صراعًا بين حقين أحدهما أكبر من الآخر .

وقد أحسن أبو بكر طرح القضية ، حين أوضح حق المهاجرين ، وفى الوقت نفسه لم يغمط فضل الأنصار ، بل نوه إلى هذا الفضل ، وأثره فى إنجاح الدعوة لدين الله .

على أن ثمة عوامل ثانوية جعلت الميزان يميل إلى المهاجرين ؛ أولها ما كان من تنافس بين قبيلتى الأنصار - الأوس والخزرج - هذا التنافس الذى كان متناميًا تحت السطح وإن كان رسول الله قد حجبه فترة ، فقد خشيت الأوس التى كانت قبيل مقدم الرسول هى الطرف الضعيف فى معادلة الصراع بينهما وبين الخزرج ، خشيت الأوس أن يصير الأمر إلى الخزرج .

عندئذ بزغت الفكرة السابقة ، وهى معاودة الطاعة لشخص آخر محايد، ليس من الأوس ولا من الخزرج .

وكان رفيقا أبى بكر إلى سقيفة بنى ساعدة على مستوى الموقف ، وعبر أبو عبيدة عن ذلك ، حين أثار فى الأنصار حميتهم فى أسلوب به قدر من العتاب : " يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير " .

وكأنما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عمر بن الخطاب بمبادرة أنهى بها تردد الأنصار ، وجعلهم أمام أمر واقع ، فنهض إلى بيعة أبى بكر ، وتلاه أبو عبيدة .

عندئذ تقدم بشير بن سعد - من الخزرج - إلى البيعة ، فتبعته الأوس ، لأنها خشيت أن تسبقها الخزرج كافة ، وما لبث أن أسقط فى أيدى الخزرج ، فبادروا إلى البيعة ، وتتابع المسلمون يبايعون .

أما سعد بن عبادة فإنه غضب لما جرى ولم يبايع .

يذهب بعض المستشرقين إلى تدبير سابق - أو بالأحرى مؤامرة - بين أبى بكر وبين رفيقيه عمر وأبى عبيدة . ولا نستطيع أن نتقبل هذا الرأى ، لأنه لم يرد خبر بشأنه فى مصادرنا ، ثم إن تصديقه يؤدى بالضرورة إلى تغيير الصورة التى نعلمها عن هؤلاء الثلاثة الأجلاء ، وهو ما نعتقد أنه هدف هؤلاء المستشرقين .

وينفى الأستاذ العقاد (ت ١٩٦٤م) وجود مؤامرة مثل تلك ، فليس من خلائق هؤلاء الثلاثة ما يؤيدها ، وهم - جميعًا - فوجئوا بوفاة الرسول ، فأبو بكر لم يكن قريبًا من بيته ولا مسجده ، حين أمر الرسول بلالاً أن يدعوه إلى الصلاة بالناس ، كما إن عمرًا كان دهشًا لنعى الرسول ، دهشة من لم يكن على أهبة التدبير لأمر ما ، ثم إنهما إلتقيا بأبى عبيدة لقاء مصادفة على الطريق .

دعيت البيعة فى سقيفة بنى ساعدة بالبيعة الخاصة، لأنه لم يحضرها من المهاجرين سوى نفر قليل ، وفى اليوم التالى جلس أبو بكر فى المسجد ، وبايعه الناس البيعة العامة أو الكبرى .

تخلف عن البيعة - كما تحكى بعض المصادر - على بن أبى طالب وعدد آخر من الصحابة ، ولدينا تفسيرات قد تبدو متناقضة لمواقف هؤلاء ... ليس هنا مجال بحثها ، ثم إن تخلف على أو غيره عن بيعة أبى بكر لايدنى من تقديرنا لهم ، ولا يغير من صورتهم عندنا .

خطب أبو بكر فى المسجد بعد بيعته خطبة ، تعد من جوامع الكلم ، ثم إنها تعبير عن المفهوم السائد فى ذلك الوقت لوظيفة السلطة فى الدولة الإسلامية .

قال أبو بكر : " أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى ، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى ، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله " .

كان صحابة رسول الله ﷺ جيلاً من المسلمين لا يقاس عليه ، ولا يتكرر فى زمن من الأزمان ، وليس من اليسير أن نفاضل بين أفراد هذا الجيل بعضهم وبعض ، فأحدهم لا يحجب الآخر - كما يقول العقاد - وربما لم يكن أبو بكر أفضل هذا الجيل ، لكن كان أنسبه بالتأكيد لتبعة ثقيلة وجليلة هى خلافة رسول الله .

ويصعب هنا أن نحصر المؤهلات التى جعلت أبا بكر خليفة للمسلمين ، فهو أول من آمن من الرجال ، أسلم بإسلامه عدد من أعيان قريش كعثمان

والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف ، ثم هو لم يتخلف عن غزوة واحدة غزاها رسول الله ، وثبت إلى جواره فى أحد وحنين ، وأعان الإسلام - وكان ثريا - بماله .

إلى جانب ذلك كان أبو بكر رفيق النبى فى هجرته ، والنصيح الأول له فى المدينة ، وزاد من هذا الرباط أن زوجه ابنته ، فصارت الزوج الأثير لديه ، وأخيرًا وليس آخرًا ، كان أبو بكر هو الذى صلى بالمسلمين عدة أيام إبان مرض الرسول ... ولا شك أيضًا أن اشتغال أبى بكر بالتجارة أضاف إليه خبرات مفيدة تعينه فى شئون الحكم .

كانت بيعة أبى بكر علامة هامة على طريق الجماعة الإسلامية الناهضة ، وشاركت بسهم وافر فى تحديد أبعاد النظرية السياسية الإسلامية .

هى أولاً حددت المسمى الذى درج عليه المسلمون فيما بعد لرئيس جماعتهم ، وهو مسمى خليفة ، هذا المسمى ليس مجرد شكل ، إنما هو ينبئ عن مضمون هام ، يبعد به عن أن تكون الخلافة مجرد الحكم ، بما كان يعنيه مفهوم الحكم فى تلك العصور من استبداد بفكر معين وطاعة تصاحب هذا الفكر وتبرره .

إذا بحثنا فى لفظة خلافة ، وجدنا مادتها اللغوية فى الفعل خلف ، وهو فعل لا يتطابق بالضرورة مع فعل حكم وهو مادة حاكم ، ولا فعل ملك وهو مادة ملك .

الخلافة هى باختصار تداول شيء بين اثنين ، وقد لا يكون هذا الشيء حكمًا ، كما قد لا يكون ملكًا .

إذا ... فماذا تعنى الخلافة عند المسلمين ؟ ...

تعنى الخلافة أن مسئولية رسول الله ﷺ الدينية انقضت بوفاته ، وتبقت مسئوليته الزمنية التىعهد بها إلى واحد من المسلمين .

بعبارة أخرى إن الحكومة الدينية قد انتهت بوفاة الرسول ، ولم تحل مكانها حكومة علمانية لا شأن لها بالدين ، إنما حلت حكومة مدنية تمارس سلطاتها من خلال المفاهيم الدينية .

النقطة الثانية هى تحدد شخصية الحاكم فى قبيلة قريش ... صحيح أن أبا بكر كان من تيْم ، وهو بطن لم تكن له نباهة قبل الإسلام ، لكنه صار مبدأ اتفق عليه كثرة المسلمين فيما بعد، وتحقق تاريخيًا حتى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، هذا المبدأ هو أن تبقى الخلافة فى قريش وينسب إلى رسول الله أن قال : " إن هذا الأمر فى قريش ، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين ".

النقطة الثالثة ، هى إن هذا الحاكم – أى الخليفة – يدين بسلطته للأمة التى جاءت به رئيسًا عليها ، لكن سلطته هذه ليست مطلقة ، إنما هى ترتبط بارتباطه هو بدستور هذه الأمة وهو دينها ، فإذا التزم بهذا الدين الالتزام الواجب ، فإن طاعته ملزمة ، وإذا لم يلتزم فإن المسلمين فى حل من طاعته ... توضح ذلك الآية الكريمة : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾(١) . فالطاعة لله ثم لرسوله تسبق الطاعة لأولى الأمر ، وتناقض الطاعة الأخيرة مع ما سبقها ينفى إلزامها للمسلمين ، لأنهما – الله ورسوله – مقدمان عليها . وقد أوضح أبو بكر ذلك فى خطبته ، فيقول : " أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم " .

الفقه السياسى الإسلامى سبق الفقه السياسى الحديث فى مفهوم أن الأمة هى مصدر السلطات ، لكنه كان أكثر تحديداً ، إذ وصفها بالأمة الإسلامية ، أى إنها ترتبط بالإسلام قرآنًا وسنة .

يقودنا ذلك إلى مبدأ رابع وهو مبدأ الشورى ، وربما كان هو التعبير الإسلامى عن الديموقراطية ، وشاهدنا رسول الله ﷺ يلتزم بهذا المبدأ فيما لم

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩

يرد فيه نص من القرآن الكريم ، ولم يتخل عنه ، حتى عندما كان الالتزام بـه يؤدى إلى أضرار أصابت المسلمين .

يتضح هذا المبدأ فى أن أبا بكر لم يفـرض نفسه رئيسًا بقـوة السيف ، خصوصًا وأن معظم من اجتمعوا فى السقيفة كانوا من الأنصار الذين أمروا عليهم سعد بن عبادة .

اختار المسلمون أبا بكر بعد مناقشة حرة كانت الحجة فيها تقرع الحجة ثم إن أبا بكر أكد هذا المعنى، حين قال فى مستهل خطبته : " قد وليت عليكم، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى " فهو هنا يتواضع ويقرر إن هناك آخرين أفضل منه .... بعبارة أخرى هناك آخرون كان يمكن أن تكون الخلافة فيهم .

فى الممارسة العملية لم يسع أبو بكر خلال السنتين اللتين ولى فيهما حكم المسلمين إلى أن يفرض رأيًا على المسلمين لا يرضون عنه ، وفى الوقت نفسه كان يستشيرهم أو يستشير الجلة منهم فيما يعن له من أمور .

تلك هى المبادىء العامة التى تمخضت عنها بيعة أبى بكر ، ومن أسف إن أركانها الأساسية ، وهى وراثة الجانب الزمنى من سلطة رسول الله ﷺ والقرشية والطاعة المشروطة والشورى ... هذه المبادىء لم يعد أحد يحفل بثلاثة منها بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين ، وإن تبقى على مدار التاريخ الإسلامى كله قرشية الخليفة .

(ب) عثمان :

قبل موت أبى بكر أوصى بالخلافة إلى عمر، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن سأل عددًا من وجوه الصحابة ، فوا فقوه جميعهم فى مذهبه بل إن عثمان قال: " اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس بيننا مثله " .

كان عمر قد أمضى عشر سنوات خليفة للمسلمين ، حين أصابته طعنات أبى لؤلؤة فى ذى الحجة من سنة ٢٣ ، وكانت الطعنات أقوى من أن يحتملها جسده رضى الله عنه . فلما شعر بدنو أجله ، فكر فيمن يخلفه ، فأوصى بستة من الصحابة هم بقية المبشرين بالجنة ، يكون الخليفة أحدهم ، وهم عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وأضاف إليهم ولده عبد الله بن عمر ، على أن لا يكون له من الأمر شىء .

أوصى عمر أيضًا بأن تصير الخلافة فى الفريق الذى يضم عبد الله بن عمر ، فإذا لم يتفقوا فليكن الأمر فى الفريق الذى يضم عبدالرحمن بن عوف. وأعطى عمر هذه اللجنة – إذا صح التعبير الحديث – ثلاثة أيام مهلة ، تتدبر الأمر بعد وفاته .

مات عمر واجتمع القوم ينظرون الأمر ، ومضت الأيام الثلاثة ، دون أن يتفقوا على اختيار أحدهم ، على أنه بدا واضحًا أن المرشح سوف يكون عليًا أو عثمان ، ووصل الاختلاف إلى المسلمين ، وكاد أن يقع بينهم شر ، لولا أن تدارك الأمر عبد الرحمن بن عوف ودعا عليًا وقال له : " عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده " قال : " أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى " ، ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قاله لعلى ، فقال عثمان : " نعم " فبايع ، وبايعه المسلمون بعده .

واضح أن الاختيار كان صعبًا بين شخصيتين كبيرتين ، اجتمعت فى كل منهما صفات يندر أن تجتمع فى أحد من المعاصرين ، وربما كان ذلك أساسًا للمشكلة التى ظهرت بعد سنوات ، لأنه إذا كان الفارق واضحًا فى البداية بين هاتين الشخصيتين ، لتيسر للمسلمين عنصر المقارنة ، لكن هذا الفارق لم يكن واضحًا .

الفارق الوحيد بينهما كان يكمن فى إجابة كل منهما على سؤال عبدالرحمن بن عوف وإجاباتاهما كانتا صحيحتين ، وتتفقان مع ماضيهما والسياق. فعلى تعهد بأن يعمل بمبلغ علمه وطاقته ، وهذا ليس عيبًا ، إنما هو مزية ، وعثمان تعهد بأن يعمل بكتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الخليفتين بعده ... وهذا أيضًا ليس عيبًا ، إنما هو مزية .

ويذهب البعض ممن تأثروا باتجاهات المستشرقين إلى تحميل الأمر أكبر من كان فى ذهن عبد الرحمن بن عوف ، وتصوروا أنه كان منحازًا إلى عثمان ، والحق أنه كان شخصية كبيرة أمام مشكلة كبيرة ، وهى الاختيار بين شخصيتين كبيرتين ، كل منهما جدير بحكم أمة ، فحاول علاجًا للموقف وحسمًا له ، بأن يأخذ بظاهر رد كل منهما ، وكان رد عثمان مرجحًا لاختياره .

كان عثمان فى سن عالية ، إذ هو يصغر النبى بخمس سنوات أو ست، اتصف بالكرم والإحسان يصوم دهره ، أسلم فى فترة باكرة ، وتزوج إحدى بنات النبى ، فلما ماتت تزوج أختها ، إلى أن ماتت ، فلقب بذى النورين . وكانت منزلته جليلة عند المسلمين ، شهد معظم المغازى ، وكانت شائعة مقتله إبان الحديبية السبب فى بيعة الرضوان التى كادت أن تؤدى إلى قتال بين المسلمين والكفار ، وأسهم بماله فى إعداد الجيش الذى دعى بجيش العُسْرَة إلى تبوك ، وتولى فى عهد أبى بكر وعمر مهمة المشورة .

استطالت مدة عثمان إثنى عشر عامًا ، مضت السنوات الأولى فى هدوء ، واستمرت حركة الفتوح التيبدأت فى عهد الصديق ، واشتد ساعدها فى عهد الفاروق ، على أنها فى هذه السنوات امتدت امتدادًا واسعًا .

فى سنة ٣٥ استشهد عثمان ، فافتتح باستشهاده باب الفتنة بين المسلمين ، ولم يغلق هذا الباب حتى الآن .

والحقيقة أن المسلمين طوال تاريخهم لم تشغلهم حادثة ، مثلما شغلتهم هذه الحادثة والسنوات التى تلتها حتى استشهاد على فى سنة ٤٠ ويصعب احصاء ما كتب فى هذا الشأن ، ووجهات النظر المختلفة فى معالجتها . وسوف ننحو هنا فى عرضها نحو الاختصار .

نتساءل ... لماذا قتل عثمان !؟

إن قتل عثمان ثم قتل على بعده جاء نتيجة طبيعية لانقضاء عصر وبزوغ عصر آخر ، يختلف عنه فى الملامح والقسمات .

يقول الأستاذ العقاد : " وما كان أحد ليطمع فى بقاء عصر الخلافة على سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأن اطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة الإنسان " .

كيف كان ذلك ؟

فى أعقاب الردة بدأت الفتوح الإسلامية الكبيرة ، وترتب عليها أن تدفقت الثروات إلى المدينة المنورة ، فغيرت من طباع كثير من المسلمين ، الذين كانوا فى عصر سابق أبعد الناس عن الدنيا وشهواتها .

فى الوقت نفسه نشأت فى الأمصار طبقتان ، تملكت إحداهما القصور والضياع ، وصارت لها عصبيات ترتبط معها بالمصلحة ، وطبقة أخرى معدمة معظمها من البدو الذين أحسوا بأن قريشًا حصلت على حق ليس لها ، أو أنها استأثرت به دونهم .

كان أبو بكر بثاقب بصره يدرك خطورة هذا الأمر ، فآثر أن يبقى الصحابة عنده فى المدينة ، ولا يفرقهم فى الأمصار ، بل إنه عندما سئل لم لم يول أهل بدر . قال : أكره أن أدنسهم بالدنيا .

أما عمر فقد تابع أبا بكر في سياسته وتشدد فيها ، وفي ذلك يقول الشعبي (ت ١٠٣هـ) " لم يمت عمر حتى ملته قريش ، وكان حصرهم بالمدينة وقال: إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم في البلاد " .

عندما ولي عثمان عدل عن سياسة الشيخين ، فسمح للصحابة ولغيرهم من أهل المدينة بالخروج إلى الأمصار ، وكان يرى في خروجهم مصلحة للإسلام ، الأكثر من ذلك أنه توسع في اختيار ولاته من بين أقربائه بني أمية، من منطلق أنهم سوف يعينونه بحكم الإسلام أولاً والقرابة ثانيًا .

على أن ما ذهب إليه عثمان كان - حسب تعبير العقاد - اجتهادًا أخطأه الصواب ، فقد ترتب على هذه السياسة أن ظهرت حال من التذمر في الأمصار ، وتزعم هذا التذمر نفر من صحابة رسول الله الذين ساءهم الوضع الجديد .

كان على رأس هذا النفر عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري ..

كان أبو ذر من جلة الصحابة وأكثرهم شدة في الحق ، وراعه ماشاهده من معاوية - والي الشام - واحتجانه الأموال دون المسلمين ، وقد افتتن الفقراء بأبي ذر ، والتفوا حوله ، فرفع معاوية الأمر إلى عثمان الذي نفى صاحب رسول الله إلى الربذة ، فظل بها إلى أن مات في سنة ٣١ .

لم ينته السخط بموت أبي ذربل تصاعد ، ويروى أنه ظهرت في هذا الإبان شخصية أعانت في تأجيج نار الفتنة ، هي شخصية عبد الله بن سبأ .

تقول الرواية أن عبد الله هذا - وقد عرف بابن السوداء - كان يهوديًا من أهل صنعاء ثم أسلم ، وانصرف بعد هذا الإسلام الظاهري إلى الإساءة إلى الإسلام ، من خلال الإساءة إلى عثمان ، فأشاع أنه اغتصب حقًا اختص

به الله تعالى بيت النبوة ، وأخذ يدعو إلى مذهبه فى الأمصار ، فلما وجد بعض الاستجابة ، عكف على المبالغة إلى حد إضفاء صفات إلهية على على ابن أبى طالب رضى الله عنه .

يذهب باحثون محدثون إلى أن عبد الله بن سبأ غير موجود تاريخيًا ، غير أن ذلك لا يعنى أن اليهود كانوا بعيدين عن الفتنه ، والتجارب علمتنا أن كانت لهم علاقة على نحو أو آخر بكل النكبات التى أصابت المسلمين فى عصورهم كافة .

حاول عثمان أن يحتوى السخط الذى عم الأمصار الإسلامية فانتدب أربعة من رجاله لتقصى أسبابه ،أرسل أحدهم وهو محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار ابن ياسر إلى مصر .. وقد عاد ثلاثة من هؤلاء وقد أنهوا مهمتهم ، أما عمار فقد استماله المصريون .

كاتب أهل مصر أهل الكوفة والبصرة ، واتفقوا على الشخوص إلى المدينة ، فأتى من كل بلد ستمائة ، تباحثوا مع عثمان دون نتيجة ، فقد كانوا يطلبوا منه أن يخلع نفسه ، لكنه وجد فى ذلك تفريطًا فى أمانة استودعه المسلمون إياها .

لم يجد عثمان بدًا من أن يطلب مددًا من معاوية والى الشام ، فسارع الثوار إلى داره يقتحمونها ، ودار قتال دافع خلاله عدد من أبناء الصحابة عن خليفتهم ، وكان منهم محمد بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين إبنا على بن أبى طالب .

على أن الثوار نجحوا بعد حصار دام أربعين يومًا فى قتل عثمان يوم ١٨ ذى الحجة من سنة ٣٥ وانتهبوا داره .

(جـ) على ومعاوية :

بعد استشهاد عثمان اجتمع أهل المدينة ، وألحوا على على بن أبى طالب كى يلى أمر المسلمين ، وما زالوا به حتى قبل .

كان على أول من أسلم من الصبيان ، ابن عم رسول الله وزوج ابنته الوحيدة التى عاشت بعده وأبا أحفاده ، وله أياد على الإسلام لا تنكر ، فهو الذى بات فى فراش النبى حين هجرته ، وشارك فى جميع الغزوات عدا تبوك ، وروى عن رسول الله ، وكان مستشارًا لأبى بكر وعمر ، كما كان مرشحًا للخلافة مع عثمان .. إلى جانب ذلك كان أمينًا تقيًا فارسًا شجاعًا أديبًا شاعرًا.

لم يجمع أهل المدينة كلهم على بيعة على ، فقد تخلف عنها رجال ، مثل سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ، وبايعه طلحة والزبير عن كره .

رأى على أن يقضى على آثار الفتنة التى تسببت فى استشهاد عثمان ، وبدأ فى عزل ولاته الذين كانوا مصدر سخط للمسلمين ، ورفض معاوية العزل ، فخطب على فى أهل المدينة : " إن الذى كنت أحذركم قد وقع ، إنها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستنارت ، وإن من الخير القضاء عليها ، قبل أن يشتد أمرها " .

بينما على يتجهز لغزو الشام علم بأن بعض من أبوا بيعته أو بايعوا عن كره ، أقبلوا إلى مكة مخالفين له ، وكان على رأسهم طلحة والزبير والسيدة عائشة زوج النبى ، وأشيع أن لعلى يدًا فى قتل عثمان .

لم تكن لعلى يد فى قتل عثمان ، هذه حقيقة تجمع عليها مصادرنا جميعًا ، بل إن ولديه الحسن والحسين كانا يدا فعان عن داره ، حين حاصرها الثوار ، ثم إن مالدينا من أخبار عنه كرم الله وجهه تؤكد لنا أنه كان أبعد الناس عن الدنيا .

لماذا إذن الثورة على رابع الخلفاء الراشدين إمام المتقين ؟؟

إن الأسباب التى أدت إلى الثورة على عثمان ، ترتب عليها أسباب أدت إلى الثورة على على فمن أفادوا من وجود عثمان لم تتهيأ لهم فائدة من وجود على . على أنه يمكن أن نضيف إلى هذا الأسباب أسبابًا أخرى ، تتصل بطبيعة العصر وتأثر المسلمين بما كان سائدًا عند أمم غيرهم أعرق فى الحضارة من أعراف وعادات وطرائق فى الحكم ، تختلف عما كان سائدًا عند المسلمين قبل الفتوح . ويمكن أن نختصر هذا كله فى استمرار عملية التحول بخلافة رسول الله من شورى إلى ملك ، وكانت عملية كاسحة ، لا يستطيع أن يقف إزاءها رجل مثل على بن أبى طالب .

ولا نستطيع هنا أن نوزع الاتهامات ، فنقول أنه إذا كان على يمثل الحق ، فإن المعسكر المخالف له يمثل الباطل .

الحق إنهم كانوا كلهم - أوجلهم - صحابة أجلاء ، ولسنا نحن الذين نقوِّم مواقفهم ويلوح لنا أن الأحداث كانت أقوى منهم .

مما لا شك فيه كانت توجد مواقف شخصية وإحن لعبت دورها فى إشغال الفتنة ، فربما خرجت السيدة عائشة بسبب موقف على منها إبان حادثة الإفك ، ومن المؤكد أن المنافسة التقليدية بين بنى هاشم وبنى أمية كان لها أثرها فى عصيان معاوية .

على أن عليا وقع فى خطأ غير مقصود ، هو أنه تباطأ فى الثأر لعثمان من قتلته ، وكانت حجته - وهو صادق - التريث فى القصاص ، حتى تهدأ النفوس ، لأن هؤلاء كانوا كثيرين فى المدينة ، ويخشى أن يسفر التعجيل معهم عن فتنة .

خرج الزبير وطلحة والسيدة عائشة فى ستمائة ناقة ، وكانت وجهتهم البصرة ، ولحق بهم على بن أبى طالب الذى أبدى رغبته فى أن ينهى

الصراع سلمًا ، وترددت الرسل بين الفريقين . على أن الزمام كان قد أفلت ، لأن جيش على ضم بعض الثوار على عثمان ، فجرت المعركة قرب البصرة فى جمادى الآخرة من سنة ٣٦ ، أسفرت عن إنتصار على فى هذه الوقعة التى دعيت بوقعة الجمل ، نسبة إلى جمل السيدة عائشة واستشهد طلحة والزبير ، وأعاد على السيدة عائشة مكرمةً إلى المدينة .

دخل على البصرة ، وأخذ بيعة أهلها ، ثم انتقل إلى الكوفة ، وجعلها عاصمة لدولته ، وتأهب لخوض الصراع مع معاوية الذى راوغ فى أن يصرح ببيعته ، وأثار قضية مصرع عثمان واشترط على على أن يقتل قتلته.

سار على فى تسعين ألفًا للقاء معاوية الذى صحبه خمسة وثمانون وألفًا ، وفى صفين فى ذى الحجة من سنة ٣٦ دار قتال لاح النصر فيه لعلى .. عندئذ فكر معاوية فى خدعة .

كان عمرو بن العاص – وهو من دهاة العرب – قد إنضم إلى معاوية فقوى به ، وأشار عمرو بأن يرفع الجنود المصاحف على الرماح ، ويقولون " هذا كتاب الله حكم بيننا وبينكم " فتوقف القتال ، وكان ذلك أول مغنم لمعاوية، ثم انقسم أصحاب على بين مؤيد للتحكيم ومعارض له ، وكان ذلك هو المغنم الثانى .

عارض على فى التحكيم ، فقد رأى بثاقب بصره وبصيرته أنه خدعة ، لكن اضطر للقبول ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص حكمًا عنهم ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى الذى رضى على به عن كره ، إذ كان يفضل عبد الله بن عباس .

ذهب بعض أصحاب على إلى أن ليس من حقه أن يوافق على مبدأ التحكيم ، لأن هذه الموافقة تعنى أن يشك فى سلامة موقفه ، وبذا يسقط حقه فى الخلافة ، وأعلنوا أنه : " لاحكم إلا لله " ورفضوا – وكان عددهم اثنى

عشر ألفًا - أن يدخلوا معه إلى الكوفة ، ونزلوا بحروراء القريبة منها ، فخرج على إليهم وأقنعهم بدخول المدينة على أن هؤلاء عادوا إلى معارضة على ، حين أنفذ أبا موسى الأشعرى إلى حيث يجتمع مع عمرو بن العاص ، فكان إذا خطب فى المسجد يقاطعونه : " لا حكم إلا لله " فيرد عليهم : " كلمة حق أريد بها باطل " .

تردد على فى مواجهة المنشقين بالعنف ، وحاول أن يستبقيهم إلى جانبه أو على الأقل يحيدهم ، لكنهم خرجوا من الكوفة ، وانضم إليهم بعض أهل البصرة ، وانقلبوا إلى النهروان .

التقى الحكمان فى دومة الجندل ، وتباحثًا فى الأمر ، واتفقا على أن عثمان قتل ظلمًا ، وأن معاوية ولى دمه ، وله أن يطالب بثأره ، واتفقا على أن يخلعا عليًا ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسليمن .

وتذهب بعض الروايات إلى أن عمرًا خدع صاحبه أبا موسى ، فتركه يخلع عليًا ومعاوية ، وخلع هو عليًا وثبت معاوية .

لم يوافق على على نتيجة التحكيم ، فقد كان يرى أن الحق بجانبه ، وتوقع من الحكمين أن يقررا هذا الحق ، ونسى رضى الله عنه أن السياسة مصالح ، وأن الأفكار المثالية التى يعبر عنها ، لا تلائم ما استجد من أحوال.

بينما كان على يستعد لمعاودة الحرب علم بأن المنشقين عليه (وقد دعوا بالحرورية أو المُحكِّمة وفيما بعد بالخوارج) قد أعلنوا ثورتهم فى النهروان يتزعمهم عبد الله بن وهب الراسبى ، فغير على وجهته إليهم ، وقبل أن يشرع فى قتالهم جادلهم عسى أن يعدلوا عن موقفهم ، فاستطاع بقوة منطقه أن يقنع أكثرهم فانحازوا إليه ، أما الباقون وكانوا أربعة آلاف ، فقد آثروا القتال ، حتى انهزموا فى سنة ٣٨ ، على أن هذه الهزيمة لم تكن تعنى نهايتهم ، واستقر عدد منهم بالكوفة ، واستقر عدد آخر بالبصرة .

دعا على أنصاره للخروج إلى أهل الشام ، لكنه وجدهم يتثاقلون في إجابة دعوته و يقولون : " يا أمير المؤمنين كلت سيوفنا وفنيت نبا لنا ونصلت أسنة رماحنا ، فأعدنا إلى مصرنا ، لنستعد بأحسن عدتنا " .

انتهز معاوية فرصة تراخي أهل العراق في نصرة على ، فأرسل جيشًا إلى مصر قاده عمرو بن العاص فاستولى عليها من عاملها محمد بن أبي بكر، وفي الوقت نفسه تمكن معاوية من إدخال المدينة ومكة واليمن في طاعته ، وجعل عمالها من قبل على بن أبي طالب يغادرونها إلى الكوفة ، وبدأ في شن غاراته على أطراف العراق .

لم يضعف ما قام به معاوية من عزيمة على ، وأخذ يستنفر أصحابه لمقاتله خصمه بعد أن استفحل أمره وتعاظمت قوته ، وذكرهم بأنه قبل الخلافة عن كره ، وما دام قبلها فإنها أصبحت مسئولية لا يستطيع التنصل منها ، وما زال بهم حتى بايعه أربعون ألفًا من أهل العراق على الموت .

كان بعض الخوارج ممن أفلتوا من النهروان ، قد استقر عزمهم على أن يقتلوا رؤس الفتنة – من وجهة نظرهم – وهم على ومعاوية وعمرو بن العاص ، فيصير الأمر بعد ذلك للمسلمين . وقد خاب سعى الخوارج مع معاوية وعمرو ونجح مع على .

في يوم ١٧ رمضان من سنة ٤٠هـ/٦٦١م وثب عبد الرحمن بن ملجم المرادى على على بن أبي طالب ، وكان قد خرج إلى الصلاة في مسجد الكوفة ، وضربه بسيفه وهو يصيح : " الحكم لله يا على لا لك " .

بويع الحسن بن على بعد استشهاد أبيه ، فنهض بجيشه للقاء غريمه الذى كان قد زحف بدوره إلى العراق .

لم يطمئن الحسن إلى تأييد أصحابه ، فكتب إلى معاوية في الصلح ، واتفق الطرفان على أن يلى معاوية أمر المسلمين ، شريطة ألا يعهد به لأحد من بعده ، وعلى أن يأمن الناس في أنفسهم وأموالهم وذراريهم .

لم يثق بعض أصحاب الحسن - وعلى رأسهم قيس بن سعد بن عبادة- فى عهد معاوية ، لكنهم عدلوا عن موقفهم وبايعوا معاوية ، عندما لمسوا فى الحسن إصرارًا على ذلك .

أما معاوية فإنه دخل إلى الكوفة فى ربيع الآخر من سنة ٤١ ، ليطمئن إلى بيعة أهلها ، فأحسن الحسن استقباله ، ولم يلبث أن ارتحل إلى المدينة المنورة ، حيث أقام بها إلى أن توفاه الله فى سنة ٥١ .

٢ - حروب الردة :

(أ) أسباب الردة ومقدماتها :

لم تكن الخلافة هى المسأله الوحيد التى واجهت الدولة العربية الإسلامية الوليدة فخارج مكة والمدينة ، كانت الجزيرة العربية تموج بحركة دعيت بالردة . والردة فى المفهوم الإسلامى تعنى الخروج عن دين الإسلام إلى دين آخر .. على أن يصعب فى هذا المجال الإدعاء بأن العرب - ماخلا المدينتين المقدستين - قد ارتدوا عن الإسلام ، فإن بعضهم كان ما يزال مسلمًا ، وبعضًا آخر كان منساقًا للكثرة الغالبة فى قبيلته ، أو الزعماء الأقوياء الذين ادعوا النبوة ، ولم يكن فى إمكان من ظل على دينه منهم أن يعارضهم ، واضطر أحيانًا إلى أن يحارب بسيوفهم .

لا يخفى كذلك أن من المرتدين من ظن أن إسقاط فرض من فروض الدين كالزكاة ، لا يؤثر على إسلامه فى شىء .

نقول ذلك لأن بعض ذوى الأغراض من المستشرقين وغيرهم يستنتجون من سياق الأحداث أن العرب لم يؤمنوا بالدين الجديد عن عقيدة ، ولذا كان من اليسير أن يغادروه .

وللأستاذ العقاد فى كتابه " عبقرية خالد " تفسير مفيد لردة العرب ، فهو يرجع هذه الحركة إلى جملة أسباب ، من بينها العصبية القبلية ، فقد كانت

أقوى القبائل المرتدة تنتمى إلى ربيعة دون مضر ، ثم إن العصبية نفسها كان لها تأثيرها داخل مضر ، فكان عُيَيْنَة بن حصن الفزارى يؤيد طليحة بن خويلد الأسدى ويقول : " نبى من الحليفين أحب إلينا من نبى من قريش " ويعنى بالحليفين أسدًا وغطفان .

من هذه الأسباب أيضًا ثورة البادية على الحاضرة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى بضع قبائل بين مكة والمدينة ، كانت تخشى القبائل الكبيرة أكثر مما تخشى هاتين المدينتين ، ولزمت هذه القبائل الحيدة إبان الصراع ، بل إن بعضها أسرع إلى تلبيه الدعوة للقتال فى صفوف المسلمين .

كذلك فإن ما حظيت به دعوة محمد من نجاح ، أغرى عددًا من الزعماء لأن يفعلوا مثله ، وظنوا أن المسألة كلها لا تعدو كهانة وإسجاع وقيادة وأتباع ، وقصرت عقولهم عن إدراك حقيقة الدعوة إلى الإسلام ، وعلى ذلك ظهر متنبئون فى حياة النبى نفسه .

من جملة الأسباب أيضًا فريضة الزكاة ، فقد حسبها بعض العرب إتاوة والعرب كانوا يأنفون من الإتاوة ، صحيح أنهم كانوا يؤدونها أحيانًا إلى الفرس أو الروم ، لكنهم كانوا يأخذون من هؤلاء هبات تفوق إلا تاوات التى يدفعونها .

ومن جملتها إن الدين الجديد لم تكن جذوره قد رسخت بعد فى نفوس عديد من أعراب البادية ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾(١) .

ويضيف الأستاذ العقاد سببًا أخيرًا ، وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية ، وهو الأمر الذى يفسر ظهور التنبؤ بين العرب أولياء الفرس ، ولم

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٤

يظهر بين العرب أولياء الروم ، فالغساسنة الذين يدينون بالنصرانية ، لم يظهر بينهم مدع للنبوة ، أما التغالبة على مقربة من فارس ، فلم يجدوا حرجًا من دولتهم ولا من عقيدتهم ، من أن يحاربوا الدين الجديد ، لأن نصرانيتهم لم تكن خالصة ، لذا ظهرت بينهم سجاح وهى تغلبية ، وإن كان نسبها فى تميم .

إلى هنا ينتهى تحليل العقاد لأسباب الردة .

وليس من شك أنه كانت هناك أسباب أخرى . ويذهب فيليب حتى (ت ١٩٧٨م) إلى أن الوفود التى ذهبت إلى المدينة فى عهد رسول الله تعلن إسلامها ، كانت تمثل زعماء القبائل وحدهم ، وهذا افتراض غير مقبول ، لأن المصادر تؤكد لنا إسلام هذه القبائل ، وأن رسول الله كان يبعث إليها من يفقهها فى دينها ، كما لا يخفى ما كان يتمتع به الزعماء من نفوذ فى قبائلهم .

الأقرب إلى الصحة ، ما يذهب إليه برنارد لويس من أن الردة كانت فى مجملها (أو فى جانب كبير منها) ردة سياسية ، وليست ردة دينية ، أى أن القبائل العربية رأت فى وفاة رسول الله ﷺ إنهاءً لا تفاق سياسى ، توفى أحد طرفيه ، وشعرت أن لا شيء يربطها بخليفته أبى بكر ، خصوصًا وأنها لم تشارك فى اختياره ، لذا توقفت عن أداء الزكاة وغيرها من الالتزامات .

على أنه من لا شك فيه أن وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أسفرت عن صدمة عنيفة للمسلمين ، أثرت فى بعضهم تأثيرًا سلبيًا ، حتى إن عمر ابن الخطاب لم يصدق أن محمدًا مات ، وخرج إلى المسجد يصيح أنه لم يمت ، إنما ذهب إلى ربه كما ذهب موسى قبله ، وغاب عن قومه أربعين ليلة ثم عاد . فلما علم أبو بكر بذلك خطب فى الناس : " أيها الناس : إن من كان يعبد محمدًا ، فإن محمدًا قدمات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت " ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله

الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبت على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين ﴾(١) .

(ب) موقف أبى بكر من المرتدين :

كان الموقف غداة بيعة أبى بكر خطيرًا ، فلم يكن داخلاً فى طاعته سوى مدن الحجاز الثلاث ، بل إن الطائف أو شكت أن ترتد ، فقام عثمان بن أبى العاص عامل المسلمين عليها وقال : " يا أبناء ثقيف : كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من إرتد " .

على أن إحساس المسلمين بالخطر الداهم حفزهم إلى الإسراع بالاتحاد فيما بينهم ، ومواجهة العدو المشترك الذى كان على أهبة الاستعداد لاقتحام المدينة .

لم يكن أبو بكر – على سعة صدره – بالذى يتهاون فى أمر من أمور الدين ، ومع أن بعض العرب امتنع عن أداء الزكاة وحدها ، فإن خليفة رسول الله اعتبر ذلك هدمًا لركن هام من أركان الإسلام ، لاتصح العقيدة بدونه وأعلن فى هذا الخصوص " والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعه " .

كان معنى ذلك أن أبا بكر سوف يمضى بالصراع إلى نهايته ، لأن مانعى الزكاة كانوا أدنى خطرًا على الدولة من المتنبئين وغيرهم من المرتدين .

لذلك فقد أطبق الأعراب على المدينة .

كان المتوقع من أبى بكر ان يوجه إمكانيات المسلمين جميعها إلى المعركة المرتقبة ، لكنه لم يفعل ، فقد كان ملتزمًا بتنفيذ وصية رسول الله

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤

بإنفاذ بعث أسامة إلى بلاد الشام ، وأشار عليه بعض أصحابه بأن يرجئ هذا البعث حتى تنته الفتنة ، لكن رفض وقال : "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين ، لأجهزن جيش أسامة " .

ترتب على خروج أسامة بالقوة الأساسية للمسلمين ، أنه لم يبق فى المدينة سوى عدة مئات من المهاجرين والأنصار ، وزحفت قبائل المرتدين إليها ، فأخذ أبو بكر احتياطه وشدد على أبواب المدينة ، وجمع المجاهدين فى المسجد ، وأرسل يتحسس أخبار الأعداء ، وما أن بدأوا هجومهم ، حتى فوجئوا بأن المسلمين مستعدون لهم ، ودافعوهم ثم هاجموهم بدورهم ، وطاردوهم إلى ذى القصة خارج المدينة .

كان جيش أسامة قد عاد ظافرًا من بلاد الشام ، فقوى به المسلمون ، ومضى أبو بكر يستنهض القبائل التى كانت مترددة إلى أى معسكر تنضم ، حتى استطاع أن يستميلها إليه ، وما أن شعر بقوته ، حتى بادر إلى المرتدين فى عقر دارهم ، وأرغم قوات عبس وذبيان إلى أن تهرع إلى طلحة بن خويلد ببزُاخة ، ثم عاد إلى المدينة .

(جـ) حملة خالد بن الوليد :

يعود الفضل فى انتصار المسلمين فى حربهم ضد المرتدين إلى أبى بكر كقيادة سياسية ، وإلى خالد كقيادة عسكرية .

ورث خالد الطبيعة العسكرية عن قومه بنى مخزوم ، الذين كانت لهم الرئاسة العسكرية فى قريش قبل الإسلام ، حارب مع قومه ضد المسلمين فى بدر وأحد والأحزاب ، لكنه أسلم قبيل فتح مكة ، وكان إسلامه خيرًا وبركة ، فشارك فى غزوة الفتح ، وفى غزوتى حنين وتبوك ، وكان بلاؤه فى مؤتة سببًا فى أن لقبه النبى بسيف الله .

عقد أبو بكر القيادة لخالد في ذى القصة ، وأمره بالتوجه في أربعة آلاف إلى بُزاخة من أرض بني أسد ، حيث اجتمعوا مع قيس إلى متنبئهم طليحة بن خويلد .

سار خالد بجنوده ، وعرج في طريقه على ديارطئ ، حيث إنضم إليه نحو ألف من مقاتلتهم الذين تخلوا عن طليحة ، فأعاد تعبئة جيشه ، وجعل القبائل إلى ميمنته ، وجعل المهاجرين والأنصار إلى ميسرته .

كان طليحة ومعه ستة آلاف قد أعد عدته ، فعزل النساء في مكان أمين ، وأحاط نفسه بأربعين فارسًا من فتيان بني أسد ، تحوطًا من خالد ، فقد كان يعرف أسلوبه في مهاجمة رئيس القوم عند الاقتحام .

كرجيش طليحة في البداية وتراجع المسلمون ، فتراجع خالد ونادى نداء رسول الله يوم حنين : " يا أنصار الله " فلبوا نداءه ، وهجموا على حرس طليحة فقتلوهم جميعهم . وعندما أدرك طليحة صعوبة موقفه ، امتطى جواده ومعه امرأته ، وهو ينادى أتباعه " من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل " ، ومضى إلى بلاد الشام. على أنه عاد بعد فترة – وقد تاب – ليشارك في الفتوح .

تعقب خالد المرتدين ، فلما ظفر بفلولهم ، أسرف في التنكيل بهم ، وكان إسرافه هذا مجالاً لانتقاد بعض الصحابة ومنهم عمر ، على أن إسرافه كان في الحقيقة ضرورة لازمة ، إزاء مرتدين أسرفوا في ارتدادهم .

بعد الانتهاء من أمر طليحة سار خالد إلى بني تميم ، وكان قد اختلف أمرهم ، فبعضهم أدى الزكاة إلى أبي بكر ، وبعضهم الآخر امتنع ، حتى نزل خالد بهم فدفعوها إليه .

أما مالك بن نويرة في بني يربوع ، فلم يحارب ، وفي الوقت نفسه لم يؤد الزكاة .

أرسل خالد السرايا إلى البطاح ، حيث بنى يربوع ، فأتت بمالك بن نويرة وعدد منهم ، فأمر خالد بقتله ، مما أدى إلى غضب حكومة المدينة ، وودى أبو بكر بنى يربوع ، واستدعى خالدًا وأنّبه .

توجه خالد بعد بنى تميم إلى العدو الرئيس ، وهو مسيلمة فى بنى حنيفة ، وكان أبو بكر قد أرسل إليه عكرمة بن أبى جهل ، وأردفه بشرحبيل بن حسنة ، وأمرهما أن يلتقيا بمسيلمة متحدين ، لكن عكرمة حاربه منفردًا فانهزم ، ولما وصل الخبر إلى أبى بكر كتب إلى شر حبيل بالتوقف حتى يأته أمره .

كان مسيلمة قد اجتمع له نحو عشرين ألفًا ، فى حين لم يكن جند المسلمين يجاوزون الثمانية آلاف ، فأرسل خالد إلى أبى بكر فى المدد ، لكن هذا المدد لم يصل إلا بعد انتهاء المعركة .

التقى خالد بمسيلمة فى عقرباء ، وعاود نداء النبى فى حنين ، فهرول مسيلمة وأصحابه إلى حديقة مسورة وراءه ، دعيت فيما بعد بحديقة الموت ، لكثرة من قتل فيها وإليها ، وكان من جملة من قتل مسيلمة نفسه ، قتله وحشى - قاتل حمزة - ويؤكد كثرة القتل فى بنى حنيفة ، أننا لا نشهد لهم ذكرًا كبيرًا فى تاريخنا الإسلامى وأحداثه المتعاقبة .

على أن المسلمين بدورهم قتل منهم عدد كبير وبخاصة القراء - حفظة القرآن - وهو الأمر الذى أهم أبا بكر بعد قليل إلى جمع القرآن ، حتى لا يضيع .

اضطر بنو حنيفة إلى طلب الصلح ، فأجابهم خالد ، وذهب وفد منهم إلى المدينة ، فالتقوا بأبى بكر ، وأعلنوا ندمهم عما أقدموا عليه ، وجددوا توبتهم وعودهم إلى دين الله .

(د) بقية الحملات :

كانت حملة خالد هي الحملة الرئيسية في مواجهة المرتدين ومدعي النبوة ، على أنه في الوقت نفسه توجهت حملات أخرى إلى أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية .

من هذه الحملات حملة قادها العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ، وكان قد تزعمها على الردة الحُطَم بن ضُبَيْعَة في ربيعة ، فقضى العلاء على حركته وقتله .

وحملة أخرى قادها حذيفة بن محصن الغلفاني إلى عمان ، وكان قد تزعمها على الردة كذلك لُقَيْط بن مالك في الأزد ، فقتله ووقع في أيدي المسلمين كثير من المغانم والسبي ، أرسلوا بخمسه إلى أبي بكر .

أما اليمن ، فكان قد تنبأ بها عَبْهلة بن كعب الذي دعي بالأسود العنسي، واتخذت حركته ثوبًا وطنيًا ، إذ أثار فيأهل اليمن نعرة العروبة ، والتخلص من الأبناء ، وهم بقايا الفرس الذين حكموا اليمن بعد طرد الأحباش ، وكان هؤلاء الفرس بزعامة باذان قد أسلموا ، فأقرهم رسول الله على ما بأيديهم .

استطاع المسلمون باليمن أن يفتكوا بالأسود العنسي ، على أن المرتدين لم يلبثوا أن عاودوا الكيد بالأبناء الذين ظلوا على ولائهم للمدينة ، وتزعم المرتدين قيس بن عبد يغوث ، وتزعم الأبناء وغيرهم من المسلمين فيروز والي صنعاء . وبعد عدة معارك تداول الفريقان خلالها النصر والهزيمة ، استطاعت الحملة التيقادها المهاجر بن أبي أمية أن تنتصر على المرتدين ، وبعث بقيس أسيرًا إلى المدينة .

امتدت الردة أيضًا إلى حضرموت ، فأرسل أبو بكر زياد بن لبيد البياضي إلى كندة – وكانت قد امتنعت عن أداء الزكاة – فانتصر عليها ،

وعندما عاودت القتال ، بزعامة الأشعث بن قيس ، إتحد المهاجر بن أبي أمية مع زياد بن لبيد ، واضطر الأشعث للفرار إلى حصن النجير ، فحاصره المسلمون ، حتى طلب الصلح . فأجيب إليه ، وانتقل إلى المدينة ، يطلب العفو من أبى بكر فأجابه ، وظل الأشعث بالمدينة إلى أن شارك فى فتوح العراق بعد ذلك .

٣ - الفتوح :

(أ) الدافع إلى الفتوح وعوامل نجاحها :

أوضحنا فى فصل سابق أن الإسلام دعوة عالمية ، لا ترتبط بزمان معين ، ولا بمكان معين إنما هو دين الله تعالى ، كلف نبيه الأمين بتبليغه ، فكان عليه وعلى من تلاه من خلفائه مهمة هذا التبليغ .

وردت فى القرآن الكريم آيات عديدة ، تؤكد هذا المعنى ، ففى سورة ص : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾(١) . وفى سورة الفرقان : ﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ﴾(٢) . وفى سورة سبأ : ﴿ وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٣) . وفى سورة الأعراف : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾(٤) .

يتساءل البعض عن دعوى هذه العالمية ، ويشكك فى أمرها ، ويذهب إلى أن محمدًا ﷺ ، لم يكن واعيًا بها .

---

(١) سورة ص : الآية ٨٧ - ٨٨

(٢) سورة الفرقان :الآية ١

(٣) سورة سبأ : الآية ٢٨

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٨

هذا الزعم لا نجد له سندًا يؤيده ، لأنه إذا كان محمد قد تأخر في إظهار هذه العالمية ، فإن ذلك ، لأن دعوة العرب إلى الإسلام ، وتأمين الدعوة الجديدة إزاء كفارهم واليهود ، استغرقت معظم سنوات البعثة .

مع هذا ومن منطلق العمومية أرسل محمد ﷺ كتبًا إلى ملوك عصره وأمرائه ، ومن بينهم كسرى وقيصر والمقوقس ، ثم قاد بنفسه حملة إلى تخوم الشام ، وشرع في انفاذ حملة أخرى إبان مرضه الأخير ، وفي سيرته يدعو بلالاً بأول ثمار الحبشة ، كما يدعو صهيبًا بأول ثمار الروم .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد من وسيلة لتبليغ الدعوة ، هنا نصل إلى مسألة المسائل ، فالباحثون (الغربيون) يخلطون بين أمرين ؛ أولهما : عموم السيادة الإسلامية ، أي انتقال السيادة خارج الجزيرة العربية من أقوام غير مسلمين ، إلى العرب المسلمين ، وثانيهما انتشار الإسلام بين هؤلاء الأقوام . ويخرج هؤلاء من هذا الخلط إلى أن الإسلام انتشر بحد السيف .

والحقيقة أن هذا الزعم لا نجد له سندًا في الواقع ، لأن التحقيق التاريخي يؤكد أن فتح العرب إقليمًا ما ، لم يكن معناه انتقال أهله إلى الإسلام ، وإذا نحن اتخذنا مصر كعينة وجدنا أن الإسلام لم يصبح دين الكثرة الغالبة من أهلها ، قبل ثلاثة أو أربعة قرون من الفتح ، بل إن الأقباط ظلوا دائمًا جماعة كبيرة ، تشكل أحد عنصري الشعب .

العرب إذن لم يرغموا أحدًا على تغيير عقيدته، وفي القرآن الكريم مايؤيد هذه الحقيقة فقد ورد به : ﴿ لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغيّ ﴾(١).

ما دام العرب لم يرغموا أحدًا على الدخول في دينهم ، فلماذا إذن كانت الفتوح ؟

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦

فى تحليلنا لتشريع الجهاد أشرنا إلى ضرورته ، من أجل الدفاع عن المسلمين أولاً ، وتبليغ الدعوة إلى سائر الشعوب ثانيًا . وقد شاهدنا فى أواخر حياة رسول الله ﷺ أن الروم وغيرهم كانوا يتربصون بالإسلام ، ويتحينون الفرصة به ، وعلى نحو مشابه فعل الفرس ، وكان من اللازم تأمين الدعوة إلى الإسلام ، ثم إن الحكام – بحكم مصالحهم – لن يسمحوا لشعوبهم أن يتعرفوا إلى هذا الدين ويلمسوا فضله وفضيلته .

من هنا كان من اللازم خروج الجيوش الإسلامية للجهاد خارج الجزيرة ، لتضع أمام هذه الشعوب خيارات ثلاث ؛ الإسلام فيصيرون كالعرب سواءً بسواء ، أو أن يظلوا على دينهم ، فيؤدون الجزية ، مقابل حمايتهم واعفائهم من الخدمة فى الجيش أو القتال .

بعد أن انتهى أبو بكر من فتنة الردة ، بدأ فى توجيه بعوثه من أرض المعارك مباشرة إلى دولتى الفرس والروم ، وخلال عشرين عامًا أو نحوها كان المسلمون قد تم لهم فتح بلاد الشام والعراق وفارس ومصر واقطار غيرها ، وأحرزوا انتصارات باهرة .

الإسلام إذن هو الدافع إلى الفتوح ، لكنه لم يكن فى الوقت نفسه الدافع الوحيد إلى نجاحها . والباحث المتقصى لأحوال المسلمين طوال تاريخهم ، يجدهم يواجهون النصر أحيانًاوكانوا مسلمين ، ويواجهون الهزيمة أحيانًا أخرى ، وكانوا أيضًا مسلمين .

قد يقفز إلى الذهن افتراض .. ربما منى المسلمون بالهزيمة فى بعض معاركهم ، لأنهم أهملوا شرع الله ، أو أنهم ابتعدوا عن دينهم أو عن جوهر هذا الدين .

هذا الإفتراض ليس صحيحًا دائمًا ، لأن المسلمين هزموا فى معارك كبيرة ، كانت حماستهم الدينية إبانها لامراء فيها .

منى المسلمون بالهزيمة فى أحد ، وكادت تتكرر الهزيمة فى حنين ، كما إن بعث زيد بن حارثة إلى مؤتة ، انسحب بعد معركة ، لم يتحقق للمسلمين النصر خلالها .

وما دام لكل شىء سبب ، فلا بد أنه كانت هناك أسباب لانتصار المسلمين فى فتوحهم الأولى أو بعبارة أدق ظروف عامة مصاحبة للفتوح ، جعلت من النصر أمرًا ممكنًا(١) .

هناك بطبيعة الحال مجموعة عوامل ، تتصل بالعرب المسلمين أنفسهم ، فقد كان الإسلام فى فجر نهضته الأولى ، وعبر القائد الكبير خالد بن الوليد عن هذه الحقيقة فى كتابه الذى أرسله إلى هرمز قائد الفرس ، يقول فيه : " جئتك بقوم يحبون الموت ، كما تحبون الحياة " .

ما دام الأمر كذلك ، فالمسلمون فائزون فى حال الموت وفى حال الحياة.

يدخل ضمن هذه العوامل العامل المادى ، فلا شك أن ما كان ينتظره الفاتحون – أو على الأقل بعضهم – من غنائم وافرة فى حال النصر ، كان حافزًا عظيمًا لهم ، إلى جانب الحافز الإيمانى . ويشير البلاذرى (ت٢٧٩هـ) فى كتابه " فتوح البلدان " إلى هذه الحقيقة فيقول ، إنه لما أرسل أبو بكر يدعو الناس فى أنحاء الجزيرة للجهاد ، " سارع إليه الناس بين محتسب وطامع ، وأتوا المدينة من كل أوب " . ويقول الشاعر :

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغى   ولكن دعاك الخبز أحسب والتمر

وقد بالغ المستشرقون من أهمية هذا العامل ، وذهبوا إلى أن الفتوحات الإسلامية فى حقيقتها هجرة سامية ، بل هى آخر الهجرات السامية من الجزيرة العربية ، وإن اتخذت من الدين شعارًا لها .

---

(١) تناول الأستاذ العقاد هذه الأسباب تفصيلاً فى كتابه " عبقرية خالد "

يقودنا هذا إلى عنصر هام فى نجاح الفتوح ، هو الاتصال الجغرافى بين الجزيرة العربية وبين الأقطار الأخرى خارجها ، ومن الجغرافيين المحدثيين - مثل جمال حمدان - من يعدون الشام والعراق جزءًا من هذه الجزيرة . والتواصل الجغرافى أدى بطبيعة الحال إلى التواصل العرقى ، فقبائل عربية كثيرة استقرت فى هذين القطرين ، وتأثر بعضها بالثقافات السائدة فيهما ودياناتهما ، لكنه ظل فى أعماق عربيًا . ولم يكن الشاعر حسان ابن ثابت يشعر بالغربة ، إبان مقام فى بلاط الغساسنة ، وكانت معرفته بدمشق قريبة من معرفته بمدن الحجاز .

أعان على معرفة العرب بهذا البلاد ممارستهم للتجارة ، وهنا تجب الإشارة إلى رحلتى الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام

.. شارك فى هذه الرحلات صاحب الرسالة نفسه ، بل إن العرب وصلوا فى تجارتهم إلى مصر التى زارها عمرو بن العاص مرتين على الأقل فى الجاهلية . ويشير الجغرافى اليونانى استرابون (ت حول ٢١م) قبل عصر البعثة بقرون عديدة إلى أن مدينة قفط فى صعيد مصر مدينة نصف عربية .

أخيرًا فإن العرب بحكم توسط جزيرتهم العالم المعروف فى ذلك الوقت ، خبروا أساليب غيرهم من الشعوب فى القتال ، فإلى جانب معرفتهم بحرب العصابات التى هى كروفر وإقبال وإدبار ، عرفوا أيضًا حرب الجيوش الكبيرة والمواقع الثابتة ، وكانوا يزاوجون بين الطريقتين ، حسب مقتضى الحال ، الأمر الذى أربك أعداءهم ، عندما كانوا يلتقون بهم .

هناك أيضًا مجموعة من العوامل تتصل بالقوتين العظميين اللتين واجههما العرب ، وهما الفرس والروم ، فقد كانت هاتان القوتان تمران بمرحلة انحطاط ، رغمًا عن الشكل الخارجى الذى يوحى بالقوة ، وفى عصر

البعثة النبوية دارت بينهما حرب ضروس ، استغرقت نحو عشرين سنة ، ومع أن هذه الحرب انتهت بانتصار الروم ، إلا إنه كان لها أثرها فى انهاك المنتصر والمنهزم معاً .

إذا شئنا التفصيل نلاحظ أن هاتين الدولتين تعرضتا لسلسلة طويلة من الإضطرابات والنزاعات على الحكم ، وفى فارس وحدها تداول الحكم خلال أربع سنوات تسعة ملوك ، وانعكس ذلك على الجيوش ، فكثرت حركات التمرد داخلها ، وانصرف جنودها عن مهامهم الأساسية وهىالحرب إلى مهام أخرى لا علاقة لها بالحرب .

لم يقتصر الأمر على النزاعات السياسية ، فقد كانت هنا أيضًا نزاعات دينية ، ففى فارس ضعفت ديانة زرادشت ، وظهرت دعوة مزدك الهدامة ، التى قامت على أساس شيوعية المال والنساء ، كما إن الروم كانوا على المذهب الملكانى فى حين كان رعاياهم فى الشام ومصر - فى معظمهم - نساطرة أو يعاقبه .

بطبيعة الحال فإن الشعوب الخاضعة لهاتين الدولتين ، كانت تعانى أشد المعاناه منهما ، وكانت هى التى تدفع الثمن دائمًا ، فعندما استولى كسرى أبرويز على القدس فى سنة ٦١٥م ذبح - فيما يروى - تسعين ألفًا من سكانها ، وفعل ما يشبه ذلك فى الإسكندرية ، لدى استيلائه عليها بعد سنتين .

إذا شئنا أن نحدد أكثر ، وتناولنا مصر كعينة ، وجدنا أهلها ينوءون من الضرائب الباهظة التى فرضها الروم عليهم ، ووصلت الحال إلى أنه كانت تفرض ضرائب على الموتى ، يلتزم الأحياء بأدائها ، واضطر عدد كبير من الفلاحين إلى الهجرة من أرضهم ، وتشير إحدى الوثائق إلى أن سدس أراضى منطقة الفيوم ، تحولت إلى أراض بور غير مأهولة .

زاد الأمر سوءًا موقف الروم من مذهب الطبيعة الواحدة ، الذى كان يدين به المصريون ، وحاولوا فرض مذهبهم الملكانى عليهم ، وأصر المصريون على عقيدتهم الدينية التى تحولت إلى عقيدة وطنية وعندما حاول هرقل التوفيق بين مذهبه ومذهب المصريين فى مذهب واحد ، هو مذهب الإرادة الواحدة Monothelism ، وحاول فرضه على المصريين ، فشل وعادت مرة أخرى سياسة الاضطهاد .

من أجل ذلك كان أهالى البلاد المفتوحة ينظرون إلى العرب المسلمين ، على أنهم المنقذون لهم من ظلم حكامهم .

أعانت هذه الأوضاع المسلمين إبان فتوحهم ، فكثيرًا ماكانوا يجدون من أهالى البلاد تأييدًا لهم ومساندة ، أو كانوا يقفون محايدين بين الطرفين المتصارعين . وقد عمق العرب هذا الموقف ، واستثمروه لما فيه مصلحتهم ، عندما أحسنوا معاملة هؤلاء الأهالى إبان الفتوح ، ووجدت هذه السياسة صدى طيبًا لديهم .

(ب) فتوح العراق وفارس :

بعد انتهاء المثنى بن حارثة الشيبانى من أمر المرتدين فى البحرين ، زحف إلى العراق وأحرز عدة انتصارات على الفرس ، لكنه اضطر إلى التقهقر ، عندما أعد له هؤلاء جيشًا كثيفًا .

أرسل أبو بكر خالد بن الوليد – وقد فرغ من أمر اليمامة – إلى العراق وأصحبه عياض بن غنم ، وبلغت عدة جيوش المسلمين ، لدى انضمام جيش المثنى ثمانية عشر ألفًا .

التقى خالد بالفرس فى المحرم سنة ١٢ / مارس ٦٣٣ عند ذات السلاسل ، وقد أسميت بذلك ، لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم بالسلاسل ،

حتى يثبتوا فـي القتـال ، وقـد تمـت هزيمتهـم ، وتعقبهـم المثنـى إلـى مـا وراء الفرات ، وعاود خالد هزيمتهم بالمذار .

استعان الفرس بحلفائهم من القبائل العربية ، فهزم خالد الفرس والعـرب معًا فى الولجـة وألّيْـس ، ثـم استسـلمت الحـيرة - قـاعدة المنـاذرة مـن ملـوك العرب - وواصل خالد زحف ، فوصل إلى الأنبار ، حيث حفر الفرس خندقًـا حولها ، ليمنعوا سيف الله من العبور ، لكن خـالدًا الـذى لـم ينجـح فـى عبـور الخنـدق إبـان غـزوة الأحـزاب اسـتطاع عبـور هـذا الخنـدق ، واسـتولى علـى المدينة ، وسار منها إلـى عيـن التمـر ، حيـث اجتمعـت فلـول المتمرديـن مـن أصحاب سجاح ، ومعهم نصـارى تغلـب وإيـاد ، فسـقطت المدينـة فـى يديـه ، وجمع المسلمون مغانم عظيمة ناءوا بحملها .

ما كاد خالد ينتهى من عين التمر ، حتى علم بأن العرب الذيـن يقيمـون فى البادية بين العراق والشام ، قد تجمعوا بالفراض ، ومعهـم جيـش مـن الـروم ، فبدأ خالد بأن استولى على دومة الجندل ، حتـى يؤمـن نفسـه ، ثـم توجـه إلـى الفراض ، واستطاع أن يحصر أعداءه بينه وبين النهر ثم أخذ فى حربهم إلـى أن فرغ منهم .

كان موسم الحج سنة ١٢ قد اقترب ، ولم يتبق سـوى أسبوعين ، عبر خالد خلالهما الصحراء ، وأدى فريضة الحج ، وأوصاه أبو بكر بالانتقال إلـى الشام لينضم إلى جيش المسلمين هناك .

اصطحب خالد نصف الجيش إلى الشـام ، وتـرك سـائره بـالعراق مـع المثنى بن حارثة فصمد لهجمات الفرس إلى أن توفى أبو بكر فـى سنة ١٣ ، فأتاه المدد من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب صحبة القائد الجديد أبى عبيد الثقفى.

جمـع الفـرس جموعهـم بقيـادة رسـتم ، واسـتطاعوا هزيمـة العـرب فـى واقعة الجسر وقتل أبو عبيد فى هذه الواقعة ، وأصيب المثنى بجراح ، تسببت فى موته بعد يسير.

كان لواقعة الجسر أثر قوى فى تدعيم موقف الفرس ، الذين إرتقى عرشهم فى ذلك الوقت يزدجرد الثالث ، واستعدوا لمعركة فاصلة مع الجيش العربى الزاحف إليهم فى سنة ١٥هـ/٦٣٦م بقيادة سعد بن أبى وقاص ، وضم عددًا من أعيان العرب وفرسانهم المشهورين مثل طليحة بن خويلد الأسدى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى والمغيرة بن شعبة .

إلتقى المسلمون الذين كان يبلغ عددهم عشرة آلاف أو نحوها بجيش رستم الذى بلغ ثلاثين ألفًا ، وذلك فى القادسية ، وقتل رستم فى هذه المعركة ، وتتبع العرب فلول جيشه إلى جلولاء ، وبعث سعد إلى عمر يبشره بالفتح .

كانت القادسية (شعبان سنة ١٥ / سبتمبر سنة ٦٣٦) هى كبرى معارك المسلمين ضد الفرس ، وأغراهم هذا الانتصار بمواصلة مسيرهم ، لكن عمر كتب إلى سعد يقول : " قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ، ولا تجعل بينى وبينهم بحرًا " .

اختط سعد مدينة الكوفة ، وجعلها حاضرة للمسلمين ، ثم عاود فتوحه ، فحاصر المدائن عاصمة الأكاسرة فى صفر سنة ١٦ / مارس سنة ٦٣٧ إلى أن دخلها ، وفر يزدجرد إلى حلوان .

عاود الفرس جمع جموعهم بقيادة الهرمزان ، فأرسل سعد إليه النعمان ابن مقرن ، فالتقى به عند تستر ، وهزمه وبعث به إلى المدينة المنورة ثم استولى المسلمون على جلولاء وحلوان ، وعاود يزدجرد الهرب إلى أصبهان .

تجمعت فلول الفرس فى نهاوند ، وفكر عمر بن الخطاب فى أن يقود المسلمين بنفسه ، لكنه لم يلبث أن عدل ، وأمر النعمان بن مقرن بمعاودة السير ، وأمده بقوات أخرى ، ومع أن النعمان استشهد فى المعركة التى دارت فى سنة ٢٠/٦٤٠ ، إلا أن المسلمين انتصروا ، وهيأ لهم هذا الانتصار مزيدًا من الانتصارات ، لذا دعيت نهاوند بفتح الفتوح .

سقطت فى أيدى المسلمين خلال فترة قصيرة الأهواز وهمذان وأصبهان وقم والرى ، ثم صالحهم ملوك جرجان وطبر ستان وأذربيجان على الجزية ، وبدأت جيوش المسلمين تتطرق إلى أرمينية .

أغرت هذه الانتصارت الأحنف بن قيس التميمى على السير إلى أقصى الشرق فى خراسان ، حيث التجأ يزدجرد ، فاضطر أهلها إلى مصالحته . أما يزدجرد فقد أخذ ينتقل من مدينة إلى أخرى ، حتى قتل فى سنة ٣١ ، وبموته انتهى حكم أسرة ساسان .

على أن الامتداد السريع للعرب داخل الإمبراطورية الفارسية ، أدى إلى أن أصبحت طاعتهم قلقة ، وانتقضت عليهم بلاد كثيرة بعد وفاة عمر فى سنة ٢٣ .

عنى عثمان لدى ولايته بالفتوح ، وسعى إلى رد من خلع طاعة المسلمين إليها ، وفى عهده غزا الوليد بن عقبة بن أبى معيط أذربيجان فى سنة ٢٥ ، عندما امتنعت عن أداء الجزية ، كما غزا سعيد بن العاص طبرستان فى سنة ٣٠ ، وعندما انتقض أهل خراسان سار إليهم عبد الله بن عامر والى البصرة ، فردهم إلى الطاعة ، كما فتح الأحنف بن قيس الجوزجان والطالقان والصغانيان ، وصالحه أهل بلخ ، وعبر نهر جيجون إلى بلاد ما وراء النهر .

(جـ) فتوح الشام :

كان الروم قد تنبهوا إلى خطورة المسلمين بعد غزوة مؤتة التى قادها زيد بن حارثة ثم غزوة تبوك التى قادها النبى بنفسه ، وزاد عندهم هذا الشعور بعد بعث أسامة بن زيد فى سنة ١١ ، وعلى ذلك أعدوا عدتهم للتصدى للمسلمين .

فى سنة ١٢ أرسل أبو بكر أربعة جيوش إلى بلاد الشام ، أحدها بقيادة أبى عبيدة عامر بن الجراح ووجهته حمص ، وآخر بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، والثالث بقيادة يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، والأخير بقيادة شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن ، وجعل القيادة العامة لأبى عبيدة .

سار عمرو إلى فلسطين ، وإلتقى بأميرها سرجيوس فى موقع يعرف بالعربة ، وانتصر عليه وقتله وعدة آلاف ممن معه ، فهرع هرقل من شمالى الشام فى حشد كبير ، فكتب أبو عبيدة إلى أبى بكر فى المدد ، فأمر خالد ابن الوليد بالمسير بنصف الجيش لمساعدة المسلمين بالشام .

استخلف خالد على العراق المثنى حارثة ، وسار إلى الشام ، واستولى فى طريقة على بصرى التى عجز شر حبيل بن حسنة عن الاستيلاء عليها ، ثم تولى القيادة العامة لجيوش المسلمين وإلتقى بثيودور أخى هرقل فى أجنادين ، ودارت رحى معركة ، انتهت إلى هزيمة الروم فى جمادى الأولى سنة ١٣ / يوليو ٦٣٤ ، وارتدثيودور إلى حمص .

أسفرت معركة أجنادين عن سيطرة العرب على معظم فلسطين وتوافد إليهم إخوان من الحجاز واليمن ، وعبروا نهر الأردن فى اتجاه دمشق ، وفى طريقهم عاودوا الانتصار على الروم فى مرج الصفر فى المحرم من سنة ١٤ .

حاصر المسلمون دمشق ستة شهور من جميع جهاتها ، حتى اضطر حاكمها إلى طلب الصلح ، على أنهم اضطروا إلى أن ينسحبوا من دمشق وغيرها من المدن ، حين علموا بأن هرقل حشد جيشًا كبيرًا ضم ثمانين ألفًا من الروم بقيادة باهان وستين ألفًا من العرب المتنصرة بقيادة جبلة بن الأيهم ملك غسان .

أعاد المسلمون وكانوا زهاء ثمانين ألفًا تنظيم أنفسهم وعسكروا قرب نهر اليرموك بينما عسكر الروم وحلفاؤهم ازاءهم بالواقوصة .

دارت المعركة الحاسمة فى ٥ من رجب سنة ١٢/١٥ من اغسطس سنة ٦٣٦ وأبدى المسلمون خلالها ضروبًا من البطولات ، حتى أن عكرمة ابن أبى جهل طلب من فرسانه أن يبايعوه على الموت فبايعه أربعمائة ، قاتلوا معه فقتل منهم عدد كبير كما استشهد عكرمة وفى الوقت نفسه كانت النساء ينادين فيمن فر من المسلمين : " إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة " .

أسفرت معركة اليرموك عن انتصار رائع للمسلمين ، عبر عنه هرقل الذى كان مقيمًا إذ ذاك بأنطاكية يترقب الأخبار بقوله : " الوداع يا سورية ... الوداع الأخير " Vale Syria, et Ultimatum Vale .

هيأ الانتصار العظيم فى اليرموك الفرصة للمسلمين ، كى تمتد فتوحهم فى بلاد الشام ، فسار أبو عبيدة إلى دمشق ، وبعد حصار دام سبعين يومًا ، دخل المسلمون المدينة ، ثم سار أبو عبيدة ومعه خالد شمالاً فاستوليا على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب وتتبع يزيد بن أبى سفيان الساحل ، واستولى على صيدًا وجبيل وبيروت .

أما عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، فسارا إلى فلسطين ليستكملا فتحها ، حتى انتهى المسلمون إلى بيت المقدس .

حاصر المسلمون المدينة المقدسة حصارًا استمر أربعة شهور ، واضطر قائد حاميتها إلى الهرب منها ، وعرض بطركها صفرونيوس Sophronius على المسلمين أن يأتى الخليفة بنفسه ليتسلمها منه، وأتى عمر بالفعل فى ربيع الآخر سنة ١٦ / مايو ٦٣٧ ، وأعطى أهلها عهدًا ، شهد عليه قواد المسلمين ، وبمقتضاه دخلت المدينة فى طاعته .

عندما استقر الأمر للمسلمين فـى بـلاد الشـام ، أصبـح معاويـة بـن أبـى سفيان واليها من قبل عمر بن الخطاب ، فلم يتردد فى اسـتكمال فتـح مـا كـان محاصرًا من مدن الساحل مثل طرابلس وقيسارية ، وفـى الوقـت نفسـه توجـه عياض بن غنم إلى الجزيرة الفراتية ففتح الرقة وحـران والرهـا وغيرهـا مـن المدن .

بعد ولاية عثمان رضى الله عنه جاوز المسلمون حدود بلاد الشام إلـى أرمينية الصغرى فاستولى معاوية على قاليقلا صلحًا ، ثم غزا جزيرتى قبرس ورودس .

على أن فتوح المسلمين من جهة الروم ، لـم تلبـث أن توقفـت بعـد قتـل عثمان ، ونشوب النزاع بين على ومعاوية .

(د) فتوح مصر وإفريقية :

كان فتح مصر لازمًا لفتح بلاد الشـام – وبخاصـة فلسـطين ، فـالوجود العربى لم يكن ليتم تأمينه بدون فتح مصر ، وكان البلدان فـى معظـم عصـور التاريخ المنظور يخضعان لسيادة واحدة ، وأمـن أحدهمـا لازم لأمـن الأخـر ، ولم تكن حقيقة مثل هذه بغائبة عن قائد قديرداهيـة مثـل عمـرو بـن العـاص ، عرف مصر وخبرها ، منذ كان يرتادها فى الجاهلية تاجرًا .

على ذلك ألح عمرو على خليفة المسلمين لدى مقدمه إلى بيت المقدس ، ليأذن له بفتح مصر . وتردد عمر فى الموافقة ، لأن أوضاع المسلمين لم تكن قد استقرت بعد فى بلاد الشام ، ثم إنه لم يرد أن تتسع المساحة التـى استولى عليها المسلمون ، فيصعب عليهم حفظها والاستقرار بهـا ... بيد إنـه بعـد أن عاود عمرو إلحاحه فى سنة ١٨هـ/٦٣٩م أجابه عمر .

سار عمرو بن العاص ومعه أربعـة آلاف إلـى العريـش ، فدخلهـا دون مقاومة ، ثم سلك الطريق البرى الذى اعتاد غيره من الفاتحين سلوكه ، ومنـه

اتجه إلى الفرما ، وهى بيلوزيوم Pelusium القديمة (على مقربة من بور سعيد) وعرج جنوبًا إلى بلبيس ، فوقعت فى يدية أرمانوسة إبنة المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل ، فأرسلها مكرمة إلى أبيها ، مما كان له رد فعل طيب عند الأقباط .

وصل عمرو إلى أم دنين ، وهى قرية تقع شمال حصن بابليون فواجه مقاومة عنيفة من الروم لكنه افتتحها وبعث إلى عمر فى المدد ، فأتاه أربعة آلاف من المسلمين ، فيهم عدد من كبار الصحابة ، مثل الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد والمقداد بن الأسود ، وكتب إليه لقد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل .

حاصر العرب الحصن حصارًا شديدًا ، اضطر المقوقس معه إلى طلب الصلح ، فأرسل عمرو إليه وفدًا يخيره بين الإسلام أوالجزية أو القتال ، فتمهل المقوقس فى الإجابة ، وبعث يستطلع رأى هرقل الذى غضب عليه لتخاذله ، واستدعاه إلى القسطنطينية ، وظل العرب على حصارهم الحصن شهورًا طويلة حتى اقتحموه عنوةً فى جمادى الأولى سنة ٢٠ أبريل سنة ٦٤١ .

زحف العرب من بابليون إلى العاصمة الإسكندرية ، وكان الروم قد امتنعوا بها ووصلت إليهم الأمداد من البحر ، فصعب أمرها على العرب ، وأرسل عمر إلى عمرو يستبطئه ، فتحفز المسلمون وضيقوا على أهلها . وفى هذه الأثناء مات هرقل، وسعت زوجته مرتينا Martine إلى تهدئة الأمور، فأمرت المقوقس بالعودة إلى مصر ، والتفاوض مع العرب بشأن الصلح وتم الاتفاق فى أول محرم ٢١ / ديسمبر ٦٤١ على جلاء الحامية الرومية من المدينة ودخولها فى طاعة المسلمين .

كان سقوط العاصمة يعنى سقوط مصر كلها فى أيدى المسلمين ، وعلى ذلك أرسل عمرو بعض قواته إلى الصعيد ، وتمكن من ضمه إلى السيادة العربية قبل أن تنته سنة ٢١هـ .

ما كاد العرب يستقرون فى مصر ، حتى بدأوا يفكرون فى الزحف منها غربًا ، لأنه لا توجد موانع حقيقية ، تفصل بين مصر وبين بلادِ المغرب ، ثم إنهم كانوا يخشون أن يعاود الروم مهاجمة مصر من هذه الناحية ، فسار عمرو إلى برقة فى سنة ٦٤٣/٢٢ وافتتحها صلحًا ، ثم تجاوزها فى العام التالى إلى طرابلس التى سقطت فى يدية عنوةً .

فى سنة ٦٤٧/٢٧ ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فاستأذن عثمان بن عفان فى غزو إفريقية ، فأرسل إليه مددًا ضم عبد الله بن الزبير ، واستطاع المسلمون هزيمة جيش الروم الذى كان يقوده جُرجير Gregorius فى سُبَيْطِلَة ، وغنموا غنائم وافرة ، حتى إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار ، بينما بلغ سهم الراجل ألف دينار .

فى سنة ٣٤هـ تدعم موقف المسلمين فى مصر وإفريقية بعد انتصارهم على الروم بحرًا فى موقعة ذات الصوارى على مقربة من شواطئ الروم وهى أول معركة بحرية كبيرة دارت بين المسلمين والروم .

كذلك امتدت السيادة الإسلامية جنوبًا إلى بلاد النوبة ، وكان المسلمون قد بدأوا يتوافدون إلى هناك عقب فتح مصر مباشرة ، ثم عاودوا هجومهم عليها ، فبلغ عبد الله بن سعد بن أبى سرح دنقلة فى سنة ٣١هـ ، وعقد مع أهلها صلحًا دعى بالبَقْط (من اللاتينة Pactum وتعنى عهدًا) تقرر فيه أن تمد مصر النوبة بالحبوب والعدس ، وتمدها النوبة بالرقيق .

الفصل الرابع
الدولة الأموية

١ - تنظيم الدولة الإسلامية :

يصعب على الباحث أن يحدد السمات العامة للنظم الإسلامية فى عصر من العصور ، لأن هذه النظم بطبيعتها متطورة ، والتطور هنا أمر لازم لا محيص عنه .. وعليناهنا أن نتعامل بحذر ، مع ما يرد فى كتب الفقهاء ، لأنهم شرعوا فى تصنيف كتبهم ، بعد عشرات من السنين على قيام الدولة العربية ، ولم يستطيعوا أن يستقلوا فى تصنيفها عن وجهات نظرهم وانتماءاتهم العرقية والمذهبية ، وما استجد فى زمانهم من متغيرات .

ومهما يكن من أمر ، ومع اعترافنا بتطورات كانت تطرأ على النظم الإسلامية ، إلا أن هذه التطورات كانت تتم على نحو تراكمى ، أى أنه كان يوجد عناصر ثبات على مدار التاريخ الإسلامى كله .

(أ) النظام السياسى :

كانت الخلافة تقع على قمة النظام السياسى للدولة العربية ، وعرضنا فى فصل سابق لأجزاء من صورتها العامة ، فى عرضنا لتطورها ، منذ قبض رسول الله ﷺ .

تلقب الخليفة إلى جانب ذلك بلقب أمير المؤمنين الذى ابتكره عمر بن الخطاب ، كما تلقب بلقب إمام الذى يرتبط عند المسلمين بالإمامة فى الصلاة، التى التزم بها الخلفاء الراشدون ، ولو أن هذا المصطلح لم يكن شائعًا ، ولم يتحقق له الشيوع إلا فى العصر العباسى ، وبخاصة لدى ولد على بن أبى طالب رضى الله عنهم .

ارتبط شخص الخليفة عند الفقهاء بشروط معينة ، هى العلم ، العدالة والكفاية ، سلامة الحواس والأعضاء ، النسب القرشى ، ويقصد بالعلم الدراية

بالدين وما يتصل به ، ويقصد بالعدالة شخص الخليفة ، من حيث إستقامته الشخصية ، ويقصد بالكفاية قدرته على سياسة الحكم وكفاءته له .

أما قرشية النسب فقد اختلف فيها ، فبينما أقربها جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة ، فقد اختص الشيعة بها أبناء على بن أبى طالب رضى الله عنه ، بينما أطلقها الخوارج حقًا لجمهور المسلمين عربًا وغير عرب .

على أن هذه الصفات جميعها لم تعد ذات تأثير كبير ، عندما تحولت الخلافة إلى ملك عضوض مع ولاية معاوية بن أبى سفيان ، ولم يتبق منها - عمليًا - سوى قرشية الخليفة الذى أصبح ملكًا بيعته شكلية ، ويورث الملك ولده أو بعض أهله ، وليس للمسلمين أن يعارضوه .

تقول المصادر أن معاوية تنبه إلى مبدأ الوراثة بتحريض من المغيرة ابن شعبة وإلى الكوفة وكان معاوية ينوى عزله ، فأشار عليه بأن يولى ولده يزيدًا عهده فاستحسن مشورته وكافأه بأن ثبته فى ولايته .

تستطرد الرواية فتقول أن معاوية أرغم أبناء الصحابة من أهل المدينة على البيعة لولده ، فبايع معظمهم عن كره ، وبقية الأحداث معروفة ، فبعد موت معاوية فى سنة ٦٠هـ عبر الحسين بن على وعبد الله بن الزبير عن عدم رضاهما عن الوضع الجديد ، فكان جزاؤهما القتل .

الرأى عندما أن تحول معاوية بالخلافة من شورى إلى وراثة لم يكن بإيحاء من المغيرة ولا من غيره ، إنما كان عقيدة اعتنقها ، وأراد أن يجعلها واقعًا ملزمًا لجمهور المسلمين ، ونرى أيضًا أن هذا التحول أمر طبيعى ، لأن المسلمين بعد انقضاء الصدر الأول ، لم يلبثوا أن خضعوا للظروف الجديدة التى فرضها عليهم اتساع الدولة ، وتأثرهم بالثقافات السابقة عليهم والنظم السياسية ، التى دفعتهم إلى التخلى عن النظام القديم ، وقبولهم بنظام آخر هو الملك ، بكل ما تحتوى عليه تلك الكلمة من استبداد ووراثة وطاعة .

على أن مبدأ ولاية العهد خضع بدوره للتطور ، فبعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية فى سنة ٦٤هـ ظهر مبدأ ولاية العهد لأكثر من واحد ، وتقرر هذا المبدأ فى مؤتمر الجابية الذى انعقد إبان ثورة عبد الله بن الزبير ، التى كادت تعصف بدولة بنى أمية ، وقد تقرر أن يلى الأمر مروان بن الحكم ، ثم خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص .

على أن مروان قبيل وفاته فى العام التالى عهد بالأمر لولده عبد الملك ، ثم لولده الآخر عبد العزيز ، ولم يلتفت إلى ما كان مقررًا فى مؤتمر الجابية .

تكررت ظاهرة ولاية العهد لأكثر من واحد عدة مرات ، وفى كل مرة كان الخليفة يميل إلى توريث ولده ، وكان هذا المبدأ سببًا هامًا من أسباب الفتن التى أسهمت فى العصف بدولة بنى أمية فيما بعد .

وما دام الأمويون قد تحولوا بالخلافة إلى ملك استبدادى وراثى ، فقد سعوا إلى الترويج لهذا المبدأ ، بالترويج للاتجاهات الفكرية التى تدعو إلى ترك أولى الأمر وشأنهم ، من هذه الاتجاهات المرجئة ، واللفظة مشتقة من الإرجاء ، والأصل فى مذهبهم ترك القول فى النزاع بين على ومعاوية إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو أعلم بدخائل الأمور ، أى بطريق غير مباشر ، لا يتدخل الرعية فى شئون الراعى .

روج الأمويون أيضًا لبعض الأحاديث النبوية صحيحة أم غير صحيحة مثل الحديث القائل بأن الخلافة ثلاثون سنة ، يأتى بعدها الملك ، والحديث الذى يدعو إلى الطاعة بدون تفكير " سيليكم بعدى البر ببره ، ويليكم الفاجر بفجوره ، واسمعوا وأطيعوا فى كل ما وافق الحق ، فإن أحسنوا فلكم ولهم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم " .

اتخذ الأمويون – إلى ذلك – سمت الأكاسرة والقياصرة فى الأبهة ، فبينما كان عمر بن الخطاب يتخذ الأرض فراشًا له دون حراس يحرسونه ،

فإن معاوية اتخذ سرير الملك ، يحيط به حرس خاص ، كما اتخذ المقصورة بالمسجد ، خشية أن يتكرر معه ما حدث لسلفه على بن أبى طالب ، عندما ما اغتيل فى مسجد الكوفة ، ومع أنه كان من المفروض أن يؤم الخليفة الناس فى الصلاة ، إلا أنه عدل عن ذلك ، بل كان يصلى منفردًا .

وإذا كنا قد توسعنا بعض الشيء فى شرح موضوع الخلافة ، فلأن هذا الموضوع هو أهم جوانب الفكر السياسى عند المسلمين ، ولأن سائر وظائف الدولة ، لم تكن قد تحددت معالمها بعد ، إنما ظهر هذا التحدد فى مطلع العصر العباسى .

ولا بد للخليفة من حكومة تعاونه ، وشهدنا بذرة هذه الحكومة فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، على أن حكومة الرسول كانت حكومة بسيطة ، تشبه حكومة القبيلة فى الجاهلية مع مراعاة ما جاء به الدين الجديد من ناحية ، واتساع نطاق السيادة من ناحية أخرى .

كان إلى جانب رسول الله أعوان يقومون بوظائف الدولة الكبيرة ، فكان أبو بكر يقوم بأعمال الوزارة ، وإن لم يتسم بها ، وكان الزبير بن العوام والمغيرة بن شعبة وزيد بن ثابت يقومون بالكتابة وإذا كان النبى يقوم بعمل القاضى ، فقد كان يوكل هذا الأمر أحيانًا لكبار الصحابة ، مثل على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل . أما الجيش فكان من العادة أن يقوده بنفسه فى الغزوات الكبيرة ، مثل بدر وأحد ، لكن فيما عداها من غزوات أو سرايا كان يوكلها إلى بعض أصحابه من المهاجرين والأنصار ، والمرة الوحيدة التى تولى فيها غيره غزوة كبيرة ، كان زيد بن حارثة فى غزوة مؤتة .

أما فى عهد الراشدين ، فكان إلى جانب الخليفة مجلس من أهل الشورى ، يجتمع فى المسجد ، ويتشاور مع الخليفة فى أمور المسلمين ،

وتكون هذا المجلس من المهاجرين والأنصار ، ومما يدل على أهميته ، ما صرح به عمر بن الخطاب من أنه " لا خلافة بدون شورى " .

إلى جانب هذا المجلس ، فقد أو كلت إلى بعض الصحابة مهام معينة ، فكان عمر بن الخطاب قاضيًا فى عهد أبى بكر ، بينما أوكلت الكتابة إلى على .

ومع قيام الدولة الأموية تطور النظام السياسى للدولة ، وتخصص قوم فى أعمال الوزارة وحدها ، ومع أنهم – كقاعدة – لم يتخذوا اللقب ، إلا أننا نجد زياد بن أبيه ، يلقب بالوزير فى عهد معاوية ، كما تلقب به رَوْح بن زِنْباع الجذامى فى عهد عبد الملك .

إلى جانب الوزير كان هناك الكاتب ، وتحدد عمله فى تحرير الكتب التى تصدر عن الخليفة ، واشترط فيه حسن الخط وبلاغة العبارة ، ومن أشهر الكتاب فى عصر بنى أمية سالم كاتب هشام بن عبد الملك وعبد الحميد ابن يحيى كاتب مروان بن محمد .

وبعد استشهاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، نشأت الحاجة إلى حماية الخليفة ، فاقتبس الأمويون عمن سبقهم من ملوك العجم نظام الحجابة (من فعل حجب) ، ومهمة الحاجب أن يتولى مهمة إدخال الناس على الخليفة ، وبطبيعة الحال ، فإن إدخالهم كان يخضع لتقدير الحاجب وتعليمات سيده . وقد أثر عن عبد الملك بن مروان أن قال لحاجبه عندما ولاه : " لقد وليتك حجابة بابى ، إلا عن ثلاث ؛ المؤذن للصلاة فإنه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد " .

(ب) النظام الإدارى :

كانت الإدارة داخل العاصمة المركزية تقسم إلى دواوين (جمع ديوان) وديوان كلمة فارسية ، تعنى سجلاً أو دفتر ، وينسب إلى عمر رضى الله عنه ، أنه أول من دون الدواوين ، فإنه نتيجة للفتوح ، وتدفق الأموال على العاصمة ،

وظهور الحاجة إلى جيش دائم منظم مهمته القتال فحسب ، أنشأ عمر الديوان في المحرم سنة ٢٠هـ من أجل أن تسجل فيه أسماء أصحاب الحق في العطاء ، ونصيب كل منهم في هذا العطاء الذي يتحدد على أساس القرابة لرسول الله ﷺ ، والسبق إلى الإسلام ، وشهود بدر وغير ذلك .

وتعددت الدواوين فيعهد بني أمية ، أهمها ديوان الجند وديوان الخراج وديوان البريد .

نشأ ديوان الجند (أو العطاء) في عهد عمر بن الخطاب ، فكان أول دواوين الدولة الإسلامية ، وكانت مهمة هذا الديوان أن يحول بين الجند وبين ممارسة مهام أخرى غير الجهاد ، وذلك بالنفقة عليهم بمعايير محددة . وعندما أدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجباري ، أصبح كل من يبلغ الشباب من العرب جنديًا يتقرر له العطاء .

أما عن ديوان الخراج ، فقد ورثه العرب عمن سبقوهم من أمم قديمة ، واختص صاحبه بالإشراف على جباية الأموال ومصارفها ، وأودعت لديه السجلات الخاصة بها .

كانت اللغة المستعملة في ديوان الخراج هي الفارسية والرومية (اليونانية) ، لأن العرب كانوا يخشون أن يؤدي تغيير اللغة إلى إرباك العمل في هذا الديوان .

على أنه في عهد عبد الملك بن مروان تم تعريب ديوان الخراج ، خصوصاً وقد انتشر الإسلام واللغة العربية ، ووصلت إلينا من مصر مجموعة من أوراق البردي ، أضيفت فيها اللغة العربية إلى اللغة اليونانية ، ثم صارت اللغة العربية وحدها هي لغة الديوان .

ويقصد بالبريد في الفارسية نقل الخبر ، وأول من اتخذه من بني أمية معاوية بن أبي سفيان ، وأضحى نظاماً بأسره في عهد عبد الملك الذي بالغ في الاهتمام به ، حتى كان يستقبله في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار .

ويرجع سبب اهتمام الأمويين بالبريد أنه صار عندهم أشبه بجهاز المخابرات في عصرنا ، فعن طريقه يلم الخلفاء بشئون ولاياتهم وما يجرى فيها ، وكثيراً ما كان الخليفة يجعل بينه وبين صاحب البريد علامة معينة ، يحافظ من خلالها على سرية الرسالة .

ومع ذلك فقد كان البريد يستخدم أحياناً فى مراسلات عامة الناس ، وكانت الخيل هى الوسيلة الأساسية لنقل البريد على مراحل ، كل مرحلة تقدر باثنى عشر ميلاً ، يتم بعدها استبدال الخيل المتعبة بخيل أخرى ، كما كان يستعان بالحمام الزاجل .

وقد بلغت مصروفات ديوان البريد فى عهد ولاية يوسف بن عمر الثقفى للعراق أربعة ملايين درهماً فى السنة .

وإذا كانت الدولة الإسلامية قد استقرت حدودها فى عهد بنى أمية ، ووصل التوسع الإسلامى إلى مداه ، فقد ترتب على ذلك أن استقر نظام الإمارة على البلدان .

والملاحظ أن العرب ألفوا أمماً ، درجت على تقاليد معينة ، فحرصوا من ناحيتهم على الإبقاء على الأوضاع الإدارية كما هى ، حتى لا يصرفهم تغييرها عن المهام الأخرى المنوطة بهم . وقد بدأ عمر بن الخطاب فقسم الدولة الإسلامية إلى أقسام إدارية كبيرة ، وحدد حاضرة لكل قسم منها ، وجعل عليه عاملاً فوضه سلطاته ، على أنه فى عهد بنى أمية صار هؤلاء العمال يدعون أحياناً بالولاة أو الأمراء .

ويلاحظ أن الخلفاء الراشدين والأمويين توخوا فى عمالهم أن يكونوا على نحو عام عرباً ، على أن الأمويين آثروا أن يكونوا من ذوى قرباهم ، أو من القبائل العربية التى تدين لهم بالولاء . وهكذا صار عبد العزيز بن مروان والياً على مصر من قبل أخيه عبد الملك ، كما صار الحجاج بن يوسف

الثقفى والياً على العراق ، من قبله أيضاً ، بل إن سلطة الحجاج امتدت إلى شرقى الدولة الإسلامية كله ، فعين له ولاة من قبله ، ومنهم المهلب بن أبى صفرة الذى ولى أمر خراسان .

ومع أنه كانت للأمير سلطات الخليفة فى ولايته ، إلا أنه كان يحدث أحياناً أن يستقل بالشئون المالية فى هذه الولاية عامل ، يعين من قبل الخليفة ، ففى عهد ولاية عتبة بن أبى سفيان مصر من قبل أخيه معاوية ، كان وردان عاملاً على خراجها من قبل الخليفة ، مما كان مدعاة لغضب عتبة ، وما زال بأخيه حتى ضم إليه الخراج . وفى عهد هشام بن عبد الملك ، ظل عبيد الله ابن الحَبْحاب عاملاً على خراج مصر عشر سنوات ، وعندما كان يتصادم مع الوالى ، كان الخليفة يحل المشكلة بأن يعين والياً جديداً .

أما عن القضاء فبسبب ظروفه الخاصة ، والطابع الدينى الذى يتسم به، فإن الوالى الذى غالباً ما كان من رجال الحرب ، لم يكن يجوز له أن يلى القضاء ، بل لا يجوز له أن يعين القاضى ، فتعيين القضاة من اختصاص الخليفة وحده ، على أن الوالى كان يقوم بهذه المهمة ، عندما يكون مقرباً من الخليفة أو من ذوى قرباه ، ثم يقره الخليفة بعد ذلك .

(جـ) النظام المالى :

لم تكن أمور المال تشكل مشكلة كبيرة للمسلمين فى بداية الأمر ، على أنه بعد أن امتدت حدود الدولة امتداداً واسعاً إبان الفتوح ، بدأت الدولة تفكر فى وضع نظام مالى ، ولم ينشأ هذا النظام دفعة واحدة ، إنما نشأ على مراحل ، إلى أن استقرت معالمه فى بداية العصر الأموى .

تحددت موارد الدولة فى مصدر أساسى هو الخراج ، ومع ان كلمة الخراج فى أصلها كلمة آرامية هى Choregia وتعنى ضريبة ، إلا أنها كانت

تعنى عند المسلمين ضريبة الأرض . وتتحدد فى جعل معين يؤدى إلى الدولة ، نظير الانتفاع بالأرض ، هذا الجعل يأخذ صورة عينية ، أو يأخذ صورة نقدية ، أو هما معاً .

وجرت العادة على أن يؤخذ الخراج من الأرض التى فتحها المسلمون عنوة ، ولم تقسم بين المحاربين ، إنما أصبحت ملكاً للدولة ، أو الأرض التى فتحها المسلمون صلحاً ، وتركوها لأهلها يزرعونها ، مقابل مال يؤدونه لبيت المال ، واتفق على أن يبقى هذان النوعان من الأرض خراجيين ، حتى لو أسلم أهلهما .

وليس لدينا نص شرعى ، يحدد مقدار ما يؤخذ من الأرض ، على أنه فى معظم الأحوال ، كان مقدار الضريبة ينقص أو يزيد تبعاً لحالة الأرض .

وكان عامل الخراج ينفق جزءاً من الخراج على شئون ولايته ، ويرسل المتبقى منه إلى عاصمة الدولة ، وكان الخلفاء يتشددون فى محاسبة عمالهم على ما يرسلونه من أموال إليهم ويلجئون فى بعض الأحيان إلى تعذيبهم .

أما الأراضى التى ملكها المسلمون عنوة ، وقسمت بين المحاربين ، والأراضى التى أسلم أهلها دون حرب ، فإنها كانت تصير أرضاً عشرية ، أى تؤدى الزكاة فحسب ، على أن يؤخذ من الأرض التى تسقى بمياه الأمطار مقدار العشر، كما يؤخذ من الأرض التىتروى بمياه الأنهار مقدار نصف العشر.

كذلك كانت تؤخذ زكاة المال من موارد أخرى غير الأرض ، وكانت نسبتها تختلف بين مورد وآخر ، وأصبح لها ديوان خاص بها فى العاصمة تتفرع منه دواوين فى الولايات .

وينسب إلى عمر بن الخطاب أنه ابتكر ضريبة العشور ، فكان على المستأمنين (أى الأجانب من غير رعايا الدولة) أن يؤدوا لها ضريبة تبلغ

عشر رأسمالهم الدائر في التجارة ، كما فرض على الذميين ضريبة تبلغ نصف العشر ، أما المسلمون فبلغت ضريبتهم ربع العشر وهو حق الزكاة .

واختص أهل الذمة بأداء الجزية ، وقد ورد بشأنها في القرآن الكريم : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون)(١) .

والجزية في حقيقتها هي ضريبة الرأس Capitatio التي عرفتها الشعوب القديمة ، على أن المسلمين كانوا يأخذونها من الذميين ، مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة في الجيش ، وكانت تسقط عنهم لدى إسلامهم . والجدير بالذكر أنه كان يعفى من أداء الجزية المساكين والمقعدون والعميان وذوو العاهات والصبية وكبار السن والرهبان والنساء .

وإذا كان الخراج مقدراً بالإجتهاد ، فإن الجزية مقدرةً بالشرع ، وقد حدد أقدم الفقهاء الأربعة - ابو حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) - مقدارها بثمانية وأربعين درهماً في السنة الواحدة للموسر ، وأربعة وعشرين للوسط ، واثنى عشرة لمن هو دونه وقد استند أبو حنيفة في تقديره هذا إلى عمر بن الخطاب نفسه .

عندما ازداد عدد الداخلين في الإسلام ، وتناقص دخل الدولة من الجزية ، أمر الحجاج بن يوسف وإلى العراق بتثبيتها على من أسلم ، مما كان له أثره في ثورة عبد الرحمن بن الأشعث بالمشرق . على أن ما فعله الحجاج وبعض ولاة بني أمية كان استثناء ؛ ولم يكن قاعدة ، وعندما استخلف عمر بن عبد العزيز ، رفض اقتراحاً من عامله على مصر ، بمعاردة تثبيت الجزية على من أسلم وقال : " إن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ، ولم يبعثه جابياً " .

---

(١) سورة التوبة : آية ٢٩

هذه هى أهـم مـوارد بيت المـال ، وكـانت هنـاك مـوارد أخـرى ، مثـل الغنائم التى تقسم بين المحاربين ، ويذهب خمسها إلى بيت المـال ، وضرائـب أخرى غير شرعية ، كان الأمويون يفرضونها ، عندما لا يجدون فى بيت فى بيت المال ما يفى بحاجـات الدولـة ، خصوصـاً فـى أزمنـة الفتنـة ، لكـن هـذه الضرائب - فى معظم الأحيان - لم تكن فادحة ، كما إنها ترتبط - على نحو خاص - بالفترة الأخيرة من حكمهم .

(د) النظام القضائى :

ظهرت الحاجة فى عصر الفتوح إلـى نظـام قضـائى مسـتقل بذاتـه عـن شخص الخليفة أو الأمير ، فتقرر أن يعين الخليفة قضاة، يحكمون بين النـاس، وفقاً للقرآن الكريم وسنة النبى ﷺ .

ومـن القضـاة الذيـن اشـتهروا فـى عهـد الراشـدين أبـو الـدرداء قـاضى المدينة ، وشريح بن الحارث الكنـدى قـاضى الكوفـة ،وأبـو موسـى الأشـعرى قاضى البصرة .

تطور نظام القضاء بتطـور حاجـات النـاس وتعـدد مصـالحهم واحتكـاك العرب بغيرهم من الأمم ، فأضيف إلى القرآن الكريم والسنة مصادر أخرى ، هى القياس وإجماع أهل المدينة والرأى والاجتهاد . كما صار للقـاضى كـاتب يختص به وسجل يدون فيه الأحكام ، خصوصاً وأنه كـان يشرف فـى بعـض الأحيان على ديوان الأحباس أو الأوقاف .

لم يتدخل بنو أميـة - كقـاعدة - فـى أعمـال القضـاة ، ولـم يحـاولوا أن يفرضوا عليهم أفكاراً بعينها ، وكانت نزاهة القاضى وعدالته المحك الرئيسـى فى اختياره ، وفى بقائه فى منصبه ، إلى جانب علمه وبصره بشئون الديـن ، وعندما نمى إلى علم هشام بـن عبـد الملـك أن قاضيـه علـى مصـر يحـى بـن

ميمون الحضرمى لم ينصف يتيماً احتكم إليه بعد بلوغه ، كما إن كتبته يقبلون الرشوة ، أمر عامله على مصر بعزله ففعل .

وكان القضاة يقضون أحياناً بين غير المسلمين ، إذا أرادوا هم ذلك ، بل إن القاضى خير بن نعيم – قاضى مصر – كان يجلس إلى باب المسجد بعد صلاة العصر ، فيقضى بين النصارى ، وأحياناً يكون القاضى على دراية بلغة الذميين الذين لا يحسنون العربية .

وتحددت للقضاة رواتب يأخذونها من بيت المال ، ترواح مقدارها بين عهد وعهد آخر ، وقد بلغت فى عهد مروان بن محمد آخر الأمويين عشرة دنانير ، يتقاضاها القاضى كل شهر .

وكانت الشرطة تعاون القاضى فى تنفيذ أحكامه وإقامة الحدود ، وقد اقتبس العرب نظام الشرطة من الروم ، والكلمة نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية Securitas ، وتعنى الأمن . على أن الشرطة لم تلبث إن انفصلت عن القضاء ، وأصبح لها صاحب ، يختار من أهل العصبية .

وكان يحدث أحياناً أن يصدر القاضى حكماً ، ثم لا تتهيأ له الفرصة إلى تنفيذه ، لأن أحداً ممن يمسه حكم القاضى من علية القوم وله جاه ونفوذ، وفى أحيان أخرى كان القاضى يصدر حكماً ، يراه المتقاضون جائراً .

حاول على بن أبى طالب حل المشكلة ، بأن يجلس للمتظلمين فى وقت معين ، ينصت إلى شكاواهم ، ويصدر أمره بتنفيذ ما يراه حقاً ، وفعل الشئ نفسه عبد الملك .

بيد أن تعدد مهام رئيس الدولة وضيق وقته وكثرة شكاوى الرعية ، دفعت إلى إنشاء ديوان يدعى بديوان المظالم ، يقوم عليه قاض متخصص ، يعرف بقاضى المظالم ، أو صاحب المظالم ، اجتمعت لديه سلطة أكبر من

سلطة القاضى ، وكان يعاونه جماعة من الفقهاء والشهود يستنير القاضى بعلمهم ، وكتاب يقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وأعوان يقومون على الأمن والنظام بحضرة القاضى .

إلى جانب القاضى وقاضى المظالم كان هناك أيضاً المحتسب ، ويستمد شرعيته من الآية الكريمة : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)(١) .

وينسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أول من ابتكر هذا النظام ، وجعله أشبه بالقضاء المستعجل فى زماننا .

تعددت مهام المحتسب ، فكان عليه الإشراف على الأسواق ، فيفتش على الموازين والمكاييل ، ويراقب الأسعار ، ويشرف أيضاً على حركة المرور فى الطرقات وسلامة المبانى ، كما كان يراعى التزام أهل الذمة بعقد الذمة ، ويتعقب من يعبث من المسلمين بالشريعة .

وقد يسرت الدولة للمحتسب الفرصة ، لممارسة عمله ، فأعانته بأعوان يأتمرون بأمره ، كما منحته سلطة التعزير أى الضرب ، لمن يخالف أوامره ونواهيه .

٢ - الحركات السياسية - الدينية :

(أ) إفتراق المسلمين وأسبابه :(*)

ما كادت تمضى سنوات قليلة على وفاة النبى ﷺ ، حتى بدت بوادر افتراق المسلمين إلى فرق ، تفاوتت مسافة الخلف بينها ، ووصل الأمر فى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

(*) فصل العالم الجليل الشيخ محمد أبو زهرة هذه الأسباب على نحو طيب فى كتابه " تاريخ المذاهب الإسلامية " .

بعض الأحيان إلى أن كفر بعضها بعضاً ، كما اختصت بعض هذه الفرق بفكر مستقل عن الإسلام .

أدهش هذا الاختلاف بعض المسلمين ، وبخاصة الأتقياء منهم ، على أنهم لم يلبثوا فى النهاية أن اعترفوا به وأقروه ، وسعى عدد منهم إلى البحث عن الأساس الأيديولوجي له ، فنسبوا إلى رسول الله ﷺ أنه قال : " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاثة وسبعين فرقة " .

والحقيقة أن الإعتراف بوجود فرق إسلامية ، لا يمس الإسلام من حيث هو دين ، فالفرق التى غالت إلى حد الخروج عليه قليلة ، ومدى تأثيرها محدود ، ثم إن أغلبها انقرض .

والإختلاف شئ طبيعى فى النفس الإنسانية ، وقد تعلمنا من علم الأحياء ، أنه لا يوجد تطابق تام بين الأفراد الذين ينتمون إلى النوع نفسه من الكائنات ، فيظل دائماً قدر من الإختلاف بين الفرد منهم وسائر اقربائه ، إلى جانب قدر من الاشتراك بينهم جميعاً .

وإذا نحن استعرضنا تاريخ الأديان قبل الإسلام ، وجدنا أن الدين الواحد منها ، كانت تتوزعه بعد فترة نزعات مختلفة وفرق ومذاهب ، والنصرانية نفسها مرت بهذه التجربة ، حتى إبان محنتها على أيدى الوثنيين ، فكان النصارى يتناحرون فيما بينهم ، فى الوقت الذى يواجهون فيه عسف الرومان ، واستمروا فى هذا التناحر ، بعد أن انتصرت ديانتهم ، بحيث صار سبباً من أسباب النجاح المذهل للفتوح العربية الكبرى .

وكثيرة هى الأسباب التى أدت إلى الخلاف بين المسلمين ، وليس من شك أن من بينها مدى فهمهم للإسلام نفسه ، وبخاصة المتشابه فى القرآن

الكريم . ومنها أيضاً الاجتهاد فى الأجزاء والفروع ، أو فيما لم يرد فيه نص ، وكان المجتهد يخطىء أحياناً فى اجتهاده ، أو يُفهم اجتهاده على نحو خاطئ .

من بين هذه الأسباب أيضاً العصبية العربية ، ولدينا مثال واضح فى الخوارج الذين كان أكثرهم فى البداية بدواً من الناحية الاجتماعية ، وربعيين (أى من قبائل ربيعة) من الناحية العرقية .

كذلك نشأ عن امتداد الإسلام خارج الجزيرة العربية ، أن دخل فيه يهود ونصارى ومجوس ، ولم يتخلص بعضهم من آثار ديانتهم السابقة ، كما إن بعضهم الآخر اعتنق الإسلام بهدف هدمه من الداخل ، ولدينا مثال على ذلك فى الإسرائيليات التى اقتحمت مجال الحديث النبوى وتفسير القرآن ، ولا تنسجم الإسرائيليات جميعها مع جوهر الإسلام . وكان للتراث الفكرى لهذه الديانات أثره الواضح فى مذاهب الغلاة على اختلاف هذه المذاهب .

يتصل بهذا العنصر عنصر آخر ، وهو حركة الترجمة التى بدأت فى فترة باكرة ، تعود إلى نهاية القرن الأول ، وانتعشت لدى تعريب الدواوين فى عهد عبد الملك ، وشجع عليها بعض أبناء البيت الأموى ، وبخاصة الأمير خالد بن يزيد بن معاوية .

كانت الترجمة هى المعبر الذى عبر عليه الفكر القديم – سيما الفلسفة – إلى الحضارة الإسلامية ، واتضح أثر هذا الفكر فى مذهب قوم كالمعتزلة .

وثمة إجماع بين الباحثين على أن الخلافة ، أو بتحديد أدق مشكلة السلطة ، كانت المدخل للخلاف بين المسلمين ، وقد تتبعنا فى موضع سابق تطور هذا الخلاف ، والحق إن مشكلة السلطة كانت القاسم المشترك بين الفرق الإسلامية جميعها ، حتى تلك التى أنكرت الخلافة ، مثل النجدات من الخوارج .

(ب) الخوارج :

نشأ عن قبول على بن أبى طالب مبدأ التحكيم أن انفصل عنه بعض أنصاره ، وطلبوا منه أن يرجع عن هذا المبدأ ، إذا أراد هو أن يرجعوا إليه ، وتنادوا إلى شعار " لا حكم إلا لله " لذا عرفوا بالمحكمة ، وأقاموا فترة بحروراء - بظاهر الكوفة - فدعوا بالحرورية ، على أن الإسم الذى شاع إطلاقه على هؤلاء جميعاً هو الخوارج .

والحقيقة أن تعميم هذه التسمية على كل من اختلف مع على بن أبى طالب من أنصاره السابقين ، فيه تزيد وتجاوز ، وإذا شئنا الدقة ، فإن هؤلاء - المحكمة أو الحرورية - ينقسمون إلى متطرفين (خوارج) ومعتدلين (قَعَدَة) .

يشترك الفريقان - الخوارج والقعدة - فى أنهما معاً أجازوا الخلافة (أو الإمامة) لأى مسلم عربياً كان أم غير عربى ، ويفضل ألا يكون عربياً، حتى لا تكون له عصبية تدافع عنه فى حال العزل أو القتل . وهو يختار بناءً على قاعدة الانتخاب الحر بين جمهور المسلمين ، وعلى ذلك يكون الخوارج والقعدة هم الممثلين الحقيقيين للمبدأ الجمهورى فى الفكر السياسى الإسلامى .

على أنه فيما عدا ذلك يختلف الفريقان فى سائر الأمور ، ومنها تكفير مرتكب الذنب ، فالخوارج - والأزراقة على نحو خاص - لا يفرقون بين ذنب كبير وذنب صغير بل هم اعتبروا الخطأ ، ولو عن اجتهاد ، أو نية حسنة ذنباً لا يغتفر ، وعلى ذلك كفروا غيرهم من المسلمين ، وذهبوا إلى حربهم واستباحة دمائهم وأموالهم وسبيهم ، فى حين أن القعدة - ويمثلهم الإباضية - لا يكفرون إلا مرتكب الكبيرة ، ولا يقاتلون إلا عسكر السلطان .

إذا تتبعنا المسار السياسى للخوارج ، بعد استشهاد على بن أبى طالب ، نجدهم قد ناهضوا معاوية بن أبى سفيان الذى كان أبغض إليهم من خصيمه ،

فبعد تنازل الحسن رضى الله عنه ، اجتمع عدد من الخوارج فى مسجد الكوفة ، فضيق عليهم المغيرة بن شعبة واليها ، حتى أرغمهم على الخروج من المدينة ، ثم طاردهم بالمذار بين واسط والبصرة ، وقتلهم جميعاً .

وعندما ولى زياد وولده عبيد الله بن زياد أمر العراق ، نشطا فى تعقب الخوارج ، وقتلت جماعة منهم صبراً فى سنة ٦١هـ .

عاود الخوارج نشاطهم ، عندما أعلن عبد الله بن الزبير ثورته بالحجاز ، فتوجه إليه عدد منهم ، على رأسهم نافع بن الأزرق ، وحاربوا معه ضد بنى أمية ، لكنهم فارقوه عندما لم يوافقهم على رأيهم فى عثمان وعلى .

سار الخوارج إلى البصرة واقتحموا سجونها ، وأطلقوا من كان فيها من اخوانهم ، ثم انصرفوا عنها إلى الأهواز ، وكان جيش ابن الزبير فى أعقابهم ، ودارت معركة قتل فيها ابن الأزرق ، ثم ولى المهلب بن أبى صفرة مطاردتهم ، فخرج فى عشرين ألفاً من قومه الأزد وأهل البصرة ، وعاود هزيمتهم على نهر دُجَيْل فى سنة ٦٦هـ .

نشط مصعب بن الزبير ، عندما ولى البصرة من قبل أخيه ، فى متابعة الخوارج ، الذين اشتد عيثهم فى أنحاء العراق وفارس ، وتزعمهم قَطَرِى بن الفُجاءة ، وطمحوا إلى الاستيلاء على البصرة ، فدارت عدة معارك بين الزبيريين والخوارج ، لم تسفر عن نتيجة حاسمة .

عندما استقرت الأمور فى يدى عبد الملك بن مروان ، أسند ولاية العراق للحجاج بن يوسف الذى استمال إليه المهلب ، وعهد إليه بحرب الخوارج ، وكانوا قد انقسموا إلى أزارقة وصُفْرِيَّة .

استطاع المهلب أن يطرد الأزارقة من كرمان وفارس ، وأرغم قطرى ابن الفجاءة على الرحيل إلى طبرستان ، حيث قتل بعد قليل ، وقد كافأ الحجاج المهلب على حسن بلائه فى الحرب ، وولاه خراسان فى سنة ٧٨هـ .

أما الصفرية – وعلى رأسهم صالح بن مُسْرِح التميمى – فكان قد قوى أمرهم فى الجزيرة سنة ٧٦هـ ، فحاربهم أميرها محمد بن مروان بن الحكم ، وأرغمهم على التقهقر إلى الكوفة ، حيث أرسل الحجاج إليهم جيشاً ، انتصر عليهم وقتل أميرهم ابن مسرح فخلفه فى زعامتهم شبيب بن يزيد التميمى .

ارتد الصفرية إلى المدائن ، ثم عاودوا هجومهم على الكوفة ، فأرسل الحجاج إلى عبد الملك فى المدد ، فلما وصل إليه استطاع أن يتصدى لهم ، ويرغمهم على الإنسحاب إلى الأهواز ، حيث مات شبيب .

ضعف شأن الخوارج بقية عهد عبد الملك ، وفى عهد ولديه الوليد وسليمان ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩هـ ، اتبع سياسة طيبة مع الخوارج ، وعندها علم بخروج شَوْذَب اليَشْكُرى ، لم يشأ أن يحاربه ، وكاتبه يستفسر عن سبب خروجه ، ودعاه إلى مناظرته ، فأرسل شوذب إثنين من اتباعه ، استطاع عمر أن يستميلهما إليه ، وشهدا له بالحق .

عاد الخوارج إلى الثورة فى خلافة هشام ، فخرج بهلول بن بشر الشيبانى بالموصل وهدد الكوفة ، فتعقبه عمال بنى أمية ، ومن بينهم خالد بن عبد الله القسرى ، حتى قضوا على حركته وقتلوه .

وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، تجددت ثورة الخوارج ، بزعامة الضحاك بن قيس الشيبانى ، فاستولى على الكوفة وواسط ، وأضاف إليه الموصل ، عندما استدعاه أهلها فى سنة ١٢٧هـ .

كان مروان مشغولاً – إذ ذاك – بالتمكين لنفسه ضد المناوئين له فى بلاد الشام ، فلما فرغ منهم ، توجه لقتال الضحاك ، والتقى به فى كفر توثا من أعمال ماردين فى سنة ١٢٨هـ ، حيث دارت معركة انتهت بمقتل الضحاك ، وتتبع مروان من نجا من أصحابه ، حتى قضى عليهم فى العام التالى .

لم تقتصر ثورات الخوارج على المشرق الإسلامى ، فإن دعوتهم وجدت استجابة بين البربر فى بلاد المغرب ، وأعان على ذلك سياسة عبيد الله بن الحبحاب الذى ولى إفريقية والمغرب ، فاعتبر البربر – رغمًا عن إسلامهم – فيئاً للمسلمين .

تفجرت الثورة بزعامة ميسرة السقاء فى سنة ١٢٢/ ٧٤٠ ، ودامت ثلاث سنوات ، فتك البربر خلالها بعدة جيوش جاءت لحربهم من دمشق . وبعد انتهاء الثورة مرت بلاد المغرب بفترة طويلة من الإضطراب أدت إلى انفصالها عن الدولة الإسلامية .

امتدت الثورة إلى الأندلس ، وكاد البربر هناك يعصفون بدولة العرب ، لولا أن اتحد هؤلاء مع اخوانهم الذين قدموا من المغرب وانتصروا على البربر ، لكن هذا الانتصار أدى بدوره إلى اشتعال العصبية بين العرب والبربر ، بل بين العرب أنفسهم وأفضى فى النهاية إلى انفصال الأندلس – شأنها شأن المغرب – عن الدولة الإسلامية .

(جـ) الإباضية :

بعد معركة النهروان فى سنة ٣٨هـ ، استقر عدد من المحكمة فى مدينة البصرة ، وتزعمهم أبو بلال مرداس بن حُدَيْر التميمى ، وقد مثل أبو بلال هذا الفريق المعتدل من المحكمة ، وراعه ما شاهده من سفك لدماء المسلمين ، ورأى من الأجدى أن ينشر أفكاره سلماً دون قتال ، لذا دعى وصحبه بالقعدة .

ومع أن أبا بلال توخى السرية فى دعوته ، إلا أن والى العراق عبيد الله بن زياد كان يترصد صحبه ، وزج ببعضهم فى سجونه ، مما جعل أبا بلال يترك البصرة مع أربعين من أصحابه ، ونزل آسك ، ولم يلبث أن استشهد هؤلاء جميعهم فى سنة ٦١هـ.

دعى القعدة بعد سنوات بالإباضية ، نسبة إلى أحد زعمائهم ، وهو عبد الله بن إباض التميمى ، وإن كان الإباضية أنفسهم يذهبون إلى أن مؤسس فرقتهم هو جابر بن زيد الأزدى ، وهو من التابعين .

أقام الإمام جابر فى البصرة ، واتبع السرية التامة فى دعوته إلى مذهبه ، وتوخى مسالمة السلطة الحاكمة توقياً لشرها ، ونتيجة لجهوده انتشر مذهبه بين قوم الأزد فى البصرة وفى عمان .

لدى وفاة جابر فى سنة ٩٣هـ خلفه فى الزعامة أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ، وقد توسع أبو عبيدة فى نشر الدعوة عن طريق مجالس دعيت بمجالس حملة العلم ، توافد إليها الدعاة من مختلف الأمصار .

أثمرت جهود أبى عبيدة عن نشوب أول ثورة إباضية فى حضرموت سنة ١٢٩هـ ، على يدى عبد الله بن يحى الكندى ، الملقب بطالب الحق ، وقد زحف إلى اليمن ودخل صنعاء ، ثم أرسل قائده المختار بن عوف الأزدى المعروف بأبى حمزة الشارى إلى الحجاز ، فاستولى على مكة والمدينة ، وتهيأ للزحف إلى بلاد الشام .

استشعر الخليفة مروان بن محمد الخطر الوافد إليه من الجنوب ، فهيأ جيشاً كبيراً بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى ، تمكن من هزيمة الإباضية فى وادى القرى سنة ١٣٠هـ وقتل قائدهم أبا حمزة ، ثم زحف إلى اليمن ، ودارت عند صعدة معركة كبيرة ، قتل خلالها طالب الحق ، وبذا انتهت الثورة .

لم تكن تلك هى نهاية الإباضية ، لأنهم لم يلبثوا أن انتعشوا فى عمان ، وبعد عامين أعلنوا إمامتهم بها ، كما إنهم فى بلاد المغرب استغلوا مرحلة الانتقال بين بنى أمية وبنى العباس ، فسعوا من أجل إقامة إمامة لهم هناك ، إلى أن نجح عبد الرحمن بن رستم فى إقامة هذه الإمامة فى تاهرت سنة ١٦٠هـ.

(د) الشيعة :

عرف فريق كبير من المسلمين ،بأنهم شيعة علـى بـن أبـى طـالب ، أى أصحابـه وأنصـاره ، ولـم يلبثـوا أن عرفـوا بالشـيعة فحسب . والأصــل فـى مذهبهم أن علياً أحق بالخلافة من معاوية ، ثم امتد هـذا المبدأ إلـى أنـه احق بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان ، وما دام على قد مات ، فإن هـذا الحـق يمتد إلى عقبه .

هذا المبدأ يحجب مبدأ الاختيار الحربين المسـلمين ، ويحصـر الخلافـة أو الإمامة فى بيت واحد هو بيت على بن أبى طالب ، ثم إنه ما دامت الإمامة هى وريثة النبوة ، يصير الإمام معصومـاً ، وطاعتـه عامـة وملزمـة ، ولا تجوز مناقشته . وقد تأثر الشيعة فـى نشـأتهم بالبيئـة المحيطـة بهـم ، فقد بدأوا فى العراق ، حيث جعل على بن أبى طـالب عاصمتـه ، واستشـهد ولـده الحسين وغيره من العلويين ، والعراق – كما نعلم – موطن حضارات قديمــة كان لها تأثيرها فى نمو المذهب الشيعى وتطوره .

على أن أهم فرق الشيعة وأكثرها اعتدالاً هما الزيديـة والإماميـة ، ولـم تكفر الزيدية أحداً من الصحابــة ، وتـرى بجـواز إمامـة المفضـول مـع وجـود الأفضل ، وأقرت بإمامة أبى بكر وعمر ، كما أجازت أيضاً وجـود إمـامين ، ما دامت قد توافرت فيها الصفات اللازمة .

أما الإمامية أو الجعفرية الإثنا عشرية وهم كثرة الشيعة ، فلا يرون أن الإمام يعرف بالوصف – كما يرى الزيدية – إنما هو معيـن بالشـخص ، وإذا كان محمد هو النبى ، فعلى هو الوصى ، وأبناؤه أوصياء ، وهـم معصومـون من الخطأ ، وعلى أيديهم تجرى الخوارق .

لم ينته تطلع الشيعة إلى الخلافة بتنازل الحسن بن علـى عنهـا فـى عـام الجماعة ، ثم وفاته بعد ذلك ، بل إن الأمويين زادوا من حماسة هؤلاء إلى آل

على بن أبى طالب ، بما كانوا يقدمون عليه فى بعض الأحيان من لعن على على المنابر ، وزاد الأمر سوءاً ما أقدم عليه معاوية فى سنة ٤٩هـ من تولية ولده يزيداً عهده ، ومحاولته إلزام الصحابة وأبنائهم بالمدينة المنورة بيعته ، فبايع أغلبهم مضطراً ، وامتنع عن البيعة الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر .

لم يأبه معاوية لمعارضة هؤلاء النفر ، وذهب إلى المدينة ، وخطب فى الناس ، مدعياً أن البيعة أصبحت عامة ليزيد ، وأنه لم يمتنع عنها أحد .

مات معاوية فى سنة ٦٠هـ/٦٨٠م وخلفه يزيد ، فكتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أن يأخذ له بيعة من تأخرت بيعتهم ، فبايع عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر ، أما عبد الله بن الزبير ، فإنه ارتحل إلى مكة وامتنع بها ، ولم يلبث أن لحق به الحسين هناك .

كان السخط على بنى أمية وسياستهم قد بلغ مداه فى العراق وبخاصة الكوفة التى ظهر بها حزب قوى مؤيد للحسين ، وكان أهل العراق يشعرون بفداحة ذنبهم ، لأنهم لم يساندوا على بن أبى طالب المساندة الكافية فى نزاعه مع معاوية بن أبى سفيان .

أرسل أهل الكوفة إلى الحسين كتاباً قالوا فيه : " إنه ليس علينا إمام ، فأقدم علينا ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى " .

توالت كتب أهل الكوفة إلى الحسين ، تستحثه على القدوم ، فلما اطمأن إلى تأييدهم ، أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابى طالب ، ومعه كتاب يقول فيه : " بعثت إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلى بحالتكم وأمركم، فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم ، على مثل ما قدمت على به رسلكم ، أقدم إليكم

وشيكاً إن شاء الله ، فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بدين بالحق " .

توجه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، واستطاع بعد وقت قصير أن يجمع عدة آلاف من أهلها على بيعة الحسين ، ولم يستطيع النعمان بن بشير واليها معه شيئاً .

عندما تناهت هذه الأنباء إلى يزيد بدمشق، عزل واليه عن الكوفة ، وجعل مكانه عبيد الله بن زياد .

كان عبيد الله بن زياد متهماً فى نسبه ، فجده أبو سفيان أنجب اباه زياداً من بغى تدعى سمية ، ولم يعترف به ولداً ، لذا دعى بزياد بن أبيه ، وقد وقف زياد إلى جانب على فى نزاعه مع معاوية ، على أن هذا الأخير استماله ، بعد أن استقر له الأمر ، واعترف به ابناً لأبى سفيان ، وولاه البصرة فى سنة ٤٥هـ ، ثم أضاف إليه الكوفة بعد خمس سنوات .

أحسن معاوية الاستمداد بزياد ، فقد أظهر مهارة فائقة فى الضرب على الخوارج ، وعلى النحو نفسه فعل ولده عبيد الله الذى أنجبه من جارية مجوسية تدعى مرجانة ، عندما ولى البصرة فى سنة ٥٥ هـ .

كان أول ما فعله عبيد الله ، بعد أن أضيفت إليه الكوفة أن جد فى طلب مسلم بن عقيل ، إلى أن وقع فى يديه فقتله ، وبعث برأسه إلى يزيد .

تأكد الحسين من تأييد أهل الكوفة ، خصوصاً وقد وصل إليه كتاب من ابن عمه قبيل مصرعه يقول فيه : إن الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل ، فأقدم فإن جميع الناس معك ، ولا رأى لهم فى آل أبى سفيان " .

خرج الحسين من مكة فى نفر قليل لا يزيد على الثمانين من أهله وصحابته ، وعندما اقترب من العراق ، علم بمصرع ابن عمه ، ففكر فى أن

يعود أدراجه بالحجاز ، خصوصاً وأنه إلتقى بالفرزدق الشاعر (ت ١١٠هـ) الذى قال له : " قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية عليك " .

عدل الحسين عن تردده ، بعد أن أصر إخوة مسلم على الأخذ بثاره ، فلما علم ابن زياد بذلك أرسل إليه الحر بن يزيد التميمى على رأس قوة صغيرة ، لكن الحر عدل عن قتال الحسين وانضم إليه .

عاود ابن زياد فأرسل جيشاً آخر ، بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وكان يزيد قد أغراه بولاية الرّى ، ويبدو أن عمر هذا تردد فى قتال الحسين ، لكنه حزم أمره ، وتوجه إلى قتاله ، بعد أن جاءه كتاب من ابن زياد ، مع شمر بن ذى الجوشن الضبابى ، يحضه فيه على قتل الحسين .

دارت المعركة بين الجانبين بكربلاء على مقربة من الكوفة فى العاشر من محرم سنة ٦١هـ ، وكان مصير المعركة قد تحدد مقدماً ، فكيف يستطيع الحسين فى صحبة قليلة أن يفعل إزاء جيش كبير كامل العدة . وقد أدرك أعداؤه هذا الحقيقة ، فكانوا يعزفون عن قتله ، لولا تحريض شمر بن ذى الجوشن ، وظل الحسين صامداً فى القتال ، حتى بعد أن هلك معظم أصحابه ، ورفض أن يستسلم لجلاديه ، إلى أن قتل واحتزت رأسه ، وأرسلت إلى يزيد ابن معاوية بدمشق .

كان قتل الحسين – الذى عرف فيما بعد بأبى الشهداء – صدمة عنيفة لمشاعر المسلمين ، فلم يكن لأحد أن يتصور لابن بنت رسول الله ﷺ هذه النهاية الحزينة ، وأن يطاف برأسه الطاهرة ، لتستقر فى راحتى عدوه ، وتؤسر نساء بيت النبوة ، وعلى رأسهن السيدة زينب رضى الله عنها ، ويقفن موقف السبى .

أحس يزيد بجسامة ما أقدم عليه ، ومع أنه رد السبى إلى المدينة المنورة ، إلا أن أحداً لم يغفر له جرمه .

فى المقابل شعر أهل العراق بفداحة الخطأ الذى ارتكبوه فى حق الحسين رضى الله عنه وكيف أنهم تقاعسوا عن نصره ، حين أتى إليهم ، ومن يوم معركة كربلاء إلى يومنا هذا ، فإن الشيعة فى أنحاء العالم يكفرون عن هذا الخطأ - أو الخطيئة - بطقوس معينة مغالى فيها .

انقلب سخط الشيعة وندمهم إلى موقف عملى ، يتضح فى حركة التوابين ، أى الذين تابوا عن خذلانهم بيت النبوة ، واجتمعت قيادتهم إلى سليمان بن صُرَد الخزاعى ، الذى انتهز فرصة موت يزيد فى سنة ٦٤هـ ، وانتقاض عبد الله بن الزبير بالحجاز ، لأن يعلن ثورته على بنى أمية .

سار سليمان بأصحابه - وكانوا أربعة آلاف - إلى كربلاء ، حيث قبر الحسين ، وهناك صاحوا طالبين التوبة من الله تعالى ، لما اقترفوه فى حق الشهيد ، وقالوا : " اللهم أرحم حسيناً الشهيد بن الشهيد ، المهدى بن المهدى ، الصديق بن الصديق ، اللهم إنا نشهدك إنا على دينهم وسبيلهم ،وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم ، اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا ﷺ ، فأغفر لنا ما مضى وتب علينا " .

فى سنة ٦٥هـ توجه سليمان بن صرد وصحبه من كربلاء إلى الأنبار ، ومنها إلى قرقيسيا ثم عين الوردة ، والتقوا هناك بأهل الشام فى معركة انتهت بهزيمة الشيعة ومصرع قائدهم ، ووصلت فلولهم إلى الكوفة ، حيث تلقاهم المختار بن أبى عبيد الثقفى .

كان المختار - وهو ولد أبى عبيد من قادة الفتح بالعراق - من السياسيين الذين تنقلوا بين معسكر وآخر ، على أنه دعا فى النهاية لمحمد بن على بن أبى طالب ، المعروف بابن الحنفية - وهو أخ غير شقيق للحسن والحسين - ونظم جموع التوابين ، واستمال الموالى - وكانوا نصف سكان الكوفة - وتعقب قتلة الحسين ، حتى قتل عمر بن سعد بن أبى وقاص وشمر بن ذى الجوشن .

كان عبيد الله بن زياد قد انسحب من الكوفة ، بعد اشتداد أمر ابن الزبير ، وعاد إلى الشام ، حيث جهز جيشاً قوياً ، عاد به إلى العراق ، والتقى مع إبراهيم بن الأشتر النخعي قائد المختار على نهر الخازر شمالي العراق ، وهناك دارت الدائرة على أهل الشام وقتل ابن زياد ، وحمل رأسه إلى المختار ، فأرسله إلى ابن الزبير بمكة .

كان عبد الله بن الزبير ينظر إلى حركة المختار بتوجس ، ووقع في يقينه أنه يعمل من أجل مصلحته وحدها ، وخشى أن يخلص إليه الأمر في النهاية ، تحت ستار الدعوة لابن الحنفية ، فسارع بإرسال أخيه مصعب إلى البصرة في سنة ٦٧هـ، وانضم إليه المهلب بن أبي صفرة في جموع الأزد، والتقى جيشا المختار ومصعب في المدائن ، فإنهزم المختار ، وعندما عاود القتال في ضواحي الكوفة عاودته الهزيمة وقتل ، وبقتله خلص العراق لابن الزبير.

كان للسياسة الحكيمة التي اتبعها عبد الملك بن مروان أثرها الواضح في انفراده بالأمر بعد ذلك ، فترك الزبيريين والتوابين يضربون بعضهم بعضاً ، فلما انتصر الزبيريون تفرغ لهم ، وفي الوقت نفسه أمن حدود الشام مع الروم ، وأعاد تنظيم الدولة ، الأمر الذي هيأ للمسلمين الفرصة لمتابعة الفتوح التي توقفت عدة سنوات .

لا نشاهد تحركات للشيعة بقية عهد عبد الملك وعهد ولديه الوليد وسليمان ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز في سنة ٩٩ هـ ٠ وكان رجلاً صالحاً دعي فيما بعد بخامس الراشدين . أمر بالكف عن لعن علي بن أبي طالب على المنابر ، وجعل بدلاً من ذلك قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون).

كان علي بن الحسين المعروف بزين العابدين قد نجا من وقعة كربلاء لصغر سنه ، ولم يشأ عندما استوى عوده أن يشارك في الأحداث ، وتفرغ

لأمور الدين ، على أن ولده زيداً طمح فى أن يستعيد حق آبائه فـى الخلافـة ، وانتهز فرصة الخلاف بينه وبين هشام بن عبد الملك ، الذى عـايره بأنـه ابـن أمة ، فدعا لنفسه ، وأوهمه أهل الكوفة بنصره .

اجتمع لزيد خمسة عشر ألفاً توجه بهم للقاء يوسف بن عمر الثقفى قـائد الأمويين ، لكن معظم أصحابـه تخلوا عنـه ، لأنـه - فيمـا يقـال - رفـض أن يلعن أبا بكر وعمر ، وحين وقعت المعركة فى سنة ١٢٢هـ كان جملة من مع زيد بضع مئات ، لم يستطيعوا أن يحولوا بينه وبين هزيمته وقتله .

عاود شيعة زيد الذين دعوا بالزيديـة بيعـة ولـده يحـى الـذى خـرج بعـد موت هشام فى سنة ١٢٥هـ ، واضطـراب أمر بنـى أميـة ، فدعـا لنفسـه فـى خراسان ، وتوجه إليه واليها نصر بنى سيار ، وتمكن من هزيمته وقتله .

(هـ) عبد الله بن الزبير :

كان عبد الله بن الزبـير - بعـد مقتـل الحسين رضـى اللـه عنـه - هـو المرشح التالى من أبناء الصحابة لتولى الخلافة ، وقد اجتمعت له عدة صفـات تؤهله لذلك ، فهو ابن الزبير حوارى رسوله الله ، وأحد الستة أهـل الشـورى بعد مصرع عمر ، كما إن أمه أسـماء ذات النطـاقين ، وجـده الصديـق خليفـة رسول الله إلى جانب ذلك لعب عبد اللـه بـن الزبـير دوراً هامـاً فـى الصـراع على السلطة ، منذ خلافة عثمان ، على أنه عندما طمـح معاويـة ، لأن يجعـل ولاية عهده لولده يزيد ، تزعم عبد الله بن الزبير الفريق مـن أبنـاء الصحابـة المناهض لهذه الدعوة ، وكرر هـذا الموقـف بعـد وفـاة معاويـة ، وخـرج مـن المدينة إلى مكة ، حيث وجد أنصـاراً هناك ، ولم يشأ أن يعلـن عـن نفســه ، إلا بعد استشهاد الحسين فى سنة ٦١هـ .

أعان ابن الزبير على ثورته فى سنة ٦٤هـ ، ما قام به أهل المدينة مـن طرد عاملهم من قبل يزيد ، فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المرى ، الذى حاصر

المدينة من جهة الحَرّة ، حتى دخلها وأباحها لجنده ثلاثة أيام ، ثم أراد أن يعاود فعلته هذه فى مكة ، غير أنه مات فى طريقه إليها ، وولى مكانه الحصين بن نمير السكونى ، الذى رفع الحصار عن المدينة المقدسة ، عندما بلغه نعى يزيد ، بل إنه اقترح على ابن الزبير مبايعته ، ومرافقته إلى بلاد الشام ، فلما رفض فارقه الحصين بجنوده إلى دمشق .

كان لما فعله الأمويون فى وقعة الحرة من قتل زهرة أبناء المهاجرين والأنصار ، واباحتهم المدينة المنورة ، ثم تضييقهم على أهل مكة ، ورميهم الكعبة بالمنجنيق ، حتى أصابها تلف شديد ، فضلاً عن قتل الحسين رضى الله عنه .. كان لكل ذلك أثره فى تأجيج نار الغضب على الأمويين وسياستهم .

لم تلبث الدعوة لابن الزبير أن انتشرت فى سائر الأنحاء ، وامتد سلطانه إلى العراق واليمن ومصر ، بل إن عرب الشام أنفسهم انقسموا إلى فريقين ، أحدهما مؤيد لابن الزبير ، بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى وقبيلة قيس ، والآخر مؤيد لبنى أمية وقبيلة كلب .

استطاع بنو أمية تدارك الأمر ، بعد وفاة معاوية بن يزيد ، فعقدوا مؤتمراً فى الجابية قرب دمشق ، أسفر عن البيعة لمروان بن الحكم خليفة للمسلمين ، فسار بجموع كلب للقاء الضحاك بمرج راهط فى محرم سنة ٦٥هـ ، وانتصر عليه ، وبذا خلص الشام لبنى أمية .

سار مروان بنفسه إلى مصر ، ليستعيدها من ابن الزبير ، فحفر واليها عبد الرحمن بن عتبة بن جُحْدُم خندقاً حول الفسطاط ، ليمنع مروان من العبور إليه ، لكن ذلك لم يجده شيئاً ، وعبرت خيل مروان الخندق ، ودخلت الفسطاط فى جمادى الأولى سنة ٦٥هـ ، وتمت له البيعة من أهلها ، وعاد مروان إلى الشام ، بعد أن استخلف على مصر ولده عبد العزيز .

أعد مروان حملتين ؛ إحداهما إلى الحجاز ، حيث عبد الله بن الزبير ، والأخرى إلى العراق حيث أخيه مصعب ، على أن حملة الحجاز فشلت فى

دخول المدينة ، كما إن حملة العراق تعثرت عند قرقيسيا ، وفي هذه الأثناء مات مروان وخلفه ولده عبد الملك .

كان عبد الملك سياسياً ورجل دولة قديراً ، عقد مصالحة مع قبيلة قيس المغاضبة له ، وعدل عن الحرب على جبهتين ، فتوجه إلى العراق على رأس جيش كبير ، ولما اقترب من الكوفة عمد إلى الإيقاع بين مصعب وقواده ، ونجح فى استمالة هؤلاء بعد أن مناهم بالولايات والعطايا ، فانفضوا من حول مصعب ، فيما عدا إبراهيم بن الأشتر .

إلتقى الجيشان عند دير الجاثليق ، ودار قتال شديد أسفر عن هزيمة مصعب وقتله ، ودخول عبد الملك الكوفة فى جمادى الأولى من سنة ٧٢هـ . وسارع أهل المدينة إلى بيعته .

عهد عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف الثقفى بقيادة جيشه المتوجه لحرب عبد الله بن الزبير ، وكان الحجاج من جبابرة العرب ، ومن أكثرهم قسوة وعنفاً ، فسار إلى الحجاز ، وأتاه مدد من مصر أرسله عبد العزيز بن مروان ، وكان فيه بعض المسلمين من أصل قبطى .

عندما اقترب جيش الحجاج من مكة ، دارت مناوشات ، نصب الحجاج بعدها المجانيق على جبل أبى قبيس فى ذى القعدة من سنة ٧٢ هـ ، واعتصم ابن الزبير وأصحابه بالكعبة ، فلم يتورع الحجاج عن ضربها .

دام حصار مكة ستة شهور ، فلما اشتد الأمر على أهلها ، خرجوا يطلبون الأمان من الحجاج فأمنهم ، وامتنع ابن الزبير ، واصر على مواصلة القتال ، حتى بعد أن استسلم معظم أصحابه ومنهم ولداه حمزة وحبيب .

عندما اشتدت مقاساة ابن الزبير ، توجه إلى أمه - وكانت قد طعنت فى السن وكف بصرها - يسألها ماذا يفعل ، وقد اقترح الحجاج الأمان له ، لكنها

حفزته على مواصلة القتال ، ما دام يؤمن بعدالة قضيته ، فقال : " يا أماه إنى أخاف إن قتلنى هؤلاء القوم أن يمثلوا بى " قالت : " يا بنى إن الشاه لا تتألم للسلخ إذا ذبحت " .

كانت نتيجة المعركة معروفة ، فقد اقتحم أهل الشام الحرم في جمادى الآخرة من سنة ٧٣هـ ، وظل عبد الله بن الزبير يقاتلهم حتى قتل . وأخذ الحجاج بيعة أهل مكة ، واضحى والياً عليها من قبل عبد الملك ، وأضيفت إليه اليمن واليمامة .

(و) الموالى :

الموالى – سياسياً – تعبير كان يطلق على الغير العرب من المسلمين ، وبخاصة الفرس وغيرهم من الشعوب فى الهضبة الإيرانية .

لم يكن الموالى راضين عن سياسة الدولة تجاههم ، خصوصاً وأنها لجأت فى بعض الأحيان إلى تثبيت الجزية عليهم ، وأصبحوا – من ثم – أرضاً خصبة لتحريض الشيعة والخوارج وغيرهم من الأحزاب المناهضة للدولة .

تهيأت الفرصة لأن يعبر الموالى عن أنفسهم بوضوح فى ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى ، الذى كان من قواد الحجاج ، ثم خرج عليه وسار بجموع العرب والموالى إلى العراق ، وبايعه اصحابه على كتاب الله وسنة نبيه وخلع الطاعة لعبد الملك .

استطاع ابن الأشعث أن يلحق الهزيمة بالحجاج ، ويستولى على البصرة ثم الكوفة ، فعول عبد الملك على مهادنته ، وحاول أن يغريه بالولاية ، فتردد ابن الأشعث فترة ، ثم عدل إلى الحرب ، وفى دير الجماجم سنة ٨٢هـ ، دارت الدائرة على ابن الأشعث ، وفر إلى رتبيل أميركابل الذى اعتزم تسليمه للحجاج، مقابل أن يكف عنه عشر سنوات ، فلما علم ابن الأشعث بذلك قتل نفسه.

تحسنت أحوال الموالى فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى سوى بينهم وبين العرب فىالعطاء ، كما أمر بإعفاء من يدخل منهم فى الإسلام من الجزية . على أن هذه السياسة الحكيمة لم تستمر بعد وفاة عمر ، خصوصاً وأنها أضرت ببيت مال المسلمين ، فوفد الدهاقين - وهم الجباة - على أشرس بن عبد الله السلمى والى خراسان ، وقالوا له : " ممن تأخذ الخراج ، وقد صار الناس كلهم عرباً " . فعدل أشرس عن سياسته وثبت الجزيرة على من أسلم ، فأثار ذلك أهل الصغد ، وأعلنوا الثورة فى سنة ١١٠هـ واستعانوا بالترك ، ولم يفلح أشرس فى ردهم إلى الطاعة .

كان من جملة قواد أشرس قائد يعرف بالحارث بن سريج التميمى ،تأثر بأفكار المرجئة ، وكان هؤلاء يذهبون إلى عدم اختصاص البشر بنظر عقيدة المسلم ، لأن ذلك من شأن الله تعالى ، وهو الذى يعلم سرائر الناس ويحاسبهم عليها ، وإذا كان بعض ولاة بنى أمية يشكون فى عقيدة من أسلم حديثاً من الأعاجم ، فإن الشك هنا ليس ملزماً لهؤلاء ، ما داموأعلنوا الإسلام ظاهراً ، وليس لغيرهم أن يقدر ما إذا كان إسلامهم حقيقياً أم غير حقيقى .

إنحاز الموالى إلى ابن سريج ، وأيده قوم من الأزدوتميم ، كما أيده خاقان الترك ، فدانت له الجوزجان والطالقان ومرو الروذ ، وهدد مرو عاصمة خراسان .

عندما أصبح أسد بن عبد الله القسرى والياً لخراسان فى سنة ١١٧هـ . تعقب ابن سريج ، واستطاع أن يهزم الترك ويقتل خاقانهم ، على أن أجله وافاه فى سنة ١٢٠هـ ، واتبع خلفه نصر بن سيار سياسة طيبة ازاء الموالى ، فأسقط الجزية عمن أسلم ، كما اعتدل فى جباية الخراج ، وبذا استطاع أن يرغم ابن سريج على الفرار إلى الفارياب .

فى هذه الأثناء انتقض الأزد على ابن سيار ، وتزعمهم فى انتقاضهم جديع بن على المعروف بالكرمانى ، فخاف نصر أن يتحد الفريقان ضده ،

فاستمال ابن سريج ، حتى قدم إليه فى مرو سنة ١٢٧ هـ ، وأحسن وفادته ، ثم عرض عليه أن يوليه بلاد ما وراء النهر ، لكنه رفض وفارقه ، ثم هاجم مرو فى العام التالى ، فلما استعصت عليه ، أرسل إلى الكرمانى يستمده ، فأجابه واضطر نصر إلى إخلاء مرو والرحيل عنها إلى نيشابور .

بيد أن الحلف بين ابن سريج والكرمانى لم يدم طويلاً ، إذ لم يلبثا أن إختلفا ، لأن الكرمانى كان يرفع راية العصبية إلى اليمن ، فى حين كان ابن سريج - رغماً عن عربيته - يرفع راية المرجئة والموالى ، وانتهى الأمر بالقتال بين الفريقين ، فهزم ابن سريج فى سنة ١٢٨ هـ وقتل .

لم تنته قضية الموالى بمقتل ابن سريج ، فبعد قليل سارعوا إلى الإتشاح بالسواد ، وأعانوا أبا مسلم الخراسانى فى ثورته التى أفضت إلى مصرع الدولة الأموية وفى سنة ١٣٠ هـ اقتحم أبو مسلم الخراسانى مرو ، ورفع الرايات السود عليها .

٣ - الفتوح فى عصر بنى أمية :

هدأت الفتوح عدة سنوات بسبب النزاع بين على ومعاوية ، فلما استقرت حال المسلمين فى عام الجماعة ، تدافعت عجلة الفتوح من جديد ، فتابع المسلمون غزواتهم فى بلاد الهند ، ووصل المهلب بن أبى صفرة إلى لاهور ، وفى سنة ٤٢هـ غزا قيس بن الهيثم والى خراسان بَلْخ ، وخرب معبدها الذى كان يدعى بالنوبهار ، وعندما ولى عبيد الله بن زياد خراسان ، غزا بلاد الترك ، وأرغم خاتون أميرة بُخارى على طلب الصلح ، ولدى نقضها هذا الصلح استولى المسلمون على بخارى ، وغزوا سمرقند .

فى الوقت الذى كانت جيوش المسلمين تتدافع شرقًا ، لم يهمل معاوية أمر الروم ، فأعد أسطولاً قويًا ، بلغت عدته ألفًا وسبعمائة سفينة ، وفتح به

رودس وغيرها من الجزر اليونانية ، وأخذ يرسل جيوشه في صوائف وشوات إلى بلاد الروم .

وفى سنة ٤٩هـ أقدم معاوية على خطوة جريئة ، إذ اعتزم الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم ، فأرسل قائده سفيان بن عوف على رأس جيش كبير ضم عددًا من الشخصيات الكبيرة ، مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، كما ضم أيضًا الصحابى أبا أيوب الأنصارى .

لم ينس معاوية أن يردف سفيان بن عوف بولده يزيد ، بهدف تجميل صورته ، وتأييد دعوته بولاية العهد ، وجعل له القيادة العامة .

اخترق جيش المسلمين أرض الروم فى آسيا الصغرى ، حتى وصل إلى القسطنطينية وحاصرها ، وأعانه فى هذا الحصار أسطول قوى أتى من موانى الشام . لكن المسلمين لم يستطيعوا اقتحام المدينة لمناعها ، ولفتك النار اليونانية بسفنهم ، واستشهد فى هذا الحصار أبو أيوب الأنصارى ، فدفنه المسلمون بجوار أسوار المدينة ، وعادو أدراجهم إلى بلاد الشام .

على الجبهة المغربية قام والى مصر معاوية بن حديج بغزوة إلى إفريقية فى سنة ٤٥ هـ ونجح فى هزيمة الروم ، وعاد مثقلا بالغنائم . وفى سنة ٥٠هـ سار عقبه بن نافع الفهرى صحبة عشرة آلاف من المسلمين ، فتمكن من فتح إفريقية ، وأسس مدينة القيروان ، وأسلم على يديه عدد كبير من البربر ، شاركوا فيما بعد فى مسيرة الفتح ، وبفضلهم استولى أبو المهاجر دينار - خليفة عقبة - على تلمسان وغيرها من المدائن فى المغرب الأوسط .

عادت حركة الفتوح إلى السكون مرة أخرى ، بسبب الحرب الأهلية الثانية اضطر خلالها عبد الملك بن مروان إلى أن يؤدى الجزية لملك الروم ، حتى يأمن شره وأذاه عن بلاد الشام .

عندما ولى الحجاج العراق ، أسند ولاية خراسان إلى المهلب بن أبى صفرة فغزا خُجَنْدَة وكِش ، وبعث بأولاده يفتحون ماجاورها من البلاد ،

وفى سنة ٨٦ هو ولى قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان ، فعبر نهر جيحون ، واسترد ماكان فقده المسلمون فى بلاد ماوراء النهر ، واستولى على بَيْكَنْد ، ثم أعاد الاستيلاء على بخارى ، وأرغم أهلها على أن يعاونوه فى فتوحه بعدة آلاف من رجالهم ، وفى سنة ٩٣ فتح قتيبة خوارزم صلحًا ، وفتح سمرقند عنوة ، وامتد سلطانه إلى فَرْغانه .

خظى جهد قتيبة بتقدير عبد الملك بن مروان ، وأرسل إليه يحفزه على مواصلة الجهاد ، ففكر - فيما يروى - فى المضى شرقا إلى بلاد الصين ، وفى سنة ٩٦هـ أرسل إلى ملكها وفدا للتفاوض معه ، فعرض الملك أن يؤدى الجزية وقبل المسلمون ، وانسحب قتيبة عائدا إلى مرو . ولاشك أن بعد المسافة ، وتنائى المسلمين عن مركزهم النووى فى العراق ، كان له أثره فى قبول قتيبة هذه التسوية ، ولم يلبث هشام بن عبد الملك عقيب ولايته فى سنة ١٠٥ هـ أن أرسل سفيرا من عنده إلى ملك الصين .

وعهد الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفى فى سنة ٨٩ بغزو بلاد الهند ، فافتتح ثغر الدَيْبُل صلحًا ، وواصل فتوحه حتى بلغ نهر السند - وكان يدعى إذا ذاك بنهر مهران - وقتل داهر الملك ، ثم تابع فتوحه حتى دخل المولتان ، وهدم الصنم الذى كان يعبده أهلها ويدعى بالبُدّ (بوذا) وفى عهد عمر بن عبد العزيز أسلم عدد من ملوك الهند وتسموا بأسماء العرب .

لم تتوقف الفتوح المشرقية بموت الحجاج فى سنة ٩٥هـ فإن خليفته فى ولاية العراق ، وهو يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، استطاع أن يدخل فى طاعة الدولة الأراضى الإيرانية التى تقع إلى الجنوب من بحر قزوين ، وهى طبرستان وجُرْجان وفرض الجزية على أهلها فى العام ٩٧هـ.

على الجبهة الغربية عاود عقبة بن نافع - بعد عوده إلى ولايته - غزو بلاد المغرب ، فاخترقها فى سنة ٦٢هـ حتى وصل إلى البحر المحيط، ومع

أن عقبة قتل على أيدى البربر وزعيمهم كُسَيْلَة ، إلا أن خليفته زهير بن قيس البلوى انتقم له وقتل قتلته واسترد منهم مدينة القيروان .

على أن زهيرا بدوره قتل على أيدى الروم وانسحب المسلمون إلى برقة ، وماكاد عبد الملك ينتـه من أمر عبدالله بن الزبير حتى أرسل إلى إفريقية جيشا كبيرا بقيادة حسان بن النعمان الغسانى ، فتمكن من الانتصار على الروم ، ومن ناصرهم من البربر وأوقع بالكاهنة التى خلفت كسيلة وقتلها . وفى سنة ٨٢هـ أنشأ مدينة تونس وابتنى بها دار صناعة .

استقرت أمور المغرب على يدى موسى بن نصير الذى ولى فى سنة ٨٦هـ، فاستكمل الفتح حتى وصل إلى طنجة، وصار يتطلع إلى الأندلس.

أرسل موسى مولاه طارق بن زياد فى سنة ٩٢هـ/٧١١م على رأس جيش غالبه من البربر إلى بلاد الأندلس ، وكان يحكمها إذا ذاك القوط وهم شعب من الشعوب الجرمانية .

استطاع طارق أن ينتصر على القوط فى وقعة وادى لَكُّه GUADALETE ، وتتبع فلولهم واستولى على قرطبة وغيرها من المدن ، ثم اقتحم العاصمة وهى طليطلة ، وفى الوقت نفسه قدم موسى بن نصير ومعه جيش من العرب ، فاستتم القائدان فتح معظم ماتبقى من بلاد الأندلس ، وتركاما سوى ذلك لعبد العزيز بن موسى بن نصير ثم غادرا إلى دمشق فى سنة ٩٥ ، واصطحبا معهما غنائم وافرة .

لم يكتف المسلمون بالأندلس ، بل تطلعوا إلى ماوراء جبال البرتات ، وتطرقوا عدة مرات إلى جنوبى فرنسا ، على أن الفرنجة بقيادة كارل مارتل (المطرقة) أوقعوا بالعرب فى سنة ١١٤هـ/٧٣٢م هزيمة كبيرة عند بلاط الشهداء (توربواتييه) .

ورغمًا عند هذه الهزيمة إلا أن العرب تابعوا غزواتهم لجنوبى فرنسا ، لكنهم بعد سنوات قليلة ، اضطروا إلي الاكتفاء ببلاد الأندلس ، بسبب ما شجب من نزاعات بين العرب والبربر ، ثم بين القيسية واليمانية .

لم يغب عن ذهن المسلمين أمر الاستيلاء على القسطنطينية ، فأرسل سليمان بن عبد الملك عقب ولايته فى سنة ٩٦هـ حملة قادها أخوه مسلمة ، واخترقت هذه الحملة آسيا الصغرى ، واستعان المسلمون بليون الإيسورى ، وهو قائد ثار على الإمبراطور البيزنطى .

وصل المسلمون إلى أسوار القسطنطينية ، وحاصروها برا وبحرا ، لكن ليون نقض حلفه مع المسلمين ، بعد أن صار امبراطورًا ، فقوى به دفاع المدينة وأخذ الروم يرمون النار اليونانية على سفن المسلمين ، حتى احترق معظمها واضطر المسلمون إلى الانسحاب .

٤ - سقوط الدولة الأموية :

فى سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وقعت معركة الزاب التى أسفرت عن سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية .

والحقيقة إن سقوط دولة وقيام دولة أخرى مكانها ، لايتحدد بالمعركة وحدها ، فهناك عوامل كثيرة كامنة وظاهرة وراء هذا الحدث ، ومنها بلغت شجاعة الجنود فى معركة ، إلا أن هذه الشجاعة لاتكفى وحدها لإحداث التغيير المنشود .

والدولة الأموية - كغيرها من الدول كان لابد لها أن تسقط يومًا ما ، وجرت عادة المؤرخين المحدثين على تحديد أسباب سقوطها فى مجموعة من العوامل ، يفصلون بين كل عامل وبين سائر العوامل ، ثم هم يغلبون العامل السياسى عليها جميعا .

وقد غفل هؤلاء المؤرخون عن حقيقة هامة ، هى إن سقوط الدولة الأموية كان النتيجة الطبيعية لمجموعة من الظروف الاجتماعية أخذت فى النمو ، منذ أول خلفائها وهو معاوية ، وشاء لهذه الظروف أن يتم نضجها خلال عشرات السنين ، كما شاء الحظ العاثر أن تكون النهاية فى عهد مروان بن محمد .

يذهب الكثرة من المؤرخين المحدثين إلى أن تعصب الأمويين للعرب وتعصبهم ضد غيرهم أى الموالى كان هو السبب الأهم فى ذهاب دولتهم .

ونذهب من جهتنا إلى أن سياسة بنى أمية كانت فى مجملها سياسة عربية ، أى أنهم اختصوا العرب دون غيرهم من الشعوب بمواقع الصدارة فى دولتهم . ثم لا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأمويين تعصبوا للعرب ، لأن أية حكومة إسلامية فى الصدر الأول كان لابد لها أن تختص بالعرب ، فهم مادة الإسلام وجنوده الأوائل ، وهم - وحدهم - كانوا معتمد الدولة فى الدفع عن ثغورها ، والنفرة فى الجهاد خارجها .

لا يخفى أيضا أن الإسلام لم يكن قد أضحى بعد هو الدين الغالب على رعايا الدولة من الغير العرب ، فظل هؤلاء الرعايا فى معظمهم على دياناتهم الأصلية ، بل إن بعض العرب كانوا نصارى ، وظلوا كذلك سنوات طويلة ، ويحضرنا مثال الأخطل الشاعر من قبيلة تغلب .

على أن ثمة متغيرين جدًّا قبل أن ينته القرن الأول الهجرى ، أولهما أن كثيرا من الموالى تم تعريبهم ، وبرع عدد وافر منهم فى علوم العرب ، وحظى فيها بمكانة تضاهى أحيانا مكانة العرب أنفسهم ، ولا أدل على ذلك من أن واصل بن عطاء - رأس المعتزلة ودوره فى الدفاع عن الإسلام ضد الطاعنين عليه معروف - كان ينتمى فى أصله إلى العجم .

المتغير الآخر هو أن الموالى بدأوا يشعرون بخصوصيتهم التى تعود إلى عهود بعيدة قبل الإسلام ، حين كانت لهم دول كبيرة وحضارات أقدم من حضارة العرب وأرقى ، وشكلت رافدا هاما من روافد الحضارة الإسلامية نفسها .

هذان المتغيران كانا يدفعان الموالى - أو بعضهم - إلى السعى من أجل أن يصعدوا إلى المواقع التى اختص بها العرب ، أو اختصتهم بها الدولة . وازداد إلحاح الموالى فى هذا السعى ، حتى صار مشكلة كان على الدولة الإسلامية أن تتعامل معها .

إذا نحن حللنا موقف الدولة فى عهد الراشدين ، لا نلاحظ موقفا واضحا لها ، لأن الموالى - عدا أحاد - لم يكن لهم وجود واضح فى هذه الفترة الباكرة من تاريخ الإسلام .

أما فى عهد بنى أمية ، فإن هذه المشكلة ، بدأت تنمو ثم تتصاعد ، وشغل هؤلاء عنها بفتوحهم ، ثم بقمع الثورات التى نشبت ضدهم ، وهم فى الحالين كانوا يعتمدون على مقاتلة من العرب ، فرضت عليهم الخدمة الإلزامية فى خلافة عبد الملك .

عندما ازدادت نفقات الدولة ، وبخاصة فى أزمنة الفتن والاضطرابات ، كان من اللازم عليها أن تفكر فى سد العجز فى موازنتها - إذا صح التعبير - بجباية المزيد من الأموال من رعاياها ، أو بتحديد أدق من الفئات المنتجة - زراعًا وصناعًا - وكانت كثرة هذه الفئات تنتمى بالضرورة إلى الموالى ، لأن العرب فى معظمهم كانوا يقصرون نشاطهم على الخدمة فى الجيش وفى مناصب الدولة .

على أن بعض ولاة الدولة غالوا فى هذه السياسة ، ووصلت بهم الحال إلى أن ثبتوا الجزية على من أسلم من الأعاجم ، بدعوى أن إسلامهم ليس حقيقيا ، ولم يسمحوا لهم بأعطيات ثابتة فى الديوان ، إنما اقتصروا على نصيبهم من الفئ ، وكانوا يطردونهم فى بعض الأحيان من المدن إلى الأرياف التى وفدوا منها .

كان هناك ظلم واقع على الموالى ، ولكن الظلم - وحده - لايكفى لإحداث التغيير ، إذ لابد من الإحساس بالظلم وتعميق هذا الإحساس بالظلم لكى يقع التغيير .

وجد الموالى ضالتهم فى القبائل العربية التى انتقلت إلى الأمصار فى أعقاب الفتح ، وتزوجت فى أهلها ، وتطبعوا بطابعهم ، واتخذوا فى أحيان كثيرة أسماءهم ، وتكنوا بكناهم ، بحيث فقدوا بعض خصائصهم العربية ، وصاروا أشبه بجيرانهم من غير العرب .

يهمنا من هذه الأمصار خراسان التى تقع لدى الطرف الشرقى من الهضبة الإيرانية ، وكانت فى عصر بنى أمية ثغرا من ثغور المسلمين فى مواجهة الأتراك ، وقام هؤلاء العرب بالدور الأوفى فى جهادهم ، مما جعلهم يشعرون بتميزهم عن غيرهم من المسلمين - بل والعرب - وتمايزهم .

تجاوب هؤلاء العرب مع الموالى فى سخطهم على بنى أمية ، وشاركوهم بعض انتفاضاتهم وشاركوهم أيضا ثورتهم التى تزعمها الحارث ابن سريج ، ودامت هذه الثورة عدة سنوات .

وجد الموالى ضالتهم أيضا فى أحزاب المعارضة المناهضة للدولة ، وهى الشيعة والخوارج ، وإلى حد ما المرجئة .

كانت ثمة نقاط التقاء بين هذه الأحزاب وبين الموالى ، أخَصّها الموقف من بنى أمية .

كان الشيعة يدعون إلى إمام من آل محمد ، وهو إمام معصوم ، يستمد عصمته من رابطة الدم التى تصله بصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وهو فى الوقت نفسه - يذهبون - يرتبط بالفرس على نحو أو آخر ، فالحسين رضى الله عنه تزوج إبنة آخر ملوك فارس ، وأولاده منها لم يتوقفوا عن

الثورة ضد الأمويين ، وهم يُذكِّرون الفرس بتواصل تاريخهم وأنه لم ينقطع بعد دخول العرب إلى بلادهم .

أما الخوارج فإن فكرة إمام عربى أو غير عربى ، يختاره جمهور المسلمين – عربًا وغير عرب – كانت تداعب أحلام الموالى فى مساواة حرموا منها فى الواقع .

كان عند الموالى نموذج واضح فى ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى جعل نصف جيشه منهم ، وحقق نجاحات كبيرة ، وحال بينه وبين النصر النهائى على الأمويين خلافه مع عبد الله بن الزبير .

وإذا كان الشيعة والخوارج داوموا على مناهضة الدولة منذ قيامها حتى آخر أيامها ، فإن المرجئة الذين كانوا مترددين فى اقتحام المعركة ، لم يلبثوا أن خرجوا عن ترددهم فى النهاية وشاركوا فى ثورة الحارث بن سريج قبيل مغيب شمس بنى أمية بسنوات .

على الجانب المقابل فإن أمراء البيت الأموى وخلفاءه ، لم يكونوا على مستوى الموقف الذى كان يتردى من سنة إلى أخرى ، وذلك بسبب ما شجب بينهم من نزاعات ، وبسبب موقفهم من العصبية العربية التى أطلقوها فى بداية عهدهم ، فتحولت ضدهم فى نهايته .

أسفر مؤتمر الجابية الذى عقده الأمويون فى سنة ٦٤هـ ، لمواجهة ثورة عبد الله بن الزبير ، عن اختيار مروان بن الحكم خليفة ، على أن يليه خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص .

لم يلتزم مروان بهذا المبدأ ، فعهد بالأمر من بعده لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وإذا كانت وفاة عبد العزيز قد هيأت الفرصة لعبد الملك لأن يجعل عهده لولده الوليد ، ثم ولده الآخر سليمان ، فإن الوليد أراد أن يعاود ما

فعله أبوه ، فيخلع أخاه سليمان ، ويولى عهده ولده عبد العزيز ، لولا أن القدر لم يسعفه ، ومات فولى أخوه سليمان الذى سعى للبطش بمن وافق الوليد فى مسعاه ، ومن بينهم قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم .

وإذا كان خلفاء بنى أمية قد عدلوا عن هذا المبدأ فى المرحلة التالية ، إلا أن وفاة هشام بن عبد الملك فى سنة ١٢٥هـ أدت إلى عودة النزاعات من جديد بين أبناء البيت الأموى ، وقتل خليفته الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعد عام واحد على يدى ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذى ولى عدة شهور ، ثم ولى أخوه ابراهيم ، فخلعه أمير الجزيرة مروان بن محمد بن مروان وولى مكانه ، فلم يلبث أن خرج عليه بعض أبناء البيت الأموى ، وأهمهم سليمان بن هشام بن عبد الملك .

أما عن العصبية العربية ، فقد سعى الأمويون - على نحو عام - إلى تكريسها بين العرب وضرب بعضهم ببعض ، فقد اختصوا من لدن معاوية بقبيلة كلب اليمنية ، وساندت هذه القبيلة الدولة فى حربها ضد الزبيريين ، وفى عهد عبد الملك وولديه الوليد وسليمان ، استمر الأمويون على ميلهم إلى اليمانية ، وبخاصة المهالبة من الأزد . وعندما ولى عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩هـ سعى إلى نبذ التعصب إلى إحدى القبيلتين الكبيرتين ، على أن خلفه يزيد بن عبد الملك ، مال إلى قيس (من نزار) ، كما أساء إلى بنى المهلب وقتل بعضهم ، الأمر الذى دفع هشام بن عبد الملك فيما بعد إلى معادلة ذلك خلال عهده الطويل ، فمال أحياناً إلى اليمانية ، ومال أحيانا أخرى إلى القيسية (أو المضرية) .

ويلاحظ أن بنى أمية المتأخرين كانوا يميلون بوجه عام إلى المضرية مما حدا باليمانية إلى الثورة على الوليد بن يزيد ، واستغل ابن عمه يزيد بن الوليد هذه الفرصة ، وأيد اليمانية فى ثورتهم ، إلى أن قتلوا الوليد ، فثار

المضرية فى حمص وفلسطين والأردن ، وأفاد أمير الجزيرة – وهو مروان ابن محمد – من هذه الثورة واستعان بهم ضد يزيد وضد أخيه إبراهيم ، فعاودت اليمانية الثورة من جديد فى مختلف أنحاء الشام ، وجاوزتها إلى غيرها من الأمصار ، خصوصا خراسان .

كان الواقع يعج بالاضطراب ، وبدت بذور واقع جديد تزحف من المشرق ، وتوجس بعض العرب من غد غير مأمون ، فتوجهوا بالنصح إلى أولى الأمر من بنى أمية ، يقول عباس بن الوليد بن عبد الملك :

إنى أعيذُكُمُ بالله من فتن ... مثلِ الجبال تَسامَى ثم تندفع

إن البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لاتُلحِمُنَّ ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

لاتَبْقُرَن بأيديكم بطونكم ... فثم لاحسرة تغنى ولاجزع

كان بنوأ مية فى شغل عن هذا الشاعر وغيره من الناصحين ... فى هذه الأثناء كان الأوان قد فات .

الفصل الخامس

الدولة العباسية

أولا : العصر العباسى الأول

١ - قيام الدولة العباسية :

(أ) الدعوة لبنى العباس :

فى سنة ٥١هـ مات الحسن بن على بن أبى طالب ، وفى سنة ٦١هـ استشهد أخوه الحسين ، واختلف الشيعة بعده ، فذهب معظمهم إلى إمامة ولده على زين العابدين ، وذهب بعضهم الآخر إلى أخيه محمد الذى عرف بابن الحنفية ، لأن أمه كانت من سبى بنى حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب .

دعى هذا الفريق من الشيعة الذى مال إلى ابن الحنفية بالكَيْسانيَّة ، نسبة إلى كيسان مولاه .

لم يشأ ابن الحنفية أن يجهر بالدعوة لنفسه ، رغما عن الفرصة التى أتاحها له المختار بن أبى عبيد الثقفى وصحبه التوابون ، وعندما انتهت ثورة المختار إلى الفشل ، آثر ابن الحنفية الإنزواء إلى أن مات .

فى سنة ٩٨هـ وفد أبو هاشم بن محمد بن الحنفية على سليمان بن عبد الملك بدمشق ، فأكرم وفادته ، وفى الوقت نفسه دس له سمًا ، فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله عرج وهو فى طريقه إلى المدينة على الحُمَيْمَة من أرض السراة ، حيث يقيم على بن عبد الله بن العباس . ويذهب العباسيون إلى أن أباهاشم عهد لعلى هذا بالإمامة من بعده .

كان العباس بن عبد المطلب ذا مكانة جليلة عند المسلمين ، لقرابته من رسول الله ﷺ ، وبعد وفاته فى سنة ٣٢هـ قام ولده عبد الله بدور كبير فى مساندة على بن أبى طالب فى نزاعه مع معاوية ، وعندما أراد معاوية أن يجعل ولده يزيدا ولى عهده ، عارض عبد الله فى البداية ، ثم بايع عن كره .

اضطر عبد الله بن عباس إلى أن يبتعد عن الحياة العامة ، بعد ثورة الحسين واستشهاده ، ولم يشأ أن يتدخل فى ثورة عبد الله بن الزبير ، وتفرغ لرواية الحديث وتفسير القرآن ، حتى مات فى الطائف فى سنة ٦٨هـ.

سار على بن عبد الله بن العباس على نهج أبيه من مسالمة الأمويين ، فأقطعوه قرية الحميمة بالسراة فى خلافة عبد الملك ، إلى أن مات فى سنة ١١٨هـ .

كانت العلاقات بين بيتى بنى هاشم طيبة ، طيلة عهد الخلافة الأموية ، لأنه لم يكن ثمة بديل من الإتحاد ضد خصم مشترك . على أن بنى العباس انتهزوا الفرصة التى أتاحها لهم زعيم إحدى فرق الشيعة ، فى أن يجعلوها حجة لهم فى المطالبة بالسلطة .

ومن أجل تجنب تناقض ثانوى بينهم وبين أبناء على بن أبى طالب ، رفع العباسيون شعار " الرضا من آل محمد " ، والهدف من ذلك أن يرجئوا هذا التناقض ، حتى يفرغوا من تناقضهم الرئيسى مع بنى أمية .

فى الوقت نفسه أفاد العباسيون من التجارب التى مر بها الشيعة قبلهم ، فاجتنبوا المواجهة مع السلطة الأموية فى عنفوانها ، واتجهوا إلى أن يستثمروا السخط العام الذى اجتاح الموالى ، كما استثمروا السخط الذى اجتاح اليمانية فى أواخر عهد الدولة الأموية .

آثر العباسيون أن يجعلوا الميدان الأول لنشر دعوتهم ، فى أقصى أطراف الدولة الإسلامية شرقا وهى خراسان ، لتنائيها عن النواة النووية

للدولة أولا ، ولتذمر الموالى وهم كثرة أهلها ثانيا ، ولهياج العصبيات العربية وبخاصة اليمن ثالثا .

انتقلت الدعوة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس فى حياة أبيه ؛ وكان أسلوبه هو الدعوة السرية ، فجعل لها عددًا من النقباء - أى الرؤساء - وعدداً آخر من الدعاة ، فرقهم فى أنحاء عدة خصوصا خراسان ، وأقام كبير الدعاة بالكوفة ، التى صارت حلقة اتصال بين الإمام العباسى المقيم بالحميمة وبين سائر الدعاة .

كان الدعاة يستخفون فى هيئة التجار أو الحاج إلى بيت الله الحرام ، ومع ذلك فقد علم بأمر الدعوة أسد بن عبد الله القَسرى والى الكوفة ، وكاد يقضى عليها ، لولا وفاته فى سنة ١٢٠هـ.

وفى سنة ١٢٥ توفى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فخلفه فى الإمامة ولده إبراهيم ، وفى عهده صار كبير الدعاة فى الكوفة أبو سلمة الخلال - وهو من الموالى- كما صار كبيرهم فى خراسان سليمان بن كثير الخزاعى - وهو من العرب - وفى سنة ١٢٨هـ . أمر إبراهيم الإمام بتحول الدعوة من سرية إلى علنية ، وكان ذلك الأمر منوطًا بأبى مسلم الخراسانى .

(ب) الثورة العباسية :

ينتمى أبو مسلم إلى الموالى ، وقد اتصل بسليمان بن كثير ، وتعلم على يديه أصول الدعوة ، ولما بدت عليه سيماء النبوغ ، أصبح الاتصال بينه وبين إبراهيم الإمام مباشرًا .

أرسل إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم كتابًا يقول فيه : " إنك رجل منا أهل البيت احفظ وصيتى ، وانظر إلى هذا الحى من اليمن فالزمهم ، ولكن بين

أظهرهم ، فإن الله لايتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة فى أمرها ، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار ، واقتل من شككت فيه ، وان استطعت ألا تبقى بخراسان من يتكلم العربية فأفعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولاتخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر ، فاكتف به منى " .

يتضح من كتاب إبراهيم الإمام الآتى :

١ - الاعتماد على اليمانية من العرب على نحو أساسى ، ثم على الموالى بعد ذلك .

٢ - تحييد ربيعة (من نزار) والمعروف أن ربيعة كانت تميل غالبا إلى اليمن .

٣ - العدو الصريح هو المضرية ، وكان بنو أمية يميلون فى هذه المرحلة إليهم ، والعرب الذين مايزالون يصرون على عروبتهم وصراحتهم فيها .

٤ - الأخذ بالشك والريبة ، لأن الموقف دقيق ، ولايحتمل التردد ، فلابد من تحديد العدو بوضوح ، ولابد أيضا من تحديد الصديق .

٥ - الإنضباط التنظيمى ، بحيث لا يحدث تناقض بين القيادة السياسية الممثلة فى سليمان بن كثير، وبين القيادة العسكرية الممثلة فى أبى مسلم .

فى هذه الأثناء كانت خراسان تشتعل بالعصبية ، فكان نصر بن سيار ، يحارب ضد الحارث بن سريج التميمى وقبل أن تنته الثورة فى سنة ١٢٨هـ بمقتل ابن سريج ، كانت العصبية قد تمادت بين اليمانية بزعامة جديع بن على الأزدى المعروف بالكرمانى وبين المضرية بزعامة الوالى نفسه .

تنبه ابن سيار إلى الخطر الذى يوشك أن يطيح بدولة العرب ، فسعى جهده إلى التوفيق بينه وبين الكرمانى ، وقال فى ذلك شعرًا .

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتها   أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
مابالكم تلقحون الحرب بينكم   كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم   ممن تأشّب لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم   ولا صميم الموالى إن هم نسبوا
قومًا يدينون دينًا ما سمعت به   عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم   فإن دينهم أن تقتل العرب

لم تنجح مساعى نصر ، وتواصل النضال بينه وبين الكرمانى ، وأفضى إلى مقتل هذا الأخير ، واستعاد نصر مدينة مرو ، لكن الحال لم تستقر فى يديه طويلا .

فى ١٥ من رمضان من سنة ١٢٩هـ ، رفع أبو مسلم الخراسانى الرايات السود على قرية سفيذنج من أعمال مرو ، واتشح بالسواد ، وخاطب أنصاره الذين توافدوا من القرى المجاورة بالآية الكريمة ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ولم يلبث أن كثر جمعه ، وامتد نفوذه امتدادًا واسعاً فى خراسان .

شرع نصر بن سيار فى التفرغ لأبى مسلم ، وأرسل إلى مروان بن محمد كتاباً ، يتضمن الأبيات الآتية :

أرى بين الرماد وميض جمر   ويوشك أن يكون له ضرامُ
فإن النار بالعودين تذكى   وإن الحرب أولها كلام

أقول من التعجب ليت شعرى … أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما … فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى … على الإسلام والعرب السلام

كان مروان فى شغل عن عون نصر ، بما نشب من فتن فى بلاد الشام والجزيرة ، فاكتفى فى رده بالعبارة الآتية : " إن الشاهد يرى مالايرى الغائب " . على أنه عندما نمى إلى علمه أن الدعوة لإبراهيم الإمام ، أمر عامله بالبلقاء بالقبض عليه ففعل ، وحبسه فى حران ، حيث كان مقام مروان ، ثم مات بعد ذلك مسمومًا .

تبع وفاة إبراهيم الأمام أن ارتحل أهله ، وبينهم أبو العباس وأبو جعفر أخواه إلى الكوفة .

فى ربيع الثانى من سنة ١٣٠هـ زحف أبو مسلم إلى مرو ، وتمكن من دخولها بمساعدة على بن الكرمانى ، ولاذ نصر بالفرار غربًا ، فمات فى الطريق .

وضحت فى أبى مسلم عقب اقتحامه مرو نياته ضد العرب ، فيروى أنه قتل منهم بعد دخولها ستمائة ، كما قتل حليفه ابن الكرمانى ، ثم قتل سليمان بن كثير . على أنه خشى أن يؤدى أسلوبه هذا فى التعامل مع العرب إلى اتحادهم ضده ، فأظهر وده نحو اليمانية ، وأرسل أحدهم وهو قَحْطَبَة بن شَبيب الطائى إلى طوس ففتحها ، ثم ثنى بنيسابور والرى ، وتابع قحطبة وولده الحسن فتح سائر البلاد ، فاقتحم الثوار همذان ونهاوند وشهرزور والموصل ، ثم اتجهوا إلى الكوفة .

فى ربيع الأول من سنة ١٣٢ يونية ٧٤٩م . دخل الحسن بن قحطبة الكوفة ، بعد أن انتصر على يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق .

كان أبو سلمة الخلال - كبير الدعاة - يميل إلى أهل البيت ، وعندما أحس بأن دولة بنى أمية ذاهبة ، راسل بعض العلويين المقيمين بالمدينة - ومنهم الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه - يدعوهم للقدوم إلى الكوفة ولما لم يجد استجابة لدعوته ، أسقط في يده وتمت البيعة لأبى العباس الذى دعى بالسفاح فى مسجد الكوفة .

عهد السفاح إلى عمه عبد الله بن على بخوض المعركة الأخيرة مع مروان بن محمد ، ودارت هذه المعركة على نهر الزاب ، وهو أحد روافد دجلة فى جمادى الآخرة من سنة ١٣٢ / يناير ٧٥٠م . وتم النصر لعبد الله ، وهرب مروان إلى الشام ، وتابع هربه إلى مصر ، حيث ولى أمر مطاردته صالح بن على (وهو عم آخر للسفاح) وفى قرية بوصير من أعمال الفيوم (أو بوصير من أعمال الأشمونين) قتل مروان فى ذى الحجة ، وحملت رأسه إلى السفاح ، وطويت صفحة الدولة الأموية .

٢ - الطابع العام للدولة العباسية :

كانت الثورة العباسية علامة فارقة فى تاريخ المسلمين ، بزغ معها عصر جديد ، يختلف عن العصر السابق له فى الملامح والقسمات .

يذهب المؤرخون المحدثون فى معظمهم - عربًا وفرنج - إلى أن هذه الثورة فى حقيقتها كانت ثورة مولوية فارسية بالدرجة الأولى وإن أتت بحكام عرب ، فقد بدأت من خراسان على أيدى خراسانية ، وصار هؤلاء - بعد - هم جند الدولة وعليهم اعتمادها، ثم إن بنى العباس اختصوا الفرس من دون العرب بمنصب الوزارة ، وسادت عندهم النظم الملوكية التى كانت سائدة عند بنى ساسان ، فاحتفلوا بالأعياد الفارسية القديمة ، مثل النوروز (النيروز)

والمهرجان ، يحيط بهم الحجاب ، ويقف وراءهم السياف ، وليس من اليسير أن يلتقى أحد من الرعية بالخليفة ، وإذا حدث وتم ذلك ، فإنما يكون عن طريق الحاجب ، وعليه أن ينحنى أمامه ، ويقبل الأرض بين يديه ثم يقبل رداءه .

لا ينسى هؤلاء المؤرخون أن ينوهوا لانتقال مركز الدولة من دمشق المدينة العربية الألفية العريقة إلى بغداد المدينة المستحدثة ، القريبة من ديار العجم ، والقريبة جدا من المدائن حاضرة الفرس فى القديم .

وعادة ما يقتبس هؤلاء المؤرخون عبارة الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) التى تقول " دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان أموية عربية أعرابية " ، ويقتبسون أيضاً عبارة المنصور يخاطب أهل خراسان " يا أهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا " .

والحقيقة إن هذه المقولة فيها قدرًا كبيرًا من التزيد والتجاوز ، فالمؤثرات المنسوبة إلى الفرس – وبخاصة فى مجالى الإدارة والحياة الاجتماعية – بدأت قبل الثورة العباسية ، بحكم طبيعة الأشياء وماكان للفرس من حضارة راقية قبل الإسلام ، وكان قمينًا بهذه المؤثرات أن تنمو وتتطور ، أتى العباسيون أم لم يأتوا وماحدث أنهم عندما أتوا تسارعت عجلة هذه المؤثرات واتسع مداها .

أما عن الاستعانة بالموالى وبخاصة الفرس فى مناصب الدولة وبخاصة الوزارة ، فإن هذه الظاهرة نستمد لها أصولاً فى عهد بنى أمية ، وإذا كان الفرس قد احتكروا – على نحو عام – منصب الوزارة ، فإن [illegible] المتنفذين فى حاضرة الدولة كانوا من العرب ، كما كان منهم معظم القادة والولاة ولا يخفى أنه كان منهم كذلك غالب الدعاة والنقباء عشية الثورة .

ومادمنا بصدد الوزارة ، فثم ملاحظة أساسية ، هي أن سلطة الوزير العباسي لم تكن كبيرةً إلى المدى الذي يتوهمه البعض ، فهذه السلطة كانت تتركز – أساسًا – على الجوانب المالية ، كما إن من القادة من كانت لديهم سلطات أكبر من سلطة الوزير ، والخليفة نفسه كان يبطش بوزيره ، حين يجد أن سلطته جاوزت حداً بعينه ، ولدينا مثال الرشيد مع البرامكة ، ومثال المأمون مع بني سهل وإذا نحن تناولنا المؤسسة العسكرية كمؤسسة تعكس علاقات القوى داخل الدولة ، فإننا نلاحظ أن الجيش كان يتكون من مجموعتين أساسيتين ، الأولى : هي الخراسانية ، والثانية هي العرب .

أما عن الخراسانية – أو أهل خراسان – فهو تعبير لا يقصد به أعاجم بالضرورة ينتمون إلى خراسان ، إنما يقصد به على نحو أساسي عرباً ، وإذا شئنا الدقة هم عرب استوطنوا خراسان من لدن الفتح ، وخالطوا أهلها وتطبعوا بطابعهم ، بحيث صار صعباً أن نميزهم عنهم ، الأمر الذي دفع الجاحظ بعد سنوات طويلة ، لأن يلصق بهم صفة العجمة ، خصوصاً وأنه ازدادت بينهم أعداد الأعاجم الأقحاح وتناقصت أعداد العرب المستعجمين .

والمجموعة الثانية من الأجناد هم امتداد للجيش العربي الذي عرفناه في عصر الراشدين وفي عصر الأمويين ، وهم عرب ينتسبون إلى عدنان وقحطان .

نتساءل .. كيف نفسر إذن موقف هؤلاء المؤرخين الذين يذهبون إلى فارسية الدولة العباسية ؟

ليس لدينا من تفسير سوى أنهم يأخذون بظاهر النص ، دون أن يحللوا مضمونه ثم يجتزعون هذا النص عن سياقه العام .

لدينا مثال فى بيت لشاعر عربى يستشهد به بعضهم :

ياليت جور بنى مروان عاد لنا . ياليت عدل بنى العباس فى النار

الشاعر هنا يعبر عن وجهة نظر أهل الشام ، ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر العرب ، فالعباسيون انصرفوا عن أهل الشام ، ليس لأنهم عرب ، ولكن لأنهم ناصروا خصومهم الأمويين ، وظلوا يوالونهم سنوات طويلة بعد ذهاب دولتهم ، وظهر بينهم على مدى سنوات طويلة مجموعة من الثوار ، انتسبوا إلى بنى أمية ، وكان الواحد منهم يدعى أنه السفيانى المنتظر ، اعتقد أهل الشام بفكرته ، مثلما اعتقد المسلمون بفكرة المهدى المنتظر .

إذن فما هو الطابع العام للخلافة العباسية .

فى تقديرنا إن هذا الطابع كان طابعًا إسلاميًا ، بمعنى أنه إذا كان طابع الدولة فى عصر بنى أمية طابعاً عربياً ، فإنه فى عصر بنى العباس ، لم يتنازل العرب عن مكانتهم ، إنما تصاعدت مكانة الفرس ، وبدأت - من ثم - تضيق المسافة بين الشعبين ، إلى أن كانت النهاية فى عهد المعتصم ، حين أسقط العرب من الديوان ، فأسقط بالتالى هيمنتهم على المؤسسة العسكرية ، وصار العرب والفرس (وغير الفرس) فى منزلة واحدة عند الدولة .

استند العباسيون فى حكمهم إلى الفكرة الإسلامية ، وهى فكرة أعلى من الفكرة العرقية ، ولم يكونوا فى استنادهم إلى هذه الفكرة ، يصدرون بالضرورة عن تقوى ، أو عن رغبة فى الالتزام بأوامر الدين ونواهيه ، إنما هم كانوا يهدفون إلى دعم دولتهم وتعميم طاعتهم ، وفى هذا يقول المنصور وهو الخليفة المؤسس - " إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأبيده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه

بإذنـه ، فـاذعنوا إلـى اللـه ، وسلوه أن يوفقنـى إلـى الرشـاد والصـواب ، وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم " .

أفاد بنو العباس من صلة الدم التى تربطهم بالنبى ﷺ ، وارتدوا بُرْدَتَـه كرمز لهذه الصلـة ، ورروجـوا لأحـاديث - لا نـدرى مـدى صحتهـا - تـبرر هذه السلطة إلى يوم الدين ، واتخذوا ألقاباً ذوات صلة بلفظ الجلالة ، ثم هم اتخـذوا إلى جانب لقب الخلافة لقب الإمامة - الذى راج عنـد الشـيعة - مـع أنهـم لـم يكن من عادتهم أن يؤموا الناس فى الصلاة ، وأفادوا أيضاً من فكرة المهدوية ، وادعوا أن المهدى منهم ، والمنصور نفسه أطلق هذه التسمية على ولده الذى ولى بعده .

الأهم من هذا كله أن الطابع الدينى للدولة العباسية تصـاعد لديهـا ، مـع تباعد السلطة الزمنيـة عنهـا ، وتسـلط الأجنـاد مـن الأعـاجم عليهـا ، وذهـاب أقطار إسلامية استبد بها حكامها واستقلوا بها .

على أن التوجـه الإسـلامى للدولـة أعـان علـى أن يسـهم الفـرس وغـير الفرس على نحو واضح فى الحضارة الإسلامية بجوانبهـا كافـة، وأعـان علـى إثراء هذه الحضارة ، ونهضت مراكـز عدة للترجمـة مـن الثقافـات القديمـة ، أخصها دار الحكمة - أو بيت الحكمة - فى بغداد، وقد بلغت هـذه الـدار أوج ازدهارها فى زمن الخليفة المأمون.

٣- سياسة العباسيين مع منافسيهم على الخلافة :

نشأ مع قيام الدولة العباسية نظام جديد لم يحظ برضـاء كـل المسلمين ، فكان للنظام القديم أنصـاره ، وهؤلاء هم الأمويون ، كما كان هنـاك قـوم غـير راضين عن النظام القديم ، لأنه ظلمهم ، وغير راضين عـن النظـام الجديـد ، لأنه لم يرد إليهم حقهم ، وهؤلاء هم العلويون .

(أ) سياسة العباسيين مع الأمويين :

لم يكتف العباسيون بإسقاط دولة بنى أمية ، إنما تتبعوهم أينما ذهبوا ، من أجل تصفيتهم جسدياً ، فقد خشوا أن يسعى هؤلاء إلى استعادة ملكهم ، مستندين فى ذلك إلى العرب ، خصوصًا أهل الشام .

استخدم العباسيون فى سياستهم هذه ، ما أمكنهم من وسائل ، لم يراعوا فيها عهداً ولا رحماً ولا دينا . وقد عبر السفاح عن ذلك حين أتاه رأس مروان ، فقال : " الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بكم ولم يبق ثأرى قبلك ، وقبل قومك أعداء الدين ، وتمثل قائلا :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولادماؤهم للغيظ ترويني

قتل العباسيون وبخاصة السفاح وعمه عبد الله بن على وعمه الآخر صالح بن على العديد والعديد من بنى أمية ، حتى بعد أن أمنوا بعضهم ، وبلغت بهم الحال ، فذبحوا الأميرة عبدة بنت هشام بن عبد الملك لأنها رفضت أن تدلهم على كنوز وجوهر كانت لها ، ثم تمادوا فى هذه السياسة ، فنبشوا قبور أعدائهم ، ولم ينج من هذه القبور سوى قبر عمر بن عبد العزيز ، لما خلفه صاحبه من سيرة وضيئة فى ذاكرة المسلمين .

لم يجد بنو أمية سوى أن يطلبوا الهرب ، حيث أوسعهم الله من أرضه ، فلحق عبيد الله وعبد الله ولدا مروان بن محمد بأرض الحبشة ، فلقيا عناءً من الأحباش ، وقتل عبيد الله ونجا عبد الله . كما نزع إلى المغرب جُزَىّ ابن عبد العزيز بن مروان ، وعبد الملك بن عمر بن مروان ، وفى أثرهما نزع الكثيرون من بنى أمية .

على أن الأهم من هؤلاء جميعًا هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذى عبر إلى الأندلس ، وجدد دولة بنى أمية بها ، واشتهر فى التاريخ باسم

الداخل ، واشتهر أيضًا باللقب الذى أضفاه عليه أبو جعفر المنصور وهو " صقر قريش " .

على أن بعض الأمويين نزعوا إلى الثورة فى قلب الدولة الإسلامية ، وليس لدى أطرافها ، فتكررت ثوراتهم فى بلاد الشام على نحو خاص ، ولم يجد العباسيون مشقة فى قمعها ، لكن الثورة الأموية التى نشبت فى مصر فى عهد الخليفة المهدى سببت للدولة حرجاً واستدعت جهودًا مضنيّة لقمعها .

استطاع دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان أن يتغلب على بلاد الصعيد ، واستطال أمره نحو ثلاث سنوات ، تعاقب خلالها على مصر ثلاثة ولاة هزموا جميعهم ، إلى أن قدم الفضل بن صالح العباسى ، فتمكن من هزيمة الثائر وقتله ، وبعث برأسه إلى الخليفة الهادى فى سنة ١٦٩هـ.

(ب) سياسة العباسيين مع العلويين :

كانت الصورة العامة للصراع على السلطة فى البداية هى أنها صراع بين بنى هاشم من ناحية وبين بنى أمية من ناحية أخرى . وبذل العباسيون جهدهم من أجل ترسيخ هذه الصورة فى أذهان العامة ، ولم يعلنوا – بداءةً – عن حقيقة أهدافهم ، بل أعلنوا أن الدعوة للرضا من آل محمد . وعندما أنشأ المنصور مدينة جديدة ، كى تصبح عاصمة الدولة ، بدلا من دمشق ، دعاها بالهاشمية ، واستقربها سنوات إلى أن انتقل إلى بغداد .

على أن بعض الدعاة الذين كانوا على دراية بواقع الحال ، أدركوا حقيقة الموقف واتجاه الريح ، فسعى أبو سلمة الخلال – أول وزراء الدولة – ذو الميول الشيعية إلى أن يسبق الأحداث ، فدعا بعض أبناء البيت العلوى

للقدوم إلى الكوفة ، ليعلن أحدهم إمامًا ، لكن تردد هؤلاء فوت على أبى سلمة الفرصة بل كان سببًا فى مصرعه بعد حين .

انتظر العلويون حتى مات السفاح ، وأعلن المنصور خليفة ، فجاهر أحدهم بالدعوة لنفسه .

تقول بعض الروايات أنه فى أواخر عهد الدولة الأموية اجتمع عدد من أهل البيت - علويين وعباسيين - فى مكة المكرمة ، واتفقوا على أن تكون الدعوة لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى دعى بالنفس الزكية .

على أن ماجرى بالكوفة من إعلان أبى العباس خليفة فى سنة ١٣٢هـ أسفر عن امتناع النفس الزكية وأخوه إبراهيم عن البيعة ، كما امتنعا أيضاً عن بيعة أبى جعفر بعد أربع سنوات .

فى سنة ١٤٠هـ قدم المنصور إلى المدينة ، وبحث عن النفس الزكية وأخيه ، فلما علم بهربهما أمر بعزل الوالى ، وتعسف فى معاملة من لقيهم من بنى الحسن ، ونفاهم إلى العراق .

فى رجب سنة ١٤٥ أعلن النفس الزكية الثورة ، وبايعه أهل المدينة ، واصدر الإمام مالك - إمام دار الهجرة - فتوى بتأييده وبطلان بيعة المنصور .

أراد المنصور أن يقضى على الفتنة فى مهدها ، فبعث إلى خصمه يغريه بالأمان ويعده بالأموال ، مقابل أن يتخلى عن دعوته ، فرد عليه بأن أوضح حق أهل بيته فى الخلافة ، وأخذ يعدد فضائلهم ، فعاود المنصور مراسلته ، وركز على حق العباسيين حيث أن العم - وهو العباس - أحق فى الميراث من ابن العم - وهو على - .

أثناء هذه المراسلات كان الفريقان يتجهزان لخوض المعركة ، وانتهى الأمر بأن أرسل المنصور جيشاً ، جعل عليه ابن أخيه عيسى بن موسى ، فلما اقترب من المدينة حفر النفس الزكية خندقاً حولها ، ولم يحل هذا الخندق دون اقتحام الجيش لمواقعه وقتل الثائر وصلب من وقع فى الأسر من أتباعه .

فى الوقت نفسه كان إبراهيم – أخو النفس الزكية – قد أعلن الدعوة لأخيه بالبصرة ، وانضم اليه عدد كبير من الزيدية والمعتزلة ، فقصد إلى قريب من الكوفة ، حيث كان يقيم المنصور – قبل ابتناء بغداد – ومعه عدد قليل من جنوده . لكن عودة عيسى بن موسى ظافراً من الحجاز دعم موقف الخليفة ، واقتل الفريقان قتالاً شديداً ، وارتد إبراهيم إلى باخمرى قرب الكوفة ، حيث هزم ثم قتل فى ذى القعدة سنة ١٤٥هـ.

كانت ثورة النفس الزكية هى أول ثورات العلويين وأكبرها فى العصر العباسى ، وكان من الممكن أن تسفر عن سقوط الدولة الناشئة ، لولا أنه أخطأ بالتعجيل بثورته ، قبل أن يقوى أمره ، وساهم المنصور نفسه فى هذا التعجيل ، عندما أرسل إليه كتباً نسبها إلى أهل العراق ، يدعونه فيها إلى الثورة .

إرتكب النفس الزكية خطأ أخر ، هو أنه استند فى ثورته إلى بلاد الحجاز وحدها ، والحجاز لم تعد فى هذه المرحلة صالحة من الناحيتين العسكرية والسياسية ، لأن تقوم بها ثورة ناجحة ، ولا تتوافر بها حصون قوية ولا موارد كافية ، وقد تنبه بعض أصحابه إلى ذلك ، واشاروا عليه بالخروج إلى مصر لكنه أبى .

بعد قمع الثورة نقل العباسيون كبار العلويين إلى بغداد ، حتى يصيروا تحت أنظارهم ، أما من بقى منهم فى المدينة ، فقد أمروا عمالهم بتشديد الرقابة عليهم .

فى سنة ١٦٩هـ خرج ثائر آخر من بنى الحسن ، فقد دعا الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى نفسه ، وبايعه أهل المدينة ، فاستولى على بيت مالها ، وتوجه إلى مكة وعسكر بذى طوى إلى جوارها ، فسار إليه جيش عباسى ، التقى به عند فخ ، فتفرق عن الثائر كثرة أصحابه ، وقاتل فى نفر قليل مستقتلاً حتى قتل .

ومع أن الخليفة الهادى – فيما يقال – تأثر لقتل الحسين ، جين أتى له برأسه ، إلا أن ذلك لم يمنعه وخلفاءه من متابعة سياستهم فى التصدى للعلويين .

أعقب موقعه فخ أن هرب اثنان من العلويين شاركا فيها ، هما يحيى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأخوه إدريس ، فتوجه الأول إلى الديلم ، وتوجه الآخر إلى المغرب .

بعد أن استقرت الحال بيحيى فى الديلم ، أعلن ثورته فى سنة ١٧٦ وكثر أصحابه ، فأرسل الخليفة الرشيد إليه الفضل بن يحيى البرمكى الذى سعى إلى استمالته وأغراه بالأمان ، حتى استجاب وقدم على الرشيد ، فتلقاه بالترحاب وأجزل صلته ، لكنه لم يلبث أن حبسه ، واستفتى الفقهاء فى أمره ، فأفتى بعضهم بنقض العهد ، وبذا قتل يحى .

أما إدريس فقد انتهى به المطاف إلى طنجة فى أقصى المغرب ، ودعا لنفسه بين البربر فاستجابوا له ، واستطاع فى سنة ١٧٢ أن يؤسس لنفسه دولة ،

ومع أن الرشيد بعث إلى إدريس من دس له السم فمات بعد خمس سنوات ، إلا أن دولته استمرت قائمة سنوات طويلة إلى أن أزالها الفاطميون .

استغل بعض العلويين فرصة اضطراب أمور الدولة ، إبان النزاع بين الأمين والمأمون فثاروا فى أماكن متفرقة ، على أن هذه الثورات لم تكن ذات شأن ، ثم إن ماانتبعه المأمون من سياسة حسنة مع هؤلاء الثوار، كانت تؤدى إلى تهدئة الأوضاع .

وإذا كان الامام جعفر الصادق رضى الله عنه قد نأى بنفسه عن الدخول فى صراع مع بنى العباس ، واتخذ مبدأ التقية ، إلا أن ما كان يتمتع به من مكانة بين أهل عصره ، كفقيه من كبار فقهائهم ، أدى إلى حنق المنصور عليه ، فاستدعاه إلى بغداد ، وظلت المضايقات تلاحقه إلى أن مات فى سنة ١٤٨هـ.

على أنه أشيع عن ولده موسى الكاظم رضى الله عنه إنه نظم الإمامية ، وجمع الخمس منهم ، فتعرض للحبس فى بغداد مرة فى عهد المهدى ومرتين فى عهد الرشيد ، ثم مات فى حبسه سنة ١٨٤هـ ، وقيل أنه كانت للرشيديد فى موته .

فى سنة ٢٠١هـ أقدم المأمون على خطوة جريئة ، فقد استدعى - وهو بمرو - عليا الرضا رضى الله عنه ، وقال له : إنى نظرت فى أبناء العباس وأبناء على ، فلم أجد أحداً أفضل ولا أحق بولاية العهد منك " .

لم يكتف المأمون بذلك ، فقد دعا عليا بالرضا من آل محمد ، وزوجه ابنته ، كما زوج ولده محمد الجواد إبنته الأخرى ، وضرب الدراهم باسمه ، وخطب له على المنابر إلى جانبه ، واستبدل بشعائر العباسيين الأسود شعار العلويين الأخضر .

اختلف المؤرخون المحدثون فى تحديد دوافع المأمون فى هذا الشأن ، ويذهب بعضهم إلى التأثير الفارسى ، فأمه فارسية ، والفرس هم الذين أعانوه فى حربه ضد أخيه الأمين ، ولما كان كثرة هؤلاء الفرس شيعة ، فإن المأمون سعى إلى إرضائهم ، بأن جعل عليا الرضا ولى عهده .

فى تقديرنا أن الصواب جانب هؤلاء المؤرخين ، فهم يسقطون ما يشاهدونه اليوم على أحداث وقعت فى الماضى ، والتشيع فى عصر المأمون كان ما يزال عربيا ، ولم يصبح المذهب السائد بين الفرس ، إلا بعد قرون عدة ، والأصح – نذهب – أن المأمون مال إلى التشيع من منطلق إعتزالى – لأن المعتزلة كانوا يقتربون فى فكرهم من الشيعة ، ولا يبعد أيضا تأثر المأمون بوزيره الفضل من سهل وكان شيعيًا وغلب وأخوه الحسن على دولته .

بيد إن ما أقدم عليه المأمون لم يحظ برضاء أهل بيته من بنى العباس ، فقاموا بخلعه وتولية عمه إبراهيم . عندئذ اضطر المأمون إلى العدول عن سياسته ، واغتيل الفضل بن سهل ، ثم مات على الرضا فى سنة ٢٠٣ ، ودفن بالقرب من طوس .

لا تتوافر لدينا معلومات واضحة عن دور للمأمون فى موت على الرضا ، لكنه على أية حال عاد إلى لباس السواد ، وبذا تمكن من دخول العراق ، وقضى على ثورة عمه وعاود العباسيون سياستهم فى مناهضة الدعوة لآل البيت .

امتد النزاع بين العباسيين والعلويين إلى المجال النظرى ، فكان دعبل ابن على الخزاعى (ت ٢٤٦هـ) من الشعراء الذين اتخذوا صف العلويين ،

وأنشأ قصيدة فى رثاء النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، كما كان ينوه في شعره إلى غديرخم ، وهو الغدير الذى قيل أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجعله من نفسه بمنزلة هرون من موسى عليهما السلام .

ومن الشعراء الذين أيدوا وجهة نظر العباسيين مروان بن أبى حفصة (ت ١٨٢هـ) وأشار إلى ما ورد فى سورة الأنعام بشأن الوراثة فيقول :

ما للنساء مع الرجال فضيلة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

وقد رد عليه بعض شعراء العلويين :

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

٤- الفرس وموقفهم من الدولة العباسية :

(أ) الفرس ومواقع الصدارة فى الدولة :

قام الموالى – وبخاصة الفرس – بدور وافر في إنجاح الثورة العباسية ، وحفظ لهم العباسيون هذا الدور ، فأتاحوا لهم الصعود إلى مواقع كان يختص بها العرب وحدهم ، سواء على مستوى الدولة ، أو على مستوى المجتمع بمرافقه كافة .

على أن الفرس كانوا يتطلعون إلى أبعد مما أتاحته لهم الدولة ، ورافق هذا التطلع – فى بعض الأحيان – صراع تفاوتت درجاته بينهم وبين العرب .

كان حفص بن سليمان ، ويكنى بأبى سلمة الخلال كبيرا لدعاة بنى العباس ، واستطاع إبان مقامه بالكوفة أن ينشر بها الدعوة لبنى هاشم .

عندما اقترب العباسيون من تحقيق النصر النهائى على الأمويين ، أسفر أبو سلمة عن ميوله الشيعية ، فأرسل إلى ثلاثة من كبار العلويين بالمدينة ، يستقدمهم إلى الكوفة ، فيبايع لأحدهم ، وبذا يسقط فى أيدى العباسيين . وأدى تلكؤ هؤلاء فى الإستجابة لهذه الدعوة وترددهم إلى فوات الفرصة والبيعة للسفاح .

ترامت أنباء هذا التواطؤ إلى العباسيين ، فلم يشاءوا أن يجاهروا أبا سلمة بما يعرفون عنه ، بل إن أول خلفائهم استوزره ، ولقبه - زيادةً فى الاحتياط - بوزير آل محمد .

ما كادت تستقر الأمور للسفاح ، حتى شرع فى التخلص من أبى سلمة ، شريطة ألا يثير عليه الخراسانية - وهم عصب الدولة - فأوعز إلى أبى مسلم بقتله ففعل .

وفى عهد المنصور تم قتل أبى مسلم ، ويذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تبرير هذا الإغتيال وتفسيره ، غير أنه مما لاشك فيه أن الدافع الرئيسى لموقف المنصور من أبى مسلم ، هو ماراعه من نفوذ له على أهل خراسان وسطوة ، قد تؤدى إلى انتقاضه ، خصوصا وأنه ادعى فى بنى العباس .

صبر المنصور على أبى مسلم ، بل استخدمه فى القضاء على ثورة عمه عبد الله بن على وكان قد دعا لنفسه ، ثم بعث اليه - وهو فى طريق العودة إلى خراسان - يستميله ويغريه بالقدوم عليه ، وتردد أبو مسلم فى البداية ، وتخوف من أن يبطش به المنصور ، بعد ما أحرزه من مجد ، لكنه خرج عن تردده ، عندما بلغه انصياع نائبه فى خراسان لطاعة سيده .

قدم أبو مسلم على المنصور فى سنة ١٣٧هـ ، فلما اجتمع بـه واجهه بعدة تهم ، آخرها قتله لسليمان بن كثير داعية الشيعة فـى خراسـان ، ثـم أمـر بقتله ، واسترضى صحبه بالأموال ، فعادوا إلى بلادهم ، وهم يقولون : بعنـا مولانا بالدراهم " .

بلغ النفوذ الفارسى ذروته مع الأسرة البرمكية التى تسنمت مكانة عاليـة لمدى يصل إلى خمسين عاما أو نحوها .

تنتسب هذه الأسرة إلى برمك الذى كان كاهنا مـن كهنـة المجـوس ، ثـم أسلم وصارو لده خالد داعية من دعاة العباسيين فى خراسان ، واحتـل مواقـع مؤثرة فـى الدولـة بعد قيامهـا ، وولـى الموصـل للمنصـور ، ثـم ولـى فـارس للمهدى .

ارتفع شأن البرامكة فى عهد المهدى ، فولـى يحيـى بـن خـالد أذر بيجـان ، كما جعله قيمًا على ولده هرون ، ومشـرفا علـى إدارة دواوينـه ، ولعـب دورًا هامًا فى الحيلولة بين الخليفة الهادى وبين نزع أخيه هرون من ولاية العهـد ، وتحمل فى سبيل ذلك مشقة السجن ، التى لم يخلصه منها سوى موت الهادى فى سنة ١٧٠هـ.

عندما ولى الرشيد حفظ ليحى بن خالد صنيعه ، وجعله بمثابة والد له ، وقلده وزارة التفويض ، فكان أول مـن وليهـا ، وبـذا صـار مطلـق النفـوذ فـى الدولة ، واسـتعان فـى ذلـك بولديـه الفضـل وجعفـر ، وفـى سنة ١٧٦هـ قلـد الرشيد الفضل أقاليم الدولة الشرقية ، وقلد أخاه جعفر أقاليمها الغربية .

ازدهرت أحوال الدولة فى ظل حكومة البرامكة وصار البعض يعـزون هذا الإزدهار اليهم وحدهم . غير أنه فى سنة ١٨٧هـ نكب البرامكة .

كيف كان ذلك ؟؟

انصرف الرشيد من مكة المكرمة ، بعد أن أدى حجته ، فوصل إلى الحيرة ، ثم سار منها إلى الأنبار ، وهناك أمر بقتل جعفر البرمكى ، ونصب جثته على سور بغداد ، وحدد إقامة يحى أبيه فى داره ، وزج بباقى البرامكة فى السجون ، فظلوا بها إلى أن مات بعضهم ، وفى الوقت نفسه أمر بمصادرة ما لديهم من مال وعقار .

لماذا بطش الرشيد بالبرامكة ؟

يذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير تغير الرشيد على البرامكة ، فمنهم من يرى السبب فى ميل البرامكة إلى أهل البيت ، فقد تعاطف بعضهم مع يحيى العلوى الثائر بالديلم ومنهم من يرى السبب فى زندقتهم ، سيما وأن جدهم كان كاهنا من كهان المجوس ، وأخيرًا ما قيل عن علاقة نشأت بين جعفر وبين العباسة أخت الرشيد .

يترجح لدينا أن السبب فى نكبة البرامكة - كما يقرر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) - هو استبدادهم بالملك دون الخليفة ، وما ترتب على ذلك من محبة الناس لهم وانصرافهم إليهم ، إلى جانب سعايات الحزب العربى فى قصر الخليفة ، وعلى رأس هذا الحزب السيدة زبيدة زوج الرشيد وإبنة عمه ، وكانت تخشى على ولدها الأمين من أخيه المأمون وعصبيته من الفرس ، وأيد زبيدة فى مساعيها الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد .

لم تنته طموحات الفرس بنكبة البرامكة ، إذ عاودت هذه الطموحات صعودها إبان النزاع بين الأمين والمأمون .

فى سنة ١٧٥هـ ولى الرشيد ولده محمد الأمين عهده ، وضم إليه العراق ومايليه غربًا ، وبعد سبع سنوات عهد لولده الأخر عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه ، وولاه همذان ومايليها شرقًا ، كما عهد للمؤتمن بعد المأمون ، وأسند إليه الجزيرة والثغور والعواصم .

أخذ الرشيد احتياطه ، لأنه إذا كان الأمين يمتاز عن أخيه بعربية أمه وهاشميتها ، فإن المأمون يمتاز بكبر سنه ، وكونه أكثر استقامة ونسكا وصلاحا ، فأباح للمأمون الخروج على أخيه ، إذا ما شرع فى خلعه من ولاية العهد ، أو صرفه عن ولايته ، وأودع وصيته هذه فى جوف الكعبة لدى حجه فى سنة ١٨٦هـ .

فى سنة ١٩٣هـ مات الرشيد بطوس ، وبويع ولده الأمين بالخلافة ، واستسلم لمساعى الفضل بن الربيع وزيره الذى الذى أخذ يغريه بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وتولية ولده موسى بدلاً منه ، فاستقر رأى الأمين على أن يتم ذلك على مراحل ، وبدأ بإضافة موسى وليًا للعهد بعد المأمون والمؤتمن .

توجس المأمون من فعل أخيه فامتنع وهو بمرو عن إرسال البريد إليه ، وحذف اسمه من الطرز(١) وأعانه فى هذه السياسة وزيره الفضل بن سهل الذى كان مجوسيا فأسلم .

كان رد فعل الأمين هو إسقاط أخيه من ولاية العهد والبيعة لولده موسى فى سنة ١٩٥هـ ، ودعاه الناطق بالحق ، وأرسل إلى مكة فى طلب وصية أبيه الرشيد ، ومزقها الفضل بن الربيع بعد ذلك .

---

(١) الملابس التى كانت تكتب عليها عبارات إسلامية

عهد المأمون إلى قائده طاهر بن الحسين بالسير إلى العراق ، فالتقى بجيش الأمين فى الرى ، وانتصر جيش المأمون ، وسقطت فارس والمدائن وواسط فى يديه ، وحوصرت بغداد حصارًا دام عدة شهور ، ارتفعت خلالها الأسعار ، وأصيبت دورها بضرر شديد ، وفكر الأمين فى الرحيل من بغداد إلى بلاد الشام ، ليعتز بالعرب لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب الحصار .

أعلن الأمين استسلامه لطاهر بن الحسين ، وبينما كان فى طريقه إليه أصابه بعض الفرس وقتلوه ، واحتزوا رأسه ، فأرسلها طاهر إلى المأمون ، ومعها البردة والقضيب والسيف ، وجميعها من شعارات الخلافة .

تمت البيعة للمأمون ببغداد فى سنة ١٩٨هـ ، فانتقل من الرى ، حيث كان مقامه إلى مرو ، واصطحب معه وزيره الفضل بن سهل ، بعد أن لقبه بذى الرياستين ، لجمعه بين السيف والقلم ، وجعل أخاه الحسن على العراق .

غضب العرب لهذه التطورات ، فثار أحد زعمائهم وهو نصر بن شبث فى حلب ، وقوى أمره بعد أن هزم جيش طاهر بن الحسين ، وامتد نفوذه إلى الجزيرة ، وأتاه بعض العلويين ، يطلبون منه البيعة لأحدهم فرفض ، كما رفض أيضاً البيعة لبعض بنى أمية وقال : " قد أدبر أمرهم ، والمدبر لا يقبل أبدًا ، وإنما هواى فى بنى العباس ، وإنما حاربتهم محاماةً عن العرب ،لأنهم يقدمون عليهم العجم " .

استمرت ثورة ابن شبث أكثر من عشر سنوات ، إلى أن تمكن المأمون من اخمادها فى سنة ٢١٠هـ وسيق الثائر إلى بغداد ، حيث قتل .

على أنه فى سنة ٢١٨هـ مات المأمون ، وولى مكانه أخوه المؤتمن الذى تلقب بالمعتصم ، وبدأ عهد جديد تغيرت فيه مواقع الفرس والعرب جميعا من السلطة .

(ب) الفرس والحركات المناهضة للدولة :

حاول الفرس - كما أوضحنا - السيطرة على الدولة الإسلامية ، وذلك عن طريق احتوائها ، مع الإبقاء على الطابع الدينى لها ، على ان بعضهم سعوا فى الوقت نفسه إلى هدمها ، وفرض عقائدهم القديمة ، بل وعودة دولتهم التى أزالها العرب ، واستعانوا فى ذلك بالثورة تارة والغزو الفكرى تارة أخرى .

كان لقتل أبى مسلم رد فعل عنيف عند الفرس ، فقد كانوا ينظرون إليه على أنه زعيمهم ومحط أمالهم ، والبطل الذى ينتظرونه منذ بعيد ، وعبروا عن غضبهم بمجموعة من الثورات ، تتابعت الواحدة تلو الأخرى ، وأعان على قيامها أن دياناتهم القديمة كان ما يزال لها حضورها الواضح عندهم ، وعند بعض من أعلن إسلامه منهم .

فى السنة التى قتل فيها أبو مسلم خرج سنباذ المجوسى بقرية من قرى نيسابور ، مطالبا بدمه ، فغلب على نيسابور وقومس والرى ، وقبض خزائن أبى مسلم التى خلفها هناك ، وأظهر عزمه - فيما يروى - على أن يمضى إلى الحجاز فيهدم الكعبة .

وجه المنصور إلى سنباذ جمهور بن مرار العجلى فى عشرة آلاف فالتقى به بين همذان والرى فهزمه وطارده إلى طبرستان حيث قتل .

وفى سنة ١٤١هـ ظهر أمر جماعة تدعى الراوندية - نسبة إلى قرية من أصبهان - دعت إلى أفكار غريبة ، تجمع بين عقائد الشيعة وعقائد المجوس ، وتجمع بين إمامة أبى مسلم وتأليه المنصور ، كما كانت تقول بتناسخ الأرواح .

لسبب نجهله حاصر عدد من الراوندية قصر المنصور بالهاشمية ، وكادوا يظفرون به ، لولا أن هرع إلى نجدته معن بن زائدة الشيبانى ، فاستطاع وصحبه دفع الراوندية عنه ، وقتلوا عددا منهم ، وقد كافأ المنصور هذا الفارس الذى كان يطلبه قبل ذلك لأمويته ، وأجازه وولاه اليمن .

وفى سنة ١٥٠ ظهر استاذسيس فى شرقى إيران فادعى النبوة ، كما دعا إلى بعض المذاهب الفارسية القديمة ، واستمال أهل هراة وباذ غيس وسجستان ، وتوجه إلى خراسان ، فتصدى له أهل مرو الروذ . ثم ولى المنصور حربه خازم بن خزيمة الذى طارده فى الجبال . وقتل العديد من أصحابه . إلى أن نزل الثائر على حكم المسلمين ، بأن يوثق بالحديد . ووجه به إلى المنصور حيث قتل .

فى عهد الخليفة المهدى ظهرت حركة تشبة حركة الراوندية من وجوه عدة ، دعا إليها فى سنة ١٥٩هـ رجل من أهل مرو يدعى حكيمًا أو عطاءً ، صنع لنفسه قناعًا من ذهب فسمى بالمقنع ، وإدعى إن الله خلق آدم ، ثم تحول إلى صورته ، ويستشهد على ذلك بأنه أمر الملائكة بالسجود له ، ثم تحول إلى صورة نوح ، وهلم جرا حتى أبى مسلم الخراسانى فهاشم - وهو فى دعواه المقنع نفسه - وصار الناس يقولون فى الحرب يا هاشم : أعنا .

لما اشتد أمر المقنع سار إلى بلاد ماوراء النهر، وتحصن بقلعة هناك ، وأعانه كفار الترك ، وحاربه بعض المسلمين فقتلهم واستولى على أموالهم .

أرسل المهدى إلى المقنع عدة من قواد ، فشلوا فى حربه ، إلى أن قود سعيدا الحرشى ، فحاصره فى سنة ١٦١ بقلعته بسنام ، وضيق عليه ، حتى طلب أصحابه الأمان فأمنهم ، وخرج كثرتهم عدا ألفان - بينهم المقنع - صبروا على الحصار إلى أن دب اليأس بينهم فاشعلوا نيرانًا وأحرقوا أنفسهم، ويقال أن الحرشى عثر على رأس المقنع ، فأرسلها إلى المهدى بحلب .

على أن أكبر هذه الحركات الهدامة وأخطرها جميعا هى حركة الخُرَّمِيَّة التى استطال أمرها سنوات طويلة فى عهد الخليفة المأمون وفى عهد أخيه المعتصم .

والحقيقة أن الخرمية لا تختلف كثيرًا عن المزدكية التى ظهرت فى إيران فى زمن قباذ ، ودعا مزدك إلى مذهب جديد لا يختلف عن زرادشت وغيره من المجوس فى القول بقوة للخير وقوة أخرى للشر ، على أنه اختلف عنهم فى قوله ، بأن الوسيلة لحل مشكلة الشقاء الإنسانى تكمن فى شيوعية المال والنساء .

لقيت دعوة مزدك هوى فى نفس قباذ فتشيع له ، لكنه لم يلبث أن تخلى عنه ، عندما لمس النتائج السيئة لدعوته ، فتتبعه وبطش به ، وينسب هذا البطش أيضًا إلى أنوشروان .

لم تنته المزدكية بهلاك صاحبها ، فقد استمرت كامنة فترة طويلة ، إلى أن عاودت الظهور فى مطلع العصر العباسى .

نستطيع القول بأن الخرمية هى فى جوهرها المزدكية ، مع تطور يتناسب والأوضاع الجديدة الناجمة عن الفتح الإسلامى فأضاف الخرمية مبادئ منها الحلول والرجعة ، ويعظمون أبامسلم الخراسانى ، ويلعنون أبا جعفر المنصور الذى قتله .

أفاد بابك من شغل المأمون بالنزاع مع غيره من أبناء البيت العباسى ، وبخاصة عمه إبراهيم بن المهدى ، فأعلن ثورته بأذر بيجان ، حيث تنتشر الخرمية فولى المأمون حربه بعض قواده ، صار بابك يهزمهم الواحد تلو الآخر ، ثم تحالف مع الروم ، فقوى أمره وأحدق بالعراق ، واستمرت حاله كذلك حتى وفاة المأمون .

عندما ولى المعتصم في سنة ٢١٨ عادت الحرب سجالا بينه وبين بابك، إلى أن عقد القيادة للأفشين حيدر بن كاوس الأشروسنى ، وعقد له على جميع ما يجتازه من أعمال .

تعقب الأفشين الخرمية وحاصر بابك في قلعته البذ ، ثم اقتحمها عنوه في رمضان سنة ٢٢٢ فهرب بابك ، وكتب الأفشين إلى بطارقة أرمينية واذربيجان في طلبه ، وجعل لمن يأتيه برأسه جائزة كبيرة والصفح عن بلاده . وبذا تمكن من أسره ، وجاء به وأخيه إلى المعتصم في صفر من سنة ٢٢٣ ، فأمر الخليفة بقطع يديه ورجليه وقتله ، ثم صلبه بسر من رأى - سامراء - ووجه برأسه إلى خراسان ، كما صلب أخوه ببغداد .

من أعجب الأمور وأغربها أن الأفشين - قائد المعتصم الكبير - الذى كان له الفضل الوافر في القضاء على بابك وحركته ، لم يلبث أن اتهم باعتناق دعوته ، وربما تقف أسباب سياسية وراء هذا الإتهام .

مهما يكن من الأمر ، فقد تمت محاكمة الأفشين في ذى القعدة من سنة ٢٢٥هـ بدار المعتصم بسامراء ، أمام محكمة قضاتها من المعتزلة ، وحضرها نفر من الوجوه ، وجمع غفير من الناس ، واسفرت المحاكمة عن إدانة الأفشين ثم حبسه فقتله .

أما عن الغزو والفكرى ، فيتمثل في دعوتين هدامتين ، ظهرت في العصر العباسى الأول ، اتخذتا من الفكر قناعًا ، تخفيان به مسعيهما ، من أجل هدم دولة العرب أودولة الإسلام أو هما معًا . وربما كانتا أخطر من الدعوات السابقة التى شهرت السلاح ، ومكمن الخطورة هنا ، أنهما لم تتكرا الإسلام ظاهرًا ، وإنهما اتخذتا الكلمة - وإذا شئنا المنطق - سلاحا .

الدعوة الأولى هى الشعوبية ، وتعنى الحط من قدر العرب ، وتفضيل غيرهم من الشعوب عليهم ، فلم يكن لهم في جاهليتهم ممالك كبيرة ، ولم تنشأ

بينهم حضارة ذات شأن ، وهم إذا فاخروا بالإسلام ، فهو ليس دين العرب وحدهم ، إنما هو دين الناس جميعًا .

تعددت وسائل الشعوبية فى مجابهتهم للعرب ، فصاروا يباهون بأنسابهم وملوكهم ، ويسخرون من العرب ، وماجرت عليه أعرافهم ، وصنفوا كتبا فى مثالبهم ، فالهيثم بن عدى – وهو من أشهر الرواة – ألف " كتاب المثالب الصغير " وكتاب المثالب الكبير " وألف علان الشعوبى " الميدان فى المثالب"، كما ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى وأصله يهودى من فارس كتبا دعاه " لصوص العرب " وآخر دعاه " أدعياء العرب " وثالثا دعاه " فضائل الفرس " .

كذلك ذهبت الشعوبية إلى إفساد الأدب العربى ، بنسبة الشئ إلى غير قائله ، فتضيع معالمه ، وقد نظم حماد الراوية شعراً ، ونسبه إلى الشعراء المتقدمين ، ويقولون فى ذلك " قد أفسد حماد الشعر ، لأنه كان رجلاً يقدر على صنعته ، فيدس فى شعر كل رجل مايشاكل طريقته " .

لم يكن للدولة موقف واضح تجاه الشعوبية ، إنما هى تغافلت عنهم ، ماداموا لم يقولوا بشئ فيه مساس بالدين ، على أنها فتكت بعدد منهم ، جمع بين الزندقة والشعوبية .

لذا صارت مهمة التصدى للشعوبية مهمة العرب أنفسهم ، فصنفوا كتبًا فى دفع دعاوى هؤلاء ، ونهض المعتزلة – رغما عن أعجمية بعضهم – بدور آخر فى هذا المجال ، ولدينا نموذج الجاحظ ومصنفاته العديدة .

أوضح الجاحظ العلاقة بين الشعوبية والزندقة بقوله : " وربما كانت العداوة من جهة العصبية ، فإن عامة من ارتاب بالإسلام ، إنما جاءه ذلك من الشعوبية فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به ، حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به وكانوا السلف " .

الدعوة الهدامة الثانية هى الزندقة ، ويغلب أنها مشتقه لغويا من " زند " وهو اسم كتاب زراد شت أو شرحه ، ثم عربت وصارت زندقة على أنه اختلف فى معناها أو إن هذا المعنى كان يتفاوت بين مناسبة ومناسبة أخرى ، وكان يقصد بها فى معظم الأحوال اعتناق الديانة الفارسية القديمة ، أو أحد مذاهبها مع إظهار الإسلام .

سعى الزنادقة إلى الطعن فى الإسلام ، وبخاصة فى المحافل الأدبية التى كان يعج بها العراق ، فصار يأتى إليها الشعراء وأهل الكلام والصعاليك، ويخوضون فى أبحاث منطقية وفكرية ، زخربها كتاب كالاغانى للأصفهانى ، وانصرف عدد من هؤلاء الزنادقة إلى تأليف كتب ، روجوا فيها لفكرهم ، فيونس بن أبى فروة يضع كتابا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام ، ويذهب به إلى ملك الروم فيأخذ منه مالاً ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء يصرح حين أخذه الجند فى الزندقة وهموا بقتله : " لئن قتلتمونى ، لقد وضعت فى أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة " ، وابن الراوندى يؤلف الكتب لليهود ، كيدا فى الإسلام وحبا فى إفساده .

تنبهت الدولة إلى خطر الزندقة ، وماقد تسفر عنه من زعزعة لعقائد المسلمين فى دينهم الحنيف ، والحق أنها لم تضطهد الزراد شتيين – وهم أتباع الديانة الصحيحة عند الفرس – فتمادت فى معاملتهم كأهل ذمة ، ماداموا قد التزموا بذميتهم ، إنما هى تعقبت من أظهر الإسلام وأسر ديانة أخرى غير الإسلام ، أوطعن فى الإسلام .

من أجل هذه الغاية أنشأ المهدى ديوانًا جديدًا من دواوين الدولة ، دعاه بديوان الزنادقة ، ودعى القائم عليه بصاحب الزنادقة ، وأوكلت إليه مهمة البحث عن هؤلاء ، وتعقبهم والضرب على أيديهم . ولا نعرف من أصحاب الزنادقة سوى ثلاثة هم عبد الجبار وإبراهيم الكلوذانى (أو الكلواذى)

وأشهرهم حمدويه ، ولا نسمع عن هذا الديوان شيئا فى عهد الرشيد ، وربما انتهى أمره بانتهاء دوره فى مناهضة الزندقة .

اسفرت الحملة التى قام بها المهدى وخلفاؤه عن الفتك بعدد كبير من الزنادقة ، عامتهم من الأدباء . على أنه مما لا شك فيه أن الزندقة كانت تهمة رمى بها البعض لأسباب سياسية بحتة ، منهم البرامكة فى عهد الرشيد ، والأفشين فى عهد المعتصم ، ومن الناس من رموا بها لاختلافهم المذهبى ، مثل ذى النون المتصوف المصرى المعروف ، بل رمى بها قوم من المعتزلة أنفسهم .

أعان الدولة فى حملتها ضد الزندقة عدد كبير من المفكرين المسلمين ، وبخاصة المعتزلة ، وهم فريق من أهل الكلام .

تصدى المعتزلة للزنادقة ، من منطلق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشجعتهم الدولة ، بل إنها اعتنقت مذهبهم فى عهود المأمون والمعتصم والواثق .

لعب واصل بن عطاء دورًا وافرًا فى كشف حقيقة بشار بن برد الشاعر مما أدى إلى قتله ، كما كان المعتزلة هم القضاة الذين حاكموا الأفشين فى عهد المعتصم ، وفيما بعد تولى الرد على ابن الراوَندى اثنان من المعتزلة هما الحسين الخياط والجاحظ .

فى الوقت نفسه كان الجدال يتخذ فى بعض الأحيان طابعًا هادئًا ، فكان أبو الهذيل العلاف ، يجتمع بين حين وأخر مع جماعات الزنادقة فيغلبهم بمنطقه ، واجتمع ذات مرة مع صالح بن عبد القدوس فناظره ، واعترف صالح له بالتقدم عليه ، وإن لم يوافقه مذهبه وقال :

أبا الهذيل هداك الله يا رجل　　　فأنت حقا لعمرى معضل جدلُ

٥- السياسة الخارجية للدولة العباسية :

كانت الفتوحات الإسلامية قد بلغت مداها فى نهاية الدولة الأموية ، ولم يعد ثم مجال ، لتدفق جديد للفتوحات فى عهد الدولة العباسية ، ذلك لأن دار الإسلام اتسعت ، وأضحت مجالات الحركة للمسلمين محدودة ، فضلاً عن اصطدامهم بعقبات طبيعية ، كانت تستلزم جهداً كبيراً للتغلب عليها .

صحيح أنه أضيفت إلى الدولة الإسلامية فى مطالع العصر العباسى أراض جديدة لكن هذه الأراضى لم تكن من الإتساع ، بحيث تضاهى ماتم إنجازه فى عصر بنى أمية ، وانصرف جهد العباسيين الأساسى إلى تثبيت حدود الدولة ودفع الهجمات التى وجهت اليها من ناحية ، وضرب المحاولات الإستقلالية من ناحية أخرى .

(أ) سياسية العباسيين مع المغرب :

أسفرت ثورة البربر الكبرى فى أخريات عهد هشام بن عبد الملك عن اضطراب فى أحوال المغرب ، واستغل عبد الرحمن بن حبيب - وهو حفيد لعقبة بن نافع - هذه الفرصة من أجل أن ينشئ لنفسه دولة هناك ، إلا أن الخوارج الصفرية والإباضية نازعوه سلطته ، وظلوا على ذلك مع بنيه ، بحيث أضحت إفريقية من نصيب الصفرية ، كما أضحت طرابلس والمغرب الأوسط من نصيب الإباضية .

سعى أبو جعفر المنصور لرد بلاد المغرب إلى الطاعة ، واستطاعت حملاته المتكررة عليها أن تسترد إفريقية وطرابلس ، لكنها لم تستطع أن تمنع عبد الرحمن بن رستم - وهو إباضى من أصل فارسى - من تكوين دولة له بالمغرب الأوسط ، قاعدتها تاهرت .

على أن الأحوال لم تهدأ فى إفريقية ، بعد دخولها فى طاعة العباسيين ، وذلك بسبب ما نشأ من نزاعات بين القواد بعضهم وبعض ، وفشلهم جميعًا فى التصدى للخوارج ، ثم تجدد العصبية بين القيسية واليمانية .

إنتهز إبراهيم بن الأغلب - وهو أحد القادة العباسيين - هذه الفرصة ، ومكن لنفسه بينه الأهلين فحمله هؤلاء على الكتابة إلى هرون الرشيد فى سنة فى سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠ م ، يطلب منه أن يقره على إمارة إفريقية ، على أن يؤدى إليه أربعين ألف دينار كل سنة ، وأجابه الخليفة .

استمرت دولة بنى الأغلب فى حكم تونس والمغرب الأدنى (ليبيا) حتى أزالها الفاطميون فى سنة ٢٩٦/٩٠٩م . ولم تعلن هذه الدولة استقلالها عن العباسيين ، إنما ظلت تعترف بطاعتهم ، وتحارب تحت رايتهم ، وتصدت للدعوات الخارجية وللإباضية ، كما تصدت للأدارسة الذين أعلنوا استقلالهم التام عن الدولة العباسية بالمغرب الأقصى .

لعب الأغالبة دورًا آخر هامًا ، فعلى أيديهم تم فتح جزيرة صقلية ، واستغرق فتح هذه الجزيرة سنوات طويلة ، حتى أذعنت فى النهاية لهم .

أما فى المغرب الأقصى فقد أقام إدريس الحسنى - وهو أخ للنفس الزكية - دولتفى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ، وفكر الرشيد فى أن يرسل اليه جيشا، لكن وزيره يحى بن خالد البرمكى ، نصحه - فيما يقال - بالحيلة ، فأرسل إلى المغرب أحد مواليه ويدعى الشماخ وقد تظاهر هذا المولى بالتشيع لآل على فأكرمه إدريس وقربه ، ثم دس الشماخ له السم وهرب إلى مصر ، فكافأه الرشيد بأن أسند إليه بريدها .

كادت دولة ادريس أن تنته بوفاته فى سنة ١٧٧هـ غير أنه كانت له أمة بربريه حاملا منه ، فانتظر البربر ، حتى وضعت حملها ، وكان ولدا دعوه كابيه بإدريس .

يعد إدريس بن إدريس هو المؤسس الحقيقى لدولة الأدارسة ، التى دامت حتى أزالها الفاطميون في سنة ٣١٣/٩٢٥ وعلى يديه أنشئت مدينة فاس .

(ب) سياسة العباسيين مع الاندلس :

في أعقاب مصرع الدولة الأموية فى سنة ١٣٢هـ هرب أحد أبناء البيت الأموى ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إلى الأندلس ، واستطاع أن ينشئ لنفسه دولة في سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م . وتلقب هو وبنوه بعده بألقاب الإمارة ، إلى أن أعلن حفيد بعيد له الخلافة في سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م وتسمى بالناصر لدين الله .

سعى أبو جعفر المنصور إلى القضاء على تمرد عبد الرحمن – الذى عرف فيما بعد بالداخل – فاستعان عليه بالأغالبة ، الذين استمالوا العلاء بن مغيث اليحصبى – وهو من أهل الأندلس – فعبر البحر إليهم ، ثم عاد ومعه سجل المنصور ، ونزل بساحل باجة في سنة ١٤٦هـ ، وأجابته اليمانية والفهرية .

إلتقى عبد الرحمن بالعلاء فى قرمونة ، واقتتل معه قتالا شديدا ، أسفر عن مقتل العلاء وجملة كبيرة من أصحابه ، ولم يكتف عبد الرحمن بذلك ، فقد أمرفاحتزت رؤس زعماء الفتنة ، وقرطت الصكاك فى آذانهم بأسمائهم ، وأودعت جوالق ، وأوصى عبد الرحمن بعض التجار ، فعبروا بها إلى القيروان ، حيث ألقوها هناك .

أما العلاء فقد أمر عبد الرحمن بحشو رأسه ملحًا وكافوراً ، وجعل معها لواء المنصور ، ووضعها فى سفط ، وبعث بها مع واحد من خاصته إلى مكة في جملة الحاج ، فوافق أبا جعفر يحج إلى بيت الله الحرام ،

فوضعه على باب سرادقه ، وأرتج على المنصور وقال : عرضناه المسكين للقتل ... الحمد الله الذى جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحرًا " .

لم يكتف العباسيون بذلك ، فقد عاودوا الكرة نفسها فى عهد الخليفة المهدى .

استمال الغباسيون عبد الرحمن بن حبيب الفهرى – وهو من أشراف أهل الأندلس – فعبر إلى إفريقية ، ثم عاد إلى وطنه فى سنة ١٦٢هـ/٧٧٨م ، وقد رفع اللواء الأسود ، معلنًا الطاعة لبنى العباس ، فتوجه عبد الرحمن إلى حربه فى شرقى الأندلس ، وأحرق السفن التى جاءت به وصحبه ، حتى يمنعه من الهرب ، فلاذ ابن حبيب بجبال بلنسية ، واستعمل عبد الرحمن الحيلة ، وجعل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاغتاله رجل من البربر .

(جـ) سياسة العباسيين مع الأتراك والصين والهند :

قبل مغيب شمس الدولة الأموية ، استطاع المسلمون على يدى القائد الكبير قتيبة بن مسلم أن يفتحوا بلاد ماوراء النهر ، وكان على العباسيين أن يوطدوا من نفوذ المسلمين هناك ، ويؤمنوا حدودهم مع الأتراك .

أنفذ المنصور ولده المهدى فى عدة حملات ، تمكنت من اخضاع الصغد وأشرو سنة وفرغانه ، وبدأ الإسلام ينتشر فى هذه الأصقاع ، واستقدم الخلفاء عددا من الأتراك للخدمة فى الجيش وقد علاشأنهم فى عهد الخليفة المعتصم .

أدى امتداد نفوذ المسلمين فى أعماق آسيا إلى اصطدامهم بملك الصين، ففى سنة ١٣٣هـ/٧٥١ استطاع زياد بن صالح الخزاعى أن ينتصر على الصينيين ، ويقتل من جنودهم – فيما يقال – خمسين ألفا .

أدى هذا الانتصار إلى أن يتخلى ملك الصين عن أطماعه فى بلاد الأترك ، كما أدى كذلك إلى علاقات تجارية بين المسلمين والصينيين ، والأهم أنه وقع فى أيدى المسلمين عدد من صناع الورق الصينيين ، فأدخلوا هذه الصناعة إلى العالم الإسلامى ، ثم امتدت بفضل العرب إلى أوربا .

فى عهد المنصور طلب ملك الصين عونه فى نزاع نشب على العرش، فأرسل اليه فرقة من المسلمين أعانته على التوطيد لنفسه ، وقد استقر هؤلاء المسلمون فى البلاد ، ولم يعودوا إلى أوطانهم ، وتزاوجوا مع الأهلين ، وأسهموا بدورهم فى نشر الإسلام .

كذلك امتد نفوذ المسلمين فى بلاد الهند ، فقد حدث فى نهاية عهد بنى أمية أن توقف المد العظيم الذى بدأه محمد بن القاسم الثقفى ، وارتد عدد من الهنود إلى ديانتهم الأصلية .

أرسل المنصور هشام بن عمرو التغلبى فاسترد مافقده المسلمون فى بلاد السند ، وفتح المولتان ، وهدم البد وهو معبد الهنود فى بلاد البنجاب .

عاود المسلمون غزو الهند فى عهد الخليفة المهدى ، فحاصروا فى سنة ١٥٩هـ مدينة باربد ، وضربوها بالمجنيق حتى فتحوها ، وأشعلوا النار فى تمثال بوذا ، واعتنق الإسلام عدد كبير من الهنود .

(د) سياسة العباسيين مع البيزنطيين :

كان لانتقال مركز الخلافه الإسلامية من دمشق إلى بغداد أثره فى العلاقات بين المسلمين والروم ، فقد توجه اهتمام العباسيين إلى مشرق الدولة، أكثر من غيرها من الأنحاء ، فى الوقت نفسه لم يعد لأهل الشام دور كبير إدارة الدولة ، بسبب ميولهم الأموية ، مما أسفر عن عدم مساهمتهم الفعالة فى التصدى للروم ، مع مالديهم من خبرة فى قتالهم ، فضلاً عن تمرسهم بالبحر.

انتهز الروم هذه الفرصة ، فقاد قسطنطين الرابع حملة استولت على ملطية فى سنة ١٣٧هـ ، على أن المسلمين استردوها فى العام التالى .

ترددت الصوائف على بلاد الروم ، طيلة عهد الخليفة المنصور وعهد ولده المهدى ، حتى اضطر قسطنطين إلى طلب الصلح فى سنة ١٥٥هـ ، على أن يؤدى جزية كبيرة .

فى سنة ١٥٩هـ قاد المهدى الصائفة بنفسه ، ووصلت طلائع جيشه إلى أنقرة ، وفى سنة ١٦١هـ حاصر ثمامة بن الوليد مرعش ، على أن الروم تكاثروا عليه ، وقتلوه مع كثير من أصحابه .

توالت غارات الروم بعد هذا الإنتصار ، وتبادل المسلمون معهم النصر والهزيمة ، إلى أن أرسل المهدى جيشا بقيادة ولده هرون ، فاستطاع أن يستولى على حصن سمالو وخربه وأرغم الروم على أداء مبلغ كبير لفداء أسراهم ، وعندما نقضوا الصلح ، وعاودوا غارتهم على الحدود الإسلامية عاودهرون حربهم .

فى سنة ١٦٥هـ قاد هرون جيشا بلغت عدته مائه ألف فاخترق بلاد الروم ، حتى وصل إلى البوسفور ، واقترب من القسطنطينية ، فاضطرت إيرينى الوصية على ابنها قسطنطين السادس إلى طلب الصلح ، فوافق هرون شريطة أن تؤدى للمسلمين جزية سنوية ، بلغت تسعين ألف دينار ، وترد إليهم أسراهم .

عاود هرون الرشيد بعد أن ولى الخلافة فى سنة ١٧٠هـ غزو الروم ، على أنه حدث فى سنة ١٨٧ هـ أن أرسل إليه نقفور الذى اعتلى العرش فى ذلك الوقت كتابا يقول فيه " من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب : أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى ، أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ، ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها ، ولكن

ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى ، فاردد ماحصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بينى وبينك " .

رد الرشيد على كتاب ملك الروم " بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك ، والجواب ماتراه ، دون ماتسمعه والسلام " .

قاد الرشيد حملة كبيرة اخترقت آسيا الصغرى ، حتى استولى على هرقلة ، وأرغم الملك على طلب الصلح ، وتعهد بدفع الجزية من جديد .

نقض الروم صلحهم فى العام التالى ، فعاود الرشيد حربهم ، واستولى على هرقلة مرة أخرى ، ثم استولى على مدن غيرها ، وأسر عشرة آلاف من أهلها ، وأرغم نقفور على أن يحمل إليه ثلاثمائه ألف دينار .

توقفت الغزوات بعد وفاة هرون الرشيد ، بسبب النزاع بين ولديه على الحكم، وبسبب الثورة التى أشعلها بابك الخرمى فى سنة ٢٠١هـ ، وحظيت بعون الروم ، هذا العون الذى أتاح لبابك أن يستمر فى ثورته حتى سنة ٢٢٣هـ .

عندما ولى المعتصم فى سنة ٢١٨هـ أراد أن يحسم الأمر مع بابك ، فوجه جيوشه لحربه ، فتهيأت الفرصة لثيوفيل ملك الروم كى يغزو المسلمين، فخرج فى مائة الف من جنوده ، واجتاح الحدود الإسلامية ، وسبى النساء المسلمات ، وسمل أعين الرجال ، وقطع أنوفهم وآذانهم .

غضب المعتصم لما أقدم عليه ملك الروم ، وازداد غضبه ، لما بلغه أن امرأة هاشمية صاحت - وهى أسيرة عند الروم - وامعتصماه ! فأجابها بقوله : لبيك !

كان المعتصم قد انتهى من أمر بابك ، حين خرج فى حشد كبير من المسلمين ، وعبر الحدود إلى الروم فانتصر عليهم ، واستولى على أنقرة ، ثم

توجه إلى عمورية – وهى مسقط رأس الملك فحاصرها ثم دخلها بعد أن قتل الكثير من أهلها ، وإشعل النار فيها ، فظلت مشتعلة أربعة أيام ، واضطر ثيوفيل إلى طلب الصلح .

خلد الشاعر الكبير أبو تمام هذا النصر الكبير الذى أحرزه المعتصم فى سنة ٢٢٣ فى قصيدة مشهورة أولها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

(هـ) سياسة العباسيين مع الفرنجة :

لا نجد فى مصادرنا العربية خبرًا عن علاقات ، نشأت بين العباسيين والفرنجة ، على أن المصادر اللاتينية ، تشير إلى طرف من هذه العلاقات .

تقول هذه المصادر أن شارلمان – ملك الفرنجة – أرسل إلى الرشيد سفارتين فى سنة ٧٩٧م وسنة ٨٠٢م ، ورد الخليفة على السفارة الأولى بأهداء الإمبراطور فيلا ، كمارد على السفارة الثانية ، بأهدائه ساعة مائية غريبة الصنع .

يخرج البعض من ذلك إلى أنه كان ثم مصلحة مشتركة بين العباسيين من ناحية والفرنجة من ناحية أخرى ، على أساس أن البيزنطيين فى القسطنطينية والأمويين فى قرطبة كانوا أعداء مشتركين للطرفين .

بناءً على ذلك لا يبعد أن تكون حملة شارلمان الكبيرة على الأندلس فى سنة ٧٧٨م ، إنما كانت تنفيذا لا تفاق بينه وبين الخليفة المهدى الذى دعا له عبد الرحمن بن حبيب الفهرى فى ثورته ، وجدير بالذكر أن حملة شارلمان هذه تعاصرت مع ثورة قام بها عرب أخرون موالون للفرنجة فى شمالى الأندلس .

لا يبعد أيضا تكرار هذه الحلف بعد سنوات ، فإبان استيلاء شارلمان على البندقية ودلماشيا من الروم ، كانت جيوش الرشيد تغزو أراضيهم في آسيا الصغرى .

على أنه ليس لدينا في مصادرنا العربية ما يؤكد هذا الإتفاق ، وصمت هذه المصادر من ناحية ، ووقوف الرواية الفرنجية عند حد ، يجعلنا نشك في وجود إتفاق ، لكننا في الوقت نفسه لا ننفيه .

ثانيا: العصر العباسي الثاني

١ - ضعف الدولة العباسية :

(أ) المعتصم والأتراك :

كان الأتراك شعبًا من الشعوب التى لعبت دورًا هامًا ولا يزال ، فى حياة الدولة الإسلامية ، وقد عاشوا فى مواطنهم الأصلية ببلاد ماوراء النهر ، وما يليها حتى تخوم الصين بدوًا رحل ، ينتجعون موارد المياه ، ويمارسون حياة ، تشابه من وجوه عدة حياة العرب فى الجاهلية .

إصطدم المسلمون بالأتراك ، حين امتدت فتوحهم إمتدادًا واسعا فى المشرق على يدى القائد الكبير قتيبه بن مسلم ، الذى راعته شجاعتهم ، وصبرهم على القتال وأخذ المسلمون يستميلونهم إلى دينهم ويستقدمونهم إلى حواضرهم ، كغلمان يخدمون فى بيوتهم ، وجوار يتسرون بهن .

توسع بنو العباس فى هذه السياسة ، بعد أن استقرت حدود المسلمين فى بلاد ما وراء النهر ، فكان الرقيق من الأتراك ، يتوافد إلى بغداد ومدن العراق ، عن طريق الشراء أو الأسر ، حتى زخرت به دور المسلمين وبخاصة كبارهم .

وفى سنة ٢٠٠هـ أهدى عامل بخارى إلى الخليفة المأمون غلامًا تركيًا يدعى طولون ، نبغ ولده فيما بعد ، وخلصت له مصر وبعض أنحاء الشام .

فى سنة ٢١٨هـ ولى الخليفة المعتصم ، وكان قد فسد ما بينه وبين الفرس الذى تنادوا إلى خلعه وتولية ابن أخيه العباس بن المأمون ، فشرع فى التحول عنهم وعن العربْ ، إلى عنصر آخر ، كان لا يزال على الفطرة ولم تصبه الحضارة بأوشابها .

كان هذا العنصر هو الأتراك .

أعان المعتصم على هذا أن أمه كانت أم ولد تركية تدعى ماردة .

بعث المعتصم فى طلب الأتراك من أقاليم دولته الشرقية ، وازداد عددهم لديه ، حتى بلغ سبعين الفا ، وحرص على تعليمهم العربية وتنشئتهم كمسلمين ، كما استقدم لهم زوجات من بنى جنسهم ، حتى يحافظوا على أصالتهم العرقية .

أصبح الأتراك هم القوة الأساسية فى جيش المعتصم ، وقاموا بدور كبير فى حروبه ضد الروم ، وضد الخارجين عليه وبخاصة الخرمية .

لم يتوقف المعتصم عند هذا الحد ، بل إنه اسقط العرب من ديوان الجند ، وكتب بذلك إلى عماله على الأمصار ، فثارت اليمانية بالأردن ، وثارت القيسية بدمشق ، وبعد أن قضت الدولة على ثورتهم ، انتهى الدور التقليدى للعرب فى جيش الدولة ، ولم يجدوا مفرا من الإندماج مع غيرهم من الشعوب ، وممارسة أعمال كانوا يأنفون منها قبل ذلك .

على أن إيثار المعتصم للاتراك واختصاصه بهم ، أدى إلى الإحتكاك بينهم وبين أهل بغداد ، بحيث كاد يقع شربين الفريقين .

فكر المعتصم فى وسيلة يجتنب بها هذه المشاكل ، واستقر رأيه على أن يبتنى عاصمة جديدة للدولة غير بغداد ، فابتنى مدينة سُرَّ من رأى على مبعدة ستين ميلاً شماليها ، وانتقل إليها مع جنوده الأتراك فى سنة ٢٢١هـ.

استمرت سامرًا (أوسر من رأى) عاصمة للخلافة العباسية ، حتى سنة ٢٨٩هـ ، حين تحول الخليفة المعتضد بالعاصمة مرة أخرى إلى بغداد .

فى سنة ٢٢٧هـ ولى الواثق بالله ، فتمادى فى سياسة أبيه مع الأتراك ، وجعل أشناس سلطانا ، وأوكل إليه الجزيرة وبلاد الشام ومصر ، كما أوكل إلى إيتاخ خراسان والسند وكوردجلة .

وفى سنة ٢٣٢ مات الواثق ، وولى أخوه المتوكل على الله .

(ب) سيطرة الأتراك على الخلافة :

أدت سياسة الخلفاء العباسيين مع الأتراك ، من حيث اختصاصهم بالمناصب الكبيرة فى الجيش ، ومن حيث إقطاعهم بعض الولايات الكبيرة ، أدت هذه السياسة إلى أن قوى شأن الأتراك ، وبدأوا يتدخلون فى أمور الدولة ، على نحو أثار الخليفة المتوكل نفسه ، ففكر فى أن يتخلى عنهم ، ويعود إلى سياسة الأمويين فى الإستمداد بالعرب ، بل إنه انتقل إلى دمشق فى سنة ٢٤٤هـ ، وشرع فى نقل دواوين الدولة إليها .

اضطر المتوكل للعودة إلى سامرا عندما علم بشغب الأتراك عليه ، ولم يمض وقت طويل حتى قتل فى سنه ٢٤٧هـ.

كان المنتصر يخشى أن يعزله أبوه من ولاية العهد ، فدبر مع الجنود الأتراك مؤامرة لقتله ، لكن الحال لم تدم بالخليفة الجديد طويلاً فقد حكم ستة شهور مات بعدها ، واختار الأتراك أحمد بن محمد بن المعتصم خليفة باسم المستعين بالله .

كان الأتراك يشعرون بأنهم أصحاب الفضل على المستعين ، فتمادوا فى بغيهم وانفردوا بدولته ، وتزعمهم فى هذا الشأن وصيف وبغا .

يقول أحد الشعراء :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ماقالا له كما تقول الببغا

لم يجد المستعين إزاء تسلط الترك عليه ، إلا أن يترك سامرا فى سنة ٢٥١ هو ، ويرحل إلى بغداد فبايع هؤلاء ابن عمه المعتز بن المتوكل ، ودارت حرب بين الفريقين ، انتهت فى العام التالى ، بتنازل المستعين عن الخلافة ، ثم قتله بعد ذلك .

لم تستقر الامور فـي يـدى المعتز ، ولاأدل علـى ذلـك ، مـن أنـه ولـى الوزارة خلال عهده القصـير أربعـة وزراء ، ثـم إصطـدم مـع القـادة الـترك ، وسعى إلى أن يسقط وصيفًا وبغا من الديوان ، على أنه عندما عجز عن دفـع مرتبات الجند ثاروا عليه ، وأرغموه على أن يعزل نفسه فـي سـنة ٢٥٥هـ ، وحبسوه إلى أن مات فى الحبس .

بايع الأتراك محمد بن الواثق ، ولقبوه بالمهتدى بالله .

كان المهتدى من أفضل خلفاء بنى العباس ، وأكثرهم تقوى ودينا ، وقـد راعه ما شـاهد مـن أحـوال مترديـة فـى عصـره ، وأراد أن يصلحهـا ، فكـان يجلس إلى المظالم ، فيحكم بين الناس بالعدل ، ويداوم علـى الصـلاة والصـوم وطرح الملاهى ، وكان قدوته فى ذلك عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وينسب إليه أنه قال " إنى إستحى أن يكون فى بنى أمية مثله ، ولا يكون مثلـه فى بنى العباس " .

كان من الطبيعـى أن يسـعى المهتـدى إلـى اسـترداد سـلطات الخلافـه ، فـاصطدم بـالأتراك الذيـن تجمعـوا فـى سـنة ٢٥٦هـ بقيـادة موسـى بـن بغـا ، واشتبكوا مع الخليفة الذى قاد المعركة بنفسه ، وهزموا جنده المغاربة(١) ، ثـم طلبوا منه أن يتنازل عن الخلافة ، فلما رفض قتلوه ، وبايعوا ابن عمه أحمـد ابن المتوكل الذى تلقب بالمعتمد على الله .

(جـ) نهضة الخلافة :

كانت شجاعة المهتدى فى تصديه للاتراك حافزًا لمن خلفه مـن أهل بيتـه، لأن يعاود هذه السياسة ، من أجل أن يسترد الخليفة هيبته وتعم طاعته رعاياه كافة .

---

(١) تعبير كان يطلق فى هذا العصر على عرب مصر الذين استقدمهم الخلفاء ليعملوا فـى جيشهم .

عندما ولى المعتمد فى سنة ٢٥٦هـ بدأ عهدًا جديدًا دام نحو أربعين سنة ، استعادت الخلافة خلالها بعض ماكان لها من قوة فى صدر حياتها .

استدعى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة من مكة ، وكلفه بالتصدى للزّنجْ الذين كانوا قد قاموا بثورة هددوا خلالها بلاد العراق ، وفى سنة ٢٦١هـ ولاه عهده بعد ابنه جعفر المفوض ولقبه الموفق ، وعهد إليه بالولايات الشرقية ، وهى العراق والحجاز واليمن وفارس وأصبهان والرى وخراسان وطبرستان وسجستان والسند ، فى حين عهد لولده بمصر والشام والجزيرة والمغرب .

قام الموفق طلحة بدولة أخيه المعتمد ، واضحت إليه السلطة الحقيقية فيها ، واستطاع بما لديه من شخصية قوية ، أن يضع حدًا لتسلط الأتراك ، وتحكمهم فى الخلفاء ، بل أفاد منهم فى توطيدطاعة الدولة ، وكبح جماح الثائرين عليها . وبذا تمكن من التصدى ليعقوب بن الليث الصفار الذى كان قد تغلب على سجستان وغيرها ، وحال بينه وبين اقتحام بغداد .

وجه الموفق جيوش الدولة للقضاء على ثورة الزنج التى اشتعلت فى سنة ٢٥٥هـ وأقضت مضاجع الدولة نحو خمس عشرة سنة ، كما وجه هذه الجيوش كذلك ، لمناهضة الولاة الخارجين على الطاعة ، وبخاصة أحمد بن طولون والى مصر .

صادف الموفق نجاحات كبيرة فى هذه السياسة ، وعندما توفى فى سنة ٢٧٨هـ لم يجد المعتمد إلا أن يخلع ولده المفوض من ولاية العهد ، ويجعل مكانه أبا العباس بن الموفق ، ومنحه لقب المعتضد بالله .

فى سنة ٢٧٩هـ مات المعتمد ، فخلفه المعتضد الذى سارسيرة أبيه ، واستطاع قبل وفاته فى سنة ٢٨٩هـ أن يصل إلى تسوية مع خمارويه بن أحمد بن طولون ، الذى راضاه وهاداه ، وزوجه ابنته قطر الندى .

استطاع المعتضد أيضا أن يضرب على أيدى الأجناد، وكان إذا غضب على أحدهم أمر بإلقائه فى حفرة وردم عليه ، كما عنى بنشر الأمن ، ورفع الظلم عن الرعية وأسقط المكوس الغير الشرعية، وبذا جدد دولة بنى العباس ، حتى لقب بالسفاح الثانى ، وفى ذلك يقول ابن الرومى (ت حول ٢٨٣هـ) :

هنيئا بنى العباس إن إمامكم إمام الهدى والبأس والجود أحمدُ

كما بأبى العباس أنشئ ملككم كذا بأبى العباس أيضا يجدد

عند ماولى المكتفى بعد أبيه فى سنة ٢٨٩ كانت أحوال البلاد مزدهرة ، وبيت المال عامرًا بتسعة ملايين دينار من الذهب ، وأربعين مليون درهمًا من الفضة ، فضلاً عن دولة سادها الاستقرار والنظام .

استعادت الدولة مصر والشام من الطولونيين فى سنة ٢٩٢هـ ، على أن ظهور القرامطة واشتداد أمرهم ، استغرق كثيرا من جهدها فقد وصلت غاراتهم إلى ضواحى بغداد نفسها وكان لكل ذلك أثره فى أضعاف الدولة ، وانتهاء النهضة التى بدأت فى سنة ٢٥٦هـ بوفاة المكتفى فى سنة ٢٩٥هـ .

عودة نفوذ الأتراك :

شعر الأتراك بالخطر الناشئ عن وجود خلفاء أقوياء ، فعدلوا عن عبد الله بن الخليفة المعتز إلى جعفر بن المعتضد ، واختاروه خليفة ولقبوه بالمقتدر .

كان المقتدر صبيًا صغيرًا فى الثالثة عشر أو نحوها ، لادراية له بأمور الحكم ، فأسلم قياده للأتراك وتدخلت أمه فى شئون الدولة .

يقول المسعودى (ت ٣٤٦هـ) الذى عاصر المقتدر وعاش بعده : " أفضت الخلافة إليه وهو صغير ، لم يعان الأمور ، ولا وقف على أحوال الملك فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور ، ليس له فى ذلك حل

ولا عقد ، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب علـى الأمـر النسـاء والخدم وغيرهم ، فذهب ماكان فى خزائن الخلافة من الأمـوال بسـوء التدبـير الواقـع فى المملكة ، فأداه ذلك إلى سفك دمه ، واضطربت الأمور بعده ، وزال كثـير من رسوم الخلافة " .

حاول عدد من وزراء المقتدر اصلاح الخلل الذى أصاب جهاز الدولة ، من هؤلاء الوزراء على بن عيسى بن الجراح الذى ينتمى إلى أسرة قديمة من الكتاب ، فتوفر عند ماولى فى سنة ٣٠١هـ على ضبط الدواوين ونشر الأمن، ونبّه على الولاة بحسن السيرة مع رعايـاهم وانصـافهم مـن جباة الضرائـب ، وتصدى لظاهرة الرشوة التى كانت قد استشرت فى ذلك الحين ، وجلس بنفسه إلى المظالم ، وعنى بتحسين حـال الفقـراء والمعوزيـن ، ووقـف أوقافـا للنفقـة منها على اصلاح الثغور والحرمين ، وجعل لذلك ديوانا ، دعاه بديوان البر .

على أن بعض أصـحاب المصالح ممن كانت تمسهم هذه الاصلاحـات ، وفى مقدمتهم أم الخليفه نفسه ، وقفوا حجر عثرة فى طريق الوزيـر ، وسـعوا فى عزله ، إلى أن نجحوا فى سنة ٣٠٤هـ وولى مكانه حامد بن العباس ، فلـم يظهر كفاية فى ممارسة مهام منصبه واضطر إلى أن يستعين فى هذا المجـال بسلفه على بن الجراح ، وجعله نائبًا له .

توالى على الدولة بعد ذلك عدد من الوزراء الضعاف ، وعند ما حـاول على بن الفرات أن يسـترد ماكـان للوزيـر مـن سـلطة انتهـت أمـره فـى سـنة ٣١٢هـ إلى القتل ، ولم يعد للوزارة دار تختص بها ، إنما صـار من تـلاه مـن الوزراء ، يمارسون أعمالهم من دار الحاجب .

فى الوقت نفسه أخذ الأتراك احتياطهم ، حتى لايلى الدولة خليفة قوى ، يقف فى طريقهم ، فدرجوا على تنشئة أبناء المقتدر تنشئةً ، تحول بينهم وبيـن الممارسة السليمة لسلطات الخليفة .

اضطربت الاحوال فى بلاد العراق ، فخرج مؤنس الخادم – وهو احد القواد الأتراك – على المقتدر ، حين بلغه عزمه على عزله من منصبه ، وتولية آخر بدلا منه ومع أن المقتدرعدل عن عزمه هذا ، الا أن مؤنسا ، لم يلبث أن تآمر مع غيره من الجند على عزل الخليفة فعزله ثم أعاده ثم عاود عزله مرة أخرى فى سنة ٣٢٠ ثم ذبح ، وولى أخوه القاهر .

كان القاهر يخشى على نفسه مصيرًا كمصير أخيه المقتدر ، فعمد إلى التظاهر بالقوة وزاد فى القابه عبارة " المنتقم من أعداء الله " ونقشها على السكة ، وحاول أن يستميل الجند اليه بالمنح والعطايا لكنهم تألبوا عليه بعد سنتين وعزلوه وسملوا عينيه ، فصار أول من تسمل عيناه من الخلفاء .

بعد عزل القاهرة جعل الأتراك مكانه الراضى بن المقتدر .

(هـ) عهد إمرة الأمراء :

كانت الامور قد تردت إلىحد بعيد حين ولى الراضى فى سنة ٣٢٢هـ، فالقادة الأتراك لم يقتنعوا بسيطرتهم على الدولة فحسب ، وإنما انصرفوا إلى المنازعات فيما بينهم ، وكانت هذا المنازعات تترك أثرها السيىء فى الدولة نفسها ، كما ظهر فى الوقت نفسه عنصر جديد ، هدد الأتراك فى نفوذهم هو عنصر الديلم ، بل إن العنصر العربى بدأ يعود إلى الساحة ممثلا فى الحمدانيين بالموصل .

أحس الأتراك بهذه التطورات ، ووقفوا عاجزين إزاءها . وبعد أن كانوا يفضلون الإقامة فى بغداد ، حتى يكونوا قريبين من الأحداث ، صاروا يؤثرون التوجه إلى الولايات البعيدة عن العاصمة ، حتى ينئوا بأنفسهم عن المتاعب .

فى سنة ٣٢٤هـ سعى الراضى إلى حل المشكلة ، بأن استدعى محمد ابن رائق الخزرى أمير واسط والبصرة ، وفوضه سلطاته ، ودعاه بأمير

الأمراء وتقرر أن يخطب له على المنابر ، وينقش اسمه على السكة ، واطلقت يداه فى تولية الوزراء وعزلهم .

استقرت الأحوال فترة ، على أنه فى سنة ٣٢٦هـ خرج أبو عبد الله البريدى صاحب الأهواز على ابن رائق ، كما خرج عليه أحد قواده الأتراك واسمه بجكم والحق الهزيمة به وطرده من بغداد ، وجلس مكانه كأمير للامراء .

اعتزم ابن رائق استرداد سلطته ، فاقتحم بغداد فى سنة ٣٢٧هـ ، واستولى على بيت المال ، ولم ينجح الخليفة في استرضائه ، إلا بعد أن ولاه الشام .

فى سنة ٣٢٩ مات الراضى وخلفه أخوه إبراهيم الذى تلقب بالمتقى بالله ، فأقر بجكم أميرًا للأمراء ، فلما قتل بجكم هذا على أيدى بعض الأكراد عاد ابن رائق إلى بغداد ، واسترد منصبه ، لكن أبا عبد الله البريدى الذى نافسه فى هذا المنصب ، سير أخاه أبا الحسن فى جيش من الأتراك والديلم ، فلحقت الهزيمة بابن رائق ، وهرب من بغداد ، وفى أثره المتقى .

لجأ الخليفة إلى الموصل ، حيث طلب عون حاكمها الحسن بن حمدان ، فأجابه إلى طلبه ، واصطحبه إلى بغداد فى سنة ٣٣٠هـ وولى منصب إمرة الأمراء ، بعد أن قتل ابن رائق ، وخلع عليه المتقى ولقبه ناصر الدولة ، كما خلع على أخيه على ولقبه سيف الدولة .

تعسف ناصر الدولة مع الخليفة ، وضيق عليه فى نفقاته ، وانتزع منه ضياعه ، وفى الوقت نفسه اختلت حال الأمن فى بغداد ، وانتشر اللصوص وغلت الأسعار ، حتى صار الناس يموتون جوعا .

انتهز المتقى فرصة رحيل ناصر الدولة إلى الموصل فى سنة ٣٣١ ، فاستمال توزون الديلمى ، وجعله أميرًا للأمراء .

على أن الخليفة ما لبث أن اختلف مع توزون ، ففارق بغداد مرة ثانية إلى الموصل ، وأخفق ناصر الدولة فى مساعدته ، فأرسل المتقى إلى واليه على مصر محمد بن طغج الإخشيد ، يطلب عونه ، فأشار عليه بأن يفد إلى مصر حيث الأمان ، لكن المتقى رفض ، وقرر العودة إلى بغداد فى سنة ٣٣٣ فوقع فى يدى توزون الذى سمل عينيه وحبسه .

أعلن توزون عبد الله بن المكتفى خليفة ، ولقبه بالمستكفى ، واستبد دونه بالسلطة ، ومات بعد شهور ، فخلفه فى منصبه كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد .

لم يكن ابن شيرزاد بأحسن حال ممن سبقه ، فقد لجأ إلى المصادرة ، لينفق على أرزاق الجند من الأتراك والدَيْلَم ، وتعسف فى جمع الضرائب حتى اضطر التجار إلى الهرب من بغداد وانتشر الاضطراب فى المدينة .

فى الوقت الذى كانت الأحوال فى بغداد تزداد ترديًا ، كانت هناك قوة فتية من الديلم سيطرت على معظم أنحاء إيران ، وشرعت تتطلع إلى العراق .

كانت هذه القوة هى بنو بُوَيْه .

فى سنة ٣٤٤ كاتب القواد الأتراك أحمد بن بويه يدعونه لدخول بغداد، وفى ١١ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ ديسمبر سنة ٩٤٥م دخل أحمد بن بويه بغداد ، ورحب به الخليفة المستكفى وخلع عليه وعقد له لواء إمرة الأمراء ، ولقبه بمعز الدولة ، ولقب أخاه عليًا صاحب فارس بعماد الدولة ، كما لقب أخاه الحسن صاحب اصبهان والرى بركن الدولة ، وأمر بأن تنقش ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم .

بدخول معز الدولة بن بويه بغداد فى سنة ٣٣٤ ، وتوليته إمرة الأمراء ، يكون العصر العباسى الثانى قد انتهى ، وبدأ عصر جديد هو العصر البويهى ، الذى يمتد حتى سنة ١٠٥٥/٤٤٧ .

٢ - الدول الإسلامية المستقلة :

(أ) دوافع الاستقلال :

كان التصور العام فى الفقه السياسى الإسلامى ، هو انقسام العالم إلى دارين ؛ دار الإسلام ودار الحرب (أو دار الكفر) والصراع بينهما سجال ، على أنه بعد انحسار موجة الفتوح الأولى ، بدأ يظهر تعبير دار الصلح (أو دار العهد) ، وهى أصلاً دار حرب ، ثم ارتبط المسلمون معها - كما يبدو من اسمها - بصلح أو عهد .

لم يكن المسلمون يتخيلون دار الإسلام إلا داراً واحدة ، تجمعها سلطة واحدة ، هى سلطة الخلافة ، تنتظم جمهور المسلمين كافة ، ومن لاذ بهم من أهل ذمتهم ، وظل هذا المفهوم قائماً ، حتى عصور متأخرة ، وغالى البعض فى فهمه ، واعتبروه جزأ من عقيدة الأمة .

على أنه وقبل أن يصل العصر العباسى الأول إلى نهايته ، توزع هذه الدار عديد من الدول المستقلة ، تفاوت نصيب هذه الدول من الاستقلال ، بتفاوت ظروف كل دولة على حدة ، وتراوح بين الإستقلال الفعلى الكامل ، وبين الاستقلال مع شكل من أشكال الطاعة للخليفة العباسى فى سامرا أو بغداد، وعادةً ما كان هذا الشكل تفويضاً أو تقليداً من الخليفة ، فى مقابل ذكر اسمه فى خطبة الجمعة ونقشه على السكة ، وإرسال (أو عدم إرسال) قسم من مال الدولة إليه .

وقد تعسف البعض ، فنسب ظاهرة الإستقلال هذه إلى ضعف الخلفاء العباسيين أنفسهم ، أو فساد أحوال المسلمين ، وابتعادهم عن جوهر دينهم ، أو للسببين معاً .

والحقيقة أنه من الصعوبة بمكان أن ننسب هذه الظاهرة الجديدة إلى هذين العاملين وحدهما ، ومن الصعوبة أيضاً أن ننسبها إلى طموح الأمراء

والولاة ، وبخاصة فى الأنحاء القاصية البعيدة عن سلطة الدولة ، ولا شك أنه كانت توجد عوامل أخرى ، لعبت الدور الأساسى فى إحداث هذا التغيير .

الأكثر من ذلك ، فإن ظاهرة الاستقلال هذه ، كان لا بد لها وأن تحدث، حتى لو انتفى عنصر ضعف الخلافة ، وعنصر البعد عن جوهر الإسلام .

على أننا لا نستطيع أن نحدد متى بدأت ظاهرة الاستقلال ، بل لا نستطيع أن نحدد متى بدأت فكرة الإستقلال ذاتها .

الذى نراه أن فكرة الإستقلال ، وما صحبها وتلاها من ظاهرة الاستقلال ، نشأت من خلال عملية تاريخية متطورة وفوارة ، قد تتنحى فترة أو تتوارى ، لكنها تنمو ويشتد ساعدها ، وتعود مرة أخرى إلى المسرح أكثر قوة واشدها بالممارسة .

من الممكن أن نحدد عدة مؤشرات على هذه العملية ، من بينها طبيعة النفس البشرية ، ونزوعها إلى الإختلاف ، فالإختلاف شئ جوهرى فيها ، وشئ قريب من ذلك كان له أثره الوافر فى نشأة الفرق الإسلامية ، التى غالى بعضها إلى حد الخروج عن دين الإسلام ذاته .

هذه الفرق وإن حافظ كثرتها على الإسلام كدين ، إلا أن ما خلفته من آثار على المسلمين ، خصوصاً فى عهد انطلاقها إلى الواقع العملى كثورة تمتد سنين ، عمقت الاختلاف بينهم .

ثم إن تنائى العهد بين واقع المسلمين وبين واقع آخر ، عاشوه فى صدر إسلامهم ، جعل هؤلاء المسلمين يفتقدون عنصراً هاماً من عناصر وحدتهم بله قوتهم ، فالمثل العظيمة التى عبر عنها جيل من الأجيال ، لم ينهض بها جيل آخر ، أو أنه لم ينهض بها بالدرجة نفسها وبالمقدار نفسه .

ولا يبعد أن انتهاء عهد الفتوحات الكبيرة ، أفقد المسلمين عنصراً آخر هاماً ، لأنه أفقدهم الإحساس بهدف مشترك يندفعون إليه ، وخطر محدق بهذا الهدف ، يستلزم معه اتحادهم .

صحيح أن الفتوحات ، وإذا شئنا التعبير الدقيق الجهاد ، لم ينقطع فى عهد الدولة العباسية ، لكننا فى الوقت نفسه ، لايمكن أن نقارن الجهاد فى عهد هذه الدولة بالجهاد فى العهود السابقة عليه .

المشاهد – على نحو عام – أن حدود الدولة الإسلامية ، استقرت تقريباً خلال العصر العباسى الأول ، ولم تكن تجاوز حدود هذا الاستقرار إلا فى أحوال ضيقة وجزئية .

الأهم من هذا كله أن الشعوب التى خضعت للعرب كانت بعضها ذات حضارات قديمة ، بل وموغلة فى القدم ، وزخرت بتراث ثقافى وافر ، نهل منه العرب انفسهم ، وكان البعض من هذا البعض لها امبراطوريات ذات شأن ، ولم يغب عن أبنائها – بعد أن أسلمت بل وبعد أن جعلت العربية فى أحيان لغتها – ما تفردت به من خصوصية تفترق بها عن السادة الجدد .

بعد أجيال قليلة من الفتوح بدأت هذه الشعوب ، تشعر بهذه الخصوصية على نحو حاد ، سيما وأنها وجدت العرب لا يغيرون فى بعض الأحيان من موقفهم تجاهها ، رغماً عن إسلامها ديناً ، بل وتحمسها لهذا الدين وتمثلها لثقافته ، واضافتها إليها .

وصل الأمر فى أحوال معينة إلى أن العرب ثبتوا الجزية على من أسلم من أبناء هذه الشعوب ، بزعم أن إسلامهم لم يكن عن عقيدة .

عبر الموالى عن غضبهم إما بالثورة على الدولة ، من خلال مشاركتهم الكلية أو الجزئية فى أحزاب المعارضة (الخارجية ، الشيعة ، المرجئة ، العباسية) وتحملهم عبئاً وربما العبء الأكبر فى هذه المواجهة أحياناً ، أو محاولتهم السيطرة على الدولة العباسية واحتوائها ، أو حتى بالغزو الفكرى ، وهو ما يتضح فى الآراء والمعتقدات التى تسربت إلى حياة المسلمين العقلية ، ويتضح على نحو أكثر حدة فى الشعوبية والزندقة .

النجاحات التى أحرزتها الشعوب الإسلامية فى هذه المواجهات ، كانت تغريها بالمضى فى السبيل ذاتها ، بل إن ما كان يصيبها من فشل فى بعض الأحيان ، كان يحفزها إلى المضى فى هذه السبيل على نحو أو آخر .

أعان الشعوب الإسلامية على نزوعها إلى الاستقلال ، امتداد الدولة الإسلامية امتداداً واسعاً ، جعل الطاعة لخليفة مقيم فى دمشق أو بغداد (أو سامرا) عبئاً عليه بمقدار ما كان مدعاة لزهوه .

فى عهد هشام بن عبد الملك كانت الدولة الإسلامية تمتد من جنوبى فرنسا الحالية غرباً إلى حوض نهر السند وأقصى بلاد الترك شرقاً ، ومن تخوم المسلمين مع الروم والخزر شمالاً إلى النوبة جنوبى مصر جنوباً .

هذه المساحة الشاسعة التى تقدر بآلاف الأميال طولاً وعرضاً ، تتعدد بها البيئات والأعراق واللغات ، وتتخللها ظواهر طبيعية من جبال ووهاد وبحار وأنهار ، يصعب اجتيازها ، كما يتعدد المناخ داخلها ، تعدد ألوان الطيف ، وتتعدد معه أمزجة الشعوب وشخصياتها ونظراتها إلى الحياة حولها، وطريقة تعاملها مع متنفذيها ومع الدولة .

قلنا إن حكم هذه الإمبراطورية كان عبئاً على الخليفة نفسه ، ويكفى أن تنشب فتنة فى قاصية الدولة ، حتى ينوء بيت مالها وديوان جندها ، بتجهيز حملة تضرب هذه الفتنة ، فتنجح أو تزيدها اشتعالاً .

فطنت الدولة فى فترة باكرة إلى هذه الظاهرة ، فوجدنا عبد الملك وولده الوليد يعطيان الحجاج بن يوسف سلطات واسعة فى بلاد العراق ، بل إن سلطاته امتداد إلى أقصى المشرق ، فكان يقوم – دون الخليفة – بتعيين ولاة هذه الأصقاع ، ويشرف علىغزواتهم وفتوحهم ، والفتن التى تبزغ عندهم .

الأمر نفسه حدث فى بلاد المغرب والأندلس فى فترة تالية فقد صار أمرها جميعها لعبيد الله بن الحبحاب مدى سنوات .

كثير من هؤلاء الولاة وجدوا فى هذه الولايات فرصة لتحقيق طموحهم فى الاستقلال وقبل أن ينته عهد الدولةِ الأموية ، كان المغرب قد استقل من الناحية العملية عنها ، وعندما ولى بنو العباس ، وجدوا أنفسهم أمام أمر واقع، لا يستطيعون منه خلاصاً ، عندئذ فكروا فى وسيلة ، يتعايشون بها مع هذا الواقع .

هذه الوسيلة عبر عنها الماودى من خلال وصفه لنظام الإمارة على البلدان ، فهو يحدد ثلاثة أنواع للإمارة .

إمارة استكفاء أى يفوض الخليفة الوالى سلطاته ، من تدبير الجيوش وترتيبها وتقدير أرزاقها ، والنظر فى الأحكام ، وتقليد القضاء وجباية الخراج والصدقات ، وحماية الدين وإقامة الحدود وإمامة المسلمين فى الصلاة .

إمارة إستيلاء وهى أن يستولى أحد الأمراء قسراً على ولاية ، ويقره الخليفة عليها ، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها .

إمارة خاصة ، وهى أن يقصر الخليفة عمل الوالى على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، دون أن يتعرض للقضاء والأحكام ، ولا لجباية الخراج والصدقات .

ما يذكره الماوردى هنا شئ غريب ، لم يعشه المسلمون فى صدر إسلامهم ، فلم يكن يوجد - كقاعدة - وال من النوع الأول ولا من النوع الثانى ، إنما كان النوع الثالث هو القاعدة ، والحقيقة أن الماوردى (المتوفى فى سنة ٤٥٠ هـ) يحاول أن يرسم ابعاد واقع سياسى ، عاشه وعاشه أسلافه ، ولا بد له من أن يبرره .

لدينا فيما يخص إمارة الاستيلاء - وهى الأهم لأنها استكفاء وزيادة - نموذج الأغالبة فى تونس وإفريقية ، فإبراهيم بن الأغلب استولى على هذه الإمارة بعصبيته أو بأمر واقع ساهم هو فى صنعه ، وجعل أهل هذه الإمارة ،

يطلبون من الخليفة هرون الرشيد أن يقره فأقره ، مقابل أن يتنازل عن الإعانة السنوية التى كانت ترسلها مصر إلى إفريقية ، وقدرها مائة ألف دينار ، وأن يبعث هو من ناحيته إلى بغداد أربعين ألف دينار كل سنة ، ويحافظ على الشكل الشرعى للخلافة من خطبة وسكة ، ويتصدى فى الوقت للأدارسة الذين خلعوا الطاعة فى المغرب الأقصى ، والرستميين الذين خلعوا الطاعة فى المغرب الأوسط .

فى عهد المأمون حدث شئ قريب من ذلك مع طاهر بن الحسين الذى أعانه فى حربه ضد أخيه الأمين ، وكان سناداً لدولته ، فقد أمَّره على المشرق فى سنة ٢٠٥ ، فجعل نيسابور قاعدة له ، ويقال أنه اسقط اسم الخليفة من الخطبة بعد سنتين ، مما عجل بنهايته التى ربما كان للخليفة علاقة بها لكن المأمون أقر ولده طلحة ثم ولده عبد الله وسائر عقبه ، فاستطالت دولتهم ، حتى أسقطها عمرو بن ليث الصفّار فى سنة ٢٥٩ .

وفى عهد المعتصم حدثت خطوة أبعد من ذلك ، فقد جعل عمالة بعض الأقاليم إقطاعات ، تمنح لأحد القواد الكبار ، يتصرف فيها كما يشاء ، على أن يؤدى للخليفة خراجها ، وأقطع أشناس التركى مصر فى سنة ٢١٩ ، ثم أضاف الواثق إليه الجزيرة وبلاد الشام ، وضربت السكة باسمه .

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فإن المقطعين كانوا لا يغادرون سامرا على الأغلب ، وإنما يظلون مقيمين بها ، ليشاركوا فى مؤمرات بلاطها ، ويرسلون نوابًا عنهم إلى إقطاعاتهم ، وهذا ما فعله أشناس ، وكرره بعده إيتاخ ، ثم باكباك الذى نجح نائبه ، وهو أحمد بن طولون ، فى أن يمكن لنفسه فى مصر ، ثم يستقل بها عن الدولة .

قبل أن ننته من هذا المبحث ننوه إلى نقطتين هامتين ، النقطة الأولى هى أن الاستقرار النسبى لحركة الفتوح الإسلامية ، أدى إلى أن اتخذت حركة

الجهاد الإسلامى طابع الصوائف (وأحياناً الشواتى) وهى الحملات التى كانت تطرد كل عام أو بضعة أعوام صيفاً (وأحياناً شتاءً) إلى دار الحرب ، يقوم بها - على نحو أساسى - جنود مستقرون فى مناطق الثغور ، أى مناطق التخوم مع العدو ، حيث أعدت لإقامة هؤلاء الجنود .

بعد سنوات نشأت عصبيات فى هذه المناطق ، صارت لها دربة بقتال العدو وخبرة ، وعبرت عن نفسها فى دولة ثغرية ، مثل الدولة الحمدانية بالموصل وحلب . ولما كان الخليفة العباسى يجد صعوبة فى رد هؤلاء إلى الطاعة ، ويجد صعوبة كذلك فى دفع أذى الروم (وغير الروم) عن دار الإسلام ، فإنه وجد نفسه مضطراً إلى أن يعترف بهؤلاء كأمر واقع ، ما داموا هم معترفين بسيادته أولاً ، ويقومون بدورهم فى الذود عن حدود الإسلام ثانياً .

النقطة الثانية هى أنه ما كاد يتحقق قدر من الاستقلال للأمراء الذين انتزوا على الدولة ، حتى كان الواحد منهم يسعى إلى أن يتخذ لنفسه عصبية من أهله ، أو من المماليك الذين اشتراهم صغاراً ، وأدخلهم فى الإسلام ، وعلمهم الفروسية وفنون الحرب ، وهيأ لهم حياة طيبة ، فصاروا لا يعرفون لأنفسهم أهلاً سواه واعتز هو من ناحيته بهم .

نهض هؤلاء الحكام فى الوقت نفسه إلى أن يبحثوا عن مبرر لوجودهم، فكانوا يجاهدون ما أمكنهم إلى دار الحرب ، ويحترمون علماء الدين ، ويقربونهم ، وكذا كانت حالهم مع الشعراء والأدباء ، فكانوا يستقدمونهم من أنحاء قاصية ، ويحتفون بهم ويجزلون عطاءهم كما ابتنوا العمائر الكبيرة والمساجد والمدارس ودور العلم ، وابتنوا أيضاً مدناً وقلاعاً ، زادت من رونق ملكهم ، وهذا كله كان يجعلهم فى أحيان كثيرة يحظون عند العامة ويحببهم فيهم .

ما ذكرناه وغيره كان من شأنه أن يكرّس ظاهرة الإستقلال فى أقطار إسلامية عدة ، بحيث بدت هذه الظاهرة ، وكأنها نبتة طبيعية ، تخللت الفقه السياسى وصارت جزءاً من نسيجه ، وليس من سبيل إلا الإقرار بها ، وما يترتب عليها من تبعات .

(ب) بعض الدول المستقلة :

فى غضون القرن الهجرى الثانى بدأت مجموعة من الدول المستقلة ، تنتظم العالم الإسلامى وكانت هذه البداية محدودة ، ثم اتسعت خطاها ، بحيث صار من اللازم للمؤرخ أن يكون منهجه بعد العام ٢٣٢هـ أن يدرس تاريخ القطر الإسلامى الواحد ، أو تاريخ أقطار إسلامية متعددة تنتظمها دولة إسلامية واحدة .

وليس عملنا أن نحصى هذه الدول الإسلامية جميعها ، على مدار التاريخ الإسلامى جميعه ، إنما نحن نأتى بمسرد لأهم هذه الدول ، خلال مرحلة لا تتعدى على الأغلب نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ونبدأ من أطراف دار الإسلام غربًا إلى أطرافها شرقًا .

١ - الأمويون (أمراء ثم الخلفاء) بالأندلس ١٣٨/٧٥٥ - ٤٢٢/١٠٣١ .

٢ - الرستميون فى المغرب الأوسط ١٦٠/٧٧٦ - ٢٩٦/٩٠٩ .

٣ - الأدارسة فى المغرب الأقصى ١٧٢/٧٨٨ - ٣١٣/٩٢٥ .

٤ - الأغالبة فى المغرب الأدنى ١٨٤/٨٠٠ - ٢٩٦/٩٠٩ .

٥ - الفاطميون فى المغرب ثم فى مصر والشام (خلفاء) ٢٩٦/٩٠٩ - ٥٦٧/١١٧١ .

٦ - الطولونيون فى مصر والشام ٢٥٤/٨٦٨ - ٢٩٢/٩٠٥ .

٧ - الإخشيديون فى مصر والشام ٩٣٥/٣٢٣ - ٩٦٩/٣٥٨ .

٨ - الحمدانيون فى الموصل وحلب ٩٢٩/٣١٧ - ١٠٠٣/٣٩٤ .

٩ - الطاهريون فى خراسان ٨٢١/٢٠٥ - ٨٧٣/٢٥٩ .

١٠ - الصفّاريون فى خراسان وبعض إيران ٨٦٨/٢٥٤ - ٩٠٨/٢٩٦ .

١١ - السامانيون فى بلاد ما وراء النهر ٨٧٤/٢٦١ - ٩٩٩/٣٨٩ .

١٢ - البويهيون فى إيران والعراق ٩٣٢/٣٢٠ - ١٠٥٥/٤٤٧ .

١٣ - الغزنويون فى بلاد الهند وبعض إيران وما وراء النهر ٩٦٢/٣٥١ - ١١٨٦/٥٨٢ .

الفصل السادس

مصر والشام

كانت بلاد الشام ومصر من جملة الأقطار الإسلامية التى طالتها ظاهرة الاستقلال ، رغمًا عن قرب هذين القطرين من مركز الدولة الإسلامية فى بلاد العراق .

السبب فى ذلك أن بلاد الشام بطبيعتها متقطعة جغرافيًا ، متعددة عرقيًا، وإن كان العرب هم العرق السائد ، وهى أيضًا متعددة دينيًا (ومذهبيًا) وإن كان الإسلام (والمذهب السنى) هو الدين السائد .

كان من شأن هذا التعدد أن يكرس لدى أهل الشام نزوعهم إلى الاستقلال، وأعان على هذا النزوع ما كان يتنامى لديهم من نفور تجاه الدولة التى أزاحتهم من مواقع السلطة التى تفردوا بها فى عصر بنى أمية .

أما عن مصر فرغمًا عن أنها – على العكس – ذات طبيعة جغرافية واحدة ، ولم يكن التعدد العرقى والدينى (والمذهبى) هو الظاهرة السائدة لديها ، إلا أنها كانت بحكم تاريخها القديم ومواردها الكبيرة مدعاة لأن تغرى من يلى أمرها ، بأن يفكر بالاستقلال بها ، خصوصًا وأن الطابع المركزى بها، جعل من يسيطر على عاصمتها ، يسيطر – فى الأغلب – على مصر كلها.

ومما تجب ملاحظته أن القطرين معًا كانا يتبادلان التأثير والتأثر ، وجمعتهما فى معظم العصور سلطة واحدة ، تزاول مهامها من بلاد الشام حينًا ، ومن مصر أحيانًا .

مما تجب ملاحظته كذلك ، أن الدولة اتى كانت تحكم فى بلاد الشام ومصر ، كانت كثيرًا ما يمتد حكمها إلى بلاد الحجاز ، ويمتد ولو على نحو أقل إلى بلاد اليمن .

١ - الدولة الطولونية :

درجت الخلافة العباسية ، منذ بداية العصر العباسى الثانى على أن ترسل إلى مصر ولاة من الأتراك ، الذين استبدوا بهذه الخلافة فى سامراء (وبغداد) .

على أن هؤلاء الوُلاة كانوا يؤثرون البقاء فى عاصمة الدولة ، خشيةً على أنفسهم من منافسيهم ، ويرسلون إلى مصر نوابًا عنهم من أبناء جنسهم ، وكان أحمد بن طولون أحد هؤلاء النواب .

استطاع أحمد بن طولون بعد قليل من مقدمه إلى مصر فى سنة ٢٥٤/ ٨٦٨ أن ينفرد بها ، واكتفى بطاعة شكلية للخليفة العباسى ، أبرز مظاهرها ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، وإرسال جزء من أموال مصر إليه . ولم يلبث أن انتهز الفرصة التى هيأها له شغل الخلافة بثورة الزنج أولاً ثم المنافسة بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق على السلطة ثانيًا من أجل أن يتوسع بحدود دولته .

استعان ابن طولون فى التمكين لنفسه بجيش قوى ، ضم جنودًا من الترك والسودان والعرب ، وابتنى لهم فى سنة ٢٥٦ مدينةً قريبةً من الفسطاط ، دعاها بالقطائع ، وابتنى بها فى عام ٢٦٥ جامعًا دعى باسمه ، ورغمًا عن إندثار المدينة فيما بعد ، إلا أن الجامع ما يزال موجودًا حتى اليوم .

كذلك هيأ ابن طولون لنفسه أسطولاً قويًا كانت له قواعده فى مصر (ثم فى بلاد الشام) وأنشأ دارًا لصناعة السفن فى جزيرة بنهر النيل دعيت - بعد - بالروضة .

فى سنة ٢٦٣ أضاف الخليفة المعتمد إلى ابن طولون خراج مصر ، وولاه الثغور الشامية ، وقد حفظ له بدوره صنيعه ، فأوعز إليه بعد خمس

سنوات بأن يأتي إلى مصر ، حتى يقوى مركزه إزاء أخيه ، ووجدت هذه الدعوة صدىً لدى الخليفة ، الذى إعتزم الهرب فى العام التالى ، لكن الموفق أفشل هذه المحاولة .

كان لما فعله ابن طولون أثره فى نفس الموفق فتهيأ لحربه ، بعد أن يفرغ من ثورة الزنج ، واتخذ ابن طولون أهبته لهذه الحرب ، وأمر بلعن الموفق على المنابر ، واتجه إلى توطيد علاقاته بالأمويين فى بلاد الأندلس .

مات أحمد بن طولون فى سنة ٢٧٠ ، ليخلفه ولده خمارويه ، وكان شابًا صغير السن شغله الترف عن مهامه ، فانتهز الموفق - وكان قد انتهى من أمر الزنج - هذه الفرصة ، وأرسل جيشًا إلى بلاد الشام ، فاستولى على دمشق ، وزحف منها إلى مصر ، ودارت عند الرملة فى سنة ٢٧١ معركة ، هزم فيها خمارويه ، لكنه لم يلبث أن استعاد ما فقده من بلاد الشام ، بعد أن انتصر بعض قواده على الجيش العباسى ودخل دمشق ، ثم عقد صلح بين الجانبين فى سنة ٢٧٣ ، ينص على أن تصبح مصر والشام لخمارويه وأولاده من بعده ثلاثين سنة ، فى مقابل أن يمتنع عن لعن الموفق على المنابر ، وأن يدعو له مع أخيه المعتمد .

بدأ عهد من العلاقات الطيبة بين الطولونيين والعباسيين بولاية الخليفة المعتضد ، التى تزوج بابنة خمارويه التى تدعى قطر الندى فى سنة ٢٨١ ، وأقيمت احتفالات كبيرة بهذه المناسبة ، أنفقت خلالها أموال طائلة ، وما يزال لهذه الاحتفالات ذكرياتها فى القصص الشعبى فىمصر حتى يومنا هذا .

فى سنة ٢٨٢ قتل خمارويه على أيدى بعض جواريه ، وضعف أمر الدولة بعده فلم يكن أولاده ولا إخوانه على مستوى الأحداث التى تتابعت الواحدة تلوالأخرى ، إذ أنهم انقسموا على أنفسهم وقتل بعضهم بعضًا ، وفى الوقت نفسه استولى القرامطة على بعض الأنحاء فى بلاد الشام . وكان اخفاق

الطولونيين فى التصدى لهم ، سببًا فى أن الخلافة العباسية سارعت بإرسال جيوشها لاسترداد مصر .

فى سنة ٢٩٢/٩٠٥ أرسل الخليفة العباسى المكتفى قائده محمد بن سليمان الكاتب بجيش كبير ، يرافقه اسطول خرج من موانى الشام ، واستطاع هذا القائد أن يقتحم مدينة القطائع ويدمرها ، ويعود بمصر مرةً ثانية إلى طاعة الخلافة العباسية .

٢ - الدولة الإخشيدية :

فى الفترة من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٢٣ ، تتابع على حكم مصر ولاة يأتون من بغداد ، وشهدت هذه الفترة ثلاث محاولات للفاطميين للاستيلاء على مصر (٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٢١) ، ولم تنجح هذه المحاولات ، لكنها هيأت الفرصة لأحد القواد الأتراك ، لأن ينشئ لنفسه دولةً بها .

ينتمى محمد بن طُغج بن جُف إلى الأتراك ، وخدم جده فى جيش الخلافة ، كما خدم أبوه فى جيش ابن طولون ، وشارك هو فى قتال الفاطميين إبان حملتهم الثالثة والأخيرة فى سنة ٣٢١ ، وكافأه الخليفة الراضى بأن ولاه مصر فى سنة ٣٢٣/٩٣٥ ولقبه بعد أربع سنوات بالإخشيد ، وهو لقب كان يتخذه ملوك فرغانة التى ينتمى إليها .

ومثلما كانت عليه حال أحمد بن طولون بعد أن استقل بمصر ، فإن الإخشيد سعى بدوره ، من أجل أن يمتد بدولته ، لتضم بلاد الشام ، لكن ذلك لم يكن أمرًا سهلاً ، بسبب الحمدانيين الذين استبدوا بالموصل وحلب ، كما إن الخليفة الراضى سارع فولى قائده محمد بن رائق الخزرى دمشق وحمص ومدنًا غيرها ، وأمره بانتزاع مصر . وبذا صار على الاخشيد أن يحارب على جبهتين ، واستغرقت حربه هذه معظم سنوات حكمه .

تقدم ابن رائق بجيش الدولة فى سنة ٣٢٨ ووصل إلى العريش ، حيث نشبت معركة أفضت إلى انتصار إلاخشيد ، فأرسل أخاه الحسين لمطاردة جيش غريمه ، لكنه وقع فى كمين عند بحيرة طبرية وقتل ، ورغمًا عن هذه الهزيمة إلا إنه عقد صلح بين الطرفين يقضى بأن يكون لابن رائق كل ما يلى الرملة شمالاً ، وأن يكون للإخشيد كل ما يليها جنوبًا وعلى أن يعاود طاعة الدولة ، ويؤدى لها ١٤٠,٠٠٠ دينارًا كل سنة .

لم يستمر هذا الصلح طويلاً ، بسبب قتل الحمدانيين لابن رائق بعد سنتين ، فأراد إلاخشيد أن يخلفه فى ما كان له من بلاد الشام ، وأن يتوسع فى سائرها على حساب الحمدانيين .

دار صراع بين إلاخشيدين والحمدانيين ، فقد خلالها إلاخشيد دمشق ، ثم عاد فاستردها واستولى على حلب ، ثم عقد صلح بين الطرفين فى سنة ٣٣٣ صارت فيه حلب وحمص وما يليها شمالاً لسيف الدولة ودمشق وما يليها جنوبًا للإخشيد .

بعـــد أن هدأت الأمور فى بلاد الشام امتد الإخشيد بحدود دولته وصار يدعى له مع الخليفة على منابر مكة والمدينة واليمن ثم عرض على الخليفة المتقى عندما التقى به فى الرقة من بلاد الجزيرة ، أن ينتقل بالخلافة العباسية إلى مصر ، فيصير بعيدًا عن شغب أجناده من الأتراك ، لكن الخليفة لم يستجب لهذا العرض وعاد إلى بغداد .

فى سنة ٣٣٤ مات إلاخشيد بدمشق ، وكان قد استخلف ولده الصبى أنوجور بوصاية كافور .

كان كافور – فى أصله – عبدًا حبشيًا أسود خصيًا مملوكًا للإخشيد ، وكان شديد الطموح ، علم نفسه وأظهر نباهةً ، جعلت إلاخشيد يقوده جيوشه ، كما جعله مربيًا لأولاده ولقبه بالأستاذ .

سيطر كافور على أمور الدولة بوصايته على أنوجور حتى موته فى سنة ٣٤٩ ، ثم على على أخيه حتى موته أيضًا فى سنة ٣٥٥ ، ثم انفرد بالحكم فى مصر والشام ، من قبل الخلافة العباسية حتى مات بعد سنتين .

واجه كافور المشكلات التى واجهها إلاخشيد قبله ، فخاض حروبًا ضد الحمدانيين والقرامطة ، انتهت إلى احتفاظه بسيادة الدولة على ما كان يخصها فى بلاد الشام ، فضلاً عن مكة والمدينة ، وصد غارات الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على مصر ، كما صد غارات النوبة على صعيد مصر ، وجعلهم يستمرون فى توريد الرقيق ، كما كانت عليه الحال فى أول الفتح .

استطاع كافور أن يحقق لنفسه مكانة كبيرة بين حكام عصره ، وقصده الشعراء من كل صوب ، وكان المتنبى من جملة هؤلاء الشعراء ، فمدحه ، ثم انقلب عليه وهجاه ، عند مالم يجد لديه ما كان يتمناه .

بعد موت كافور فى سنة ٣٥٧ صار أبو الفوارس أحمد حفيد إلاخشيد مكانه ، وكان أحمد هذا صبيًا صغيرًا ، اضطربت الأحوال فى أيامه ، وتجددت مطامع الفاطميين فى مصر ، إلى أن تحققت بعد عام واحد .

فى سنة ٩٦٩/٣٥٨ خرج جوهر الصقلى من القيروان ، إلى أن انتهى إلى الإسكندرية فاستولى عليها ، ثم تقدم جنوبًا ، واقتحم مدينة الفسطاط ، وأنهى الدولة إلاخشيدية ، لتقوم بدلاً منها دولة أخرى هى الدولة الفاطمية ، التى حكمت فى مصر وبلاد الشام (وفى بلاد الحجاز واليمن) زهاء قرنين كاملين .

٣ – الدولة الحمدانية :

ينتمى بنو حمدان إلى قبيلة تغلب العربية التى كان لها شأنها ، قبل الإسلام وبعده ، وكان لما أظهروه من مهارة حربية فى قمع الثورات التى

نشبت ضد الخلافة العباسية ، وفى صوائف المسلمين وشواتيهم إلى بلاد الروم ، كان لذلك أثره فى أن تكافئهم الخلافة فقلد الخليفة المكتفى أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان مدينة الموصل فى سنة ٢٩٢ ، وعند وفاته فى سنة ٣١٧ صار ولده الحسين مكانه ، ثم أضيفت إليه ديار بكر وديار ربيعة .

إبان النزاع على السلطة فى بغداد فى عهد إمرة الأمراء أعان الحسين ابن عبد الله بن حمدان الخليفة المتقى ضد أعدائه البريديين فى سنة ٣٣٠ ، فقلده إمرة الأمراء ، ولقبه ناصر الدولة ، ولقب أخاه عليًا سيف الدولة .

لم يستمر ناصر الدولة فترة طويلة فى ممارسة مهام منصبه ، واضطر للعودة إلى الموصل ، حيث حافظ على استقلاله بها - رغمًا عن مشاكله العديدة مع البويهيين فى بغداد - حتى مات فى سنة ٣٥٨ ، فنشبت نزاعات بين ولده إلى أن زالت دولتهم فى سنة ٣٨٠ .

أما عن سيف الدولة ، فقد استطاع أن ينتزع حلب من الإخشيديين فى سنة ٣٣٣ ، وبعد حرب دارت بينه وبين كافور ، اتفق الطرفان على أن يلى سيف الدولة حلب وما يليها شمالاً ، وأن يتصدى لغزوات الروم .

ومع أن سيف الدولة كان يطمح فى الاستيلاء على دمشق ، إلا أنه بعد أن أخفق فى مسعاه ، وجه معظم جهده لغزو الروم ، فغزاهم أربعين مرة ، وحالفه الفوز فى بعضها ونكص عنه فى بعضها الآخر .

استطاع سيف الدولة أن يشيد دولة قوية فى حلب ، وتوافد إليه الشعراء والأدباء من مختلف الأقطار ، وأهمهم المتنبى الذى تمثل قصائده فى مدحه قسمًا كبيرًا من شعره ، كما توافد إليه نحويون ولغويون كأبى على الفارسى وابن جنى ، وأتاه الفارابى الفليسوف وأبو الفرج الاصفهانى صاحب كتاب الأغانى .

بعد وفاة سيف الدولة فى سنة ٣٥٦ بدأت الدولة فى التصدع ، فقد اختلف بنو حمدان فيما بينهم وحارب بعضهم بعضًا ، وازدادت الضغوط على الدولة من جهة الروم شماليها ومن جهة الفاطميين جنوبيها ؛ واضطر الحمدانيون إلى الاعتراف بالسيادة الفاطمية ، ولم يلبث أن زال ملكهم فى سنة ٣٩٤ .

٤ - الدولة الفاطمية :

تطلع الفاطميون للاستيلاء على مصر فى فترة باكرة تعود إلى عهد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى ، فقد أنفذ إلى مصر ثلاث حملات ، أردفت بحملة . رابعة فى بداية عهد ولده القائم بأمر الله (٩٣٤/٣٢٢ - ٩٤٥/٣٣٤) ومع أن هذه الحملات جميعها باءت بالفشل ، إلا أن الخليفة المعز لدين الله (٩٥٢/٣٤١ - ٩٧٥/٣٦٥) انتهز فرصة موت كافور الإخشيدى فى سنة ٣٥٧ ، وما نشأ عن مجاعات ، نتجت عن انخفاض النيل عدة سنوات فأرسل قائده جوهر الصقلى (أو الصقلبى) بجيش تبلغ عدته مائة ألف .

سار جوهر بجيشه فى سنة ٩٦٩/٣٥٨ ، فاستولى على الإسكندرية ، وزحف منها إلى الفسطاط ، ودخلها بدون مقاومة كبيرة ، وما كادت تستقر له الحال بها ، حتى شرع فى ابتناء مدينة مجاورة لها ، تكون مستقرًا لجنده ، دعاها بالمنصورية ، نسبةً إلى الخليفة المنصور والد المعز ، على أن المعز نفسه أبدل هذا الاسم لدى مقدمه بعد أربع سنوات ودعاها بالقاهرة .

فى سنة ٣٥٩ شرع جوهر فى بناء جامع القاهرة ، الذى دعى بعد سنوات بالأزهر ، وأقيمت أول صلاة به فى سنة ٣٦١ . وظل الأزهر طيلة عصر الدولة الفاطمية معقلاً للمذهب الشيعى الإسماعيلى ، وأهم مركز من

مراكز الدعوة إليه ، وأنشئت إلى جواره دور لسكنى الأساتذة ورواقات للطلبة ، وأجريت عليهم الأرزاق .

شرع جوهر فى الوقت نفسه فى تأكيد الطابع السياسى - المذهبى للمرحلة الجديدة ،فجعل الخطبة والسكة باسم الخليفة الفاطمى ، كما جعل اللون الأخضر شعارًا للدولة ، وزاد فى الآذان " حى على خير العمل " .

فى سنة ٩٧٢/٣٦٢ ارتحل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر، وقد حمل معه أمواله وتوابيت آبائه ، وحلت القاهرة بمصر محل المنصورية بالمغرب ؛ عاصمة للدولة الفاطمية .

(أ) سياسة الفاطميين الخارجية :

تشغل الدولة الفاطمية مساحة واسعة من تاريخ مصر ، تمتد حتى العام ١١٧١/٥٦٧ ، حكم خلالها أحد عشر خليفة ، أولهم المعز لدين الله ، وآخرهم العاضد لدين الله . وامتد سلطان هذه الدولة إلى أقطار أخرى مجاورة لمصر ، على أنه مما تجب ملاحظته ، أن نفرق بين أمرين ، هما شكل هذا السلطان ومضمونه ، فمن الناحية الشكلية كانت الدولة الفاطمية تضم مصر والشام والمغرب والحجاز واليمن ، لكن واقع الحال يؤكد لنا أن مضمون هذا السلطان لم يكن يجاوز مصر وبلاد الشام (أو بعض بلاد الشام) ، أما عن سائر هذه الأقطار وغير هذه الأقطار ، فقد كانت الطاعة للخليفة الفاطمى فى القاهرة ، لا تختلف فى قليل ولا كثير عن طاعة أقطار إسلامية أخرى للخليفة العباسى فى بغداد ، بل إن بلاد المغرب ، - وهى التى شهدت مولد هذه الدولة وشبابها الأول - طرحت هذه الطاعة (الشكلية) فى العام ١٠٤٨/٤٤٠ .

أما عن بلاد الحجاز ، فإن أشرافها الذين حكموا فى المدينة ومكة ، استبدوا بالسلطة الفعلية فيهما ، ولم تتلق الدولة منهم شيئًا، بل إنها كانت تبعث

لهم بمساعدات نقدية وعينية ، وعندما كانت تنقطع هذه المساعدات أو تتقطع ، كما جرى إبان الشدة المستنصرية (٤٥٧/١٠٦٥ - ٤٦٤/١٠٧٢) فإنهم كانوا يتحولون بطاعتهم إلى بغداد .

إذا انتقلنا إلى بلاد اليمن - حيث نشأت البذرة الأولى للدعوة الفاطمية - فإن الصليحيين فى صنعاء (٤٢٩/١٠٣٧-٥٣٢/١١٣٨) وقد سيطروا على اليمن بأسرها فى بعض سنوات حكمهم، كان أهم معلم من معالم السيادة الفاطمية عندهم مراسلات بين بعض حكامهم، وبخاصة الحرة الصليحية وبين بعض الخلفاء الفاطميين وبخاصة المستنصر(٤٢٧/١٠٣٥-٤٨٧/١٠٩٤) وبنيه بعده .

سعى للفاطميون إلى أن يمتدوا بهذه السيادة الإسمية إلى أقطار أخرى غير الحجاز واليمن ، وأفادوا فى سعيهم هذا من اشتراكهم فى المذهب الدينى مع العصبيات المتحكمة فيها ، لكنهم أخفقوا فى تحقيق ما كانوا يهدفون إليه من هذا المسعى .

كان البويهيون الذين حكموا فى العراق وإيران شيعة زيدية ، لكنهم آثروا سلطة توافرت لهم مع خليفة عباسى (غير شرعى) على سلطة قد لا تتوافر لهم مع خليفة فاطمى (شرعى) ، وعليه انصرف الفاطميون إلى استمالة بعض الأمراء العرب ، كالعقيليين فى الموصل (٣٨٢ ، ٤٠١هـ) أو بعض القادة من غير العرب كالبسا سيرى فى بغداد نفسها (٤٤٦ - ٤٥١هـ) وأصابهم الإخفاق فى الحالين .

أما القرامطة الذين حكموا فى البحرين ، وتطرقوا فى غزواتهم إلى أقطار أخرى غير البحرين ، فكانوا شيعة اسماعيلية ، لكنهم نازعوا الفاطميين وهم شيعة إسماعيلية كذلك ؛ بل إنهم غزوا مصر مرتين وحاصروا مدينة القاهرة ، وبعد أن كانوا يدعون للخلفاء الفاطميين قبل مقدمهم إلى مصر ، فإنهم صاروا يدعون للخلفاء العباسيين بعد ذلك .

على أن الفاطميين أفادوا من هذه الطاعة الاسمية ، من أجل أن يثبتوا شرعية ، كان مطعونًا فيها ، خصوصًا مايتصل منها بنسبهم ، ولا يخفى أن هذه الطاعة وفرت لهم قدرًا من الأبهة ، زادت من رونق ملكهم ، وأعانت على أن يمتد هذا الملك إلى مدى يزيد على القرنين .

الدولة الفاطمية إذن هى الدولة الفاطمية فى مصر والشام ، وقد نوهنا إلى أن هذين القطرين ، كانت تضمهما معًا دولة واحدة فى عصور تاريخية سابقة لمقدم الفاطميين ، ويترجح لدينا أن جوهر القائد ، كان يدرك هذه الحقيقة لدى غزوه مصر فى سنة ٩٦٩/٣٥٨ ، فأرسل بعد عام واحد قائده جعفر بن فلاح الكتامى بحملة استولت على دمشق ، لكنه لم يجاوزها إلى حلب ، حتى لا يصطدم بالحمدانيين ، وكانوا قوة كبيرة يعمل حسابها ، فحاول أن يسترد أنطاكية من الروم ، ولم يوفق فى هذه المحاولة .

اصطدم الفاطميون فى بلاد الشام بالقرامطة ، فقد طالبهم الحسن الأعصم (٩٧٠/٣٥٩ - ٩٧٧/٣٦٧) بالإتاوة التى كان الإخشيديون يؤدونها له ، وعندما رفض جعفر بن فلاح ، توجه إليه بجيش حظى بدعم من البويهيين والحمدانيين ، وفى سنة ٣٦٠ ولدى قريب من دمشق أوقع الهزيمة بالجيش الفاطمى ، وقتل قائده ، ولم يكتف بذلك بل قام بالإغارة على مصر مرتين (٣٦١ ، ٣٦٣) وحاصر مدينة القاهرة ، فلم يوفق فى اقتحامها ، وعاد أدراجه إلى البحرين .

بعد أن زال الخطر القرمطى عن مصر ، اتخذ الفاطميون اهبتهم لاسترداد دمشق ، ثم الاستيلاء على غيرها من مدن الشام ، ونجحوا فى دخول دمشق ، وشرعوا فى الاستيلاء على حلب ، فأفادوا من النزاعات التى نشبت بين أبناء البيت الحمدانى بعد وفاة سيف الدولة وأفضت هذه النزاعات إلى أن خلصت حلب للؤلؤ الخادم الذى قتل مولاه سعيد الدولة وأعلن الطاعة

للفاطميين فى سنة ٣٩٤ ، لكنها كانت طاعة قلقة ، نافسهم فيها بنو مرداس (من قبيلة كلاب) وتداولوا السلطة مع الفاطميين ، واستقلوا بحكمها سنوات إلى أن آلت إلى السلاجقة فى سنة ٤٧٣ .

استطاع الفاطميون أن يفرضوا سيادتهم على معظم أنحاء الشام ، على أن هذه السيادة تعرضت لخطرين أحدهما من جهة الروم والآخر من جهة السلاجقة .

كانت دولة الروم قد شهدت نهضة مع مقدم الأسرة المقدونية (٨٦٧ - ١٠٥٧م) وشنت هجمات على بلاد الشام ، وبخاصة بعد موت سيف الدولة ، ووصل باسيل الثانى(٩٧٦-١٠٢٥م) فى هجماته إلى عمق فلسطين والساحل.

دار صراع طويل بين الفاطميين والبيزنطيين ، شاركت فيهم بعض العصبيات المحلية ، كبنى الجراح الطائيين فى فلسطين ، وانتهى إلى أن استرد الفاطميون ، ما سبق أن فقدوه من مدن الشام ، وقبل أن ينته هذا الصراع ، كان قد بدأ صراع آخر مع قوة إسلامية فتية هى قوة السلاجقة ، واستطاع هؤلاء فى عهد سلطانهم ملكشاه (١٠٧٢/٤٦٥ - ١٠٩٢/٤٨٥) أن يستولوا على معظم بلاد الشام ، وفى سنة ٤٦٧ اقتحموا دمشق ، وشرعوا فى اقتحام مصر ذاتها ، لكن الحملة التى انفذوها بعد سنتين لم يقدر لها النجاح .

احتفظ الفاطميون بسيطرتهم على بعض المدن الساحلية وبخاصة فى فلسطين ، وفى سنة ٤٨٩ استرد الأفضل بن بدر الجمالى - وزير الفاطميين - بيت المقدس .

(ب) بعض السمات العامة للعصر الفاطمى فى مصر :

حاول الفاطميون أن يفرضوا مذهبهم الشيعى الإسماعيلى على رعاياهم فى مصر والشام ، فجعلوه موضعًا للدرس فى المساجد الكبيرة ، واستحدثوا منصب داعى الدعاة ، ليكون مرجعًا للدعاة فى أقطار دولتهم ، وفى غيرها

من الأقطار واحتفلوا بمناسباتهم الدينية ، وأهمها يوم عاشوراء (العاشر من محرم) وعيد الغدير (الثامن عشر من ذى الحجة) ، وغالوا فى هذه الاحتفالات ، واختصوا الشيعة دون غيرهم بمناصب الدولة ، وحاولوا أن يرغموا القضاة على أن يحكموا وفق أحكام المذهب الشيعى .

بيد أن هذه الاجراءات وغيرها لم تنجح فى أن تحقق للمذهب الشيعى الانتشار المرتجى وإذا كان بعض المصريين قد تحولوا إليه ، فإن غالبهم حافظ على مذهبه السنى ، وكان يضايقه أن تأمر الدولة فى أحيان معينة بلعن الخلفاء الثلاثة وغيرهم من الصحابة .

ترتب على ذلك أن جرت صدامات بين الدولة (أو أنصارها من الشيعة) وبين السنة ، وكانت تراق فى بعض هذه الصدامات دماء وتنتهك حرمات ، ويسود الذعر فى كل مكان .

ولما كانت الدولة قد صادفت إعراضًا من أهل السنة فى التعاون معها ، فإنها استعانت فى بعض مناصبها بذميين - نصارى ويهودًا - تقلدوا الوزارة، وأظهرت قدرًا من التسامح مع سائرهم ، ونستثنى من ذلك عدة سنوات فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦/٩٩٦ - ٤١١/١٠١٢) .

ويحتل العصر الفاطمى مكانة فائقة فى تاريخ مصر الاجتماعى ، وكثير من مظاهر حياتنا كما نشاهدها اليوم ، تعود فى أصولها إلى هذا العصر، ومن بين هذه المظاهر الاحتفالات المتصلة بآل البيت ، وكان الخلفاء حريصين على حضور هذه الاحتفالات ، وهم فى أبهى زينتهم ، ويقيمون الأسمطة ، ويستعرضون جنودهم وأمراءهم ، ويجزلون العطاء لرجال الدولة والعلماء والشعراء وبعض طوائف الشعب .

كذلك اهتم الفاطميون بالحياة الثقافية ، تدفعهم الرغبة فى نشر مذهبهم ، فشجعوا على التأليف فيه، وعقد المجالس لمدارسته ، واستقدموا الكتب من آفاق شتى.

على أنه عندما استقرت أمور دولتهم توسعوا بدائرة اهتمامهم إلى سائر العلوم ، فأنشأ الحاكم بأمر الله فى سنة ٣٩٥ دار الحكمة (أو دار العلم) ، وهى مدرسة جامعة ، حوت كتبًا فى العلوم كافة ، وتوافرت بها وسائل النسخ من أحبار وأقلام وورق ، وتوافد إليها الجلة من العلماء ، وظلت تزاول نشاطها حتى قريب من سقوط الدولة .

لهذا كله اقترن العصر الفاطمى بنهضة علمية كبيرة ، من رجالها أبو حنيفة النعمان المغربى (ت ٣٦٣) من علماء الإسماعيلية ، والشابُشتى (ت ٣٨٨) الأديب ، وابن يونس (ت ٣٩٩) المنجم ، والمُسَبِّحى (ت ٤٢٠) المؤرخ ، والحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠) الفيزيائى ، وعلى بن رضوان (ت ٤٦٠) الطبيب ، وابن منجب الصيرفى (ت ٥٤٢) المؤرخ والأديب .

وكانت الدولة تعتمد فى جيشها على المغاربة ، وبخاصة قبيلة كتامة ، ثم استعانت فى مراحل تالية بأجناد من الأتراك والسودانيين والأرمن والعرب ، وكثيرًا ما كانت تحدث نزاعات بين هذه الأجناد ، كانت لها آثارها السيئة فى الدولة ، وفى المجتمع على سواء . ولما اشتد عيث هؤلاء فى زمن الخليفة المستنصر ، وما رافق هذا العيث من مجاعة ، دعيت الشِّدَّة العظمى (أو الشدة المستنصرية) استدعى الخليفة فى سنة ٤٦٦ بدرًا الجمالى والى عكا ، وقلده الوزارة وفوضه سلطاته ، فافتتح بذلك عهدًا استبد فيه الوزارة بشئون الدولة .

احتكر بدر الجمالى وأسرته منصب الوزارة نحو خمسين سنة ، نعمت البلاد خلالها بقدر من الاستقرار النسبى ، لكنه بعد مقتل الأفضل ولده فى سنة ٥١٥ ، عاشت البلاد فترة مماثلة من عدم الاستقرار ، استعان خلالها بعض المتنازعين على السلطة بقوى خارجية ، أفضت إلى تدخلات خارجية إلى أن نجح صلاح الدين ، وهو آخر وزراء الدولة الفاطمية ، فى أن يضع حدًا لهذه الدولة .

٥ - الدولة الأيوبية(*) :

(أ) صلاح الدين وقيام دولته :

فى مطالع القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بدأت الدولة الفاطمية رحلة أفولها ، وكانت رحلة طويلة ، فقد أصيبت بضربات موجعة فى بلاد الشام على أيدى الصليبيين ؛ وأصيبت بضربات أخرى موجعة فى مصر على أيدى العسكريين ، وتعاقب على حكمها فى العشرين السنة الأخيرة ، ثلاثة خلفاء ، لم يبلغوا لدى ولايتهم مبلغ الشباب .

فى سنة ١١٧١/٥٦٧ ينتهى عصر الدولة الفاطمية ، ليبدأ عصر جديد هو عصر الدولة الأيوبية .

تنتمى الأسرة الأيوبية إلى الأكراد ، وخدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه لدى الأسرة الزنكية فى الموصل وحلب ، وأثبتا كفاءة فى هذه الخدمة ، مما دفع نور الدين محمود صاحب حلب لأن يفيد منهما ، عندما استدعت الحاجة تدخله فى شئون مصر .

فى المحرم من سنة ٥٥٨ قفز إلى منصب الوزارة شاوَر بن مجير السعدى ، وهو عربى كان يحكم الصعيد ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى خرج عليه ضرغام بن عامر - وهو عربى أيضًا - واتخذ مكانه فى الوزارة ، واضطر شاور للهرب إلى نور الدين ، واضطر ضرغام لأن يستعين بالصليبيين ، ولمدى يصل إلى سبع سنوات ١١٦٣/٥٥٨ - ١١٦٩/٥٦٥ صارت مصر ساحة لحملات متكررة من جهة نور الدين ، وحملات أخرى متكررة من جهة الصليبيين ، وانتهى الصراع بين الجانبين بظفر نور الدين ، وانتهى أيضًا بقتل الوزيرين المتنافسين .

(*) أفدنا فى كتابة هذه الفصلة والفصلة التالية وتاريخ الحروب الصليبية والمغول بكتب أستاذنا الفاضل سعيد عاشور ، فهو فى هذا التخصص عمدة ، وإليه المرجع والعهدة .

ترتب على هذا الصراع أمران هامان ، أولهما أن مصر غدت منذ يومئذ عنصرًا فاعلاً في الجهاد بين المسلمين والصليبيين ، مرجحة لكفة المسلمين ، والأمر الآخر هو زوال الخلافة الفاطمية ، وعودة مصر مرة أخرى قلعة من قلاع المذهب السنى ، وهذا كان عامل وحدة بين المسلمين .

كان أسد الدين شيركوه هو قائد نور الدين إلى مصر ، وبعد أن نجح فى المهمة التى أو كلت إليه ، صار وزيرًا للخليفة العاضد (٥٥٥/١١٦٠ - ٥٦٧/١١٧١) إلى أن مات فى سنة ٥٦٤/١١٦٩ ، فخلفه فى منصبه ابن أخيه صلاح الدين .

لم يكن بوسع صلاح الدين أن يخدم سيدين فى وقت واحد ، خليفة شيعى فى القاهرة وسلطان سنى فى دمشق يدين بالطاعة لخليفة سنى فى بغداد . وكان من اللازم أن تنته هذه الازدواجية ، وجاءت المبادرة من الخليفة العاضد نفسه ، فتآمر على صلاح الدين عن طريق أجناده السودانيين وعن طريق الصليبيين ، ولم يقدر له النجاح فى الحالين ، إذ بطش صلاح الدين بهؤلاء الأجناد ، كما إن الحملة البحرية التى قادها عمورى ملك بيت المقدس إلى دمياط ، وأعانه فيها الروم ، عادت أدراجها وهى تجرر أذيال الخيبة .

صار مركز صلاح الدين فى مصر قويًا ،وزاد من قوة هذا المركز مرض الخليفة العاضد ، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين ، يطلب منه قطع الدعوة لهذا الخليفة ، والدعوة للخليفة العباسى فى بغداد .

فى أول جمعة من سنة ٥٦٧ / سبتمبر ١١٧١ دعى للخليفة العباسى المستضئ ، وبعد ثلاثة أيام مات الخليفة الفاطمى العاضد .

لم تنته الازدواجية برحيل العاضد ، فقد بدأت تلوح فى الأفق نذر صراع بين صلاح الدين وسيده نور الدين ، وكان قمينًا بأن تكون له آثاره الوخيمة على المسلمين ، خصوصًا فى صراعهم ضد الصليبيين ، لكن قدر

الله كان أسرع إذ مات نور الدين بعد سنتين ، وكان على صلاح الدين أن يمكن لنفسه تجاه انصار النظام القديم فى مصر ، وتجاه أنصار النظام القديم فى بلاد الشام .

كان لطول المدة التى حكم فيها الفاطميون مصر ، أن صار لهم حزب قوى موال لهم ، حتى بعد انقضاء دولتهم ، وهذا الحزب لم يكن راضيًا عما جرى من أمور .

فى سنة ١١٧٤/٥٦٩ دبر هذا الحزب مؤامرة ضد صلاح الدين تزعمها عدد من أركانه وعلى رأسهم الشاعر عمارة اليمنى ، وكاتبوا الحشاشين(١) فى بلاد الشام ، كما كاتبوا عمورى ملك بيت المقدس ووليم الثانى النورمانى ملك صقلية ، وتم الاتفاق على أن يشعل هؤلاء المتآمرون الثورة فى مدينتى الفسطاط والقاهرة ، بينما يهاجم الصليبيون مصر من البر ، ويهاجمها النورمان من البحر .

تسربت أنباء المؤامرة إلى صلاح الدين ، ونجح فى الظفر بزعمائها وقتلهم ، أما عمورى ، فإنه علم بما جرى قبل أن يتحرك ، فعدل عن عزمه ثم مات بعد يسير ، أما اسطول صقلية فوصل إلى مياه الإسكندرية بعد فشل المؤامرة ، وأخفق فى اقتحام المدينة ، وغرقت بعض سفنه ، وعادت بقيتها من حيث أتت .

---

(١) طائفة من الشيعة الإسماعيلية غلاة تزعمهم الحسن الصباح وصار لهم وجود قوى فى إيران وبخاصة فى قلعة ألموت الشهيرة كما صار لهم وجود قوى فى بلاد الشام حيث والوا الصليبيين وكثيرًا ما كانوا يلجئون إلىأسلوب الاغتيال فى التعامل مع خصومهم، ودعوا بالحشاشين لتعاطيهم الحشيش واشتقت من هذه الكلمة Assisination وتعنى الاغتيال فى اللغة الإنجليزية وانتهى وجودهم الفعال على أيدى المغول وزعيمهم هولاكو إلى أن أعيد تنظيمهم فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى وزعيمهم الروحى الآن هو الأغاخان الرابع

بعد موت نور الدين تقاسم ورثته دولته ، ودبت النزاعات بينهم ، وشرع الصليبيون فى بلاد الشام للإفادة مما جرى ، فهاجموا معاقل المسلمين.

فزع صلاح الدين لما جرى من تطورات ، وخشى أن تضيع سدىً ، جهود بذلها الزنكيون فى توحيد المسلمين ومجابهة الصليبيين ، واستغرقت جهود صلاح الدين فى هذا الميدان اثنى عشرة سنة (١١٧٤/٥٧٠ - ١١٨٦/٥٨٢) ، ومثلما استعان خصوم صلاح الدين فى مصر بالصليبيين ، فإن خصومه فى بلاد الشام استعانوا كذلك بالصليبيين ، بل وأغروهم بأن يسلموهم مدنًا إسلامية وقلاعًا مقابلاً لهذا العون ، كما تعرض صلاح الدين نفسه لمحاولات اغتيال من قبل الحشاشين .

اضطر صلاح الدين لأن يحارب على أكثر من جبهة ، فكان عليه أن يواجه الزنكيين والحشاشين ، وكان عليه كذلك أن يواجه الصليبيين ، واضطره هذا الصراع لأن يقيم فى مصر دهرًا ، ويقيم فى بلاد الشام دهرًا آخر ، ولا يمضى فى صراعه مع خصومه إلى غايته ، فكان يحارب الزنكيين ثم يصالحهم ، ويحارب الصليبيين ثم يصالحهم ، إلى أن استطاع فى النهاية أن يرث دولة نور الدين ، وصار يخطب له من الفرات إلى النيل .

فى السنوات التالية تفرغ صلاح الدين لمشروع حياته ، وهو الجهاد ضد الصليبيين ، وتوج هذا الجهاد بانتصاره العظيم فى حطين ، واسترداده بيت المقدس ، ثم تصديه للحملة الصليبية الثالثة ، ولدى وفاته فى العام ١١٩٣/٥٨٩ كان الوجود الصليبى قد ذهب عن معظم بلاد الشام .

(ب) خلفاء صلاح الدين :

توزعت دولة صلاح الدين بعد وفاته بين ورثته ، فاختص الأفضل ولده بدمشق وتلقب بالسلطنة ، واختص العزيز ولده الآخر بمصر ، والظاهر بحلب، واختص بقية أبنائه وأخوانه وأقربائه باقطاعات ثانوية ، كما اختص

أحدهم باليمن ، ووقعت نزاعات بين هؤلاء الورثة ، أفاد منها العادل أخو صلاح الدين ، وتمكن فى سنة ١٢٠٠/٥٩٦ من أن يعاود توحيد الدولة الأيوبية ويصير سلطانًا ، وصار أولاده الكامل والمعظم والأشرف والأوحد نوابًا له فى مصر ودمشق وحران وميافارقين على التوالى .

كان لعودة الوحدة بين المسلمين أثرها فى أن الصليبيين بدأوا يستعدون لحملة صليبية جديدة ، كان يفترض أن تتوجه إلى مصر ، لكن هذه الحملة التى دعيت – فيما بعد – بالحملة الرابعة ، انحرفت عن هدفها ، وتوجهت إلى القسطنطينية ، واستولت عليها فى سنة ١٢٠٤/٦٠١ ، وأعلنت قيام امبراطورية لاتينية بها .

على أن حنادى بريين ملك بيت المقدس تدارك هذا الخطأ ، وخرج من عكافى سنة ١٢١٨/٦١٥بحملة جديدة هى الحملة الخامسة ، وجعل وجهته مدينة دمياط ، ورغمًا عن سقوط هذه المدينة فى يديه ، إلا أنه لم يستطع أن يتقدم منها جنوبًا ، وأصيب بهزيمة كبيرة ، واضطر لأن ينسحب من حيث جاء يجرر أذيال الخيبة .

كان لاتحاد أبناء العادل أثره الواضح فى إخفاق الصليبيين فى حملتهم الخامسة ، على أن هؤلاء الأبناء وغيرهم من البيت الأيوبى ، تنازعوا بين بعضهم البعض ، وبخاصة عندما اعتدى المعظم على ممتلكات أخيه الأشرف، وغيره من أقربائه ، وتحالف مع الخوارزمية – وهم قوم من الأتراك ورثوا السلاجقة فى بعض دولتهم – وتدخل الكامل فى هذا النزاع إلى جانب الأشرف ، واضطر لأن يسالم الامبراطور فردريك الثانى ، حين أتى فى حملة صليبية – هى التى عرفت بالحملة السادسة – إلى بلاد الشام ، فتنازل له عن بيت المقدس فى سنة ١٢٢٩/٦٢٦ ، على أن لا تكون للمدينة المقدسة أسوار ، ويكون المسجد والصخرة بأيدى المسلمين ، وعلى ذلك دخل فردريك المدينة فى العام التالى ، وتوج امبراطورًا فى كنيسة القيامة ، ثم عاد أدرجه إلى بلاده .

مات السلطان الكامل فى سنة ١٢٣٨/٦٣٥ وخلفه فى ملك مصر وفى السلطنة ولده العادل ، فاستولى أخوه الصالح نجم الدين أيوب على دمشق ، وانقسم البيت الأيوبى بين الأخوين ، إلى أن نجح الصالح أيوب فى أن يحل محل أخيه فى مصر ، وإن كان قد فقد دمشق التى استولى عليها عمه الصالح إسماعيل ، وقد تحالف هذا العم مع الصليبيين ، فرد الصالح أيوب ، بأن تحالف مع الخوارزمية ، فانتهز هؤلاء الفرصة ، واقتحموا بيت المقدس فى سنة ١٢٤٤/٦٤٢ ، واستولوا عليها بسهولة ، ثم اتحدوا مع الصالح أيوب ، وأصابوا الصليبيين ، ومن أعانهم من الأيوبيين بهزيمة هى أكبر هزائمهم منذ حطين .

استطاع الصالح أيوب أن يعيد للدولة الأيوبية وحدتها ، وصار يخطب له فى القاهرة ودمشق وبيت المقدس ، كما صار سلطانًا .

كان استرداد المسلمين لبيت المقدس هو الدافع المباشر للحملة الصليبية السابعة التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع الذى عرف فيما بعد بالقديس .

ومثلما حدث مع حنادى بريين فى الحملة الخامسة فإن لويس لم يستطع أن يتقدم كثيرًا بعيدًا عن دمياط ، ثم أصيب فى سنة ١٢٥٠/٦٤٧ بهزيمة كبيرة ، وأسر ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فديةً كبيرةً .

كان السلطان الصالح أيوب قد مرض خلال المعركة ثم مات ، وأخفت زوجه شجر الدر خبر موته ، إلى أن أتى ولده توران شاه - وكان غائبًا فى حصن كيفا من بلاد الجزيرة - فصار سلطانًا ، وقاد المسلمين فى هجومهم الأخير على الصليبيين ، لكنه بعد أن تحقق له النصر ، اختلف مع المماليك البحرية الذين كانوا وراء هذا النصر ، وفكر فى أن يتخلص منهم ، فتآمروا عليه وقتلوه ، وولوا شجر الدر إمرأة الصالح أيوب ، فصارت آخر الأيوبيين أو أول المماليك .

(جـ) بعض السمات العامة للعصر الأيوبى فى مصر :

كان لدخول مصر طرفًا أساسيًا فى الصراع الإسلامى – الصليبى أثره فى اضفاء بعض السمات العسكرية عليها ، فقد عنى صلاح الدين (وخلفاؤه بعده) بتحصينها ، حتى يحول بينها وبين أن تسقط فى أيدى أعدائه ، وحتى تكون بامكانياتها الهائلة ومواردها سنادًا فى جهاده ، ورغمًا عن شغله بالحرب فى بلاد الشام ، إلا أنه استطاع أن يحصن ثغور مصر فى دمياط والسويس والإسكندرية ، وابتنى سورًا ضخمًا أحاط بالمدن الأربع القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع ، وحصن هذا السور بأبراج منيعة ، وابتنى كذلك قلعة ضخمة على جبل المقطم ، دعيت بقلعة الجبل ، ودعيت فيما بعد بقلعة صلاح الدين ، وصارت قاعدة للحكم فى مصر حتى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦١ – ١٨٧٩م) .

ومن هذا المنطلق العسكرى عرفت مصر النظام الاقطاعى الذى عرفته بلاد الشام فى العصر السلجوقى ، ويقوم هذا النظام على أساس أن يوزع السلطان الأراضى الزراعية فى هيئة اقطاعات ، على أمرائه وأجناده ، فى مقابل أن يؤدوا إليه جزءًا من مال الأرض ، وأن يجهزوا عددًا من المحاربين بعدتهم الكاملة ... هذا النظام كان شبيهًا بما كان حادثًا فى أوربا المعاصرة ، لكنه كان يفترق عن نظيره فى أوربا ، بأنه لم يكن وراثيًا ، وبعد أن خلف المماليك أسيادهم الأيوبيين فى بلاد الشام ومصر ، أبقوا على هذا النظام ، وتوسعوا فيه حتى نهاية دولتهم على أيدى العثمانيين .

إلى جانب ذلك ومن منطلق إضفاء الطابع السنى على الدولة ، اقتدى الأيوبيين بأسلافهم السلاجقة ، فابتنوا العديد من المدارس التى كرست لهذا المذهب ، وكان أولها المدرسة الناصرية ، نسبة إلى السلطان الناصر صلاح الدين ، وتتابع إنشاء هذه المدارس فى عهود خلفائه وصارت أشبه بمعاهد

جامعية عليا ، لها أنظمتها الثابتة وأجهزتها الإدارية المعاونة ومكتباتها العامرة ، وخصصت لها أوقاف للنفقة عليها ، ثم اتسع نشاطها ، ليشمل علومًا أخرى غير علوم الدين واللغة .

ويتصل بهذا النشاط بروز ظاهرة التصوف ، فقد توافد إلى مصر فى هذا العصر وماتلاه عديد من المتصوفة ، وبخاصة من الأندلس والمغرب ، وابتنيت لهم خانقاوات (جمع خانقاه) أى منازل المتصوفة ، وأجريت عليها الأرزاق ، كما صار لها نصيب وافر من الأوقاف .

٦ - الدولة المملوكية :

حرص سلاطين الأسرة الأيوبية وأمراؤها ، من لدن صلاح الدين ، على أن يتخذوا لأنفسهم أجنادًا من المماليك - أى الرقيق الأبيض - يستعينون بهم فى الحروب التى دبت بين بعضهم البعض ، ثم بينهم وبين غيرهم وبخاصة الصليبيين ، وبمرور الوقت ، وبعد أن أثبت هؤلاء المماليك براعتهم فى حروبهم التى خاضوها مع أسيادهم ، بدأوا يتحكمون بدورهم فى هؤلاء الأسياد .

كانت أهم طوائف المماليك وأعظمها خطرًا هى الطائفة التى دعيت بالبحرية ، وكانوا ينتمون فى معظمهم إلى الأتراك ، أتى بهم الصالح أيوب من بلاد القفجاق (شمالى البحر الأسود) على نحو خاص ، وأسكنهم جزيرة الروضة فى (بحر) النيل ، وتمكن هؤلاء بعد سنوات من أن يزيلوا دولة الأيوبيين ، وينشئوا لأنفسهم دولةً فى سنة ١٢٥٠/٦٤٨ ولدى زوال هذه الدولة فى سنة ١٣٨٢/٧٨٤ خلفهم المماليك البرجية ، وكانوا ينتمون فى معظمهم إلى الچراكسة ، واستكثر منهم السلطان قلاون ، فكان يأتى بهم من بلاد الكرج (چورچيا بين بحر قزوين والبحر الأسود) على نحو خاص ، وأسكنهم أبراج القلعة .

على أن عديدًا من المماليك فى المرحلتين كانوا ينتمون إلى أعراق أخرى غير الأتراك وغير الچراكسة ، فمنهم مغول وصقالبة وروم وأوربيون آخرون ، وكانوا جميعهم بعد وفودهم يخفت لديهم انتماؤهم إلى أعراقهم القديمة ، وينتمون إلى أساتذتهم ، أى سادتهم الذين اشتروهم ، فصار لدينا المماليك الصالحية ، نسبة إلى السلطان الصالح أيوب ، والمماليك الظاهرية بيبرس ، نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس ، و المماليك الأشرفية خليل ، نسبة إلى السلطان الأشرف خليل وهكذا .

توالى على حكم مصر والشام سلاطين من المماليك على قاعدة الغلبة ، وليس الوراثة ، وأحيانًا كانوا يولون ولد السلطان السابق ، وعادة ما يكون صغير السن ، إلى أن يتسنى لأحدهم أن يزيله ويجلس مكانه ، ويوجد لهذه القاعدة استثناء أساسى فى أسرة قلاون التى حكمت فى الفترة بين سنتى ٦٧٨/١٢٧٩ - ٧٨٤/١٣٨٢ .

(أ) دولة المماليك البحرية :

بعد انتصار المسلمين على الصليبيين الفرنسيين فى المنصورة وفارسكور ، شعر السلطان توران شاه بالخشية من المماليك البحرية الذين كانوا وراء تحقيق هذا الانتصار ، وفكر فى أن يبطش بهم ، فتآمروا عليه وقتلوه بعد يسير ، ولما لم يكن المماليك قد فكروا بعد فى أن يختصوا أنفسهم بالسلطنة دون الأيوبيين ، ويخشون فى الوقت نفسه أن يحل محل السلطان القتيل أمير آخر من البيت الأيوبى ، يأتى من بلاد الشام ، فإنهم أجمعوا على أن يولوا شجر الدر إمرأة الصالح أيوب .

تنتمى شجر الدر إلى أصل أرمنى على الأغلب ، وكانت جارية عند الخليفة المستعصم ببغداد ، قبل أن تنتقل إلى مصر ، وتصير إمرأة للسلطان الأيوبى . ولما كانت ولايتها غير شرعية من وجهة نظر بعض المسلمين ، فإنها كثيرًا ما كانت تلقب نفسها " بأم خليل[١] صاحبة الملك الصالح " .

---

(١) وهو ولدها من السلطان الصالح مات طفلاً فى حياة أبيه

على أن ما كان يخشاه المماليك وقع ، فأيوبيو الشام خلعوا الطاعة ، وشرعوا فى تهديد مصر ، ولم يجد المماليك إلا أن يزوجوا شجر الدر من زعيمهم عز الدين أيبك ، فيصير سلطانًا ، وتصير هى زوج السلطان .

احتال أيبك على الأمراء الثائرين فأتى بطفل أيوبى صغير وجعله سلطانًا ، وجعل نفسه شريكًا فى السلطنة ، ولما لم تنطل هذه الحيلة على الأمراء الأيوبيين ، وأرسلوا جيشًا إلى مصر ، تمكن المماليك من هزيمة هذا الجيش ، عند قرية العباسة فى الشرقية ، ثم تفرد أيبك وحده بالسلطنة .

توقف النضال عندما جوبه المسلمون فى الشام ومصر معًا بخطر التتار الذين بدأت طلائعهم تفد إلى بلاد العراق والجزيرة ، فعقد صلح بين الفريقيين المتنازعين فى سنة ١٢٥٣/٦٥١ على أن يختص المماليك بمصر وفلسطين وسواحل الشام ، ويختص الأيوبيون بما عدا ذلك .

بعد أن أمن أيبك جانب الأيوبيين ، تعرض لمشكلتين ، أولا هما المنافسة بينه وبين زعيم البحرية أقطاى ، ونجح أيبك فى حل هذه المشكلة وقتله ، والمشكلة الثانية هى زوجه الطموح التى لم تنس أنها كانت سلطانة ، ولم ينجح أيبك فى حل هذه المشكلة وقتل .

لم تعاود شجر الدر السلطنة مرة أخرى ، لأن الأمراء المماليك قتلوها ، ولما كانوا مختلفين فيمن يلى السلطنة ، جعلوها فى على بن أيبك - وكان صبيًا صغيرًا - وجعلوا أحدهم ، وهو سيف الدين قطز أتابك له(١) .

سقطت بغداد فى أيدى المغول فى سنة ١٢٥٨/٦٥٦ ، وتطلعوا إلى المزيد من الأراضى الإسلامية فاجتاحوا بلاد الشام ، واصطدموا بالمماليك ، وأفاد قطز من هذا الصدام ، فعزل على بن أيبك وتفرد بالسلطنة ، ثم أحرز نصرًا كبيرًا على المغول فى عين جالوت .

---

(١) أى وصى عليه

كانت النتيجة المباشرة لهذا النصر ، هى أن طرد السلطان قطز المغول من دمشق ، وطاردهم الأمير بيبرس إلى حلب ، ودخلت مدن الشام أو أمراؤها من الأيوبيين فى طاعة السلطان المملوكى ، وصار يدعى له على منابرها ، وتؤدى له أموالها .

وكما كان يحدث كثيرًا اغتال بيبرس بطل عين جالوت ، وهو فى طريقه إلى حيث يحتفل بنصره فى مدينته القاهرة .

اتخذ بيبرس لنفسه لقب الملك الظاهر ، وقمع منافسيه من الأمراء الأيوبيين والمماليك ، وأضفى على دولته طابعًا شرعيًا ، بأن استقدم أحد أبناء البيت العباسى ، وبايعه بالخلافة ، ثم قلده هذا بدوره السلطنة ، وبذا انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة ، وظلت بها إلى العام ١٥١٧/٩٢٣ .

على أنه مما لا يخفى أن الخليفة لم يكن له من الأمر شىء ، سوى أن يدعى له على المنابر قبل السلطان ، وعبر المقريزى (ت ٨٤٥) عن هذا الوضع تعبيرًا دقيقًا بقوله : " ليس فيها (أى الخلافة) أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين " .

كانت سياسة بيبرس تقوم على العداء للصليبيين والمغول ، ومن أجل ذلك حالف البيزنطيين أعداء الصليبيين ، وحالف كذلك دولة القبيلة الذهبية (عند بحر قزوين) وهم مغول أسلموا ضد سائر المغول .

استطاع بيبرس أن يستولى على أنطاكية فى سنة ١٢٦٨/٦٦٦ ، ويزيل بذلك إمارة صليبية كبيرة ، وقضى على البقية الباقية من الحشاشين أصدقاء الصليبيين ، كما انتصر على مغول فارس وحلفائهم سلاجقة الروم فى سنة ١٢٧٦/٦٧٤ ، ودخل قيسارية ودعى له منابرها . وفى الوقت نفسه امتد بسيادة مصر إلى مملكة النوبة النصرانية جنوبيها ، كما أكد هذه السيادة على الحجاز واليمن .

/ * مات بيبرس بدمشق فى سنة ١٢٧٧/٦٧٦ ، وكان قد عهد لولده بالحكم من بعده ، لكن الأتابك قلاون عزل هذا الولد وعزل أخاه الذى ولى بعده ،

ليصير بدوره سلطانًا ، باسم المنصور ويؤسس أسرة حكمت زهاء قرن من الزمان .

برز قلاون كواحد من أمراء البحرية الكبار ، وقام بدور واضح فى الحرب ضد الصليبيين وضد المغول ، وأضحت له مكانه كبيرة فى عهد بيبرس ، ولدى ولايته ابتنى العديد من المنشئات بينها البيمارستان (المستشفى) المشهور ، مما زاد من هذه المكانة ، خصوصًا عند رعيته . لكن تمرد بعض أمرائه ، وتحالفهم مع أعداء الدولة ضده ، دفعه لأن يبحث عن عصبية خاصة به ، فاستكثر من شراء المماليك الچراكسة ، وأسكنهم بأبراج القلعة ، فدعوا بالمماليك البرجية .

استطاع قلاون فى سنة ١٢٨١/٦٨٠ أن يحقق نصرًا كبيرًا على المغول عند حمص ، كما استولى من الصليبيين على اللاذقيةوطرابلس وبيروت ، وبذا لم يتبق لهم سوى عكا ومواقع قليلة مجاورة لها ، وكان بسبيله لتصفية الوجود الصليبى من بلاد الشام تصفية نهائية ، لولا أن القدر لم يسعفه فكان ذلك من ينصب ولده خليل الذى تلقب بالأشرف .

ارتفع شأن الأشرف بعد أن دخل عكا فى سنة ١٢٩١/٦٩٠ وأزال الصليبيين من بلاد الشام ، مما أحقد عليه منافسيه من الأمراء المماليك ، فقتلوه بعد سنتين ، لكنهم لم يهنئوا بقتله ، لأن فريقًا آخر من الأمراء لم يكن راضيًا عما جرى ، ونادى بأخى السلطان القتيل وهو صبى يدعى محمدًا سلطانًا.

تلقب محمد بن قلاون بالناصر ، واستطال حكمه سنوات طويلة (١٢٩٣/٦٩٣ - ١٣٤٠/٧٤١) عزل خلالها مرتين وولى غيره ، واستطاع خلال ولايته أن يدفع الخطر المغولى للمرة الأخيرة عن بلاد الشام ، وقام بثلاث حملات إلى بلاد النوبة ، أسفرت عن قيام مملكة إسلامية تدين بالطاعة للقاهرة ، واتسعت الدولة فى عهده اتساعًا كبيرًا ، فضمت مصر والشام والنوبة وبرقة والحجاز واليمن وأجزاء من آسيا الصغرى .

بعد موت الناصر توالى على حكم مصر خلال أربعين سنة ثمانية من أولاده وأربعة من أحفاده ، وكانوا فى معظمهم صغار السن ، لم تتوافر لهم هيبة المنصور ولا كفاءة الناصر ، وحكم بعضهم شهورا ، وحكم بعضهم الآخر أيامًا ، وخضعوا جميعهم لسيطرة الأمراء الكبار وبخاصة الجراكسة .

تعرضت البلاد فى سنة ١٣٤٩/٧٤٩ للوباء الأسود ، وهو الطاعون الذى عم العالم المعروف إذ ذاك ، وكان من شأنه اضعاف دولة بنى قلاون ، على أن أكبر معول فى هدمها هو الغزوة الصليبية للإسكندرية فى سنة ١٣٦٥/٧٦٧ .

كانت أسرة لوزجنان التى سبق لها أن حكمت فى بيت المقدس ، قد انتقلت إلى جزيرة قبرس ، وجعلت منها قاعدة صليبية للإغارة على سفن المسلمين فى البحر المتوسط ، أو الإغارة على الشواطئ الإسلامية فى مصر والشام ، وزادت هذه الأسرة فى غاراتها هذه بعد القضاء على الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة .

فى سنة ١٣٥٩/٧٦٠ اعتلى بطرس الأول عرش قبرس ، وشرع يتهيأ لحملة صليبية كبيرة ، ولما كانت موارده لا تكفى لتجهيز هذه الحملة ، فإنه طوف بأنحاء أوربا ثلاث سنوات ، حتى استطاع أن يحصل على الدعم المناسب لحملته .

جمع بطرس قواته فى جزيرة رودس وعين وجهتها ، وتسربت أخبار هذه الحملة إلى مصر، لكن يلبغا الخاصكى الذى استبد بدولة الأشرف شعبان، علق بأن " القبرسى أذل من أن يأتى إلى الإسكندرية " .

فى صباح الجمعة الثالث والعشرين من محرم ١٠/٧٦٧ من اكتوبر ١٣٦٥ اقتحم الصليبيون المدينة ، وأقاموا بها ستة أيام " فاستلموا الناس

بالسيف ، ونهبوا الحوانيت والدور ، وأحرقوا الخانات والقصور ، وخربوا المساجد والزوايا ، واعتدوا على النساء والبنات " .

بعد أن فعل الصليبيون بالمدينة الأفاعيل ، غادروها ومعهم آلاف الأسرى والسبايا ، سوى ماسلبوه ، ولدى وصول يلبغا الخاصكى بجيشه ، كان أهم ما انجزه أن أمر بدفن من قتل من المسلمين .

(ب) دولة المماليك البرجية :

كان السلطان المنصور قلاون قد بدأ فى استقدام هؤلاء المماليك الجراكسة ، ليدعم نفوذه إزاء أخصامه من المماليك التركية ، وتابع ولده سياسته بعده إلى أن تصاعد نفوذهم ، ووصل أحدهم وهو الأمير برقوق إلى منصب أتابك العسكر(١) ، فى سنة ١٣٧٨/٧٨٠ ، ثم سيطر على السلطان حاجى آخر سلاطين أسرة قلاون ، وفى سنة ١٣٨٢/٧٨٤ ، عقد اجتماعًا فى القلعة حضره الخليفة العباسى والقضاة والأمراء وتقرر فى هذا الاجتماع عزل حاجى وولاية برقوق ، الذى تلقب بالملك الظاهر ، وانتهى عصر المماليك البحرية ، ليبدأ عصر جديد هو عصر المماليك البرجية .

وثمة ملاحظتان أساسيتان على هذه الدولة ، أولاهما أنها لم تعرف وجود أسرة واحدة توارثت الحكم زمنًا طويلاً كأسرة قلاون ، وإن عرفت سلاطين ولوا أبناءهم عهودهم ، لكن هؤلاء الأبناء لم يحكموا سوى فترات قصيرة ، والملاحظة الثانية أنه - فيما عدا الغزوة التيمورية - لم توجد أخطار خارجية ، تحدق بهذه الدولة ، فى معظم مدتها ، فلم يعد للأيوبيين وجود فى بلاد الشام ، كما إن الصليبيين غادروها قبل قيام الدولة ، وذهب خطر المغول وضعف أمرهم وتوزعت دولتهم إلى دويلات .

---

(١) أى قائد الجيش

في سنة ١٣٩٩/٨٠١ مات الظاهر برقوق ، وخلفه ولده الناصر فرج ، وتعرضت بلاد الشام للغزو من قبل تيمورلنك (١٣٧٠/٧٧١ - ١٤٠٥/٨٠٧) فاستولى على حلب ثم دمشق ، وتحول إلى العثمانيين فأصابهم بهزيمة ساحقة في أنقرة سنة ١٤٠٢/٨٠٥ ، واضطر الناصر لأن يعلن تبعيته لتيمور ، وكان من حسن حظه أن مات هذا الأخير في سنة ١٤٠٥/٨٠٧ ، قبل أن يشرع في غزو ومصر .

عزل الأمراء الناصر في سنة ١٤١٢/٨١٥ ثم قتلوه ، ومرت البلاد بعشر سنوات من الفوضى ، انتهت في سنة ١٤٢٢/٨٢٥ بولاية برسباى .

يرتبط عهد برسباى بفتح المسلمين لجزيرة قبرس ، ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ما فعله ملك هذه الجزيرة بالإسكندرية قبل ستين سنة ، فأرسل برسباى ثلاث حملات ، أسفرت أخراها عن ضمها في سنة ١٤٢٧/٨٣٠ ، وبذا اتسعت السلطنة المملوكية اتساعًا كبيرًا .

* مات برسباى في سنة ١٤٣٨/٨٤١ وولى ولد له سنة واحدة ، ليخلفه الظاهر جقمق ، فتطلع إلى ضم جزيرة رودس ، وكانت بدورها معقلاً هامًا من معاقل الصليبيين ، ووجه إليها ثلاث حملات ، لكنها لم توفق في أن تدخل الجزيرة في حكم المسلمين .

بعد وفاة جقمق في سنة ١٤٥٣/٨٥٧ مرت البلاد بفترة من الاضطرابات ، إلى أن استقرت الأوضاع مع ولاية الأشرف قايتباى في سنة ١٤٦٨/٨٧٢ ، وحكم فترة طويلة تقترب من الثلاثين سنة ، وتميز عهده بالبدايات الأولى للنزاع بين العثمانيين والمماليك ، كما تميز أيضًا بنهضة معمارية تتمثل في عدد من المدارس والمساجد والقلاع ، ما يزال بعضها يحمل اسمه حتى عصرنا الحالي .

عادت الاضطرابات مرة أخرى بوفاة قايتباى فى سنة ١٤٩٦/٩٠١ إلى أن ولى الأشرف قانصوه الغورى ، فاستقرت الأحوال نسبيًا ، على أن ما جابهته الدولة من أخطار خارجية كان من شأنها أن تعجل بنهايتها .

فى أخريات القرن الخامس عشر الميلادى اكشف البرتغاليون طريقًا جديدً للتجارة ، غير طريق مصر والشام ، بأن التفوا حول القارة الإفريقية ، مما كان له أثره الفادح فى اقتصاد الدولة ، ولما كانت البندقية قد أضيرت هى الأخرى ، فإنها حرضت المماليك على التصدى للبرتغاليين فى البحار الشرقية، ورغمًا عن شجاعة المماليك وصبرهم على القتال ، إلا أنهم هزموا فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩/٩١٥ بالقرب من الشواطئ الهندية .

رافق هذا الخطر خطر آخر أفدح منه هو خطر العثمانيين ، الذين كانوا قد وصلوا إلى الغاية من غزواتهم فى أوربا ، وتوجهوا بأنظارهم إلى ما جاورهم من أقطار إسلامية ، فاصطدموا بالصفويين فى إيران وهزموهم ، ثم اقتربوا من حدود الدولة المملوكية ، عندما استولوا على الجزيرة والموصل ، وأخيرًا استولوا على إمارة دلغادر التركمانية فى سنة ١٥١٥/٩٢١ ، وكانت تحت الحماية المملوكية .

استقر رأى السلطان الغورى على الحرب فسار فى سنة ١٥١٦/٩٢٢ إلى حلب ، ودارت بينه وبين السلطان سليم العثمانى معركة عند مرج دابق ، وقد ثبت المماليك فى هذه المعركة ، وكاد يتحقق لهم النصر ، لولا خيانة بعض أمرائهم ومنهم خاير بك نائب حلب ، وانتهى الأمر إلى هزيمتهم وهلاك سلطانهم .

لما وصلت هذه الأنباء إلى مصر ، أعلن طومانباى سلطانًا باسم الأشرف ، وتصدى للعثمانيين فى الريدانية ، ورغمًا عما أبداه من شجاعة ، إلا أن الهزيمة حلت به ، فواصل المقاومة فى شوارع القاهرة ، ثم فى وردان

القريبة منها ، فتكررت هزيمته ، ولاذ ببعض الأعراب ، لكنهم سلموه إلى العثمانيين ، ومثلما أبدى طومانباى شجاعة لدى حربه ، فإنه أيضًا أبدى شجاعة لدى شنقه فى الثانى والعشرين من ربيع الأول ١٤/٩٢٣ من أبريل ١٥١٧ . وعلقت جثته على باب زويلة ، ودفنت بعد ثلاثة أيام .

(جـ) بعض السمات العامة للعصر المملوكى :

كانت السلطنة المملوكية ، هى أكبر قوة إسلامية ، عرفتها العصور الوسطى ، قبل صعود السلطنة العثمانية . ورغمًا عما كان يجرى فى بعض الأحيان من نزاعات على الحكم بين الأمراء ، وما كان يجرى فى أحيان أخرى من عسف مع رعايا الدولة من غير المماليك ، وتقلبات فى مياه النيل ، إلا أنه يمكن أن نقول على نحو عام أن الأحوال العامة كانت طيبة .

كان السلطان يزاول مهامه من قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) وله مجموعة من النواب يعاونونه فى هذه المهام يدعون بنواب السلطنة ، وكان نائب القاهرة هو الساعد الأيمن للسلطان ، يليه فى الدرجة نائب دمشق (أو نائب الشام) ثم نواب حلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك ، وكانت الإسكندرية هى المدينة المصرية الوحيدة سوى القاهرة التى لها نائب سلطنة .

ومثلما كان الاقطاع سمةً أساسيةً من سمات العصر الأيوبى فى مصر والشام ، فإنه استمر على حاله هذه فى العصر المملوكى واتسع مداه ، على أنه إذا كان المماليك قد اختصوا أنفسهم فى مصر باقطاعاتها ، إلا أنهم فى بلاد الشام أشركوا العصبيات المحلية وبخاصة البدو فى هذه الاقطاعات ، بل إنهم منحوا بعض زعمائهم ألقاب الإمارة وأشركوهم فى حروبهم ضد أعدائهم .

ازدهرت الأحوال الاقتصادية فى هذا العصر ، بسبب العناية الفائقة بالزراعة ، فأنشئت الجسور وحفرت الترع ، كما اعتنى كذلك بالصناعة ، ووصلت إلينا نماذج منها تدل على مدى ما تم احرازه فيها من تقدم ،

وصارت للتجارة أهمية عظمى بسبب الغزو والمغولى ، وما ترتب عليه من تحول طريق التجارة إلى مصرِ والشام ، ونالت الحكومة الكثير من عوائد الجمارك والمكوس .

نستطيع أن نستدل على مدى هذا الإزدهار من العمائر التى بقيت على الزمن مثل المساجد والأسبلة والحمامات ، وما تواتر فى مصادرنا التاريخية عن الاحتفالات الدينية والقومية وما اتسمت به من بذخ .

ورغمًا عن هذا الازدهار ، فإنه لم ينعم به سوى الفئات الحاكمة من المماليك ، وفئات أخرى محدودة من الأعيان والتجار والمعممين ، وعاش عامة الشعب فى بؤس وحرمان وفاقة .

امتد الازدهار إلى الحياة الثقافية ، ولاذ بمصر الكثير من العلماء ، هربًا من الغزو المغولى فى المشرق، والغزو الصليبى فى الأندلس والمغرب، كما إن بعض السلاطين والأمراء سعوا إلى تأكيد شرعيتهم ، فصاروا يعقدون مجالس علمية ودينية ، يحضرها النخبة من العلماء ، وكانوا يحسنون إليهم ويصلونهم ويجزلون عطاءهم ، كما ابتنوا مدارس ، جعلت لها أوقاف وأحباس .

برزت فى العصر المملوكى أسماء كبيرة فى علوم شتى وصنف هؤلاء كتبًا وموسوعات تناهت إلينا ، ومن بينهم ابن خلكان (ت ٦٨١) والبوصيرى (ت ٦٩٥) وابن منظور (ت ٧١١) والنويرى (ت ٧٣٢) وابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٨) وابن نُباته (ت٧٦٨) والدُميرى (ت ٨٠٨) وابن خلدون (ت ٨٠٨) والمقريزى (ت ٨٤٥) وابن حجر (ت ٨٥٢) والعينى (ت ٨٥٥) والقلقشندى (٨٥٩) وابن تغرى بردى (ت ٨٧٤) والسخاوى (ت ٩٠٢) .

الفصل السابع
الصليبيون والمغول

أولاً : الصليبيون

١ - الدعوة إلى الحروب الصليبية :

فى مطالع القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - بزغت فى أقصى العالم الإسلامى شرقًا قوة إسلامية فتية ، هى قوة السلاجقة .

ينتمى السلاجقة إلى الغز ، وهو شعب من الشعوب التركية ، وكانوا يعيشون فى بلاد تركستان ، ولدى هجرتهم إلى بلاد ما وراء النهر فى أواخر القرن الرابع الهجرى أسلموا ، وتنامت قوتهم ، وبعد صدامات لهم مع الدولة الغزنوية استطاعوا أن يسيطروا على خراسان ، ثم امتدت سيطرتهم إلى سائر انحاء إيران ، وفى سنة ١٠٥٦/٤٤٧ دخل زعيمهم طُغْرُلْبِك بغداد .

قبل وفاة طغرلبك فى سنة ١٠٦٣/٤٥٥ تطلع السلاجقة إلى بلاد الشام ، فاصطدموا بالفاطميين ، وتطلعوا إلى آسيا الصغرى ، فاصطدموا بالبيزنطيين .

استطاع السلاجقة أن يستولوا على أرمينية ، وكانت تدين بالطاعة للبيزنطيين ، ثم جاوزوها إلى غيرها من الأراضى الرومية ، فاجتاحوا قبادوقيا ، وألحقوا بالروم هزيمة كبيرة قرب سيواس ، واستولوا على مدينة ملازكرد Manzikert شمالى بحيرة وان Van ، كما استردوا مَلَطِيَّة .

هرع رومانوس ديوجينيس Romanus Diogenes ملك الروم للقاء السلاجقة بقيادة سلطانهم ألب أرسلان (١٠٦٣/٤٥٥ - ١٠٧٢/٤٦٥) وفى ذى القعدة ٤٦٣ / أغسطس ١٠٧١ دارت معركة كبيرة جنوبى ملازكرد ، أفضت عن كارثة كبيرة ، إذ أبيد كثرة الجيش الرومى ، وأسر الامبراطور ، وأطلق بعد أداء فدية كبيرة .

ترتب على معركة ملازدكرد أن ارتفع شأن ألب أرسلان ، وصار لقبه " السلطان الأعظم ملك العرب والعجم سيد ملوك الأمم " والأهم أن استرد السلاجقة كل ما سبق أن استولى عليه الروم فى زمن الأسرة المقدونية من المسلمين بما فيه مدينة أنطاكية ، وتوغلت جيوشهم فى عمق آسيا الصغرى ، ووصلت إلى قريب من بحرى إيجه ومرمرة ، وجعلوا مركزهم فى نيقية ، وبدا أن القسطنطينية ذاتها وشيكة السقوط فى أيديهم .

كان لا بد أن يسارع البيزنطيون فى طلب المعونة من اخوانهم النصارى الأوروبيين ، وبخاصة بباروما ، ووجد صريخهم صدىً لدى البابا جريجورى السابع الذى اشتهر بحماسته الدينية الفائقة ، فخاطب ملوك أوربا وأمراءها يحفزهم إلى نصرة ملك الروم ، لكنه لم يلبث أن شغل بنزاعاته مع الامبراطور الألمانى هنرى الرابع .

صار الكسيوس كومينينوس (١٠٨١ - ١١١٨) امبراطورًا فى سنة ١٠٨١ ، وعاود الأتراك توسعهم على حساب الروم ، وعاود الكسيوس فى سنة ١٠٩٥ الاستنجاد بالبابا .

فى نوفمبر ١٠٩٥ عقد مجمع دينى فى كليرمون Clermont بفرنسا ، وفى هذا المجمع انطلقت الشرارة الأولى للحروب الصليبية ، فقد دعا البابا أوربان الثانى نصارى أوربا فى أقطارهم كافة إلى الحرب المقدسة بهدف تخليص القبر المقدس من قبضة المسلمين ، ووجد نداءه استجابةً من الحضور الذين رددوا : " هكذا أراد الله " Deus Vult. Deus Vult .

ذهب البابا فى دعوته إلى أبعد مما كان يتطلع إليه ألكسيوس ، فبدلاً من استرداد أراض ، استولى عليها المسلمون من الروم فى العهد الأخير ، صارت دعوة البابا هى استرداد كل ما استولى عليه المسلمون منذ فتوحهم الأولى ، بما فى ذلك الأرض المقدسة ، وطفق يروج لدعوته هذه فى الشهور التالية

لمجمع كليرمون ، وتحدد يومَ " صعود العذراء " وهو الخامس عشر من أغسطس ١٠٩٦ موعدًا لرحيلِ القوات الصليبية .

٢ - الخلفية الفكرية للحروب الصليبية(*) :

الحرب نشاط عرفته البشرية فى عصورها كافة ، والحروب الصليبية شأنها شأن سائر الحروب ، لابد لها من دوافع ، تفاوتت بين مؤرخ ومؤرخ آخر ، ونذهب إلى أن هناك دوافع عامة حركت الحملات الصليبية جميعها ، ودوافع خاصة بكل حملة على حدة ، والدوافع فى الحالين متداخلة ، بحيث يصعب أن نفصل دافعًا عن دافع آخر ، على أن الدوافع العامة والخاصة - معًا - يمكن أن نردها إلى خلفيتين أساسيتين ؛ خليفة فكرية ذات وشائج دينية ، صاحبت الحملات جميعها ، والحملة الأولى على نحو خاص ، وخلفية اجتماعية تتمثل فى مواقف الفئات الثلاث المكونة للمجتمع الأوربى المعاصر لهذه الحملات ، أو بعبارة أخرى استجابة هذه الفئات للدعوة الصليبية ، ومدى هذه الاستجابة .

النصرانية - نعلم - ديانة تدعو إلى الحب ، وما دامت تدعو إلى الحب ، فهى تدعو إلى السلام ، وهذا يعنى بالضرورة أنها لا تحبذ الحرب ، لكنه لا يعنى - بالضرورة أيضًا - موافقة الواقع للمثال ، ففى غربى أوربا ، وعبر قرون عدة نمت فكرة الحرب المقدسة ، وهى حرب عادلة ، من حيث كونها مقدسة ، والهدف منها فرض السلام - سلام الرب - ووجدت هذه الفكرة قبولاً من البابوية ، خصوصًا بعد أن تطرقت خيل المسلمين إلى إسبانيا وأقطار أوربية أخرى ، ونشب صراع بدا بغير نهاية بين النصارى والمسلمين .

(*) أفدنا فى كتابة هذه الفصلة والفصلة التالية لها من كتاب صديقنا الفاضل الأستاذ قاسم عبده قاسم " الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية " .

لدى الممارسة ، فإن فكرة الحرب المقدسة اتسع مداها وتعددت أهدافها، ولم يعد المسلمون وحدهم ولا الوثنيون هم الأعداء الذين تجب حربهم ، إنما دخل بعض النصارى فى جملة هؤلاء الأعداء ، وهذا يفسر – من إحدى الزوايا – حروبًا خاضتها البابوية ضد بعض الحكام النصارى ، وضد بعض الجماعات النصرانية فى القارة الأوربية .

وترتبط فكرة الحرب المقدسة برافد هام هو فكرة الحج إلى الأراضى المقدسة ، فهذه الفكرة وإن كانت فكرة قديمة ، تعود إلى فترة باكرة فى تاريخ النصرانية ، إلا أنها جدت عليها تطورات فى العهد الأخير ، فلم تعد مجرد تعبير عن التقوى وحب المسيح والتبرك بالأرض التى عاش فيها ، وجاوزت ذلك إلى أن يصير الحج تعبيرًا عن الرغبة فى التطهر والتكفير عن خطايا والخلاص.

بدأت جماعات كبيرة من الحاج تفد من غربى أوربا إلى الأرض المقدسة ، وأعانهم على ذلك أن الطريق صارت آمنة بعد أن دخلت فى النصرانية شعوب تعيش على هذه الطريق كالمجريين ، كما إن الدولة الفاطمية – وهى صاحبة الولاية على بيت المقدس – كانت مشهورة بتسامحها الفائق مع الغير المسلمين .

على أن توافد الحاج بأعداد كبيرة (حج بالجملة en Masse) جعل بعضهم يحملون أسلحة ، أفضت فى بعض الأحيان إلى وقوع مصادمات بينهم وبين بعض المسلمين ، ولدى عود هؤلاء إلى أوطانهم كانوا يضخمون فى رواياتهم ، ويضفون عليها من خيالهم الشئ الكثير ، مما روج للزعم القائل بضرورة تخليص القبر المقدس من قبضة المسلمين ، وبذا اختلط مفهوم الحج بمفهوم الحرب المقدسة .

نصل الآن إلى رافد آخر هام لهذه الحرب ، هو التراث الجرمانى فى الحضارة الأوربية المعاصرة ، والجرمان أهم الشعوب التى غلبت على غربى

أوربا فى العصور الوسطى الباكرة ، ومنهم الفرنجة ولهم تاريخ دموى مع المسلمين والوثنيين على سواء ... هؤلاء الجرمان عندما تنصروا ، لم يتخلوا عن تراثهم البطولى القديم ، فهذا التراث يعلى من شأن القوة ومن النزعة القتالية ، ويحبذ الموت فى ساحة الوغى ، وقد تم إضفاء طابع نصرانى على هذا التراث ، بحيث صار الموت استشهادًا ، إلى جانب كونه بطولة ، وأفادت البابوية من هذا التطور ووجهته لما فيه مصلحتها .

ثم إن الجرمان – وقد صاروا نصارى – عاودوا أسلوب حياتهم القديم أى القتال ، واتخذ هذا القتال صورة حروب ، قد تكون صغيرة أو قصيرة ، لكنها متواترة بين أصحاب الاقطاعات من الفرسان والنبلاء ، وسعت الكنيسة إلى تهذيب هذه النزعة ، بأن حددت فترات بعينها ، دعتها بهدنة الله Treuga Dei ، لا يعرض فيها قتال ، لكن هذه الهدنة لم تكن موضعًا للإحترام فى كل الأحوال ، لذا فإنه عندما سنحت الفرصة للحرب فى مكان غير المكان ، وضد أقوام (وثنيين) فإن هذه الفرصة وجدت تشجيعًا من جهات عدة ، وجرى تجربتها مع (الوثنيين) فى إسبانيا ومع وثنيين فى شرقى أوربا ، ثم صارت الفرصة أوضح مع شعوب (وثنية) فى المشرق الإسلامى .

الرافد الأخير هو الرافد الإسلامى نعنى فكرة الجهاد ، ففكرة (أو فريضة) الجهاد ، أى الحرب المقدسة دفاعًا عن الملة فى المفهوم الإسلامى ، انتقلت من المسلمين إلى النصارى ، وكان أهم جسر عبرت عليه هذه الفكرة هو بلاد الأندلس ، وكانت وسيلتها رباطات أقامها نفر من زهاد المسلمين وعبادهم فى الثغور المجاورة لدار الحرب ، وعلى نهجها نشأت بين بعض الرهبان فى هذه الدار جماعات عسكرية – دينية ، وتحول هؤلاء الرهبان إلى محاربين أشداء ، وصارلهم حضور واضح فى حرب الاسترداد La Reconquista .

فكرة الجهاد عندما انتقلت من إسبانيا الإسلامية إلى إسبانيا النصرانية تغير مضمونها ، على نحو أو آخر ، ولم تعد مجرد الدفع عن العقيدة ، وإنما لتبرير العدوان ، وتبدلت مصطلحاتها ، فحل الغفران محل الثواب ، لكن طابعها العام أى الحرب المقدسة والحماسة المرافقة لهذه الحرب ظل واحدًا .

عن طريق إسبانيا انتقلت فكرة الجهاد ، بعد أن تم تنصيرها إلى سائر أوربا ، وعشية الحروب الصليبية ، كانت قد صادفت قبولاً كبيرًا عند الأوربيين ، بسبب النجاحات التى حققها الإسبان ضد مسلمى الأندلس ، واستيلائهم فى سنة ٤٧٨/١٠٨٥ على طليطلة حاضرة بلادهم فى القديم ، مما شجع قومًا كالنورمانديين على غزو بَرْبَشْتُر Barbastro على التخوم الفرنسية، بعد سنوات قليلة ، وبدت منهم مظاهر فائقة من التعصب لا حدود لها ، وقد ذاع خبر سقوط هذه المدينة فى كل أوربا ، ووصل إلى القسطنطينية وروما ، وصار مثالاً يحتذى عن الأوربيين .

فكرة الحرب المقدسة - وقد نجحت فى الأندلس - صارت إذن فكرة محبذة بل محببة فى أدبيات الفكر السياسى عند الأوربيين عشية الحروب الصليبية ، لكن الاقتناع بفكرة شىء ومباشرة هذه الفكرة واقعًا شىء آخر ، وكان قدرًا أن وافق هذا الفكر واقعًا كان يعيشه الأوربيون فى أخريات القرن الحادى عشر .

٣ - الخلفية الاجتماعية للحروب الصليبية :

يطلق على العصور الوسطى فى المرحلة السابقة للحروب الصليبية تعبير العصور المظلمة ، وكان المجتمع مستقطبًا استقطابًا حادًا بين طبقات ثلاث؛ فلاحون ثم نبلاء ورجال دين، وكان الفلاحون - وهم الفئات المنتجة - يشكلون السواد الأعظم من السكان ، يعيشون حياة صعبة ، يسودها الفقر والمرض والمجاعة ، كما يسودها حروب بين السادة وسلب ونهب ، ولا

يعلمون شيئًا عما هو خارج قراهم أو ضياعهم ، وليس لهم من نافذة على العالم المحيط بهم سوى القس الذى كانت ثقافته ، لا تختلف كثيرًا عن ثقافتهم، وهو يعطيهم معلومات فجة وسطحية عن هذا العالم ، ويدفع بهم إلى التصديق بأشياء تخرج عن دائرة العقل ، لذا كان من اليسير أن يقع الفلاح الساذج الجاهل فى إسار دعاوة مشعوذ جاهل هو بطرس الناسك .

لا يخفى أيضًا مارافق هذه الدعاوة من وعد بأرض تفيض باللبن والعسل ، أو وعد بالخلاص فى حياة أخرى كان قمينًا بأن يدفع هؤلاء المعدمين لأن ينضووا تحت راية الصليب ، ويتدفقوا حماسةً وحقدًا وتعصبًا ، فليس لديهم ما يفقدون وربما يربحون .

وجدير بالذكر أن هؤلاء الفلاحين أو العامة كانواهم الوعاء الذى خرج منه غالب سكان المدن التجارية الناشئة وبخاصة فى إيطاليا ، وكانت هذه المدن تتطلع إلى أسواق الشرق الغنية ، واضحت لها أساطيل قوية ، تحكمت فى مياه البحر المتوسط ، بعد أن ذهبت السيادة الإسلامية عنه ، بذهاب المسلمين عن جزائره ، وبخاصة إقريطش وصقلية .

الطبقة الثانية وهى طبقة النبلاء (والفرسان) فرغمًا عن كونهم طبقة مميزة ، إلا أنهم استجابوا لداعى الحرب المقدسة من منطلقين ؛ أولهما الرغبة المحمومة فى أرض يمتلكونها ، لأن وراثة الاقطاع كانت تتحدد فى الابن الأكبر ، دون سائر إخوانه ، وثانيهما أن هدنة الرب كانت تحجب عنهم نشاطًا يستعذبونه ، والفارس لا يجد نفسه إلا فى القتال ، ثم إن ثقافته لم تكن أعلى بكثير من ثقافة غيره من العامة ، فكان مطيعًا لرجل الدين ، ويرى أن التكفير عن ذنب بحرب مقدسة أيسر من الالتزام بالفضيلة .

شاهد الفرسان نموذجًا ناجحًا من الحرب المقدسة مع الصقالبة فى شرقى أوربا ، ومع المسلمين فى إسبانيا وصقلية ، وباتوا يتطلعون إلى نموذج آخر على أرض فلسطين .

أما عن رجال الدين فإن الكنيسة شهدت خلال القرن العاشر نهضة دعيت بالنهضة الكلونية (نسبة إلى ديركلونى) تهدف إلى الفصل بين الأديرة والنظام الاقطاعى السائد فى أوربا ، وتنامت هذه النهضة فى القرن الحادى عشر ، فصارت تهدف إلى الفصل بين الحكام الزمنيين ورجال الدين ، فلا يتدخل هؤلاء فى تعيين أولئك ، وكان هذا من شأنه أن يصاعد من نفوذ الكنيسة والبابوية على نحو خاص ، مما أفضى إلى صراع طويل بين الدولة والكنيسة ، أو بين الامبراطورية والبابوية .

وجدت الكنيسة فى الفكرة الصليبية ضالتها لتأكيد سيادتها على الدولة فى أوربا وعلى النصارى فى أقطارهم كافة ، وظلت حريصة على هذه الفكرة ، حتى بعد أن ذهب زمان الحروب الصليبية ، وأضحت ماضيًا ، ليس ثم أمل فى أوبه .

كانت الاستجابة للحرب الصليبية أكبر مما كان يتوقع دعاتها ، فزادوا من حجم دعاواتهم ، وصارت هذه الدعاوة تتوشها مجموعة من الأساطير والروايات المغلوطة والتفسيرات المشوهة والنصوص المبتورة عن سياقها وأنصاف الحقائق والأكاذيب ، وراجت نبوءات تبشر بقرب عود المسيح وتحرض على الإسراع بالتوبة ، وهذا كل ولد حقدًا أعمى ضد قوم جريمتهم أن كان لهم دين غير الدين، وأن ضمت أرضهم مشاهد مقدسة لأقوام غيرهم. ونستطيع أن نتلمس صدى لهذه الروح فى الأدب المعاصر والشعبى منه على نحو خاص ، وأهمه أنشودة رولان La Chanson de Roland ، وهى وإن كانت تستند إلى واقعة حقيقية جرت فى أسبانيا فى أخريات القرن الثامن الميلادى ، إلا أن الشاعر الشعبى الذى نظمها فى القرن الحادى عشر ، كان يعكس فى صوره وخياله وأفكاره ما كان سائدًا فى عصره هو ، وصارت هذه الأنشودة فيما بعد هى الملحمة الوطنية العظمى لفرنسا .

٤ - القوى الإسلامية عشية الحروب الصليبية :

فى سنة ١٠٩٢/٤٨٥ مات السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، وبموته ينتهى عهد السلاجقة العظام ، فقد تقاسم ولده وقرابته امبراطوريته الواسعة ، وتنازعوا على لقب السلطنة ، واستبد أخوه تُتُش ببلاد الشام ، ولما قتل فى سنة ٤٨٨ توزعت دولته بين ولديه ، فاختص رضوان بحلب ، واختص دقاق بدمشق ، ونشبت حرب بين الأخوين ، أسفرت عن هزيمة هذا الأخير بقنسرين ، ثم اتفقا على أن تقام الخطبة باسميهما معًا فى دمشق .

أما فى آسيا الصغرى ، حيث حكمت سلطنة سلاجقة الروم فى نيقية ، فقد تدهورت حالها ، وخرجت على طاعتها إمارة بنى دانشمند التركمانية فى سيواس ، وأعلنت تبعيتها لسلاجقة فارس ، ونشأت حال مستحكمة من العداء بين الاثنتين ، دامت حتى مقدم الصليبيين .

أما الفاطميون فإن نفوذهم انحسر عن معظم بلاد الشام ، وبقيت فى أيديهم بعض المدن فى فلسطين نازعتهم عليها عصبيات محلية ، وكانت تسعى إلى الاستقلال بها ، وكانت الدولة فى شغل عن هذا كله بما جرى من نزاعات بين القادة الطموحين لمنصب الوزارة ، وما جرى أيضًا من نزاعات بين الأجناد من عرب ومغاربة وترك وأرمن وسودانيين .

لم يكن المسلمون إذن جبهة واحدة عندما بدأت طلائع الصليبيين تفد إلى بلادهم ، ولم يأخذوا أمرهم مأخذ الجد ، خصوصًا بعد أن فتكوا بالحملة الشعبية - كما يرد بعد - وكانوا يظنون أن هذه الغزوة أشبه بغزوات أخرى تمرسوا بها مع الروم ، وأنها لا تلبث أن تنقضى سريعًا ، كما انقضت هذه الغزوات ، ولم ينتبهوا إلى حقيقة هؤلاء الغزاة إلا بعد أن شاهدوا خيلهم تطوى أرضهم ، ثم تخوض فى دمائهم بمسرى النبى ﷺ .

٥ – الحملة الصليبية الأولى والوجود الصليبى فى بلاد الشام :

كان رد الفعل المباشر لدعوة البابا أوربان الثانى نهضة شعبية تزعمها بطرس الناسك وهو راهب فرنسى مشعوذ زرى الخلقة رث الثياب ، اصطحب حماره ، وتجول فى أنحاء عدة من فرنسا وألمانيا ، يلهب حماسة الفلاحين البسطاء ، فتبعته جموع غفيرة ، بعضهم من الأتقياء وبعض آخر من النبلاء ، لكن كثرتهم كانوا من الجياع والرعاع وقطاع الطرق واللصوص، بل من الزناة والقتلة ، وفى ربيع سنة ١٠٩٦ وقبل الموعد الذى حدده البابا ، كانت هذه الجموع قد اتخذت طريقها صوب المشرق .

لم يكن بطرس الناسك هو الزعيم الوحيد الذى قاد العامة فى حملتهم الصليبية هذه ، فقد وجد إلى جانبه زعماء آخرون أهمهم والتر المفلس .

عبرت هذه الحشود ألمانيا إلى المجر ثم بلغاريا ، ووصلت فى النهاية إلى أسوار القسطنطينية ، وكانت فى هذا العبور تثير الفوضى حيثما حلت ، فاصطدم أفرادها بأهالى البلاد ، وقتل منهم آلاف ، وقتلوا بدورهم آلافًا ، وأمعنوا فى السلب والنهب ، وكانت صدمة كبيرة للامبراطور ، لأنه كان يتوقع جيشًا نظاميًا يقوده نبلاء ، فوجد جيشًا غير منظم من الدهماء ، يقوده راهب مشعوذ وآخر مفلس .

عندما وصل هؤلاء إلى الأراض التركية ، بالقرب من نيقية ، كان شيئًا طبيعيًا أن تنوشهم سيوف الأجناد الأتراك المتحضرين ، وتحصدهم وتأسر صبيانهم وتسبى نساءهم ، وقتل والتر المفلس ، ونجا بطرس الناسك ومعه مئات قليلة – لينضم إلى حملة النبلاء بعد ذلك .

تزعم الحملة النظامية عدة أمراء ، يغلب عليهم الطابع الفرنسى ، هم جودفرى دى بوايون Godfrey de Bouillon أمير لوثر نجيا (اللوريـ ن) وأخوه بلدوين البولونى وبوهيموند النورمانى وابن أخته تانكريد Tancred

وريموند أمير بروفانس وروبرت أمير نورمانديا ، وصحبهم أدهيمار Adhemar مندوبًا عن البابا ، وعند وصولهم إلى القسطنطينية ، أقسموا – فيما عدا ريموند – يمين الولاء للامبراطور ، وتعهدوا بأن يردوا إليه ما يقع فى أيديهم من أراض إسلامية ، على أن هذا القسم لم تعد له قيمة كبيرة بعد سنوات .

انتقل الصليبيون إلى البر الآسيوى ، وحاصروا نيقية ، وكان سلطانها غائبًا عنها فى حرب له مع بنى دانشمند حول ملطية ، فلم يكترث للغزاة ، وحسب أنهم على غرار أصحاب بطرس الناسك ، وعندما تنبه إليهم كانوا قد اقتحموا عاصمته ، ثم انتصروا عليه عند ضوريليوم Dorylaeum (إسكى شهر) ودخلوا قونية ثم هرقلة وقيسارية ، وعبروا جبال طوروس إلى مرعش، وبذا صاروا يطلون على بلاد الشام .

إنفصل بلدوين أخو جودفرى ومعه تانكريد إلى قليقية ، ومنها إلى الرها، حيث استقربها ، واستولى على مدن مجاورة لها ، لتنشأإمارة صليبية قوية ، كان لها شأنها فى الصدر الأول لعصر الحروب الصليبية .

زحف سائر الصليبيين إلى أنطاكية ، وحاصروها وصمدت المدينة فى مدافعتهم ، لكن النجدة التى وعد بها كربوقا أتابك الموصل ، وصلت بعد أن سقطت المدينة فى أيدى أعدائها فى جمادى الثانية ٤٩١ / يونية ١٠٩٨ ، كما إنه هزم فى محاولته استعادتها .

كان لسقوط أنطاكية دوى كبير عند المسلمين والصليبيين معًا ، فهى مفتاح بلاد الشام ، وهى أيضًا مدينة ألفية ، ولها مكانة فريدة فى تاريخ النصرانية .

نشب نزاع بين بوهيموند وريموند حول أنطاكية ، إلى أن تحقق للأول الفوز بها ، وجعلها مركزًا لإمارة توارثها عقبه بعده .

اتخذ الصليبيون وجهتهم إلى بيت المقدس ، فساروا على طول الساحل، حيث استولوا على بعض المدن ، وهادنتهم مدن أخرى ، وأما طرابلس ، فأنها تعرضت لحصارهم عدة مرات ولعدة سنوات ، إلى أن سقطت فى أيديهم فى سنة ١١٠٩/٥٠٢ ، لتصبح مركز الإمارة الصليبية الثالثة ويصبح ريموند أميرًا لها .

وصل الصليبيون إلى أسوار بيت المقدس ، حيث حاصروها أربعين يومًا، وشددوا حصارهم لها إلى أن اقتحموها فى يوم الجمعة ٤ من رمضان ١٥/٤٩٣ من يوليو ١٠٩٩ ، ولا حقوا المسلمين فى طرقات المدينة ، ولم يرحموا من لاذمنهم بالمسجد الأقصى ، ففتكوا بهم ، وخاضت خيلهم فى دمائهم .

غداة استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، لم يعد يوجد بها مسلم واحد حر ، فقد سفك الصليبيون دماء سبعين ألفًا من سكانها واسترقوا سائرهم .

صارت بيت المقدس من نصيب جودفرى الذى اتخذ لقب " حامى القبر المقدس " Advocatus Sancti Sepulchri ، ولدى وفاته فى العام التالى ، خلفه أخوه بلدوين – صاحب الرها – فكان أول ملوك بيت المقدس ، وحل محله فى الرها قريب له يدعى بلدوين دى ليبورج Baldwin de Le Bourg .

أحدث سقوط بيت المقدس وما ترتب عليه من إبادة سكانها دويًا من الرعب بين المسلمين ، فسارعت مدن أخرى قريبه منها ، ففتحت أبوابها للصليبيين .

كانت بيت المقدس – من الناحية الرسمية – تابعة للدولة الفاطمية ، لكن هذه الدولة لم تتخذ موقفًا قويًا من الصليبيين ، بل إنهم عندما حاصروا أنطاكية ، أرسلت إليهم سفارة تدعوهم إلى حلف مشترك ضد أعدائهم المشتركين وهم السلاجقة ، ولا ندرى مدى استجابة الصليبيين لهذه الدعوة ،

لكننا نرجح أن ليس مصادفة أن يستولى هؤلاء على أنطاكية ، وفى الوقت نفسه يستولى الأفضل على بيت المقدس ، وربما تصور هذا الوزير أن الصليبيين سوف يكتفون بشمالى الشام ، ويتركون جنوبيه لذا لم يكن مستعدًا لمواجهتهم فى بيت المقدس .

عندما علم الأفضل بحصار الصليبيين للمدينة المقدسة ، خرج بجيشه من القاهرة ، لكنه لم يستطع ان يفعل شيئًا ، لأن بيت المقدس سقطت قبيل وصوله إلى عسقلان ، بل إن الصليبيين تجمعوا قرب الرملة ، وتوجهوا صوب عسقلان وهزموا جيشه ، واضطروه للهرب إلى مصر ، لكنهم لم يتمكنوا من دخول عسقلان ، التى ظلت شوكة فى حلوقهم حتى سنة ١١٥٣/٥٤٨ .

فى السنوات التالية عاودت الدولة الفاطمية ارسال جيشها فى محاولات لطرد الصليبيين ، وباءت محاولاتها جميعها بالفشل ، وفى سنة ١١٠٥/٤٩٩ انسحبت من الصراع ، تاركة أهل فلسطين لمصيرهم ، فتتابع سقوط مدن الساحل الواحدة تلو الأخرى ، وكانت صور هى آخر مدينة كبيرة تسقط فى أيديهم فى العام ١١٢٤/٥١٨ .

٦ - الزنكيون والمقاومة الإسلامية للغزوة الصليبية :

درج السلاطين السلاجقة على أن يستقدموا مماليك أتراكًا ، يستعينون بهم فى حروبهم ، ثم منحوا كبارهم اقطاعات مقابل خدماتهم ، وصار الواحد منهم يلقب بأتابك ، أى الإمير الوالد ، لأنهم كانوا يقومون على تربية أولاد السلاطين ، ولم يلبث هؤلاء الأتابكة ، أن سيطروا على السلطنات السلجوقية ، عدا سلطنة سلاجقة الروم (أى سلاجقة آسيا الصغرى) التى ظلت باقية حتى أدمجت فى السلطنة العثمانية .

ترتبط المقاومة الإسلامية للغزوة الصليبية بأتابكية الموصل ، فقام مودود أتابكها بثلاث حملات إلى الرها ، عدلت أخراها إلى مملكة بيت

المقدس ، ومع أنه اغتيل فى سنة ١١١٣/٥٠٧ على يدى أحد الحشاشين ، إلا أن خليفته آقسنقر البُرْسُقى واصل جهاده ضد الصليبيين ، فغزا الرها وأنطاكية، إلى أن أغتيل هو الآخر فى سنة ١١٢٦/٥٢٠ على يدى أحد الحشاشين ، وخلفه ولده عز الدين مسعود الذى مات بعد عام واحد ، ليخلفه عماد الدين زنكى .

خدم عماد الدين فى مناصب السلطنة السلجوقية ، فأظهر كفاءةً عاليةً ، وأسندت إليه البصرة وواسط ، ثم صعد إلى أتابكية الموصل ، وشرع يواصل مسيرة الجهاد التى بدأت قبل سنوات ، فأنقذ حران وحلب من السقوط فى أيدى الصليبيين ، مما دفع السلطان السلجوقى ، لأن يصدر له فى عام ١١٢٨/٥٢٢ توقيعًا بملك الشام والجزيرة .

اضطر عماد الدين لأن ينصرف عن الجهاد لعدة سنوات ، بسبب شغله بالصراعات بين أبناء البيت السلجوقى ، ثم بينهم وبين خليفة بغداد ، فلما هدأت الأحوال ، شرع فى شن هجمات على القوى الصليبية ، مما دفع هؤلاء فى سنة ١١٣٨/٥٣٢ إلى تشكيل حلف بينهم وبين البيزنطيين ، هدفه الاستيلاء على حلب ، وحاصروا فى طريقهم شيزر ، فهرع زنكى لنجدتها ، واستطاع بحسن سياسته أن يثير خلافات بين الحلفاء ، فرفعوا حصارها عنها ، وعادوا أدراجهم من حيث أتوا .

سعى زنكى لتوحيد القوى الإسلامية فى بلاد الشام ، فاستولى على حمص وحماة وبعلبك ، وبات يتطلع إلى دمشق ، لكن معين الدين أُنَر الذى استبد بها دون أتابكها مجير الدين أبق البورى ، وتحالف مع ملك بيت المقدس ، أعانهم فى الاستيلاء على بانياس من أملاك عماد الدين فى سنة ١١٤٠/٥٣٤ .

أفاد الصليبيون من هذا الحلف ، فابتنوا حصونًا لهم قريبة من دمشق فى مواجهة الزنكيين ومنها صفد ، كما ابتنوا حصونًا أخرى جنوبى المملكة فى مواجهة مصر ومنها الكَرَك .

نتيجة لذلك اضطر زنكى ، لأن يصرف جهوده إلى أطراف دولته شمالاً ، وتوجه بصره إلى الرها ، وكانت تشكل بموقعها خطرًا على طريق المواصلات بين الموصل وحلب ، وهما جناحا دولته ، وأعانه على ذلك أن الحلف الذى كان قائمًا بين الصليبين والبيزنطيين تصدع ، ففرض حصاره على المدينة فى سنة ٥٣٩/١١٤٤ .

كان جوسلين Joscelin أمير الرها متغيبًا إذ ذاك فى تل باشر من أعمال إمارته ، فلما علم بحصار عماد الدين للرها ، طلب معونة أمير أنطاكية ، والوصية على مملكة بيت المقدس ، لكنهما لم يتحركا ، ودخل زنكى المدينة فى يوم عيد الميلاد ، وكانت مفاجأةً أن يعامل المسلمون أهالى أول مدينة كبيرة تسقط فى أيديهم معاملة طيبة .

بعد الاستيلاء على الرها انصرف عماد الدين للاستيلاء على الأراضى التابعة لها ، ثم بدأ يتهيأ لمعاودة طموحه للاستيلاء على دمشق ، واتخذ طريقه إليها ، لكن اغتيل لدى حصاره قلعة جعبر فى ربيع الثانى ٥٤١ / سبتمبر ١١٤٦ .

خلف عماد الدين ولداه سيف الدين غازى واختص بالموصل ونور الدين محمود واختص بحلب ، وحاول جوسلين أمير الرها أن يستعيدها ، واستطاع بالفعل أن يقتحمها ، لكن حامية المدينة صمدت بقلعتها ، وخف نور الدين لنجدتها ، ونجح فى استعادة المدينة ،بعد أن قتل معظم سكانها من الصليبيين ، وهرب جوسلين بصعوبة وهو جريح .

لم يكتف نور الدين باستعادة الرها ، فقد بدأ يتردد بغزواته على إمارة أنطاكية المجاورة ، حتى استطاع أن يسترد معظم ما كان لها من أراض شرقى نهر العاصى ، كما سعى إلى أن يستميل إليه معين الدين أنر بدمشق

وصاهره ، وأعانه على رد الصليبيين ، الذين خرجوا عن تحالفهم معه ، وتطلعوا للاستيلاء على حوران .

أحدث سقوط الرها رد فعل عنيف فى الغرب الأوربى ، فقد كانت قاعدة أول إمارة صليبية ، كما إن ذكرها يرتبط بأدبيات النصرانية فى تاريخها الباكر ، ومن هنا ظهرت الدعوة لحملة صليبية جديدة ، وكانت هذه الحملة من شأن كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، وتهيأ لكل منهما جيش عدته سبعون ألفًا .

عبر كونراد بجيشه إلى آسيا الصغرى ، وبدلاً من أن يسير بمحاذاة الساحل الجنوبى ، اتخذ طريقه إلى جوف البلاد ، فاصطدم بالسلاجقة عند إسكى شهر ، فهزم وتراجع بفلوله إلى نيقية ، ليلتقى هناك بلويس السابع ، فسار الجيشان على الطريق الساحلى إلى أزمير ثم إفسوس ، وبعد ذلك انفصل كونراد بجيشه إلى القسطنطينية ، وعبر منها بطريق البحر إلى فلسطين .

واصل لويس مسيره حتى وصل إلى أنطاكية ،حيث اختلف أمر الصليبيين ، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى الرها ، فيستعيدونها من المسلمين ، توجهوا إلى بيت المقدس ، حيث عقد مؤتمر حضره كونراد ، وتقرر فى هذا المؤتمر الاتجاه إلى دمشق .

اجتمعت الجيوش الصليبية عند طبرية فى ربيع الأول ٥٤٣ / يوليو ١١٤٨ ، وترددت بغاراتها على الغوطة ، وهرع نور الدين وأخوه سيف الدين لنجدة دمشق ، فقوى أمر المسلمين بها ، وشرع معين الدين أنر يناور بين الزنكيين والصليبيين ، ولوح للأخرين بالتنازل لهم عن بانياس ، وكانت قد عادت إلى المسلمين ، واضطر الصليبيين - وقد تناقصت أقواتهم - إلى الانسحاب ، ثم أبحر كونراد إلى أوربا ، ولحق به لويس بعد شهور .

لم تحقق الحملة الصليبية الثانية أهدافها ، وبدأ الصليبيون أضعف مما يظن المسلمون وقام نور الدين بهجمات على أنطاكية ، وألحق بأميرها هزيمة كبيرة فى صفر ٥٤٤ / يونيو ١١٤٩ وقتله ، وبعث برأسه إلى الخليفة العباسى ببغداد ، وشرع فى فرض حصاره على أنطاكية نفسها ، لكنه رفع الحصار ، لما وجده من مناعتها ، وتدفق الأمداد الصليبية إليها .

صرف نور الدين جهده إلى أن يستولى على ما تبقى لإمارة أنطاكية من أراض شرقى نهر العاصى ، وفى سنة ١١٥١/٥٤٦ اقتسم مع حلفائه من السلاجقة والأراتقة ما تبقى من إمارة الرها ، بعد هزيمة أميرها جوسلين وأسره ، ثم موته فى الأسر بعد ذلك .

نتيجةً للهزائم التى منى بـه الصليبيون عاود بلدوين الثالث ملك بيت المقدس محالفة معين الدين أنر بدمشق ، وكان هذا بدوره يتوجس خيفة من نور الدين ، وتنازل لبلدوين عن بانياس ، وتطلع هذا الأخير وقد أمن ظهره إلى عسقلان – القاعدة الوحيدة الباقية للفاطميين فى فلسطين – وبعد حصار دام سبعة شهور دخلها فى جمادى الأول ٥٤٨ / أغسطس ١١٥٣ ، وبذا أحكم الصليبيون سيطرتهم على ساحل الشام كله من إسكندرونة إلى غزة .

كان نور الدين يدرك ضرورة استيلائه على دمشق ، لكنه كان يخشى أن يستعين أتابكها مجير الدين – الذى تفرد بالسلطة بعد موت معين الدين – بالصليبيين ، ولم يجد نور الدين بدًا من أن يستخدم الحيلة ، فأوقع بين مجير الدين وبين أجناده ، حتى ضعف أمره ، وقبل أن يخف الصليبيون لنجدته ، كان نور الدين قد دخل دمشق فى ٩ من صفر ٢٥/٥٤٩ من أبريل ١١٥٤ ، وأسر مجير الدين ، ومن عليه نور الدين وأطلقه .

استقر نور الدين بدمشق ، واتسعت دولته ، وصارت تمتد من الرها شمالاً إلى حوران جنوبًا ، وإبان مغامرة عمورى Amalric ملك بيت المقدس

الجديد بمصر – كما يأتى بعد – استعاد نور الدين قلعة حارم التابعة لإمارة أنطاكية ، كما استعاد بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس .

كانت مصر مطمحًا للصليبيين منذ عهد بلدوين الأول ، الذى قام بحملة استطلاعية إليها فى سنة ١١١٨/٥١٢ ، فاستولى على الفرما ، قبل أن يعود أدراجه إلى فلسطين ، فمات فى الطريق . وأدرك عمورى الأول لدى ولايته فى سنة ١١٦٢/٥٥٧ أن سيطرة نور الدين على حلب وحماة وحمص ودمشق تحول بين الصليبيين وبين التوسع فى بلاد الشام ، لذا فقد صرف وجهه إلى مصر .

كانت مصر إذ ذاك يتحكم فيها وزراء أقوياء استبدوا بالأمور دون الخلفاء ، إلى أن قفز إلى الوزارة شاور ، فخرج عليه ضرغام ، ونشب نزاع بين الوزيرين ، أفضى إلى تدخل نور الدين والصليبيين معًا فى شئون مصر ، إلى أن ظفر نور الدين ، وصار أسد الدين – ثم ابن أخيه صلاح الدين – وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد .

تتابعت الأحداث – كما سبق وفصلنا – إلى أن استطاع صلاح الدين أن يزيل الدولة الفاطمية ، وبعد سنوات من التبعية لدمشق ، استطاع أن يستقل بها ، ثم خاض صراعًا طويلاً دام اثنتى عشرة سنة ١١٧٤/٥٧٠ – ١١٨٦/٥٨٢ ، حارب خلالها على أكثر من جبهة إلى أن آلت إليه تركة نور الدين ، وبدأ عصرًا جديدًا هو عصر الدولة الأيوبية .

٧ – صلاح الدين وتحرير الأراضى المقدسة :

كان صلاح الدين منذ صباه الباكر شغوفًا بالجهاد ، وفى ذلك يقول ابن شداد (ت ٦٣٢) فى سيرة حياته " كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من

يذكره ويحث عليه " . وكان توحيده للجهة الإسلامية فرصةً ، لأن ينطلق صلاح الدين بمشروعه الجهادى إلى أبعد الحدود ، واستغرق هذه المشروع سنوات حياته الباقية ، حتى موته سنة ٥٨٩/١١٩٣ .

ليس معنى ذلك أن صلاح الدين أغفل هذا المشروع قبل سنة ٥٨٢/١١٨٦ ، فتوحيده لقوى المسلمين كان جهادًا ، لأنه لولا هذا التوحيد ، ماتحقق له ما أنجز ، ثم إنه خلال هذه الفترة لم يغفل أمر الصليبيين ، فجرت مواجهات عديدة بينه وبينهم ، ولكنه لم يجعل هذه المواجهات تصل إلى مداها، قبل أن يستكمل أهبته ، ويحقق هدفه المبدئى فى توحيد المسلمين .

فى رحم هذه الفترة صد صلاح الدين محاولة قام بها فى سنة ٥٧٨/١١٨٢ أرْناط Reynald de Châtillon أمير الكرك للاعتداء على الأماكن المقدسة بالحجاز ، فأرسل اسطولاً إسلاميًا ، بقيادة أخيه العادل ، دمر السفن الصليبية ، وقتل فى رجالها وأسر بعضهم ، وكاد يظفر بأرناط نفسه ، كما حاصر حصن الكرك مرتين ، وإن لم يستطيع الاستيلاء عليه لمناعته .

وقع صلاح الدين هدنة مع الصليبيين فى سنة ٥٨٠/١١٨٥ مدتها أربع سنوات ، لكن أرناط نقض هذه الهدنة بعد سنتين ، وأغار على قافلة كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق ، ورفض أن يذعن لطلب صلاح الدين برد الأسرى والغنائم ، بل رفض أن يذعن للطلب نفسه من سيده ملك بيت المقدس ، ولم يكن بد من الحرب ، وهى الفرصة التى كان ينتظرها صلاح الدين .

قام صلاح الدين بتعبئة شاملة لقواته فى مصر والشام والجزيرة ، وعندما اكتمل أمره خرج من دمشق فىمحرم ٥٨٣/مارس ١١٨٧ ، وجرت مناوشات بينه وبين الصليبيين فى الكرك ثم الشوبك فبانياس ، ودارت معركة بينه وبين جاى لوزجنان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس قرب صفُّورِيَة ، منى الصليبيون بالهزيمة ، لكنهم أعادوا حشد قواتهم ولاذوا بصفورية .

سعى صلاح الدين لاستدراج الصليبيين إلى معركة حاسمة يحدد هو مكانها ، فهاجم طبرية ثم استولى عليها ، وهرع الصليبيون فى محاولة لإنقاذ المدينة ، وساروا مسافة طويلة فى طريق وعرة ، عانوا خلالها من قيظ الصيف ونزارة المياه إلى أن وصلوا منهكين إلى قرون حطين ، وهى هضبة مرتفعة قريبة من طبرية .

كان المسلمون – على عكس الصليبيين – قد أخذوا كفايتهم من الراحة ، وتوافر لهم الظل والماء ، وشرعوا يطاردون الصليبيين الذين جهدوا فى الوصول إلى البحيرة ، كى يرووا ظمأهم ، وزادوا على ذلك فأشعلوا النار فى الأعشاب المجاورة . ثم قضوا ليلتهم فى التهجد والعبادة وطلب النصرة من الله تعالى .

فى يوم السبت ٢٥ من جمادى الثانية ٥٨٣/٤ من يوليو ١١٨٧ دارت معركة حطين الشهيرة ، وأحاط المسلمون بأعدائهم إحاطة السوار بالمعصم ، وصاروا يعملون السيف فيهم ، واستمر القتل حتى دخل الليل ، فحاول الصليبيون ان يتراجعوا إلى قمة الهضبة ، فلم يمكنهم المسلمون ، وقتلوا غالبهم وأسروا الملك وأخاه عمورى وأرناط وعددًا آخر من زعمائهم ، وقد أحسن صلاح الدين استقبالهم ، فيما عدا أرناط ، فقد قتله بيده وفاء لقسم له .

كانت معركة حطين هى كبرى معارك الحروب الصليبية ، وزاد من روعتها أن سقط فى أيدى المسلمين الصليب الأعظم ، وهو صليب الصلبوت أقدس أقداس النصارى ، وقد أحسن صلاح الدين الإفادة من نتائجها ، ولم يترك للصليبيين فرصة لأن يستريحوا من حربهم ، ثم يستعدوا لها ، وكان هدفه استرداد بيت المقدس ، لكنه أرجأ هذا الهدف ، حتى يستولى على المدن الساحلية ، ليحرم أعداءه من عون يأتيهم عبر البحر ، وتتوافر له فى الوقت نفسه مواصلات آمنة مع مصر ، وهكذا وفى الشهور التالية لوقعة حطين ،

استولى صلاح الدين على عكا والناصرة وقيسارية وحيفاوصفورية ويافا وحصن تبنين وصرفند وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان ، واستعصت عليه صور ، لأن الفرنج الذين أمنهم صلاح الدين ، وتركهم يغادرون المدن المفتتحة ، كانوا يرتحلون إليها فامتنعوا بها .

استعد الصليبيون فى بيت المقدس لحرب المسلمين ، ورفضوا أن يسلموا إليهم المدينة صلحًا ، فبدأ صلاح الدين هجومه من جبل الزيتون ، وهو الموضع نفسه الذى دخل منه جودفرى إلى المدينة عند اقتحام الصليبيين لها . واستحر القتال بين الفريقين إلى أن شعر الصليبيون بعدم الجدوى منه ، وطلبوا الأمان فتمنع صلاح الدين فى البداية وقال : " لا أفعل لكم إلا كما فعلتم بأهل المدينة حين ملكتموها من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها " . وعندما تكرروا عليه بعرضهم ، اضطر صلاح الدين إلى القبول ، خشية أن يصيبوا المسجد الأقصى بأذى ، أو أن يقتلوا من كان لديهم من أسارى المسلمين ، فقبل أن يعطيهم الأمان، علىأن يؤدى الرجل عشرة دنانير والمرأة خمسة دنانير والطفل دينارين ، وأمهلهم فى استيدائها أربعين يومًا ، على أنه لدى دخول المدينة أعفى النساء وكبار السن من الرجال والفقراء من الفداء .

وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ٥٨٣/٢ من اكتوبر ١١٨٧ دخل صلاح الدين بيت المقدس ، ووافق دخوله ذكرى الإسراء ، فكانت فرحة المسلمين فرحتين . وأدى صلاته بقبة الصخرة بعد أن أمر بتطهيرها ورشها بماء الورد ، وأعاد سائر المساجد إلى ما كانت عليه قبل مقدم الصليبيين ، وأبقى على كنائس النصارى وأذن للشرقيين منهم بالبقاء فى المدينة ، على أن يصيروا أهل ذمة .

بعد استرداد بيت المقدس ، توجه صلاح الدين بجهوده لاستكمال فتح الساحل ، فتساقطت مدنه وحصونه الواحدة تلو الأخرى ، وبعد ثلاث سنوات

لم يتبق من مملكة بيت المقدس سوى صور ومن إمارة طرابلس مدينة طرابلس وقلعة أنطرطوس وحصن الأكراد ، ومن إمارة أنطاكية مدينة أنطاكية وحصن المرقب ، عدا بعض المواقع الأقل أهمية .

كان لهذه الانتصارات أثرها الفاجع فى أوربا ، ونشط الدعاة لحملة صليبية جديدة ، وكان من جملة دعاواتهم لوحة كبيرة ، رسمت عليها صورة لبيت المقدس وصورة أخرى للقبر المقدس ، وأعلى القبر فارس مسلم يطؤه .

استنهض البابا جريجورى الثامن ملوك أوربا لإستعادة بيت المقدس وسائر ما فقده الصليبيون فى بلاد الشام ، ووجد استجابة من ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وفردريك باربروسا ملك ألمانيا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

سلك فردريك الطريق البرى عبر آسيا الصغرى ، فتعرض لمتاعب جمة من قبل الروم ، ثم من قبل السلاجقة ، وانتهت حاله فى سنة ٥٨٦/١١٩٠ إلى أن مات غرقًا فى أحد الأنهار ، وتبدد شمل جيشه .

اتخذ ملكا إنجلترا وفرنسا طريق البحر إلى عكا ، حيث حاصرا المدينة حصارًا شديدًا عانى المسلمون ويلاته ، ورغمًا عن محاولاته المستميتة ، لم يستطع صلاح الدين أن ينقذ المدينة من مصيرها ، فدخلها الصليبيون بالأمان فى ١٧ من جمادى الثانى ٥٨٧ / يونيو ١١٩١ وما كاد يتم لهم الأمر ، حتى نقضوا أمانهم ، وارتكبوا مجزرة كبيرة للمسلمين .

بعد سقوط عكا اعتذر فيليب عن عدم مواصلة الحملة الصليبية ، وعاد أدراجه إلى بلاده ، أما ريتشارد فقد أصر على استرداد كل ما سبق أن استولى عليه المسلمون من أراض ، وفى مقدمتها بيت المقدس ، فدخل حيفا ثم قيسارية ، وانطلق منها إلى أرسوف ، حيث دارت معركة بينه وبين صلاح الدين ، أفضت إلى انتصار الصليبيين .

لم يكن الانتصار فى أرسوف حاسمًا ، ولم يحقق ريتشارد انجازات هامة بعدها ، ووصلت إليه أنباء مزعجه من وطنه تستدعى عودته ، وفى الوقت نفسه كان المسلمون رغمًا عن صبرهم وبسالتهم يعانون من أعباء قتال مرير استغرق سنوات ، فتفاوض الطرفان ، وانتهت المفاوضات إلى صلح الرملة فى ٢٢ من شعبان ٥٨٨/٢ من سبتمبر ١١٩٢ حيث تقرر أن يحتفظ الصليبيون بالساحل من عكا إلى يافا ، ولهم أن يحجوا إلى بيت المقدس ، التى استمرت باقية فى حوزة المسلمين .

لم تمض شهور قليلة بعد عقد الصلح ، حتى مات صلاح الدين فى ٢٦من صفر ٥٨٩/٢ من مارس ١١٩٣ ودفن بدمشق .

أسفرت حرب السنوات السبع التى شنها صلاح الدين ضد الصليبيين عن انجازات عظيمة على مسار الجهاد لتحرير الأراضى المقدسة ، وانكمش حجم الوجود الصليبى فى كل بلاد الشام إلى مدى خطير ، بحيث بدا الأمر لدى خلفاء صلاح الدين وكأنه مسألة وقت .

٨ - الحملات الصليبية الأخيرة ونهاية الوجود الصليبى فى بلاد الشام .

أدرك الصليبيون - كما أوضحنا فيما سبق - أهمية مصر بالنسبة لهم ، وشاهدنا محاولات عدة للإستيلاء عليها ، وأضحت هذه المحاولات أكثر إلحاحاً ، بعد أن تحولت مصر إلى قاعدة للإنطلاقة الإسلامية فى زمن صلاح الدين ، وكان المفروض أن تتوجه إليها الحملة الصليبية الرابعة ، لولا أنها ضلت طريقها إلى القسطنطينية .

قاد حنابريين Jean de Brienne ملك بيت المقدس حملة بحرية ، خرجت من عكا فى سنة ٦١٥ / ١٢١٨ ، واتخذت طريقها إلى المياه المصرية عند دمياط ، وشرعت فى مهاجمتها ، وأسرع السلطان الكامل

لنجدتها من ناحية ، وشدد إخوانه فى بلاد الشام هجماتهم على ما جاورهم من مواقع صليبية من ناحية أخرى .

توافت الأمداد إلى حنابريين صحبة المندوب البابوى واسمه بلاجيوس Pelagius ، فشدد حصاره للمدينة ، ورغماً عن أمداد وصلت إلى الكامل مع أخيه المعظم ، إلا أنه لم يكن مطمئناً إلى سلامة جبهته ، واقترح على الصليبيين أن يرد لهم معظم ما استرده المسلمون فى بلاد الشام ، كمقابل لانسحابهم ، لكنهم رفضوا اقتراحه ، وسقطت دمياط فى أيديهم فى رمضان ٦١٦ / نوفمبر ١٢١٩ وفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة .

كان من حظ المسلمين أن وقع خلاف بين ملك بيت المقدس والمندوب البابوى وتأخر الصليبيون فى زحفهم ، وأفاد المسلمون من ذلك ، فأنشئوا خطاً دفاعياً قرب المنصورة .

استعد الكامل وأخواه المعظم والأشرف للقاء الصليبيين ، وما كاد هؤلاء يتحركون جنوبياً ، حتى قطع المسلمون السدود ، وغمروا الأراضى بالمياه ، وغاصت أقدام الصليبيين وخيلهم فى الوحل ، بينما أخذهم المسلمون بالسيف ، وجهد الصليبيون فى العودة إلى قاعدتهم فى دمياط ، لكن المسلمين قطعوا الطريق إليها وأخذوهم بالسيف ، فلم يجدوا إلا أن يطلبوا الصلح على أن ينسحبوا من دمياط ، وأجابهم الكامل شريطة أن يبعثوا إليه برهائن من وجوههم إلى أن يتم انسحابهم ، ففعلوا وكان فى جملة هؤلاء الرهائن الملك نفسه والمبعوث البابوى ، وأطلقوا جميعهم لدى جلاء الصليبيين فى ١٨ من رجب ٦١٨ / ٨ من سبتمبر ١٢٢١ .

بعد رحيل الحملة الصليبية نشبت نزاعات بين ابناء البيت الأويوبى ، واعتدى المعظم صاحب دمشق على ممتلكات إخوانه وأقربائه ، وفى ذلك الوقت كانت قوة المغول البازغة قد أطاحت بالدولة الخوارزمية ، وعاود

سلطانها جلال الدين منكبرتى إقامة هذه الدولة بعد انسحاب جنكيزخان ، وجعل عاصمته فى أصفهان وشرع فى غزو العراق فتحالف مع المعظم ضد أخويه الأشرف والكامل ، فلم يجد هذا الأخير إلا أن يطلب العون من فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ووعده بأن يعطيه فى مقابل هذا العون مدينة بيت المقدس .

كان فردريك قد دخل فى نزاع مع البابا جريجورى التاسع ، وكان هذا البابا قد طلب منه التوجه فى حملة صليبية إلى المشرق ، وخشى الإمبراطور على دولته فى غيابه ، فأخذ يماطل البابا إلى سنة ٦٢٤ / ١٢٢٧ حين صدر قرار بالحرمان ، ولم يجد فردريك إلا أن يرحل فى العام التالى .

وجد فردريك فى دعوة السلطان الكامل إنقاذاً من الورطة التى صار إليها ، ولكن حملته الصليبية التى دعيت بالسادسة ، لم تكن حملة حقيقية ، إذا أتى ومعه خمسمائة فارس ، هؤلاء لا يستطيعون من الوجهة النظرية شيئاً مع المسلمين ، والواضح أن هذه الحملة كانت أشبه بسفارة هدفها المفاوضات .

على أنه لدى وصول فردريك إلى عكا كان الوضع قد تغير ، فالبابا – وهو أمر نستغربه – راسل الكامل سراً وطلب منه عدم تسليمه بيت المقدس لخصيمه ، وحدث أن مات المعظم بدمشق ، وتقاسم الكامل والأشرف ممتلكاته ، فيما عدا الكرك والشوبك فتركتا لولده الناصر .

تردد الكامل فى قبول طلب فردريك خشية أن يغضب المسلمين ، وفى رفضه خشية أن يغضب الصليبيين ، فى وقت صارت دولته مهددة من الخوارزمية والمغول ، لكنه خرج عن تردده فى النهاية ، وعقد مع فردريك فى سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩ اتفاقية يافا ، وتنص على صلح مدته عشر سنوات ، على أن يستعيد الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيداً ،

شريطة أن يبقى بيت المقدس بدون أسوار ، ويبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى أيدى المسلمين .

بعد أيام دخل فردريك بيت المقدس وتوج امبراطوراً فى كنيسة القيامة .

أثار مسلك السلطان الكامل استهجان معاصريه ، فلم يكونوا ليتصوروا أن تعود المدينة المقدسة التى جهد المسلمون فى تحريرها إلى الصليبيين دون قتال .

كان من الممكن أن يعاود الأيوبيون استرداد المدينة خصوصاً وأنها كانت غير محصنة ، ولا تتوافر داخلها حامية قوية ، لكنهم لم يفعلوا خشية من استعداء الصليبيين ، فى وقت يتهددهم الخوارزمية الذين كانوا – رغماً عن كونهم أتراكاً مسلمين – يسيرون فى غزواتهم سيرةً قريبةً من سيرة المغول .

بعد موت الكامل فى سنة ٦٣٥ / ١٢٣٨ عاودت الخلافات بين أبناء البيت الأيوبى سيرتها من جديد ، وتحالف ولده الصالح أيوب مع الخوارزمية ، وتحالف خصومه من الأيوبيين مع الصليبيين ، وفى سنة ٦٤٢ / ١٢٤٤ اقتحم الخوارزمية بيت المقدس ، واستولوا عليها بسهولة ، لأنها لم تكن محصنة ، طبقاً لاتفاق الكامل – فردريك ، ثم اتحدوا مع الصالح أيوب ، وأصابوا الصليبيين وحلفاءهم من الأيوبيين بهزيمة كبيرة دعيت بمعركة غزة ، ودعاها بعض المؤرخين بحطين الثانية .

فى أعقاب هذا الانتصار صارت دولة الصالح أيوب تضم إلى جانب مصر القدس والخليل ودمشق وطبرية وعسقلان ومدناً غيرها ، واضطر سائر الأمراء الأيوبيون إلى الإذعان .

سادت أوربا حال من الذعر بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، ودعت البابوية إلى حملة صليبية جديدة ، فاستجاب لها لويس التاسع ملك فرنسا الذى دعى فيما بعد بالقديس .

وصل لويس إلى قبرص فى جمادى الأولى ٦٤٦ / سبتمبر ١٢٤٨ ، حيث اتخذ أهبته ، وأبحر منها إلى الشواطئ المصرية عند دمياط ، ومن هناك أرسل إلى السلطان الصالح أيوب - وكان مريضاً - كتاباً يقول فيه " وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا ".

كان الصالح أيوب قد علم بهذه الحملة ، فقد وفّى وفردريك بالتزاماته تجاه المسلمين ، وبعث إليه بخبرها ، فسارع إلى تحصين المدينة ، وأمدها بما تحتاجه من رجال وعتاد ، على أنها كانت أضعف من أن تصمد أمام جيش كبير كجيش لويس ، ولم يلبث الصليبيون أن اقتحموا المدينة فى ٢٣ من صفر ٦٤٧ / ٦ من يونيو ١٢٤٩ ، ونقل الصالح - وقد اشتد به المرض - دفاعاته إلى المنصورة ، وما كاد لويس يتحرك من دمياط ، حتى كان الصالح قدمات ، فأخفت زوجه شجر الدر خبرموته ، وأرسلت فى حضور ولده توران شاه ، وكان فى حصن كَيْفا من بلاد الجزيرة .

تسرع الصليبيون فشنوا هجوماً على المنصورة ، لكن المماليك البحرية بزعامة بيبرس البندقدارى انقضوا عليهم فى دروبها ، وأوسعوهم قتلاً ، مما اضطر سائرهم إلى الهرب ، وفى ذى العقدة ٦٤٧ / فبراير ١٢٥٠ وصل توران شاه ، وبدأ يمارس مهامه كسلطان باسم المعظم ، وانتعشت صدور المسلمين ، وواصلوا مناوشاتهم للصليبيين ، وفكر لويس فى أن يعود إلى قاعدته فى دمياط ، لكن المسلمين قطعوا الطريق إليها ، كما إن سفنهم شنت هجمات على السفن الصليبية ، فحاول أن يعقد تسوية مع المسلمين ، على أن يستردوا دمياط ، فى مقابل أن يسترد هو بيت المقدس ، لكن توران شاه رفض هذا العرض .

لم يجد لويس مندوحة من أن يسعى للوصول إلى دمياط ، وراح المسلمون يتخطفون جنده على الطريق حتى أنهكوهم ، ثم شنوا هجومهم

الأخير عند فارسكور ، فألحقوا بهم هزيمة ساحقه ، وصار الصليبيون بين قتيل واسير ، وكان لويس نفسه فى مقدمة الأسرى ، فكبل بالأغلال ، وسيق إلى المنصورة ، وحبس بدار ابن لقمان ، ثم أطلق بعد أن أدى فدية كبيرة ، وعقد صلحاً مع المسلمين ، وغادر دمياط بما تبقى من أشلاء جيشه .

يقول الشاعر جمال الدين بن مطروح (ت ٦٥٠) :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح من قئول نصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح

إلى أن يقول :

وقل لهم إن ازمعوا عودة	لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيدباق والطواشى صبيح(١)

كانت الحملة الصليبية السابعة هى آخر الحملات الصليبية الكبيرة إلى الشرق ، واستحكمت العزلة بعدها على الصليبيين ، وتقاعس إخوان لهم عبر البحر عن نصرتهم ، فسعوا لأن يتحدوا مع المغول الذين كانوا قد بدأوا اجتياحهم للعالم الإسلامى قبل سنوات ، وأعانهم على ذلك أن بعضًا من هؤلاء تنصروا ، وأحاطت بهم بطانة من النصارى المتعصبين ، لكن مساعى الصليبيين - منها سعى للقديس لويس نفسه - لم تؤد إلى نتائج ملموسة ، ووقفوا مكتوفى الأيدى لدى الصدام الذى أفضى إلى هزيمة مروعة للمغول فى عين جالوت .

بعد أن مكن الظاهر بيبرس لنفسه فى مصر والشام معًا عقد حلفًا مع الروم ، وكانوا إذ ذاك على حال من العداء مع الصليبيين وفى سنة

---

(١) أى الخصى صبيح وكان قائمًا على لويس إبان حبسه بالمنصورة

١٢٦١/٦٥٩ ولمدى يصل إلى عشر سنوات وجه حملات إلى هؤلاء تخللتها فترات هدنة ، وترتب عليها أن استولى بيبرس على قيسارية وعثليث وأرسوف وصفد وهونين وتبنين والرملة في مملكة بيت المقدس ، كما وجه حملات أخرى إلى مملكة أرمينية الصغرى وإمارة طرابلس ، وتوج بيبرس جهاده بالاستيلاء على أنطاكية فى ١٤ من رمضان ٢٨/٦٦٦ من مايو ١٢٦٧ ، وبذا زالت كبرى الإمارات الصليبية وأعلاها ذكرًا .

بعد مدافعة السلطان المنصور قلاون للمغول فى بلاد الشام ، عاود سياسة سلفة بيبرس فى مدافعةالصليبيين ، فاستولى فى سنة ١٢٨٥/٦٨٤ على حصن المرقب ، وهو من حصونهم القوية ، ثم استولى على اللاذقية بعد سنتين ، وأفاد من نزاعات على السلطة فى طرابلس ، ودخلت جيوشه إلى المدينة فى ربيع الآخر ٦٨٨ / أبريل ١٢٨٩ ، وبسقوطها سقطت بيروت وجبلة ، واختفت إمارة طرابلس ، كما اختفت إمارة أنطاكية قبلها بسنوات .

تجهز السلطان قلاون لحصار عكا ، وهى آخر المعاقل الصليبية الكبيرة الباقية ، لكنه مات قبل أن يشرع فى حصارها ، فكان ذلك من شأن ولده الأشرف خليل ، وفى يوم الجمعة ١٧ من جمادى الأولى ١٨/٦٩٠ من مايو ١٢٩١ ارتفعت راية الإسلام خفاقةً على أبراج المدينة .

بعد عكا بأيام تساقطت المواقع الصليبية الصغيرة الباقية كأوراق الخريف ، الواحدة تلو الأخرى ، وذهب الوجود الصليبى من بلاد الشام .

يزعم بعض المؤرخين - وربما نزعم كذلك - أن الحروب الصليبية لم تنته فى سنة ١٢٩١/٦٩٠ ، ويمكن أن نقف على دلائل لهذا الزعم فى غزوة بطرس الأول ملك قبرص للإسكندرية فى سنة ١٣٦٥/٧٦٧ ، وفى الغزوات التى توجهت إلى السلطنة العثمانية فى البلقان وإلى مملكة غرناطة فى الأندلس وإلى ثغور المغرب . وفى غزوات أخرى توالت فى مطالع العصور الحديثة وربما بعدها بسنوات طويلة .

ثانيًا : المغول

١ - المغول وجنكيز خان :

المغول - ويعرفون أحيانًا بالتتار (أو التتر) - شعب من الشعوب التى استوطنت فى أواسط آسيا ، وبخاصة الأراضى الواقعة على تخوم الصين ، وعاشوا عبر العصور بدواً ينتجعون مواطن الكلأ فى السهوب الإستبسية الشاسعة ، ويمتطون صهوات جيادهم ، يمارسون الصيد - حرفتهم الأساسية - ولا يعرفون من الديانات سوى الشامانية ، وهى ديانة وثنية .

لم يكن العالم يدرى شيئًا عن المغول ، وإن تمرس ببعض أقربائهم ، وبخاصة الهون الذين اشتهروا فى العصر الرومانى ، والأتراك - سلاجقتهم وعثمانييهم - الذين اشتهروا فى العصر الإسلامى .

فى مطالع القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) روع العالم بزحف المغول غربًا بسرعة لا يدانيها سوى زحف العرب بعد وفاة نبيهم الكريم ، على أن ثمة فارقًا أساسياً بين الزحفين ، رغمًا عن تشابه الشعبين فى أشياء كثيرة أخصها البداوة ، هذا الفارق يمكن فى نوعية الرسالة التى كانت هدف الزحف وأسلوبه ، فالهدف هو النهب ، وأسلوبه التدمير .. التدمير فحسب .

وربما كان افتقار المغول - فى أسلوبهم - إلى كل شىء عدا التدمير ، هو الذى جعل فتوحهم تمضى بسرعة مذهلة ، ثم تنقضى بسرعة مذهلة أيضًا، والسبب فى ذلك أنهم كانوا بلا تراث ثقافى ولا حضارى يطبعون به الشعوب التى حكموهم ، ثم إنهم لم يلبثوا بعد قليل أن أسلموا فى معظمهم ، وتحمسوا لإسلامهم وإن لم يتعمقوه ، وقد أعان الإسلام على بقائهم بعد انقضاء عهد قوتهم ، بل أعان أيضًاعلى بقاء بعض دولهم حتى القرن الماضى .

امتدت فتوح المغول وغزواتهم آلاف الأميال طولاً وآلاف الأميال مثلهما عرضًا ، فشملت الصين وشطر الهند الشمالى وشطر أوربا الشرقى ، وجميع العالم الإسلامى فى قارة آسيا - عدا الجزيرة العربية - وكانوا على الأهبة لأخذ مصر نفسها .

العجب العجاب أن المغول مع هذا الانتشار السريع والواسع ، لم تكن أعدادهم - كما يتراءى للبعض - كبيرة ، أو إن إعدادهم لم تكن بالضرورة أكبر من أعداد أعدائهم ، فجيشهم فى أحسن حالاته لم يكن يجاوز المائة ألف ، بل إن من حارب منهم فى عين جالوت لم يجاوزوا العشرين ألفًا . ومرد هذا كله إلى البيئة ، فبيئة صحراوية أو شبه صحراوية كبيئة المغول ، لا تحتمل أعدادًا كبيرة من السكان ، ولا يمكن أن نقارن بين أعداد السكان فى منغوليا المعاصرة ، وبين أعدادهم فى الصين المجاورة .

لماذا إذن تحقق للمغول ما تحقق ؟؟

الإجابة تكمن فى عبقرية عسكرية ، توافرت لقادتهم فى الصدر الأول ، وعادات اكتسبوها من كونهم قومًا صيادين ، والصيد يعتمد على المهارة والسرعة فى المطاردة والدقة فى الرمى بالنبال ، وعادات أخرى اكتسبوها من كونهم فى معظمهم فرسانًا ، والخيل تحتل عندهم مكانة تعدل أو هى تضاهى مكانة الإبل عند العرب ، والأهم من هذا كله اعتمادهم أسلوبًا همجيًا فى تعاملهم مع أعدائهم ، هذا الأسلوب كان كفيلاً بإذاعة الفزع وتكريس اليأس عند هؤلاء الأعداء . على أن هذا الأسلوب كانت له أصوله من البيئة ، فهم يقتلون الأسرى ، ليرهبوا أعداءً محتملين ، ثم إنه يصعب عليهم اعاشتهم، ولا يستطيعون أن يتركوا وراءهم فى المدن المفتوحة حاميات كبيرة تحفظهم .

فى سنة ١١٧٥م مات يسو گاى - زعيم إحدى قبائل المغول - وخلّف صبيًا صغيرًا فى الثالثة عشرة أو نحوها يدعى تيموچين .

تمتع هذا الصبى بمواهب فائقة ، أهلته ليكون زعيمًا لقبيلته ، ثم زعيمًا لقبائل المغول كافة ، وفى سنة ١٢٠٦/٦٠٣ اجتمع زعماء المغول فى قوريلتاى - أى مؤتمر عام - وأعلن الشامان - وهو الكاهن الوثنى - أن السماء خلعت على تيموچين لقبًا أرفع من اللقب الذى كان لأسلافه ، وأن اسمه أصبح منذ الآن چينگيزخان ، وتعنى عند المغول " روح الضوء " وكان يتعبد لها .

أقر چنگيزخان دستور المغول الذى عرف باليسق أو الياسة ، وألزم قومه به وجعل عاصمته قراقورم .

بدأ چنگيزخان بإخضاع القبائل التركية المجاورة لبلاده ، ثم شن هجمات على الصين ، واقتطع أجزاء منها ، ولم يلبث أن توجه بناظريه جهة الغرب .

كانت تجاور دولة المغول دولتان تركيتان ، دولة الخطا وهى دولة وثنية ، ودولة خوارزم وهى دولة إسلامية .

عندما ضعف أمر السلاجقة بعد وفاة ملكشاه ، تفرعت عنهم مجموعة من الأتابكيات ، كان من جملتها أتابكية خوارزم .

استطاع أتابكة خوارزم أن ينفصلوا بأتابكيتهم عن السلطنة السلجوقية العامة ، وأعانوا الخليفة العباسى الناصر لدين الله فى التخلص من ربقة السلاجقة - سلاجقة فارس - وأجهزوا على طغرل - وهو آخر هؤلاء السلاجقة - وجيشه قرب الرى فى سنة ١١٩٤/٥٩٠ .

بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه ١٢٠٠/٥٩٦ - ١٢٢٠/٦١٧ ، حتى أضحت أكبر قوة إسلامية

فى المشرق ، وأفاد علاء الدين من هذه القوة ، فى أن يمتد بحدود دولته لتضم دولة الخطا وبذا صارت حدوده مصاقبةً لحدود دولة المغول .

تطلع علاء الدين لأن يحل محل السلاجقة فى العراق ، فلما أخفق فى مسعاه ، تحول إلى المذهب الشيعى ، واستصدر من العلماء فتوى بخلع الخليفة الناصر ، وأتى برجل علوى من أهل ترمذ يدعى علاء الملك وبايعه ، وبدأ يتهيأ للمسير إلى العراق .

شعر الخليفة الناصر بالخطر الذى يتهدده ، فكاتب چنكيزخان ، ويعلق المؤرخ المعاصر ابن الأثير (ت ٦٣٠) فيقول إنه " الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم " .

وصل كتاب الناصر إلى چنكيزخان متأخرًا ، لأن خوارزمشاه كان قد بدأ المسير بجيوشه ، وأزال فى طريقه أتابكية فارس وأتابكية أذربيجان ، ووصل إلى همذان ثم حلوان ، فحاصره الشتاء ، وهبت على جيشه عواصف ثلجية ، أهلكت كثيرًا من جنوده ، وتعرض بقيتهم لعادية الأتراك والأكراد ، فآثر علاء الدين أن يعود من حيث أتى .

ما كاد الشاهنشاه يصل إلى بخارى فى‌سنة٦١٥/١٢١٨حتى وجد سفارة من چنكيزخان يطلب منه التجارة بين البلدين ، فوافق وعليه بدأ الجواسيس التتار يتخفون فى هيئة التجار ، ويأتون إلى مملكة خوارزم يتحسسون أخبارها .

اكتشف حاكم أُطْرار - وهو حصن يقع على أطراف الدولة - حقيقة بعض هولاء التجار وقتلهم ، فطلب چنكيزخان من خوارزمشاه أن يسلم هذا الحاكم ، وإلا " فليأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح " .

كانت إجابة خوارزمشاه أن قتل رسول الخاقان ... وزحفت جموع المغول كالجراد المنتشر .

يبدأ ابن الأثير أحداث سنة ٦١٧/ ١٢٢٠ فيقول : " لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل حدوثها ، وكنت نسيًا منسيًا ....

فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها " .

اجتاحت جحافل المغول دولة خوارزم من نواحيها كافة ، وعندما سقطت فى أيديهم مدينة أطرار ، أمر بحاكمها فسكبت فى عينيه وأذنيه كمية كبيرة من الفضة المصهورة إلى أن مات .

اقتحم چنگيزخان فى ذى القعدة ٦١٦ / فبراير ١٢١٩ مدينة بخارى ، ودخل جامعها على صهوة جواده ، وحوله إلى حظيرة لخيوله ، وجعلها تدوس المصاحف بسنابكها ، ونهب المدينة نهبًا تامًا ، ثم أحرقها بعد أن قتل الرجال وسبى النساء والولدان ، وافتض جنوده الأبكار ، وقتلوا من لا يصلح منهن للسبى .

كرر چنگيزخان الذى وصف نفسه " بنقمة الله على الأرض " فعلته هذه فى سمرقند وغيرها من المدن .

بعد أن فرغ المغول من بلاد ما وراء النهر ، عبروا إلى خراسان ، واخترقوا شمالى إيران ، حتى بلغوا الرى ثم عادوا أدراجهم إلى سمرقند ، حيث عقد الخاقان اجتماعًا لكبار القادة فى سنة ١٢٢٤/٦٢١ ، ثم غادر المدينة إلى عاصمته قراقورم فى أعماق آسيا .

أما خوارزمشاه الذى لم يقع فى أيدى المغول ، فإنه ظل مطاردًا طريدًا، إلى أن لاذ بجزيرة فى بحر قزوين ، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة فى سنة٦١٧/١٢٢٠ .

استقر جلال الدين منكبرتى فى بلاد الهند ، ثم اعتزم بعث ملك أبيه ، وتم له ذلك بعد أن انسحب المغول ، وطلب من الخليفة الناصر إقامة الخطبة له ببغداد، فلما لم يجبه ، اعتزم المسير إليه فى سنة ٦٢٢ ، وحصن الناصر بغداد ، على أن جلال الدين انسحب لدى وصوله إلى تكريت ، وذلك بسبب انتقاض أذربيجان ، وسالم الناصر الذى مات فى العام نفسه ، ثم سالم ولده الظاهر وحفيده المستنصر .

حاول جلال الدين استنفار المسلمين لحرب المغول ، لكنه وقبل أن يتم له ذلك دهمه جيشه مغولى يضم ثلاثين ألف مقاتل ، وأخذ يطارده من بلد إلى آخر ، حتى انتهى به المطاف إلى قرية كردية ، قتله بعض أهلها غيلة فى سنة ١٢٣١/٦٢٩ . وتحول الخوارزمية إلى مرتزقه ، يبيعون خدماتهم لمن يريد .

٢ - المغول وسقوط بغداد :

فى سنة ١٢٢٧/٦٢٥ مات چنكيزخان ، وصار ولده أقطاى خاقاناً للمغول ، وقبل أقل من خمس عشرة سنة ، تم له فتح بلاد الصين وكوريا فى أقصى الشرق ، وأزال الدولة الخوارزمية ، واجتاحت جيوشه أوربا ، ودانت له موسكووكييف ، واستولت هذه الجيوش على المجر وبلغاريا وبولندا ، وفى عام وفاة أقطاى - ١٢٤١/٦٣٩ عبرت هذه الجيوش نهر الدانوب ، وتطرقت إلى ألسانيا .

خلف أقطاى ولده كويوك ، ثم مانگوخان بن تولوى بن چنگيزخان ١٢٤٨/٦٤٦ - ١٢٦٠/٦٥٨ .

فى عهد مانگوخان تسرب إلى قراقورم عدد من الرهبان والمنصرين ، ومعظمهم صليبيون ، وصرف هؤلاء جهدهم ، من أجل عقد حلف بين الصليبيين فى الشام وبين التتار .

كان الصليبيون يمرون فى هذه الأثناء بظروف صعبة ، فقدتعثرت الحملة التي قادها القديس لويس إلى مصر ، وأفضت إلى هزيمة ساحقة ، جعلت الصليبيين يتوجسون من غد غير مأمون .

كان المغول فى حروبهم مع جلال الدين منكبرتى قد أوغلوا فى أطراف العراق ، وتابعوا سيرهم إلى الموصل فأصابوا بعض قراها وفى سنة ١٢٣٥/٦٣٢ ادخلوا إربل .

عندما تناهت هذه الأنباء إلى الخليفة المستنصر ، بعث فى عون الأيوبيين ، فأجابه السلطان الكامل وأرسل إليه عشرة آلاف رجل ومبلغًا كبيرًا من المال ، على أن ذلك لم يمنع المغول من مواصلة غاراتهم ، وأسفرت هذه الغارات عن نهبهم الجزيرة وديار بكروميا فارقين .

كانت هذه الحملات الصغيرة مقدمة للحملة الكبيرة التى قادها هولاكو شقيق الخاقان ، وأول ملوك الدولة الإيلخانية فى فارس والعراق .

فى سنة ١٢٥٦/٦٥٤ بدأ هولاكو حملته الكبيرة ، فخرج من سمرقند ، وعبر نهر جيجون ، ثم نزل بطوس ، وتعقب الحشاشين من الإسماعيلية ، وكانوا يسيطرون على هذه الأنحاء ، واقتحم قلعتهم الشهيرة ألموت فى سنة ١٢٥٧/٦٥٥ ، وقتل زعيمهم ركن الدين خورشاه .

جعل هولاكو قيادته فى همذان ، وأرسل بعوثًا من جنده نهبت المدن المجاورة ، ثم أرسل إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله ، يطلب منه أن يهدم حصونه ويردم خنادق ويحضر لمقابلته .

كان المستعصم الذى خلف أباه المستنصر فى سنة ١٢٤٢/٦٤٠ ، قد ألقى قياده لوزيره علاء الدين بن العلقمى ، وكان شيعيًا رافضيًا ، تحول إلى جاسوس لهولاكو ، فصار يغرى الخليفة بقطع أرزاق الجند توفيرًا للنفقات ،

ويحثه على مهادنة التتار ، ويخفى عنه أخبارهم ، وفى الوقت نفسه كان يكاتبهم ويغريهم بالفتح ، ويلتمس أن يكون نائبًا عنهم بالعراق .

كان يصحب المغول فى حصارهم بغداد بعض الأمراء المسلمين ، ومنهم سعد أتابك شيراز وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، كما كان يصحبهم أيضًا عطاملك الجوينى المؤرخ ونصير الدين الطوسى عالم الفلك .

بعد أن اجتاح هولاكو الجانب الغربى لبغداد ، عسكر لدى الجانب الشرقى ، واستحر القتل ، إلى أن انصاع المستعصم لمشورة وزيره ابن العلقمى ، وفى يوم الأحد ٤ من صفر ١٠/٦٥٦ من فبراير ١٢٥٨ خرج المستعصم للقاء هولاكو ، ومعه أولاده الثلاثة ، وعدد كبير من أعيان المدينة ، واصطحب معه هدايا مقدارها ألفاثوب ، وعشرة آلاف دينار ، عدا الجواهر والنفائس ، فلم يلتفت هولاكو لهذا كله ، وأعطاه لأمرائه ، ثم سأل الخليفة عما لديه من ذهب مخبوء ، فد له المستعصم عليه ، وكان شيئًا كثيرًا .

طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر الناس بالكف عن القتال ففعل ، وما كاد يتم له ذلك ، حتى انقض المغول عليهم ، يمعنون فيهم ذبحًا ، حتى صار القتلى فى طرقات المدينة أكداسًا ، ونزل هولاكو بقصر المأمونية ، وأباح بغداد أسبوعًا ، هدم المغول خلاله مساجدها وجردوا قصورها وأحرقوا مكتباتها وسبوا نساءها وهتكوا أعراض بناتها .

أما المستعصم وبنوه ، فقد وضع كل منهم فى بساط ، وأمر هولاكو برفسهم حتى ماتوا ، وسبى بناته الثلاث .

بسقوط بغداد سقطت الخلافة العباسية التى امتد تاريخها لما يزيد على خمسة قرون من عمر الزمان .

٣ - معركة عين جالوت :

بعد أن دخل المغول بغداد بدأوا يتطلعون إلى بلاد الشام ، وأعانهم على ذلك ما شجب من نزاعات بين المماليك فى مصر وبين سادتهم السابقين من الأيوبيين فى بلاد الشام .

وصلت الأخبار إلى القاهرة تنذر بصدام جديد متوقع مع المغول ، وكان السلطان إذ ذاك هو الصبى على بن أيبك ، فأزاحه الأتابك سيف الدين قطز ، واتخذ مكانه فى السلطنة وتلقب بالمظفر .

زحفت جموع المغول بقيادة هولاكو من دياربكر ، ومنها إلى آمد ، ثم دخلوا حلب ونهبوها واسترقوا أهلها ، وفعلو الشىء نفسه فى دمشق ومدن غيرها ، وأخفق أمراء الشام من الأيوبيين والمماليك فى التصدى لهم ، فواصلوا زحفهم حتى انتهوا إلى غزة .

أرسل هولاكو إلى قطز كتابًا يقول فيه : " إننا جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من أحل عليه غضبه ، فسلموا إلينا أموركم تسلموا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، وقد عرفتم أننا خربنا البلاد وقتلنا العباد ، فلكم منا الهرب ، ولنا خلفكم الطلب ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، خيولنا سوابق وسيوفنا قواطع وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، ومن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أمننا سلم " .

كان الموقف خطيرًا ، فالمغول منذ انطلاقهم فى قاصية المشرق ، لم يقف إزاءهم واقف ، ولم يمنعهم مانع ، وهم الآن اجتازوا بلاد الشام جميعها فى سرعة مذهلة ، وخلفوا وراءهم من الدمار ، ما لايحيط به قلم ، وكانت الذكريات التى خلفوها ببغداد ، لدى اقتحامهم لها قبل سنتين ما تزال مشتعله ، وتبعث الرعب أينما حلوا ، وقبل أن يحلوا ، وقد وصل هذا الرعب إلى

مصر، ووجد صدىً عند أمرائها من المماليك ، مثلما وجد عند أمراء الشام من المماليك والأيوبيين جميعًا .

كان لابد فى النهاية من وقفة ... وكانت هذه الوقفة من شأن قُطُز .

تذهب بعض المصادر التاريخية إلى أن قطز ينتمى فى أصوله إلى الخوارزمية ، وخاله هو السلطان جلال الدين منكبرتى آخر الخوارزمشاهية ، وأنه بعد أن تغيرت الحال بأسرته استرق ، وتداولته أيادى التجار ، إلى أن صار فى جملة المماليك ، وصعد فى مناصب دولتهم إلى أن ظفر بالسلطنة .

بدأ قطز جهاده بأن قتل رسل هولاكو الأربعة ، وعلق رءوسهم على باب زويلة ، ثم انصرف إلى تجهيز جيشه وإعداده للمعركة المنتظرة فأعوزه المال ، وأخذ مشورة العلماء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام ، فأشاروا عليه بأن يجمعه من الأمراء ومن لاذبهم وحريمهم ، ويثنى بعد ذلك برعيته من المصريين ففعل .

على أن قطز واجه مشكلة أخرى لدى تحركه لحرب عدوه ، فقد راعه من بعض أمرائه تخاذلاً عن هذه الحرب فخاطبهم : " يا أمراء المسلمين : لكم زمان تأكلون من بيت مال المسلمين ، وأنتم للغزاة كارهون . أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك ، يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين " .

وجدت كلمات قطز صدى فى نفوس أجناده ومماليكه ، وزادت من رباطة جأشهم ، وأصفقوا جميعهم على حرب عدوهم .

عندما علم المغول باقتراب المسلمين انسحبوا من غزة ، فدخلها قطز وعلى مقدمته بيبرس ، واتجه منها مباشرة إلى بحيرة طبرية ، وجرت اتصالات بينه وبين الصليبيين ، أسفرت عن تحييدهم .

كان هولاكو فى سبيله إلى خوض المعركة مع المسلمين ، حين وصل إليه الخبر بموت أخيه الخاقان الأعظم ، ولم يجد إلا أن يتخلى عن القيادة لكتبغا ، ويسرع إلى قراقورم للمشاركة فى تنصيب الخاقان الجديد .

عين جالوت بليدة صغيرة بين بيسان ونابلس ، وقدر لهذه البليدة أن تدخل التاريخ من أوسع أبوابه ، فلديها وقعت معركة من كبرى المعارك فى تاريخ الإسلام .

فى يوم الجمعة ٢٦من رمضان ٣/٦٥٨ من سبتمبر ١٢٦٠ دارت رحى معركة عين جالوت ، وسارع المغول - كعادتهم - فانقضوا على المسلمين ، وأحدثوا اضطرابًا فى صفوفهم ، وكاد الأمر ينته بانتصارهم ، لولا أن ثبت قطز ، وألقى خوذته عن رأسه وصاح : " وا إسلاماه " !! ، ثم حمل على التتار ، واقتدى به سائر الأمراء والأجناد ، وانتهت المعركة بأسر كتبغا (ثم قتله) وقتل آلاف ممن معه ، وأسر آلاف آخرين ، وهرعت الفلول الباقية إلى دمشق .

كانت عين جالوت نهاية لهذا السيل الطامى الذى بزغ فى جوف آسيا ، وتدفق آلاف الأميال ، دون أن يصده مصد ، وتساقطت حواضر إسلامية ، عريقة ، وهلك آلاف وآلاف من المسلمين ،ولم يجد من يوقفه سوى هذا البطل المسلم ومن وقف معه من المسلمين .

من أسف أن هذا البطل لم يهنأ ، فيحتفل بنصره فى عاصمته القاهرة ، إذ اغتاله بيبرس ، وهو ما يزال فى طريقه إليها .

٤ - نهاية الخطر المغولى :

كانت النتيجة المباشرة لعين جالوت ، هى أن استرد قطز دمشق ، كما أن بيبرس طارد المغول حتى حلب ، وعادت بلاد الشام فى معظمها إلى السيادة المملوكية .

لم يعد المغول بعد هزيمتهم الكبيرة يشكلون خطورةً كبيرةً على السلطنة المملوكية الناشئة ، صحيح أن غزواتهم لبلاد الشام لم تنقطع ، لكنها جاءت متقطعة ، وكانت الدولة تتصدى لهم فى كل مرة ، فيهرولون إلى قواعدهم فى العراق والجزيرة ، إلى أن انقطع خبرهم، وصارت بلاد الشام فى مأمن منهم.

إتبع بيبرس – وقلاون بعده – سياسة ذات شقين فى تعامله مع المغول، فكانت هذه السياسة عدائية مع مغول فارس وهم الدولة الإيلخانية ، وكانت سلمية مع مغول القفجاق وهم دولة القبيلة الذهبية(١) .

عمد بيبرس إلى تحصين قلاعه على تخوم العراق ، واستمال القبائل العربية الضاربة فى هذه الأنحاء ، كى تكون طلائع لجيشه ، واستعان بها فى شن غارات على أعدائه وصلت إلى أبواب بغداد ، وفى الوقت نفسه رفض أن يعقد صلحًا مع هولاكو، ولا مع ولده أبغا الذى ولى فى سنة ٦٦٣/١٢٦٥، وألح عدة مرات فى طلب الصلح .

عندما لم يستجب بيبرس لطلب أبغا ، اضطر هذا إلى أن يرسل بسفارات إلى ملوك أوربا وإلى باباروما ، يدعوهم إلى التحالف معه ضد العدو المشترك وهو المماليك . لكن هذه السفارات لم تصل إلى نتائج واضحة ، ولم تجاوز حد المجاملة ، وإن تبعتها جهود نشيطة للمنصرين كانت نتائجها هزيلة .

فى سنة ٦٦٣/١٢٦٥ هاجم المغول قلعة البيرة على ضفاف الفرات ، وشرع بيبرس فى نجدتها ، ولكن قبل أن تتحرك قواته جاءته الأخبار برفع المغول لحصارهم ، فأمر بتحصين القلعة ، حتى يتحقق لها الصمود فى حال ما إذا عاود المغول عدوانهم .

---

(١) نسبة إلى لون الخيام فى معسكرات جنودها

فى هجماتهم التالية سعى المغول إلى التنسيق بينهم وبين الصليبيين ، وعليه فقد قاموا بغارات متفرقة على بلاد الشام فى الفترة بين ١٢٦٩/٦٦٧ و ١٢٧٣/٦٧١ ، وحالفتهم الهزيمة فى هذه الغزوات جميعها .

على أن الصراع بين الجانبيين انتقل شمالاً ، حيث سلطنة سلاجقة الروم ، وكانت هذه السلطنة قد صارت تحت حماية المغول ، منذ أيام هولاكو ، فأفاد بيبرس من شقاق جرى داخل هذه السلطنة ، وزحف بجيشه والتقى بالمغول وسلاجقة الروم معًا فى معركة قرب أَبُلُسْتَيْن فى سنة ١٢٧٧/٦٧٥ وأصابهم بهزيمة فادحة ، ثم تابع زحفه إلى قيسارية – وهى عاصمة السلطنة – فدخلها ، واستقبله أهلها بحفاوة بالغة ، ودعوا له على منابرها.

فى الوقت نفسه سعى بيبرس إلى التحالف مع دولة القبيلة الذهبية ، وهى دولة مغولية ، كان مركزها مدينة سراى على نهر الفلجا ، وكان صاحبها بركة خان قد أسلم ، وأسلم قومه بإسلامه ، وانتهج سياسة عدائية تجاه أبناء عمومته مغول فارس .

تبادل بيبرس الكتب مع بركة خان ، وفى أحد هذه الكتب ينوه هذا الأخير إلى " إننى قمت أنا وإخوتى الأربعة لحربه (يقصد هولاكو) من سائر الجهات لإقامة منار الإسلام ، وأعاده مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة " .

كان لهذا التحالف ، وما ارتبط به من حروب بين الدولتيين المغولتيين أثره الإيجابى فى الصراع بين المماليك وأعدائهم ببلاد الشام .

عندما ولى قلاون فى سنة ١٢٧٩/٦٧٨ واصل سياسة بيبرس فى عدائه لمغول فارس ، فعاود هؤلاء عدوانهم ، واستولوا على حلب ، ثم انسحبوا منها عندما علموا بأن السلطان قد وصل إلى غزة فى طريقه إليهم .

فى سنة ١٢٨١/٦٨٠ عقد قلاون صلحًا مع الصليبين مدته عشر سنوات ، فتهيأت له الفرصة ، من أجل أن يسدد ضربة قوية للمغول ، عندما أرسل أبغا قائده منكوتمر فى جيش كبير إلى بلاد الشام ، فالتقى به قلاون على مقربة من حمص ، أوقع به الهزيمة ولاذ منكوتمر وفلول جيشه بالهرب إلى بغداد .

كانت معركة حمص هى آخر المعارك الكبيرة بين المماليك ومغول فارس فى بلاد الشام ، وبدأ الإسلام يتخذ طريقه إليهم ، فقد اعتنقه تكودار الذى خلف أخاه أبغا فى سنة ١٢٨٢/٦٨١ وتسمى بأحمد سلطان ، ومع أنه قتل بعد عام واحد من ولايته ، وعادت الأمور سيرتها الأولى ، إلا أن مسيرة الإسلام لم تتوقف ، ثم حسمت على نحو نهائى فى سنة ١٢٩١/٦٩٠ بولاية غازان ، ثم إسلامه بعد ثلاث سنوات .

كانت لإسلام مغول فارس أثره فى تهدئة الصراع مع دولة المماليك ، ومع ذلك فقد توترت العلاقات بين الدولتين الإسلامتيين فى زمن الناصر محمد بن قلاون ، وغزا غازان بلاد الشام فى سنة ١٢٩٨/٦٩٧ واستولى على دمشق ، لكن المماليك استردوها فى العام التالى ، ثم أصابوا المغول بهزيمة قاسية قرب حمص فى سنة ١٣٠٢/٧٠٢ لم يعاودوا بعدها غزو بلاد الشام .

الفصل الثامن

المغرب والأندلس

أولاً : المغــرب

بلاد المغرب تعبير فضفاض ، يقصد به عند العرب البلاد التى تلى مصر غرباً حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) ويقصد به فى عصرنا الحالى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب (بما فيها الصحراء المتنازع عليها) وموريتانيا.

وبحكم امتدادها الواسع ، قسم العرب المغرب الكبير إلى أقسام ، هى : إِفْرِيقِيَّة (أو المغرب الأدنى) وتضم أقاليم طرابلس وإفريقية والزاب ، والمغرب الأوسط ويضم إقليمى تاهَرْت وتِلِمْسان ، والمغرب الأقصى ويضم ما يلى ذلك غرباً وجنوباً بغرب حتى بحر الظلمات .

وبلاد المغرب فى قسم كبير منها هضبة كبيرة ، تحف بها الصحراء ، وتخترقها من الجنوب الغربى جبال الأطلس التى تتجه شرقاً وشمالاً إلى شطر إقليم إفريقية (تونس) وتضم الهضبة مناطق فسيحةً خضراءً وأنهاراً صغيرة، وبخاصة لدى السواحل ، وهى جميعها تقع ضمن ما يعرف الآن بمناخ البحر المتوسط .

عاشت فى بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامى جماعات من الروم والأفارقة إلى جانب البربر ، والروم هم بقايا الأجناد الرومية (البيزنطية) والأفارقة هم سكان السواحل من غير الأجناد الرومية ، أما البربر فهم الغالبية العظمى من السكان ، واختصوا بالداخل ، وكانوا يطلقون على أنفسهم – وما يزالون – تعبير أمازيغ ، وينفرون من تعبير بربر .

والبربر شعب لا يعرف – على نحو دقيق – إلى أية عائلة بشرية ينتمى ، وإن كان هناك اتجاه قوى لضمه إلى مجموعة الشعوب الحامية ، وهم ينقسمون إلى شعبين كبيرين ، شعب تغلب عليه الحضارة وهم البَرانِس ، وشعب تغلب عليه البداوة وهم البُتْر ، وهذا التقسيم شبيه بتقسيم العرب إلى يمانية وقيسية ، وأشهر قبائل البرانس صِنْهاجة وكتامة ومصمودة ، وأشهر قبائل البربر زَنَاته ولَواتَه ونُفوسة .

ومع أن النصرانية دخلت إلى البلاد فى فترة باكرة تعود إلى القرن الثانى الميلادى ، إلا أن انتشار هذه الديانة كان محدوداً بين البربر ، كما تعرضت لانقسامات خطيرة وأصاب الفساد بعض رجالها .

ولدى فتح العرب مصر ترددوا بغزواتهم إلى بلاد المغرب ، واستغرقت هذه الغزوات نحواً من سبعين عاماً بين مد وجزر إلى أن تم الفتح النهائى على يدى موسى بن نصير فى سنة ٩٢هـ / ٧١١م .

١ – عصر الولاة :

يبدأ هذا العصر بنهاية الفتح العربى لبلاد المغرب ، وينتهى ببداية الدول المستقلة فيه ، على أنه إذا كانت بداية هذا العصر واحدة بالنسبة لأقطار المغرب كافة ، فإن نهايته ليست واحدة فى هذه الأقطار جميعها ، فهو ينتهى فى المغرب الأوسط بسنة ٧٧٦/١٦٠ ، وفى المغرب الأقصى بسنة ٧٨٨/١٧٢ ، وفى إفريقية بسنة ٨٠٠/١٨٤ .

(أ) انتشار الإسلام بين البربر :

تدافعت عجلة الإسلام منذ السنوات الأولى للفتح ، بحيث أضحى البربر فى معظمهم مسلمين ، خلال فترة لاتجاوز مطالع القرن الثانى للهجرة ، وأعان على ذلك أن النصرانية لم تكن عميقة الجذور بينهم ، ثم هى أصيبت

بالوهن قبيل مقدم المسلمين ، ودرست العديد من الكنائس فى تيار الفوضى العام الذى اجتاح البلاد ، ويسر للعرب مهمة الفتح .

فى المقابل كان غالب البربر وثنيين ، لم يتمرسوا بديانة سماوية ذات تراث وتقاليد ، ولم تكن لديهم لغة مكتوبة تحفظ هذا التراث إن وجد ، كما لم تكن اللغة اللاتينية ذائعةً بينهم . لذا كان تأثرهم واضحاً بديانة سماوية جديدة توافر لها تراث وتقاليد ولغة ، فأقبلوا على اعتناق هذه الديانة بأعداد كبيرة فى بداية الفتح ، وشاركوا بدورهم فى مراحل تالية من هذا الفتح .

بعد أن استقرت الحال بالعرب فى بلاد المغرب أنشئوا العديد من الرباطات التى دعيت بالقصور ، كما أنشئوا العديد من المساجد الجامعة ، ويأتى فى مقدمتها المسجد الجامع فى القيروان ، والمسجد الجامع فى تونس ، ولم يلبث أن توافد إلى المغرب عدد من الصحابة والتابعين ، انصرفوا إلى نشر الإسلام بين البربر ، وتفقيههم فيه ، كما لم يغفلوا اللغة العربية وآدابها ، بحيث ظهر بعد جيلين أو ثلاثة علماء من البربر ، بعضهم من تلامذة الإمام مالك (ت ١٧٩) رضى الله عنه .

(ب) الثورة البربرية الكبرى :

كان العرب بحكم أنهم أصل الإسلام ، وبحكم أنهم الذين نهضوا بتبعات تبليغ الرسالة ، يشعرون بقدر من التمايز بينهم وبين أهل البلاد المفتوحة ، صحيح أن هذه النزعة لم تكن واضحةً فى فورة الفتح لكنها صارت واضحةً بعد إتمام الفتح ، كما إن بعض الولاة لم يراعوا تعاليم الإسلام وروحه على نحو دقيق ، وانتهجوا سياسات خاطئة فى التعامل مع مواطنيهم من البربر ، وثبتوا الجزية فى بعض الأحيان عليهم .

على أنه من الواجب ألا نغالى من فعالية هذا العامل ، ونعمم فندين سياسة العرب جملةً ، إلا أنه يمكن أن نؤكد أن سياسة العرب كانت تحوى عنصراً هاماً سلبياً أثار سخط البربر .

هناك عامل آخر نشاهده فى المغرب ، كما نشاهده فى أقطار أخرى غير المغرب ، فالبربر وقد أسلموا بدأوا يشعرون بخصوصيتهم ، وزاد من هذا الشعور البعد الجغرافى بين بلادهم وبين النواة النووية للدولة العربية فى بلاد الشام .

فى مطالع القرن الثانى للهجرة ، تعرف البربر إلى مذاهب الخوارج والأباضية ، واستهوتهم هذه المذاهب ، وبخاصة ما يتصل منها بإمامة المسلم عربياً كان أم غير عربى .

فى سنة ٧٣٤/١١٦ ولى عبد الله بن الحَبْحاب بلاد المغرب والأندلس، فاستعمل عمر بن عبد الله المرادى على طنجة ، فأساء السيرة ، وأراد تخميس البربر ، بزعم أنهم فئ المسلمين فأثار غضبهم ، ولما لم يجدوا لهذا الغضب آذاناً صاغية ، أعلنوا الثورة فى سنة ٧٤٠/١٢٢ ، وتزعمهم فى ثورتهم ميسرة المِطْغَرى ، وقد دعا نفسه بالفقير ، وتمكن من دخول طنجة ، وأرسل إليه ابن الحبحاب جيشاً تردد ميسرة فى لقائه فقتله البربر ، وولوا عليهم غيره ، وفى مكان قريب من طنجة انتصر البربر على العرب ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ودعيت هذه المعركة بمعركة الأشراف ، لكثرة من قتل فيها من العرب وأشرافهم .

كانت الهزيمة شديدةً ، أفزعت الخليفة هشام بن عبد الملك ، فوجه فى العام التالى جيشاً بقيادة كُلْثوم بن عياض القشيرى ، لكن هذا الجيش هزم بدوره عند بقدورة ، ولاذت فلوله بسبتة ثم عبرت إلى الأندلس .

ترتب على هذه الهزيمة أن امتدت الثورة امتداداً واسعاً ، وأضحت القيروان شبه محاصرة من كل وجه .

عاود هشام إرسال جيش آخر كبير ، عدته خمسون ألفاً من عرب الشام يقودهم حنظلة بن صفوان الكلبى ، وبعد أن اتحد هذا الجيش مع أهل القيروان ،

توجه للقاء البربر فى سنة ٧٤٢/١٢٤ ، وهزمهم فى موضع يدعى بالأصنام قريب من القيروان ، ثم عاود هزيمتهم فى موضع آخر يدعى بالقرن .

وصلت الأخبار إلى هشام بدمشق وهو مريض مرض الموت ، وقيل وصلت بعد موته فى سنة ٧٤٣/١٢٥ .

(جـ) الفهريون والمهالبة :

انقسم العرب فى إفريقية شأنهم شأن العرب فى أقطار أخرى إلى قيسية ويمنية ، لكنه إلى جانب هذا التقسيم العرقى ، كان هناك تقسيم آخر سياسى ، وهو بلدية وشامية ، ويقصد بالبلدية جيل الفتح وأولادهم ، وهم بالدرجة الأولى يمانية ، ويقصد بالشامية الأجناد التى وردت إلى المغرب بعد عمليات الفتح ، وهم بالدرجة الأولى قيسية ، أو إن الصدارة فيهم كانت للقيسية .

بعد أن انتصر العرب على البربر تطلع البلدية منهم إلى السيادة ، وتزعمهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، فحاصر حنظلة بن صفوان فى القيروان ، وأرغمه على أن يغادرها ، ويعود أدراجه إلى دمشق . ولم يجد الخليفة الأموى مروان بن محمد إلا أن يقر عبد الرحمن فى ولايته ، وفعل الشئ نفسه الخليفة العباسى السفاح وأخوه المنصور.

لم تستقر أمور إفريقية فى يدى ابن حبيب ، فقد نشبت ضده فتن عربية وبربرية ، وبخاصة من الإباضية والخوارج الصفرية ، وخرج من هذه الفتن منتصراً ، على أنه عندما طالبه المنصور بأموال ، أقدم ابن حبيب على خلع طاعته ، فأضحى وجوده – من ثم – غير شرعى ، مما شجع أخاه إلياس على الخروج عليه سنة ١٣٧ وقتله ، وولى مكانه ، وأعلن الطاعة للمنصور.

على أن حبيب بن عبد الرحمن ثار على عمه وقتله ، ودبت الفوضى بين أبناء البيت الفهرى ، مما حفز قبيلة وَرْفَجومة الصفرية لأن تقتحم فى سنة ١٣٩ القيروان وتنهى دولة الفهريين .

لم يلبث الصفرية أن أساءوا السيرة فى أهل القيروان ، فاستنجد هؤلاء بالإباضية ، وكانت لهم شوكة فى نواحى طرابلس ، وقاد أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى جموعهم ، وألحق بالصفرية هزيمة كبيرة على مقربة من القيروان ، وبعد أن دخلها فى سنة ١٤١ استخلف عليها عبد الرحمن بن رستم الفارسى ، وعاد أدراجه إلى طرابلس .

وصلت أخبار المغرب إلى الخليفة المنصور ببغداد ، فوجه إليها قائده محمد بن الأشعث الخزاعى، فاستطاع أن ينتصر على الإباضية فى سنة١٤٤، ويقتل زعيمهم أبا الخطاب ، واضطر عبد الرحمن بن رستم لأن يغادر القيروان إلى إقليم الزاب .

عادت إفريقية إلى طاعة بنى العباس ، وفى سنة ١٤٨ ولى الأغلب بن سالم التميمى ، فبدد قوته فى حروب لاطائل من ورائها مع الصفرية ، فخرج عليه بعض أجناده بعد سنتين وقتلوه ، فولى المنصور مكانه عمر بن حفص المهلبى الذى حارب بدوره الإباضية فانتصروا عليه فى سنة ١٥٤ وقتلوه ، ودخل زعيمهم أبو حاتم – خليفة أبى الخطاب – إلى القيروان .

عاود الخليفة المنصور إرسال جيش آخر من الخراسانية وعرب العراق والشام ، يقوده يزيد بن حاتم المهلبى – وهو من أبناء عمومة الوالى القتيل – فاستعاد القيروان ، وطارد الإباضية إلى جبل نفوسة ، كما قضى على ثورة للصفرية ، وسادت إفريقية حال من الهدوء ، زاد منها دخول مذهب مالك بن أنس رضى الله عنه على أيدى بعض تلامذته ، وتحقق له انتشار واسع على حساب مذهبى الصفرية والإباضية .

فى سنة ١٧٠ مات يزيد بن حاتم ، واستمرت فترة الهدوء فى عهود خلفائه من المهالبة ، وهادنوا الإباضية الذين أقاموا لأنفسهم دولة فى تاهرت ، على أنه فى عهد الفضل بن رَوْح بن حاتم ، عاد الاضطراب مرة أخرى إلى إفريقية ، ووقعت الفتنة بين أجناد الدولة ، وانتهت هذه الفتنة بقتل الفضل فى سنة ١٧٨ ، وبموته ينتهى عهد الأسرة المهلبية .

٢ – الدول المستقلة :

(أ) الأغالبة :

بعد قتل الفضل بن روح المهلبى مرت إفريقية بفترة من الفوضى بين الأجناد ، استمرت ست سنوات ، إلى أن ولى أهل القيروان عليهم إبراهيم بن الأغلب التميمى فى سنة ١٨٤/٨٠٠ ، وأقره الخليفة الرشيد ، مقابل أن يتنازل عن مائة ألف دينار ، كانت تبعثها مصر لإفريقية كل عام ، وأن يبعث هو بدوره أربعين ألف دينار إلى بغداد .

كان إبراهيم بن الأغلب – وأبوه وال سابق لإفريقية – أول الأمراء الأغالبة ، وأتى بعده عشرة من عقبه ، حتى زوال الدولة الأغلبية فى سنة ٢٩٦/٩٠٩ ، وقد أدرك أن إفريقية بدأت بولايته عهداً جديداً ، فالخلافة العباسية اكتفت منه بالولاء الشكلى ، مع قدر من المال يؤديه لها ، على أن تشكل إمارته دولة حاجزة ، إزاء الرستميين الإباضيين فى تاهرت ، والأدارسة العلويين فى فاس ، فاتجه إلى أن يمكن لنفسه بإعداد جيش يدين له بالولاء ، ولما كان الأجناد العرب قُلَّب لا يؤمن جانبهم ، فإنه اتخذ لنفسه أجناداً من البربر ، على أنه ركز على الصقالبة ، وهم فى أصلهم رقيق كان يؤتى بهم من أوربا ، كما استعان أيضاً بالسودان ، وانتقل بأجناده إلى مدينة جديدة أنشأها جنوب غربى القيروان ، دعاها بالعباسية ، واشتهرت باسم القصر القديم .

عاشت إفريقية تحت حكم الأغالبة عصراً من أزهى عصورها ، من مظاهره عنايتهم بإنشاء المواجل وهى برك عظيمة ، تصب فيها مياه الأمطار والسيول ، وأشهرها الماجل الكبير بتونس ، ويعود انشاؤه إلى سنة ٢٤٨ ، وقد استرعى انتباه اليعقوبى (ت ٢٨٤) – المؤرخ والجغرافى – ما شاهده من خضرة وأشجار زيتون تمتد على طول الساحل ، كما عنى الأمراء بتوفير

الأمن على طرق التجارة ، وصارت القيروان محطة هامة على الطريق بين المشرق والمغرب .

ويمثل عصر الأغالبة عصر ازدهار للفنون والعمارة ، وإلى جانب العباسية التى أنشأها أول أمرائهم ، فإن إبراهيم بن أحمد أنشأ فى سنة ٢٦٣ مدينة رقّادة جنوبى القيروان ، وصارت مقراً للأمراء حتى نهاية دولتهم ، ودعيت بالقصر الجديد ، كذلك أنشأ الأغالبة الرباطات ، وهى امتداد لقصور العباد فى عصر الولاة ، وكان للرباط وظيفة عسكرية إلى جانب وظيفته الدينية ، ويقيم به المجاهدون لصد غارات الروم من ناحية ، وأخذ الأهبة لحربهم من ناحية أخرى .

ومع أن الحكومة الأغلبية كانت على المذهب الحنفى - مذهب الخلافة العباسية - إلا أن جمهور علمائها كانوا مالكية ، بل إن القيروان كانت أهم المراكز المالكية فى بلاد المغرب ، ومن علمائها الكبار فى العصر الأغلبى سحنون بن سعيد التنوخى (ت ٢٤٠) صاحب المدونة المشهورة فى الفقه المالكى ، وولده محمد بن سحنون وعيسى بن مسكين وأسد بن الفرات .

إلى جانب سياستهم الداخلية الناجحة ، لم يغفل الأغالبة أمر الجهاد ، وأهم معالمه فتح جزيرة صقلية ، وقد استغرق فتحهم لها سنوات طويلة ، انتهت فى سنة ٢٨٩/٩٠٢ .

ما كاد المسلمون ينتهون من فتح صقلية ، حتى كانت دولة الأغالبة فى طريقها إلى الذهاب ، لتحل محلها دولة الفاطميين ، ولاذ زيادة الله الثالث آخر الأغالبة بالهرب إلى المشرق ودخل أبو عبد الله الشيعى القيروان ، وأسقط اسم الخليفة العباسى من الخطبة والسكة .

(ب) الدولة الرستمية :

يعود عبد الرحمن بن رستم فى أصله إلى القائد الفارسى الشهير الذى قاتل العرب فى معركة القادسية وقتل ، ثم أسلم بعض ولده .

تزعم عبد الرحمن الإباضية بعد قتل أبى الخطاب ، وأسس فى المغرب الأوسط مدينة تاهرت الجديدة ، وفى سنة ٧٧٦/١٦٠ بويع بالإمامة ، ليتوارثها عقبه بعد وفاته ، وهو ما يتعارض فى مذهب الإباضية مع قاعدة الانتخاب الحر بين جمهور المسلمين .

كانت الدولة الرستمية هى أكبر دول المغرب العربى مساحةً ، إذ امتدت من جبل نفوسة وأحواز طرابلس شرقاً إلى تلمسان غرباً ، ومع أن حدودها كانت تتداخل مع حدود الدولة الأغلبية المجاورة لها ، مما كان يسفر فى بعض الأحيان عن صدامات دامية ، إلا أن الرستميين نجحوا فى أن يخرجوا من هذه الصدامات ، وهم أوفر قوة .

ويمكن أن نقرر على نحو عام أن عصر الدولة الرستمية كان عصر استقرار ، فقد حكم غالب أمرائها سنوات طويلة ، وكانوا فى جملتهم على قدر وافر من العلم ، وعلى قدر آخر وافر من العدالة ، ونهجوا فى حكمهم نهج الشورى ، وجعلوا فى كل مدينة مجلساً ، يدعى بمجلس العَزَّابة ، له رئيس منتخب ، يشرف على شئون الجماعة الإباضية ولهذا المجلس مهام دينية وسياسية واجتماعية مما حافظ على وحدة الجماعة الإباضية ، وأسهم فى نشر اللغة العربية وتعريب البربر .

ومع أن الدولة الرستمية كانت فى معظمها تضم أراض صحراوية ، إلا أنها كانت تضم أقاليم خصبة ، مثل إقليم تاهرت ، حيث انتشرت زراعة الحبوب والفواكه ، على أن التجارة كانت أهم مصادر الثروة ، فكانت سفن الأندلس تتردد على تَنَس ومستغانم ووهران ، تحمل إليها منتجات الأندلس ،

وتحمل منها منتجات المغرب وبلاد السودان([1]) ، وكانت قوافل التجارة تصل إلى أعماق القارة الإفريقية، وتعود منها بالذهب والعاج وريش النعام والرقيق.

لم تلبث أن ازدهرت الحركة العلمية فى الدولة الرستمية ، وشارك الأئمة الرستميون أنفسهم فى هذه الحركة ، وقاموا بالتدريس فى جامع تاهرت وفى جامع نفوسة ، كما ابتنوا مكتبة كبيرة ، دعيت بالمكتبة المعصومة ، ضمت آلاف المجلدات فى فنون مختلفة .

تتابع الأئمة الرستمية ، وفى عهد سابعهم يقظان بن محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، استفحل أمر أبى عبد الله الشيعى ، وأطاح بالدولة الأغلبية ، ثم سار إلى تاهرت ، ومع أنه دخلها بالأمان ، إلا أنه لم يلتزم به ، فقتل يقظان وغيره من أبناء أسرته ، واستباح أموالهم وأحرق المكتبة المعصومة ، بعد أن استخرج منها كتب العلوم .

لاذ عدد من الأباضية بالواحات الصحرواية ، حيث عاودوا نشاطهم التجارى ، وانشئوا عدداً من الزوايا ، تستخدم كمساجد وخانات للمسافرين والتجار ، واستطاعوا عن هذا الطريق أن ينشروا الإسلام فى أعماق الصحراء ، حتى حدود إفريقية المدارية ، وما تزال للإباضية فى زماننا بقية كبيرة فى جبل نفوسه (فى ليبيا) وجزيرة جَرْبَةَ وبلاد الجريد (فى تونس) وواحة وَرْجَلان ووداى مِزاب (فى الجزائر) .

(حـ) الدولة الإدريسية :

بعد وقعة فخ فى سنة ١٦٩ هرب إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى المغرب الأقصى ، وكان يصحبه فى هربه مولى له يدعى راشد .

---

(١) يقصد بها عند العرب البلاد الإفريقية التى تقع جنوب المغرب ومصر .

في سنة ٧٨٧/١٧٢ نزل إدريس بمدينة وَليلَى على قبيلة أوْرَبَـة ، وخلال شهور قليلة بايعته هذه القبيلة وقبائل أخرى مجاورة ، وصارت للعلويين دولة لدى أقصى أطراف العالم الإسلامي إلى الغرب .

حين توافت هذه الأخبار إلى المشرق فزع لها الخليفة الرشيد ، وأرسل شخصاً يدعى الشماخ ، تظاهر بالتشيع لآل على بن أبى طالب ، فأكرمه إدريس وقربه إليه ، ثم دس له الشماخ السم فمات فى سنة ١٧٥ ، وهرب الشماخ إلى مصر ، وكادت دولة إدريس تنتهى لولا أن كنزة مولاته كانت حاملاً منه ، فولدت ولداً دعى أيضاً بإدريس ، كفله راشد إلى أن بويع إماماً فى سنة ١٨٦ .

يعد إدريس بن إدريس هو المؤسس الحقيقى للدولة الإدريسية ، وقد رأى بعد أن اشتد عوده ، أن يبتعد عن أوربة ونفوذها ، بأن ينتقل من وليلى إلى مدينة جديدة ، أنشأها على نهر سُبُو ودعاها بفاس ، ووقد صارت هذه المدينة فيما بعد مدينة زاهرة وحاضرة من الحواضر الكبرى فى بلاد المغرب.

بدأ إدريس فى سنة ١٩٧ سلسلة حملات ، لتأمين حدود دولته ، ثم مات فى سنة ٢١٣ ، ليخلفه ولده محمد ، ويتتابع الأئمة من ولد إدريس حتى سنة ٩٢٥/٣١٣ ، حين دخل القائد الفاطمى موسى بن أبى العافية الزناتى مدينة فاس ليعلن نهاية الدولة الإدريسية ، وأمر بنفى الأمراء الأدارسة إلى قلعة بجبال الريف تدعى بحجر النسر ، ليبدأ الأدارسة تاريخاً جديداً لهم .

فى مستقرهم بشمالى المغرب اندمج الأدارسة فى قبائل البربر المحيطة بهم ، وفقدوا كثيراً من خصائصهم العرقية ، ولم يلبثوا أن عادوا إلى مسرح الأحداث إبان الصراع بين الخلافتين الأموية والفاطمية على المغرب الأقصى ، كما إن بعض الأدراسة ويدعون بالحموديين ، استطاع أحدهم أن يصل إلى

كرسي الخلافة فى قرطبة ، عندما اضطرب أمر هذه الخلافة فى مطالع القرن الخامس .

قام الأدراسة بدور وافر فى تاريخ المغرب الأقصى ، فقد أعانوا على تعريبه بتشجيعهم اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية ، وقد ازدهرت هذه العلوم فى المساجد الجامعة ، وبخاصة مسجد القرويين بفاس وقد أنشئ فى سنة ٢٤٥/٨٦٠ ، ولا نغفل أن استقدامهم للعديد من القبائل العربية قيسية ويمنية ، وعمل بعض أبناء هذه القبائل أجناداً للدولة ، كان له أثره الإيجابى فى هذا التعريب .

٣ – الدولة الفاطمية وخلفاؤها :

(أ) الدولة الفاطمية :

ينتمى الفاطميون إلى الإسماعيلية (نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق) ، وهم شيعة غلاة ، جنحوا إلى الكتمان ، وراجت بينهم أفكار لا تحظى برضى غيرهم من المسلمين .

انتقل أبو عبد الله الشيعى – وهو يمنى الأصل – إلى بلاد المغرب واستطاع أن يضم إلى دعوته قبيلة كتامة فى إقليم الزاب ، ثم اصطدم مع الأغالبة ، وألحق بهم هزيمة كبيرة فى وقعة كينونة فى سنة ٢٩٢ ، وبعث بخبرها إلى الإمام الفاطمى بسلمية من أرض الشام .

ارتحل عبيد الله المهدى ، واستقرت به الحال عند بنى مدرار فى سجلماسة بالمغرب الأقصى .

خلال السنوات التالية لوقعة كينونة استولى أبو عبد الله الشيعى على إقليمى الزاب والجريد ، وجرت الوقعة الفاصلة بينه وبين الأغالبة فى الأُرْبُس فى سنة ٢٩٦/٩٠٩هـ وهرب زيادة الله الثالث إلى مصر ، واقتحم

أبو عبد الله رقادة ، ثم دخل القيروان ، وما كاد يستقر بها حتى علم بأن بني مدرار تغيروا على سيده عبيد الله وحبسوه ، فزحف إلى سجلماسة ، وفي طريقه اجتاز بتاهرت - حاضرة الرستميين - وأدخلها في حوزته ، ثم خلص سيده وعاد به إلى رقادة ، ليبدأ عهداً جديداً في تاريخ المغرب .

كان دخول المهدي رقادة ، يعني أن هناك خلافة ثانية أعلنت ، هي الخلافة الفاطمية ، ومثلما بطش المنصور العباسي بأبي مسلم الخراساني ، وهو صاحب دولته ، فإن المهدي الفاطمي بطش بأبي عبد الله الشيعي ، وهو أيضاً صاحب دولته .

بعد أن قتل المهدي داعيته ، انحرف عن قبيلة كتامة إلى قبيلة صنهاجة ، ثم أنشأ مدينة جديدة على الساحل بين سوسة وصفاقس دعاها بالمهدية ، وعندما اكتمل عمران المدينة في سنة ٣٠٨ انتقل إليها بدولته .

كان من الطبيعي بعد أن استقر الفاطميون في أفريقية والمغرب الأوسط أن يتطلعوا إلى المغرب الأقصى ، وتمكنوا بالفعل من إزالة دولة الأدارسة ، ودخل قائدهم موسى بن أبي العافية الزناتي مدينة فاس في سنة ٣١٣ .

أدى سقوط فاس إلى صدام بين الفاطميين في المغرب والأمويين في الأندلس ، ولسنوات طويلة بعد ذلك صار المغرب الأقصى ساحة للصراع بين الدولتين الإسلاميتين ، وأفضى هذا الصراع في النهاية إلى أن صار هذا الإقليم منطقة نفوذ لبني أمية ولصنائعهم من زناتة التي نجحوا في أن يستميلوهم إليهم.

ترتب على هذا الصراع أن انتهج المهدي مع رعاياه سياسة مالية صاحبها قدر من التعسف ، كما تشدد في نشر المذهب الإسماعيلي ، وأمر بأن تكون الفتاوي به ، وأدى ذلك إلى أن اشتعل الغضب بين البربر ، وبدأت القلاقل تنتشر في أنحاء البلاد ، وشرع المهدي يفكر في أن ينتقل بدولته إلى مصر ، ووجه إليها ثلاث حملات أصابه الإخفاق فيها جميعاً .

ما كاد المهدى يموت فى سنة ٩٣٤/٣٢٢ ، حتى نشبت فى بلاد المغرب ثورة كبيرة عمت أرجاءها كافة ، واستغرقت عهد ولده القائم ٩٣٤/٣٢٢ - ٩٤٦/٣٣٤ ، وبعض عهد حفيده المنصور ٩٤٦/٣٣٤ - ٩٥٣/٣٤١ .

تزعم هذه الثورة أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة يَفْرَن الزناتية ، وتجمع حوله الإباضية فى جبال أَوْراس ، واقتحم إفريقية واستولى على القيروان ومدن غيرها ، وحاصر المهدية نفسها ، وكادت تسقط فى يديه ، لولا العون الذى أتاها من قبل زيرى بن مَناد زعيم قبيلة صنهاجة .

استطاع الخليفة المنصور أن يلحق بأبى يزيد عدة هزائم ، فطلب عون الخليفة الناصر صاحب الأندلس ، ولما تأخر عنه هذا العون ارتد إلى إقليم الجريد ، ثم لاذ بجبال أوراس إلى أن عاود المنصور هزيمته فى سنة ٣٣٦ وقتله .

كان وقع الثورة ثم النصر شديداً على المنصور ، وخلد هذا النصر ببناء مدينة صَبْرَة التى عرفت بالمنصورية بجوار القيروان فى سنة ٣٣٧ ، وانتقل إليها وجعلها عاصمة لدولته ، وعكف على تهدئة البلاد ، وتدعيم سلطة الدولة ، واتبع سياسة الملاينة مع رعاياه ، حتى يأمنوا إليه ، ومات فى سنة ٩٩٢/٣٤١ ليخلفه ولده مَعَد الذى تلقب بالمعز لدين الله .

كان المعز شأنه شأن أسلافه يرى فى مصر بلداً مستقراً وافر الخيرات، وعليه فقد أرسل قائده جوهر ففتحها ، ثم انتقل هو بدوره إليها بعد أن استخلف على المغرب أبا الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى .

كانت النتيجة العامة للمرحلة الفاطمية فى بلاد المغرب سلبيةً ، فالفاطميون أرهقوا رعاياهم بالفرائض والأموال ، وضربوا بين القبائل البربرية ، وتعسفوا فى نشر مذهبهم الشيعى ، وشنوا حرباً غير مبررة مع الأمويين فى

الأندلس وأعانوا أعداءهم ، وكانت نتائج هذه السياسة دافعاً أساسياً لانتقالهم بدولتهم من بلاد المغرب إلى مصر .

(ب) الزيريون وبنو هلال :

قبل أن يغادر المعز لدين الله بلاد المغرب فى طريقه إلى مصر ، كانت الأسرات الحاكمة فى هذه البلاد مشرقية عربية بالدرجة الأولى ، ومنذ سنة ٣٦٢ صارت هذه الأسرات مغربية بربرية بالدرجة الأولى ، وكان بنو زيرى طليعة هذه الأسر .

ينتمى بنو زيرى إلى قبيلة صنهاجة كبرى قبائل البرانس ، وكانت – وكتامة – سناد الفاطميين في بلاد المغرب ، ولعب زيرى بن مناد وولده يوسف دورًا أساسيًا فى هذه المساندة ، مما دفع المعز لأن يستخلف هذا الأخير ، لدى رحيله بدولته إلى مصر ، وبعد وفاته فى سنة ٣٧٣ خلفه ولده المنصور ثم حفيده باديس .

درج الزيريون شأنهم شأن أسلافهم الفاطميين على عداء الأمويين بالأندلس ، وحلفائهم الزناتيين بالمغرب الأقصى ، ونهض حماد بن يوسف بن زيرى بدور أساسى فى هذا الشأن ، ولم يلبث أن أعلن استقلاله بالمغرب الأوسط ، ودارت بينه وبين المعز بن باديس حروب ، أفضت إلى أن صارت دولة بنى زيرى دولتين .

يذهب بعض الباحثين إلى أن دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط ، هى فى حقيقتها امتداد لدولة بنى رستم فى الإقليم ذاته ، وبذا تكون هاتان الدولتان قد مهدتا لأن تكون للمغرب الأوسط (الجزائر) طريقها المستقلة فيما بعد ، يؤيد ذلك أن بنى حماد نبذوا فى سنة ٤٠٥ الطاعة للخلافة الفاطمية ، ونقلوا عاصمتهم من الداخل إلى بجاية البعيدة على الساحل .

وإذا كان الزيريون قد شغلوا بمشاكل المغرب ، فإن الفاطميين فى مصر شغلوا عنهم أيضًا بمشاكلهم ومشاكل دولتهم الواسعة بالمشرق ، ولم تعد أمور إفريقية والمغرب تهمهم كثيراً ومن هنا بدأت الخطوات الأولى لانفصال المغرب عن مصر ، إلى أن ولى المعز بن باديس فى سنة ٤٠٦ ، فقام بحملات منظمة ضد الشيعة فى بلاده ، وفى سنة ١٠٤٨/٤٤٠ نبذ الطاعة للفاطميين ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وأزال أسماءهم على العملة والرايات والطرز ، وفى سنة ٤٤٣ خطب للخليفة العباسى القائم بأمر الله .

فى أعقاب القطيعة النهائية بين مصر الفاطمية وإفريقية الزيرية ، بدأ ما يعرف تاريخيًا بالغزوة الهلالية وشعبيًا بتغريبة بنى هلال .

والإتجاه العام بين المؤرخين أنهم يجعلون الغزوة الهلالية نتيجة طبيعية لما أقدم عليه المعز بن باديس من فك العلاقة الشرعية بين القاهرة والمهدية ، فأقدمت الخلافة الفاطميين فى عهد الخليفة المستنصر على تحريض بنى هلال وبنى سليم وغيرهم من القبائل العربيةعلى غزو ولاية إفريقية انتقامًا من حاكمها المشاغب .

الرأى عندنا أن السبب الحقيقى للغزوة الهلالية هو ما كان يفعله هؤلاء الأعراب الجفاة فى صعيد مصر ، وما قاموا به من فساد ، ضَجَّ منه المحكومون قبل الحكام ، فأرادت الدولة أن تتخلص منهم بتحريضهم على غزو إفريقية وأعطتهم الحجة الشرعية لذلك .

اجتاز الهلالية ببرقة ، ثم جاوزوها إلى إفريقية وحطوا عليها " كالجراد المنتشر ، لا يمرون على شىء إلا أتوا عليه " كما يقول ابن خلدون (ت ٨٠٨) ، فسعى المعز إلى استئلافهم وأصهر إليهم ، وفكر فى أن يستعين بهم ضد أقربائه من بنى حماد ، لكن العرب خيبوا أمله وإزداد عيثهم، فخرج إليهم فى ثلاثين ألفًا من البربر والعبيد والعرب البلديين ، واشتبك معهم

فـى سـنة ١٠٥١/٤٤٣ علـى مقربـة مـن قـابس ، وفوجـئ المعز بـأن العـرب البلديين انضموا إلى بنى جلدتهم الهلالية ، كما خذ له البربر ، فـانهزم هزيمـة شـديدة ، وفـرو وخاصتـه إلـى القيروان ، فحاصروهـا عـدة سـنوات إلـى أن اضطر إلى مفارقتها ، ودخلها العرب واستباحوها ، وقضى المعـز بقيـة أيامـه حزينًا فى المهدية إلى أن مات فى سنة ١٠٦١/٤٥٣ ، ولم يكـن بحـوزة ولـده تميم لدى ولايته سوى شريط ضيق من الساحل مجاور للمهدية وجزيرة جربة .

لم يقف الهلالية عند هذا الحد ، فجاوزوا فى مرحلـة تاليـة إفريقيـة إلـى إقليم الزاب وما يليه من بلاد المغربين الأوسط والأقصى ، وكانت لهـم وقـائع مع بنى حماد ومع المرابطين والموحدين بعد ذلك ، ولم تتكسر شوكتهم إلا فى مرحلة متأخرة ، وهم فى هذا الإبان نشروا الخراب فى كل مكان حلُّـوا بـه ، كمـا ساهموا فى اضعاف الدول الإسلامية القائمـة أو اسـقاطها ، فـى وقـت بزغـت النزعـة الصليبيـة ، وتـردد هـؤلاء الصليبيـون بغزواتهـم إلـى ثغـور المغـرب وجزيرة صقلية ، ولم يستطع الزيريون نجدة هذه الجزيرة التاعسـة ، فسـقطت فى أيدى النورماندبين السقوط النهائى فى سنة ١٠٩١/٤٨٤ ، كمـا إن هـؤلاء النورمانديين استولوا على المهدية فى سنة ١١٤٨/٥٤٣ وأزالوا الدولة الزيريـة ، وأضحت المدن الساحلية الهامة فى طرابلس وإفريقية فى أيديهم .

على أن الغزوة الهلاليـة ، وإن كـانت لهـا آثارهـا السـلبية المدمـرة فـى وقتها ، إلا أنها على المدى البعيد ، كانت لها آثارهـا الإيجابيـة ، فقد قـام بنـو هلال بالدور الأوفى فى تعريب المغرب عرقًـا ولغـةً ، وبفضلهـم تحـول إقليـم برقة وإقليما الزاب والجريد وأقاليم أخرى فى المغربين الأوسط والأقصى إلى أقاليم عربية ، ولولاهم ما جاوز نصيب المغرب مـن العروبـة نصيـب أقطـار إسلامية غيرها بعيدة عن العروبة .

٤ - الدولة المرابطية :

كان المغرب الأقصى فى أواسط القرن الخامس يعيش حالاً من الفوضى ، فقد استبدت به قبيلة زناتة ، ولم تحسن سياستها مع غيرها من القبائل ، بينما انحرفت بعض هذه القبائل ومنها غُمارة وبَرْغَواطة عن صحيح الإسلام ، وانتشر الرافضة - وهم قوم من غلاة الشيعة - والوثنيون فى المناطق المجاورة للصحراء .

إلى الجنوب من المغرب الأقصى فى الصحراء التى تنتهى ببلاد السودان ، أقامت فروع من قبيلة صنهاجة ، أهمها جَزولة ولَمتونة ومَسوفة وجَدالة ، وكانوا بخلاف غيرهم من الصنهاجيين أهل بداوة ، يعيشون حياةً شبيهةً بحياة العرب قبل الإسلام ، لذلك دعوا بصنهاجة الصحراء ، ولأنهم كانوا يتخذون اللثام دعوا بالملثمين أو صنهاجة اللثام .

درجت هذه القبائل على الرحلة فى الصحراء ، لنقل التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، وقد انتشر الإسلام بينهم فى فترة باكرة ، تعود إلى زمن الفتوح ، لكنه كان إسلامًا سطحيًا ، ولم يكونوا فى جملتهم يحسنون العربية ، أو إنهم كانوا يجهلونها .

فى أوائل القرن الخامس آلت الزعامة فى قبيلة جدالة إلى يحيى ابن إبراهيم الذى تطلع إلى أن يتزعم صنهاجة الصحراء جميعها ويخلصها من استبداد قبيلة زناتة ، لكنه وجد عليه أولاً أن يعمق التزامها بالإسلام ، ويخلصه من الشوائب التى علقت به ، ووجد ضالته فى فقيه ينتمى إلى قبيلة جزولة ، هو عبد الله بن ياسين .

كان عبد الله بن ياسين يقيم فى رباط عنه مصب نهر السنغال ، دعاه بدار المرابطين ، وكان يقيم معه نحو ألف رجل دعاهم بالمرابطين .

تكللت جهود الأمير والفقيه بالنجاح ، وبدأ الإسلام الصحيح يتخذ طريقه إلى صنهاجة الصحراء ، على أنه لدى وفاة يحيى بن إبراهيم ، رأى عبد الله ابن ياسين أن ينقل زعامة صنهاجة من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمتونة ، وزعيمها يحيى بن عمر ، وأدى ذلك إلى حرب بين القبيلتين فى سنة ٤٤٨ ، قتل خلالها هذا الأمير ، وخلفه فى زعامة لمتونة وفى زعامة المرابطين أخوه أبو بكر بن عمر .

استطاع أبو بكر بن عمر - بعد جهد كبير - أن يوحد قبائل جزولة وجدالة ولمتونة ، ونهض للمهمة الكبرى التىأعانه فيها عبد الله بن ياسين ، فزحف إلى بلاد السوس ، وقتل من بها من روافض ووثنيين ، ثم استولى على أغمات من بلاد زناتة ، واتخذها عاصمةً له .

بعد أن استقر أبو بكر فى أغمات فترة ، نهض لقتال برغواطة ، وفى سنة ١٠٥٩/٤٥٠ دارت معركة كبيرة بين المرابطين وبرغواطة مُحِّص خلالها المرابطون ، واستشهد عبدالله بن ياسين ، وفيما بعد أقيمت مدينة قريبة من موضع المعركة ، دعيت بالرباط ضمت قبر هذا الفقيه المجاهد ، وهو موضع إجلال عند المغاربة إلى اليوم .

حقق الأمير أبو بكر بن عمر نصره على برغواطة بعد ذلك ، وقتل من ظل على زندقته منهم ، وأسلم الباقون إسلامًا جديدًا وفى الوقت نفسه حقق ابن عمه يوسف بن تاشفين انتصارًا مشابهًا على غمارة ، كما دخل مدينة فاس وانتزعها من زناتة .

امتدت غزوات أبى بكر بن عمر امتدادًا واسعًا فى أنحاء المغرب الأقصى ، وظهرت الحاجة إلى ابتناء مدينة جديدة ، فاختار فى سنة ١٠٧٠/٤٦٢ موضعًا فى سهل مراكش ، وشرع فى تأسيس مدينة دعاها أيضًا بمراكش .

عاود المرابطون الجهاد مرة أخرى ، لكنهم فى هذه المرة كانوا يصوبون أبصارهم جهة الجنوب ، حيث مملكة غانة الوثنية ، وكانت هذه المملكة تنافس صنهاجة فى زعامة الصحراء .

قبل أن ينته الأمير أبو بكر بن عمر من إنشاء عاصمته مراكش ، كان قد استهواه الجهاد ، فأناب عنه ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وغادر المدينة فى سنة ١٠٧١/٤٦٣ وقد باع نفسه من الله ، وغزا مملكة غانة ، ولم يعد من غزوته ، فقد كانت الشهادة من نصيبه .

يعد يوسف بن تاشفين أكبر الزعماء المرابطين وأعلامهم ذكراً ، وكان يتسم بسمات عديدة من الإيمان العميق والتقوى والشعور بالانتماء إلى أمة إسلامية واحدة ، مهما تباعدت أقطارها ، وكان يرى أن عليه رسالة فى الجهاد واجبة الأداء .

انصرف يوسف إلى الاستيلاء على بقية أنحاء المغرب الأقصى ، وتطرقت خيله إلى المغرب الأوسط ، وانتهت إلى حيث تبدأ مملكتا بنى زيرى ، وفى سنة ١٠٧٩/٤٧١ استولى على طنجة ، وبعد خمس سنوات دخلت فى ملكه سبتة ، وبذا صار المرابطون يسيطرون على مضيق جبل طارق .

شغل يوسف فى السنوات التالية بأحداث الأندلس ، وأهمها وقعة الزلاقة فى سنة ١٠٨٦/٤٧٩ التى انتصر فيها المسلمون - أندلسيين ومرابطين - على أذْفُونْش السادس ملك ليون ، كما شغل بوقائع بعدها ، إلى أن أزال ملوك الطوائف فى سنة ١٠٩٠/٤٨٣ ، وصارت بلاد الأندلس - عدا سَرَقُسْطَة - Zaragoza جزءًا من الدولة المرابطية الكبيرة ، ولدى وفاته فى سنة ١١٠٦/٥٠٠ خلفه ولده على بن يوسف .

إمتدت الدولة المرابطية امتدادًا واسعًا فى عهد يوسف بن تاشفين ، لكنه لم يتخذ من ألقاب الملك سوى أمير المسلمين وناصر الدين ، وساس دولته

بمنهج العدل ، فأحسن اختيار ولاته ، وابطل الضرائب والمكوس الغير الشرعية ، وأحسن إلى العلماء والفقهاء ، ووصلت أخباره إلى أبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥) بالمشرق ، فاعتزم الرحلة إليه ، لكنه عند وصوله إلى الإسكندرية علم بموته ، فعاد من حيث أتى .

لم تتبدل الأحوال لدى ولاية على بن يوسف بن تاشفين ، فقد سار على نهج أبيه ، وأحرزت جيوشه انتصارات كبيرة فى الأندلس ، وإن حاقت بها الهزائهم أحياناً . على أن الضعف بدأ يتسرب إلى هذه الدولة ، ، لأن زهد الأمير جعل للفقهاء سطوة عليه ، ولم يكن يقطع أمرًا إلا بمشورتهم ،ولم يكن هولاء الفقهاء فى معظمهم على درجة عالية من العلم ، وزينوا للأمير البطش بمن يخوض فى علم الكلام ، وأوعزوا إليه فأمر بإحراق الكتب التى تخوض فى هذا العلم ، ومنها إحياء علوم الدين للغزالى .

من ناحية أخرى فإن المرابطين ، بعد أن فارقوا البادية وتمرسوا بحياة الحضر ، فقدوا بعض فضائلهم الأصلية ، وانصرف عدد منهم إلى متاع الدنيا وترفها ، وتحكمت فيهم نساؤهم .

كذلك فإن الجهاد الذى طال أمده فى الأندلس أرهق هؤلاء المحاربين الشجعان ، ولأنهم سبق أن تعاملوا مع أهل الأندلس بجفاء ، فإنهم لم يحظوا منهم بالمعاونة الكافية فى الجهاد ، بل إن الأندلسيين ثاروا ضدهم عدة مرات ، وبلغت بهم الحال إلى أن اتحد بعض ثوارهم مع نصارى الشمال ضد إخوانهم فى الدين المرابطين .

على أن العنصر الأهم فى اضعاف دولة المرابطين - وهى لا تزال فى روعة شبابها - هو الحملة الظالمة التى شنها الموحدون ومهديهم المزعوم ضدهم ، وقد تحولت هذه الحملة بعد وفاة على بن يوسف فى سنة ٥٣٧ إلى حرب ضروس ، شملت عهد بنيه ، وانتهت إلى أن انقرضت دولة إسلامية عظيمة .

من حسنات دولة المرابطين أنها كانت أولى الدول الجامعة بالمغرب الأقصى ، صحيح أن الأدارسة سبقوهم إلىمحاولة تحقيق هذه الوحدة ، لكنهم نجحوا فى قسمه الشمالى فحسب ، وما عدا ذلك كان دويلات صغيرة أو كيانات قبلية لا تخضع لسلطة دولة ، كذلك كان من حسناتهم أنهم قضوا على الحركات الدينية الهدامة ، ودعموا قواعد المذهب المالكى ، بحيث صار هذا المذهب هو مذهب سكان المغرب الأقصى جميعهم وسكان الصحراء .

وبطبيعة الحال ، فإن إمتداد الإسلام وتعميقه على نحو صحيح فى نفوس المغاربة كان خطوة هامة وأساسية فى التعريب ، فلم تعد اللغة العربية لغة غريبة فى هذه الاصقاع النائية ، بل إنها امتدت إلى بلاد السودان ، وأضحت لغة العلم عند السودانيين واللغة الرسمية حتى مقدم الأوربيين .

من حسنات المرابطين أيضًا أنهم قاموا بالدور الأوفى فى الجهاد بالأندلس وتأخير ضياعها ، بعد أن تمزقت إلى عشرين دولة أو نحوها ، وأحدق بها النصارى من كل وجه .

على أن أكبر حسنات المرابطين وأبقاها ما قاموا به من جهاد فى بلاد السودان ، فتدافع المد الإسلامى وتنامى زخمه ، ووفدت فى أعقابه قوافل التجار ، ثم هاجر نخبة من علماء المغرب والأندلس ، فنشروا الثقافة الإسلامية ، حيث أقاموا ، بحيث لم تمض سنوات قليلة بعد ذهاب المرابطين ، حتى نشأت مملكة مالى الشهيرة فى غربى القارة الإفريقية .

٥ - الدولة الموحدية :

قامت دولة المرابطين على أساس دعوة عبد الله بن ياسين الجزولى ، وهى دعوة بسيطة فى جوهرها ، تهدف إلى تنقية الإسلام من الشوائب التى علقت به ، ودفع حركة الجهاد ، ومساندة المسلمين فى أقطارهم كافة ، وقامت دولة الموحدين على أساس دعوة محمد بن تومرت الهَرْغى ، وهى دعوة

تسير على نهج مشابة ، وإن جنحت إلى قدر من التعقيد الفكرى والغموض ، وادعى صاحبها المهدوية ، ولقيت مهدويته هذه تأييداً من قبيلته مصمودة التى صارت سناده وعصبيته .

ارتحل محمد بن تومرت لطلب العلم من منابعه بالمشرق ، ولدى عودته إلى بلاده شاهد منكرات ، حاول تغييرها بالقوة ، فتعرض للملاحقة من قبل الحكومة المرابطية ، وطاردته إلى قريته بالسوس ، حيث تطور بدعوته ، فركز على التوحيد ، ومن هنا أتى المسمى الذى عرف به أتباعه ، وشن حملة ظالمة ضد المرابطين ورماهم بالتجسيم ، وادعى - كذباً - أن الغزالى يؤيده فى دعوته ، وكان للإمام الجليل مكان جليل فى نفوس المغاربة .

عاود ابن تومرت الرحلة إلى أن استقر فى سنة ٥١٥ ببلده نائية فى جبال السوس تدعى تِيْنمَلّل ، وهناك أسفر عن مقصده النهائى ، فادعى النسبة إلى أهل البيت ، كما إدعى العصمة ، وأنه المهدى المنتظر ، ونظم أصحابه فجعلهم طبقات ، فى مقدمتهم أهل عشرة ، وهم أصحابه الأوائل ، ومنهم عبد المؤمن بن على الكومى ، يليهم أهل خمسين ، ويمثلون قبائل البربر ، وبخاصة قبيلة مصمودة المنافسة للمتونة قبيلة المرابطين ، ووضع كتباً شرح فيها أصول عقيدته ، وأهلها " أعز ما يطلب " " والموطا " .

عندما تهيأ لابن تومرت جيش قوى ، بدأ الاشتبكات الأولى مع المرابطين ، انتصر الموحدون فى بعضها ، وهزموا فى بعضها الآخر ، وفى سنة ١١٣٠/٥٢٤ اعتزم غزو المرابطين فى عقر دارهم مراكش ، فأرسل جيشاً من أربعين ألفاً بقيادة عبد المؤمن بن على التقى بالمرابطين بموقع يعرف بالبحيرة فى ظاهر المدينة ، ودار قتال شديد ، أفضى إلى هزيمة الموحدين وجرح قائدهم ، وعاد بمن تبقى من جيشه إلى تينملل .

بعد شهور قليلة من وقعة البحيرة مات المهدى ، وكتم أصحابه خبر موته ثلاث سنوات ، ثم أعلنوه فى سنة ٥٢٧ وبويع عبد المؤمن بن على أميرًا للمؤمنين وخليفة للموحدين .

مرت فترة هدوء دامت تسع سنوات ، تخللتها مناوشات بين المرابطين والموحدين ، ثم عاود عبد المؤمن القتال ، وعندما مات على بن يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٣٧ / ١١٤٣ دب خلاف بين قبيلتى لمتونة ومسوفة ، وانضمت هذه الأخيرة إلى الموحدين ، فاستولوا على تلمسان ووهران وفاس ، ثم دخلوا مراكش فى سنة ٥٤١ / ١١٤٧ ، وقتلوا إسحق بن على بن يوسف ابن تاشفين وهو آخر المرابطين .

بعد قليل من دخولهم مراكش صارت لعبد المؤمن دولة تضم المغرب الأقصى كله وشطر المغرب الأوسط وهو إقليم تلمسان ، ولم يلبث أن أتته وفود أهل الأندلس ، تطلب منه أن يملأ الفراغ الذى حدث بذهاب دولة المرابطين .

وجه عبد المؤمن جهوده فى السنوات التالية إلى بلاد الأندلس ، فاسترد فى سنة ٥٥٢ مدينة المرية Almería ، وكان الأندلسيون قد فقدوها فى نهاية العهد المرابطى ، كما وجه جهوده إلى إفريقية فاسترد المهدية من النورمنديين فى سنة ٥٥٥ / ١١٦٠ كما استولى على تونس وقفصة وطبرقه وطرابلس وبلاد الجريد، وقمع العرب الهلالية ، ثم استألفهم ، واتخذ منهم جنوداً شاركوا الموحدين فيما بعد حروبهم ، وبخاصة فى الأندلس .

عاد عبد المؤمن إلى مراكش ، وقد صارت له دولة تمتد من طرابلس شرقًا إلى بحر الظلمات غربًا ، ومن الصحراء جنوبًا إلى موسطة الأندلس شمالاً ، وبذا تكون الدولة الموحدية أول دولة تضم بلاد المغرب جميعها منذ الفتوح الأولى ، ثم وافاه أجله فى سنة ٥٥٨ ، ودفن بجوار المهدى فى تينملل.

عندما مات عبد المؤمن خلفه ولده أبو يعقوب يوسف ، وقد واجهته متاعب في بلاد المغرب ، استطاع أن يتغلب عليها ، أما في بلاد الأندلس ، فقد قام محمد بن سعد بن مردنيش بثورة في شرقي البلاد ، واستعان في ثورته بالنصارى ، ودارت الحرب سجالاً بينه وبين الموحدين إلى أن خمد أمره في النهاية ثم مات ، وأذعن ولده للموحدين .

على أن الذى أهم الموحدين ما بلغتهم من أخبار عن تحرك ملك البرتغال لأخذ غربى الأندلس ، فعبر أبو يعقوب إلى هناك مرتين فى سنة ٥٦٦ وسنة ٥٧٩ ، وأصيب بجراحات فى معركة له مع البرتغاليين قرب شنترين Santarém ، ثم وافاه أجله ، فحمله أصحابه فى تابوت ، وعبروا به البحر إلى العدوة ، حيث دفن بجوار أبيه .

فى عهد ولده أبى يوسف يعقوب حاول أنصار المرابطين بالأندلس أن يبعثوا دولتهم من جديد ، وقادهم فى ذلك على بن إسحق بن غانية فى جزيرة ميورقة ، ثم عبر البحر إلى إفريقية ، وسقطت فى يديه معظم أنحائها ، لكنه تعرض للمطاردة من قبل الموحدين ، وهزموه واضطروه فى سنة ١١٨٧/٥٨٣ لأن يلوذ ببلاد الجريد ، حيث هلك فى العام التالى ، وخلفه أخوه يحيى ، فاستقر ببِسكِرَة ، وكان أبو يوسف بسبيل حربه ، حين وصلت إليه أنباء بضرورة الإنتقال إلى الجبهة الأندلسية .

كان أذفونش الثامن ملك قشتالة قد انتهز فرصة شغل أبى يوسف ببنى غانية ، وغزا الأراضى الإسلامية ، ورد أبو يوسف بأن قام بحملته الكبيرة التى أسفرت عن انتصار المسلمين فى الأرك سنة ١١٩٥/٥٩١ انتصارًا يعدل انتصارهم فى الزلاقة سنة ١٠٨٦/٤٧٩ ، وعقب المعركة اتخذ أبو يوسف لقب المنصور .

أقام المنصور بالأندلس ثلاث سنوات ، استطاع خلالها أن يثبت النصر الذى حققه ، ثم عاد إلى مراكش فى سنة ٥٩٤ ، ووافاه أجله فى العام التالى .

إن حملة الموحدين الظالمة على المرابطين كان لها أثرها الفادح فى مناهضة أتباع هؤلاء لهم ، فأرهقوهم ودولتهم ، وأسهموا على نحو مباشر فى سقوطها .

إلى جانب ذلك فإن الأساس الفكرى الذى قامت عليه هذه الدولة تم ضربه بعد عهد الخليفة الناصر ، فقد تردد خلفاؤها المتأخرون بين الشك فى مهدوية ابن تومرت ، وبين إلغاء هذه المهدوية وارجاعها مرة أخرى ، وخلف ذلك آثارًا مدمرةً على قبائل مصمودة وغيرها من قبائل الموحدين ، وأعطاها المبرر لأن تثور على الدولة غير مرة .

على أن عصر الموحدين يتسم بنهضة ثقافية كبيرة ، تعد امتدادًا للنهضة التى حدثت فى عصر المرابطين ، وإن كانت على نحو أكثر عمقًا ، ولعل أهم عنصر فى هذه النهضة هجرة العديد من الأندلسيين إلى بلاد المغرب ، فأحسن الموحدون وفادتهم ، وأفادوا منهم فى مناصب دولتهم ، واستعانوا بهم فى إبتناء مساجد وقصبات وقصور ما يزال بعضها باقيًا إلى أيامنا هذه .

٦ - بلاد المغرب فى أواخر العصور الوسطى :

ترتب على الهزيمة الفادحة التى أصيب بها الموحدين فى العقاب ، أن بدأت كتلة المغرب المتماسكة فى التفكك ، وظهرت وحدات سياسية جديدة ، على أيدى أسرات كانت تنتمى إلى الدولة الموحدية ذاتها ، وأضحت الصورة العامة لبلاد المغرب فى أخريات القرن السابع قريبة الشبه بالصورة العامة لهذه البلاد فى أخريات القرن الثانى .

تقاسمت المغرب الكبير ثلاث دول ، هى دولة بنى حفص فى إفريقية (تونس وطرابلس) ودولة بنى عبد الواد فى المغرب الأوسط (الجزائر) ودولة بنى مرين فى المغرب الأقصى .

ما كاد الناصر يلى الخلافة بعد أبيه المنصور ، حتى عاود ابن غانية مغاورة الموحدين والتقى به الناصر قرب قابس فى سنة ٦٠١ ، وهزمه وطارده إلى طرابلس حيث استمر فى ثورته حتى مات فى سنة ٦٣١ .

لم ينس الفونسو ملك قشتالة هزيمة الموحدين له فى الأرك ، فمضى وكون حلفًا من ملوك أسبانيا ، وأتاه عون من خارجها ، وبذا استطاع أن يزيل عار الهزيمة الكبيرة فى الأرك سنة ١١٩٥/٥٩١ بنصره الكبير فى العِقاب سنة ١٢١٢/٦٠٩ ، حيث أبيد الجيش الموحدى ، وكاد الناصر يفقد حياته ، وغادر أرض المعركة بصعوبة شديدة ، ولحق بعاصمته مراكش وقد استبدبه الأسى ، فمات بعد شهور قليلة .

تحدد معركة العقاب بداية النهاية لدولة الموحدين ، ويحدثنا المؤرخ ابن عذارى (ت ٧١٢) ، وقد عاش فى فترة قريبة من هذه المأساة ، فيقول إن الإنسان كان يتجول فى بلاد المغرب بعد تلك المعركة فلا يصادف شابًا واحدًا قادرًا على القتال ، لأن القادرين عليه هلكوا فى العقاب .

بعد وفاة الناصر تعاقب على الخلافة ثمانية من أبناء بيته ، شغلوا بالنزاعات بين بعضهم البعض ، وشغلوا أيضًا بثورة بنى غانية ، مما هيأ الفرصة للعرب الهلالية ، كى يعاودوا عيثهم فى مختلف الأنحاء ، وهيأ الفرصة لخروج قبائل هى من صميم الموحدين على دولتهم ، إلى أن انقرضت هذه الدولة فى سنة ١٢٦٩/٦٦٨ على أيدى بنى مرين ، وقتل آخر خلفائها الواثق بالله المعروف بأبى دبوس .

على مدى تاريخ الدولة الموحدية تجمعت مجموعة عوامل أعانت على سقوطها ، من بينها أن خلفاءها جعلوا أقطار الدولة وعمالاتها إقطاعات عائلية ، فلا يتولى الحكم فيها إلا من كان من السادة وهم بنو عبدالمؤمن ، ونادرًا ما كانوا يخرجون على هذه القاعدة ، ولم يكونوا جميعهم ذوى كفاءات عالية ، ثم

(أ) بنو حفص :

ينتسب بنو حفص إلى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتانى ، وهو أحد العشرة الذين ناصروا محمد بن تومرت وبايعوه ، وصار بنوه من بعده يمثلون الطبقة الثانية من الموحدين وعرفوا بالشيوخ ، فى حين كان بنو عبد المؤمن يمثلون الطبقة الأولى وعرفوا بالسادة .

أعلن أبو زكريا يحيى الحفصى خلع طاعة الموحدين فى سنة ١٢٢٩/٦٢٧ ، وتسمى بالإمارة فى تونس ، وامتد سلطانه إلى أنحاء قاصية من المغرب ، بل إن بنى مرين دانوا له بالطاعة إبان صراعهم مع الموحدين ، واستمده أهل الأندلس ، عندما حاصر النصارى بلنسية ، ولكن النجدة التى أرسلها إليهم أخفقت فى مهمتها وسقطت المدينة فى أيدى أعدائها .

عند وفاة أبى زكريا فى سنة ١٢٤٩/٦٤٧ خلفه ولده محمد الذى تلقب بالمنتصر بالله ، وفى عهده استقرت أحوال إفريقية ، وكثر توافد الأندلسيين إلى بلاده ، وبدأ يظهر تأثيرهم فى المساجد والقصور التى تعود إلى عصره ، ونشطت التجارة بين تونس والمدن الإيطالية ، وأنشئت العديد من الفنادق بها.

دخل الحفصيون فى السنوات التالية فى صراعات مع بنى مرين ، مما أضعف دولتهم ، لكن هذه الدولة عاودت نهضتها فى القرن التاسع / الخامس عشر وبخاصة فى عهد أبى عمرو عثمان ١٤٣٣/٨٣٨ - ١٤٨٨/٨٩٣ وعقدت معاهدات تجارية مع لويس الحادى عشر ملك فرنسا ومع سلطان مصر وسلطان غرناطة .

عند وفاة أبى عمرو اضطربت أمور البلاد ، ثم صارت مجالاً للصراع بين المجاهدين الأتراك والإسبان ، وتراوح موقف الحفصيين بين الطرفين ، إلى أن خلصت البلاد للأتراك فى سنة ١٥٧٤/٩٨٢ وأضحت تونس ولاية عثمانية .

(ب) بنو عبد الواد :

ويعرفون أيضًا بنى زيّان ، وينتمون إلى قبيلة زناتة ، وكانوا قد دأبوا على الترحال فى صحراء المغرب الأوسط ، ثم استقروا فى منطقة الساحل ، وانتهزوا فرصة الإنهيار العام للدولة الموحدية ، فاستولوا على تلمسان ، وجعلوها عاصمة لهم ، ولم يجد الموحدون إلا أن يقروا أميرهم يغمراسن بن زيان فى سنة ١٢٣٩/٦٣٧ ، فأسس دولة استمرت تحكم فى المغرب الأوسط زهاء ثلاثة قرون .

عند السقوط النهائى للدولة الموحدية ، تحقق الاستقلال الكامل لبنى عبد الواد لكن هذا الاستقلال تعرض لمخاطر جمة ، بحكم توسط دولتهم بلاد المغرب بين الحفصيين شرقًا والمرينيين غربًا ، كما إن العرب الهلالية اتخذوا من السهول الواقعة شمالى مدينة الجزائر مجالاً لعيثهم .

اضطر بنو زيان إلى الاعتراف بالطاعة للحفصيين الذين ادعوا ميراث الموحدين ، وعانوا عدة مرات من غزو المرينيين الذين استولوا على تلمسان نفسها فى سنة ١٣٣٧/٧٣٧ ، وظلوا بها عدة سنوات ، ثم انسحبوا منها بعد أن اعترف بنو زيان بالطاعة لهم .

ازدهرت أحوال المغرب الأوسط فى القرن التاسع / الخامس عشر ، فانتعشت تجارتها مع السودان ، ونهضت بها منشآت معمارية كبيرة ، وفى نهاية هذا القرن نشط المجاهدون المسلمون الذين كانوا يتخذون قواعدهم بالمغرب الأوسط فى الإغارة على الشواطئ الإسبانية وغيرها من الشواطئ الأوربية ، ولم يجد الإسبان إلا أن يضربوا هذه القواعد ، فاستولوا فى سنة ١٥٠٤/٩١٠ على بجاية ، ثم فى سنة ١٥٠٨/٩١٤ على وهران ، واتجهوا إلى مدينة الجزائر ، ولم يجد أهلها إلا أن يطلبوا معونة عروج وخير الدين المعروف بذى اللحية الحمراء (بارباروسا) ، وهما من المجاهدين المسلمين

الذين يوالون العثمانيين ، وفى سنة ١٥٥٤/٩٦٢ صارت الجزائر (المغرب الوسط) ولاية عثمانية .

(جـ) بنو مرين :

ينتمى بنو مرين إلى قبيلة زناتة ، وخدموا الدولة الموحدية زمنًا طويلاً، إلى أن ضعف أمرها ، فاستقروا بإقليم الريف ، وبدأوا فى سنة ١٢١٦/٦١٣ فى شنن حرب ضد الموحدين ، دامت أكثر من خمسين سنة ، إلى أن تحقق لهم النصر النهائى فى سنة ١٢٦٩/٦٦٨ ودخل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى مراكش معلنًا قيام دولة جديدة ، حكمت المغرب الأقصى زهاء قرنين من الزمان .

توجهت سياسة بنى مرين نحو نجدة إخوانهم أهل الأندلس فى صراعهم الأخيرمع الأسبان ، فقاموا بدور مع مملكة غرناطة ، يشبه الدور الذى قام به المرابطون والموحدون قبلهم ، وحقق المسلمون المتحدون – أندلسيين ومرينيين – عدة انتصارات على الإسبان ، أبرزها الانتصار الكبير فى سنة ١٢٧٥/٦٧٤ عند استجه جنوبى قرطبة ، حيث مزق الجيش القشتالى شر ممزق ، وبعد هذا الإنتصار صارت فى غرناطة قوة كبيرة من بنى مرين يرأسها شيخ الغزاة الذى سوف يصبح من الشخصيات الكبيرة فى المملكة ، وظل التعاون بين بنى الأحمر وبنى مرين سنوات طويلة بعد ذلك .

كذلك توجه طموح بنى مرين إلى التوسع فى المغرب الكبير على حساب بنى عبد الواد وبنى حفص ، ووقعت تلمسان فى قبضتهم فى سنة ١٣٣٧/٧٣٧ وكذا كانت حال تونس فى سنة ١٣٤٧/٧٤٨ ، وامتدت الدولة المرينية من طرابلس شرقًا إلى السوس الأقصى غربًا ، على ان هذا الامتداد كان لفترة محدودة ثم زال .

أصاب الضعف دولة بنى مرين فى بدايات القرن التاسع / الخامس عشر ، وفقدت سيادتها على المغربين الأوسط والأدنى ، وعادت إلى حدودها التى كانت عليها لدى نشأتها ، ودخلت من مرحلة السقوط التى امتدت زمنًا طويلاً ، واستولى البرتغاليون على سبتة فى سنة ٨١٨/١٤١٥ ثم استولوا بعدها على أصيلاً وآسفى وأزمور وطنجة ، وصارت الدولة تقتصرعلى فاس وما يجاورها ، وانتهى أمرها فى سنة ٨٦٩/١٤٦٤ حيث خلفهم بنو وطاس .

ثانياً : الأندلس

الأندلس شبه جزيرة ، دعاها الرومان Hispania ، ومنها أتى مصطلح España (إشبانية عند العرب) ، وفى غضون القرن الخامس الميلادى ، تعرضت إسبانيا لغزوات شعوب جرمانية ، منها الفندال Vandaliالذين طردهم القوط إلى السهل الواقع جنوب الوادى الكبير Guadalquívir ، فأطلقوا اسمهم عليه وصار Vandalucia (ثم Andalucia) ، ولدى مقدم العرب كان هذا الإقليم هو أول ما واجههم من أقطار شبه الجزيرة ، فعربوا اسمه إلى الأندلس، ثم عمموا هذا التسمية على سائر أقطارها .

تقع الأندلس عند الطرف الغربى لبحر الروم ، ويفصلها عن أوربا جبال البُرتات Pyrenees (التى تعرف خطأ بالبرانس) ، كما يفصلها عن إفريقيا مضيق جبل طارق Gibraltar ، وتتوسطها هضبة تشغل ما يزيد عن نصف مساحتها تدعى بالمنضدة La Meseta ، تحدها سلاسل جبلية عالية تنهض لدى الساحل ، وتكتنفها مرتفعات تفصل بين أقاليمها ، وتتخللها وديان تسرى فيها أنهار مثل الإبْره EBRO والتاجُه TAGUS والوادى الكبير .

ويتميز مناخ الأندلس بأنه جاف معتدل بوجه عام ، وإن كان قارياً بالداخل ، ويسود الجفاف فى معظم أنحاء البلاد مما كان له أثره فى نقص المياه بها رغماًعن كثرة أنهارها .

فىمطالع القرن الخامس اقتحمت شعوب بربرية شبه الجزيرة الإسبانية، وبعدصراع دام بين هذه الشعوب ، انفرد القوط بإسبانيا ، وشكلوا الهيئة الحاكمة بين شعب يعود إلى أصول أيبيرية رومانية .

ويذهب البعض إلى القوط لم يكونوا إسباناً فى يوم من الأيام ، بل كانوا مصدراً للنكبات التى حاقت بإسبانيا على مر العصور ، وبدا الأمر لدى مقدم العرب فى مطالع القرن الثامن، كأنه ثورة شعبية ضد حكام أجانب.

في سنة ٧١١/٩٢ بدأ المسلمون فتحهم لبلاد الأندلس ، واستغرق هذا الفتح أربع سنوات ، وتوالى عليه ثلاثة من قادتهم هم طارق بن زياد وموسى ابن نصير وعبد العزيز بن موسى بن نصير .

١ – عناصر المجتمع الأندلسي :

(أ) العرب :

دخلوا في هيئة طوالع ، قاد أولاها موسى بن نصير في سنة ٧١٢/٩٣، وشكلت مع العرب الذين أتوا صحبة طارق بن زياد القسم الثاني من جنود الفتح ، وبلغ عدد هذه الطالعة نحو ثمانية عشر ألفاً ، ولما ولي الحر بن عبد الرحمن الثقفي في سنة ٧١٦/٩٧ صحب معه طالعةً بلغ عددها أربعمائة من وجوه أهل إفريقية .

على أن أهم طوالع الأندلس هي طالعةً بلْج بن بِشْر القُشَيْري في سنة ٧٤١/١٢٣ ، فقد التجأ بعض العرب، بعد أن هزمهم البربر فيثورتهم الكبرى إلى سبتة، حيث أرسلوا إلى عبدالملك بن قَطَن الفهري والي الأندلس يستنجدونه، فأوجس منهم خيفةً ، ولما اقتدى بربر الأندلس ببربر العدوة ، وانقلبواعلى العرب ، سمح لهم بالعبور ، وشرط عليهم الرحيل بعد سنة ، وقد نجح العرب في التصدي للبربر وهزيمتهم بوادي سُلَيْط Guadacelete، على أن ما كان يخشاه ابن قطن وقع ، فنازعه بلج وأصحابه وانتزعوا منه الإمارة وقتلوه .

كانت الطالعة التي قادها بلج تضم نحوة عشرة ألف ، بينهم ألفان من الموالي ، كما كانت تضم قيسية ويمنية ، وغلب الطابع القيسي على جندي دمشق وقنسرين .

وآخر الطوالع العربية بالأندلس ، هي الطالعة التي قادها أبو الخطار حسان بن ضِرار الكلبي الذي قدم في سنة ٧٤٣/١٢٥ ومعه فريق من الشاميين عدتهم ثلاثون رجلاً .

لم تنقطع هجرات العرب إلى الأندلس ، ومما تجدر ملاحظته أن الأسرة الأموية فيما بعد كانت تشجع هذه الهجرة ، وبخاصة من ينتسبون منهم إلى قريش .

انتشر العرب فى أنحاء البلاد جميعها ، وتكثفوا فى مناطق معينة ، وبخاصة المدن الواقعة على الوديان قرب الأراضى الخصبة مثل الوادى الكبير .

انقسم العرب كعهدهم أينما حلّوا إلى قيسية ويمنية ، وهما القبيلان العربيان الكبيران ، كما انقسموا إلى بلدية وشامية ، والبلدية تضم العرب الذين أتوا مع موسى بن نصير ، أى العرب القدماء ، وكثرتهم يمنية ومدنية (فهرية) أما الشامية فهم العرب الذين أتو مع بلج بن بشر ، وكانت القيسية أظهرهم وإن لم يكونوا أكثرهم ، ولما قدم أبو الخطار فى سنة ١٢٥ وزع الشاميين على الكور ، وأطلق هؤلاء على المدن التى نزلوها أسماء مدنهم الأصلية .

أصبحت هذه الأجناد عصب الجيش الأندلسى ، منذ قيام الأمويين بالأندلس ، حتى قريب من سقوط دولتهم .

وإذا كانت الأقطار الإسلامية شهدت فى عصورها الأولى صراعات بين القيسية واليمنية ، فقد ساد هذا الوضع أيضاً فى الأندلس ، ولكن هذه الصراعات ، جاورتها صراعات أخرى بين الشامية والبلدية ، فكان الشامى القيسى يقف أحياناً مع إخوانه القيسيين ضد سائر الشاميين ، ويقف أحياناً مع الشاميين اليمنيين ضد سائر القيسيين ، وشهد عصر الولاه فتنةً بين قبائل العرب استمرت سبع سنوات ١٢٣-١٣٠ بدأت بعد مصرع عبد الملك بن قطن الفهرى شاميةً بلدية ، ثم انقلبت على يدى أبى الخطار الكلبى قيسة يمنية.

(ب) البربر :

يعود الفضل الأول إليهم فى فتح الأندلس ، فقد خاضوا المعركة الرئيسية مع القوط بوادى لَكُه ، ولا يدنى من هذه الحقيقة مجهود العرب بعد عام مع موسى بن نصير ، ولما قامت ثورة البربر الكبرى فى سنة ١٢٣ ، وحلت بهم الهزيمة على أيدى العرب ، عاد عدد كبير منهم إلى بلادهم الأصلية ، ثم نشطت هجرتهم إلى الأندلس ، حين استعان بهم بعض الأمراء الأمويين كمرتزقة .

انقسم البربر فى الأندلس - كما كانت حالهم فى المغرب - إلى بتر وبرانس، وكما انقسم العرب إلى شامية وبلدية ، انقسم البربرعلى نحو مشابه.

ويرى بعض الكتاب أن العرب اختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأرضين ، مما كان سبباً فى ثورة هؤلاء ، على أن ذلك لا يمنع أن كثيراً من البربر اختاروا السكنى فى المناطق الجبلية ، للتشابه الواقع بينها وبين بلادهم الأصلية .

وكان للبربر دور هام فى نشر الإسلام بالأندلس ، وهيأت لهم كثرتهم العددية القيام بالجهد الأكبر فى الفتوح وراء البرتات ، ولولا ما حدث بينهم وبين العرب من نزاعات ، لكان للإسلام فى هذه الأصقاع شأن آخر .

(جـ) الموالى :

لم يشكل الموالى عنصراً أو طبقةً بالمعنى المفهوم ، والفئة الوحيدة المترابطة هى التى كانت على صلة بدوائر الحكم ، ونعنى بها الموالى الشامية بقرطبة .

كان الموالى من أصول شتى عربية وبربرية وفارسية ورومية ، بل إن بعضهم كان من أهل البلاد أنفسهم ، على أن غالبية الموالى كانت أموية ، أى

أنها توالى بنى أمية ، ومما يجدر ذكره أنه جرت العادة عند بعض الكتاب الأندلسيين ، أنهم يكتفون فى أحيان كثيرة بالنسبة الأموية ، بل ويطلقون على موالى بنى أمية تعبير بنى أمية فحسب .

انقسم الموالى - كما كانت حال العرب - إلى شامية وبلدية ، وقد تنازع الفريقان الصدارة على أنها كانت فى معظم الأحوال من نصيب الشامية .

اشتهر من الموالى بعض البيوتات ، منها بنو أبى عَبْدَة ، بنو مغيث ، بنو شهيْد ، بنو حُديْر ، بنو الزَجَّالى ، بنو رستم وغيرهم .

بعد قيام الأمويين ، قام الموالى بدور كبير فى إدارة دولتهم ، بخاصة فى مجالات الحرب والسياسة ، وإن نافسهم العرب أحياناً ، وبعض أفراد الأسرة الأموية ذاتها ، وسوف يدخل فى جملتهم فى مرحلة تالية طائفة الصقالبة ، الذين كان لهم حضورهم الواضح فى عصر الخلافة الأموية وعصر الطوائف .

(د) المُوَلَّدون :

كان من الطبيعى عند فتح العرب أحد الأمصار أن يسارع إلى الإسلام فريق من أهله ، يتزايد عددهم بعد ذلك ، كذا كانت الحال فى الأندلس ، وقد أطلق على من أسلم من أهلها تعبير مولدين ، وعلى أحدثهم إسلاماً تعبير مسالمة أو أسالمة .

وليس لدينا ما يدل على أن المولدين كانوا يختصون بأحياء معينة داخل المدن ، على أنهم فى قرطبة Córdoba تركزوا فى الضاحية الجنوبية وهى شَقُنْدَة Segunda التى دعيت بالرَبَض .

ويذهب ليفى بروفنسال إلى أن المولدين كانوا يعيشون على تربية الماشية والزراعة فى الأرياف وعلى صيد الأسماك والأعمال البحرية فى

المناطق الساحلية ، أما فـي المدن فزاولـوا حرفـاً وأشـغالاً يدويـة ، ومارسـوا العمل فى التجارة ، واشتهروا فى إشبيلية Sevilla بثرائهم .

لم يكن للمولدين نشاط واضح فى الحياة العامة فى عصـر الـولاة ، ولـم يشاركوا فـى غـزوات المسلمين وراء البرتـات ، علـى أن هـذا النشـاط بـدأت طلائعه مع بداية عصر الإمارة الأموية ، ثم تدافعت عجلته بعد ذلـك علـى أن المسلمين من عرب وبربر كـانت لهـم صـلات مـع المولديـن ، فقـد جـاوروهم وصاهروهم ، وادعى عدد منهم أنسابًا عربيّة (يمانية فى المحل الأول) .

كان المسلمون الجدد يتعصبون أحياناً لدينهم تعصباً ساذجاً وجـاهلاً فـى الوقت نفسه ، وسوف يتضح ذلك فى علاقتهم بالدولة فى مرحلة تالية .

(هـ) النصارى المعاهدون :

ويقصد بهم النصارى الذين كانوا يعيشون داخل حـدود الدولـة الأندلسـية ، وكان يطلق عليهم أيضاً تعبير عجم وتعبير مستعربين ، وقد انتـقل هذا التعبير إلى إسبانيا النصرانية فصار Mozárabes .

سمح المسلمون للنصارى بأن ينظموا أنفسهم كما يريدون ، وكان يديـر شئونـهم قوامس أو أقماط Comes (جمـع قومـس أو قمـط) وكـانوا يختـارون بالانتخاب بينهم ، فيما عدا القومس الأعلى ومسـتقره قرطبـة ، فكـانت الدولـة تعينه فى منصبه .

كان قومس الأندلس مسئولاً عن مواطنيه وعلاقـاتهم بالحكـام العـرب ، وكان أول القوامس أَرْطِباس بن غَيْطشَة Witiza من ملوك القوط .

إلى جانب القومس كان هناك موظفون آخـرون ، أبرزهـم القـاضى Judex أو Alcalde ويقضـى بيـن النصـارى وفـق شـرائعهم ، أمـا فـى القضايـا التـى يتخاصم فيها مسلمون ونصارى، فكان قاضى المسلمين هو الذى يقضى بينهم.

عندما ننتقل إلى واجبات النصارى المالية ، نجد أن العرب فرضوا عليهم جزية ، تتراوح بين عشرة دراهم وأربعين درهماً للواحد منهم كل عام ، وأعفى منها غير القادرين والنساء ، كما فرضوا عليهم خراجاً يبلغ الثلث أو الربع من غلة أرضهم .

كانت روح التسامح تسود علاقات المسلمين بالنصارى ، والمدونات النصرانية المعاصرة تؤكد ذلك ، فقد احتفظ النصارى بنظمهم الكنسية وكنائسهم التى كانت قائمةً فى عهد القوط ، وسمح لهم بعقد مجامعهم الدينية والحج إلى بيت المقدس .

وفى أعقاب الفتح أجاز المسلمون لولد غيطشة ضياعهم الفسيحة التى دعيت بصفايا الملوك ، وقدر عددها بثلاثة آلاف ضيعة ، كما إن كثيراً من المسلمين تزوجوا نصرانيات ، ومن نسل إحداهن تحدر المؤرخ وعالم اللغة المعروف ابن القوطية (ت ٣٦٧) .

تأثر المستعربون بالثقافة العربية السائدة ، وبمرور الوقت تم استعرابهم واستيعابهم فى الإطار العام لها ، وأصبح من المعتاد أن يكون النصرانى اسمان عربى وإسبانى ، وفى الوقت نفسه اضمحلت اللغة اللاتينية ، ولم يلبث أن ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة العربية .

(و) اليهود :

كان الفتح الإسلامى فرصةً ليهود الأندلس ، كى يتخلصوا مما كانوا عليه من اضطهاد فى عهد القوط ، فتعاونوا مع المسلمين فى فتحهم للأندلس ، كما تعاونوا معهم فى فتوحهم وراء البرتات .

كان اليهود يؤثرون المقام فى أحياء خاصة بهم داخل المدن ، يزاولون أعمالهم التقليدية ، ويرأسهم فى الأندلس كلها رئيس يعرف بالناجد، كما كانت

لهم دور عبادة ، يطلق على الواحد اسم شنوغة ، وله فى أحوال كثيرة أحباس وأوقاف للنفقة عليه .

ترك المسلمون لليهود حريتهم فى أن يسيروا أمورهم ، وفق أعرافهم وقوانينهم ، وكانوا يتقاضون فيما بينهم .

كانت الصلات بين المسلمين واليهود طيبة ، تسودها المودة ، واتخذ هؤلاء اللباس العربى وتحدثوا بالعربية ، وتمادوا فى استخدام الأسماء العربية ، وسمح لهم المسلمون بملكية الأرض ، وامتهن عدد منهم صناعة الورق ، على أهم مجال عمل فيه اليهود هو التجارة ، وأهم تجارة اشتهروا بها هى تجارة الرقيق وبخاصة الصقالبة .

وكانت لليهود مشاركة واضحة فى الحياة الثقافية فى عصر الخلافة وما تلاه من عصور ، وكثير من تراث الحضارة الإسلامية بالأندلس ، ثم نقله إلى اللغة اللاتينية على أيدى مترجمين يهود .

٢ - عصر الإمارة الأموية :

فى سنة ٧٥٠/١٣٢ وقعت معركة الزاب التى أسفرت عن مصرع الخلافة الأموية بالمشرق ، وانصرف بنو العباس يقتلون من يقع فى أيديهم من بنى أمية .

بعد سنوات من المطاردة التحق عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ببلاد المغرب ، وعبر منها إلى بلاد الأندلس ، حيث استطاع فى سنة ٧٥٥/١٣٨ أن ينشئ لنفسه وبنيه دولة دامت حتى سنة ١٠٣١/٤٢٢

لما كان عبد الرحمن غريباً عن هذه البلاد ، وليست له عصبية ، فإنه انصرف إلى تشجيع أهل بيته على الوفود إليه ، واستعملهم فى مناصب دولته ، كما استعان بالموالى الأمويين ، الذين أصبحت أسراتهم تتوارث مناصب الوزارة والقيادة والحجابة .

فى الوقت نفسه لم يأمن عبد الرحمن جانب العرب وبخاصة اليمانية ، وكان هؤلاء يشعرون بأنهم أصحاب فضل عليه ، لأنهم الذين أعانوه فى دخوله الأندلس ، وحين انحرف عنهم ، قاموا بعده ثورات ضده ، وتحالف بعضهم مع خصومه من العباسيين والفرنجة ، لذلك استعان عبد الرحمن بالبربر ، ليوازن بهم العرب ، كما استعان بالصقالبة الذين كان يؤتى بهم صغاراً من أوربا ، وينشئون نشأةً إسلاميةً ، فتصبح لهم دُرْبَة بأساليب القتال وخبرة ، وشكلوا الحرس الخاص بالأمير .

خلال عهده الطويل نشبت عدة ثورات ضد عبد الرحمن ، أخطرها ثورة العلاء بن مغيث اليحصبى فى سنة ١٤٦ ، وقد أفضت هذه الثورة - كما سبق ونوهنا - إلى قتله .

الأهم من هذا كان الغزوة التى قام بها الإمبراطور شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤ م) إلى بلاد الأندلس فى سنة ١٦١ / ٧٧٨ ، وأعانه فيها بعض الثوار العرب ، ولم تحقق هذه الغزوة أهدافها ، وتعثرت أمام أبواب سَرَقُسْطة Zaragoza ، ولدى عود شارلمان إلى بلاده ، فتك البَشْكُنْس Los Vascos والعرب بمؤخرة جيشه فى جبال البرتات ، وخلدت هذه المعركة أغنية رولان الذائعة الصيت بين ملاحم العصور الوسطى .

ويذهب البعض إلى أن حملة شارلمان هذه وما رافقها من ثورات العرب فى الأندلس تشكل جزءاً من مؤامرة طرفاها العباسيون والفرنجة ، على أنه ليس لدينا - حتى الآن - ما يقطع بوجود تحالف ومن ثم مؤامرة ، نشأت عن هذا التحالف .

فى سنة ٧٨٨/١٧٢ مات عبد الرحمن الذى عرف بالداخل ، كما عرف أيضاً بصقر قريش ، وخلفه ولده هشام الذى عرف بالرِّضِى .

يرتبط عهد هشام بدخول مذهب الإمام مالك رضى الله عنه إلى بلاد الأندلس ، ليصبح بعد سنوات مذهب جمهور أهل الأندلس ، وصار لفقهائه نفوذ كبير عليه ، بحيث أنه لم يكن يقرر أمراً من أمور الدولة إلا بمشورتهم ، ولدى وفاته فى سنة ١٨٠ / ٧٩٦ خلفه ولده الحكم .

يرتبط عهد الحكم بحدثين هامين ، هما استيلاء الفرنجة على برشلونة Barcelona فى سنة ٨٠١/١٨٥ ، وتأسيسهم ما عرف بالثغر القوطى أو الإسبانى ، وثورة الربض التى قام بها المولدون سكان الضاحية الجنوبية بقرطبة ، وتزعمهم فيها الفقهاء ، وقد قمع الحكم هذه الثورة فى سنة ٨١٨/٢٠٢ بشدة ، ونفى من تبقى من الربضيين إلى خارج قرطبة وخارج الأندلس .

لم يمتد العمر بالحكم الذى عرف فيما بعد بالربضى بعد هيج الربض ، فمات فى سنة ٨٢٢/٢٠٦ ، ليخلفه ولده عبد الرحمن الذى عرف فيما بعد بالأوسط .

يعد عهد عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢/٢٠٦ - ٨٥٢/٢٣٨) ازهى عهود الإمارة الأموية ، ودعى " بأيام العروس " ، ومع أن الفتن لم تنقطع فى هذا العهد ، إلا أنه استطاع بحسن سياسته أن يخمدها الواحدة تلو الأخرى ، كما منع الفرنجة من اجتياز حدود الثغر الأعلى ، ووجه حملات ناجحة إلى الدولة الأسبانية الوليدة فى جليقية Galicia ، ووجه حملات أخرى إلى الفايكنج (ودعاهم المسلمون بالمجوس وهم أسلاف النورمانديين) الذين تطرقوا بغاراتهم إلى سواحل الأندلس .

صارت للأندلس مكانة دولية مرموقة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، ونشأت علاقات دبلوماسية قوية مع أقطار أخرى خارجها ، كما استقرت قواعد الدولة الأندلسية ، وصار لكل نشاط من أنشطة الدولة خطة (تقابل الوزارة الآن) ويرأس الجميع الحاجب (يقابل رئيس الوزراء الآن) .

نهضت الحركة العمرانية ، فجدد الأمير الجامع الذى بدأ جده الداخل بناءه فى قرطبة ، كما نهضت الحركة الثقافية ، ومن رجالها زِرياب (ت ٢٣٨) المغنى والموسيقى وعباس بن فرناس (ت ٢٧٤) العالم والغزال (ت ٢٥٠) الشاعر .

فى أواخر عهد عبد الرحمن الأوسط وأوائل عهد ولده محمد (٨٥٢/٢٣٨ - ٨٨٦/٢٧٣) جرت فى مدينة قرطبة حادثة عرفت عند الكتاب الفرنج " بحادثة الشهداء " والسبب فيها أن عددًا من القساوسة المتعصبين ساءهم اتساع نطاق الإسلام ، وإقبال عدد من أبناء جلدتهم عليه ، مما حفزهم إلى (الاستشهاد) والتحريض عليه ، حتى يثيروا الحماسة للنصرانية بين أبنائها ، وكانت وسيلتهم إلى الإستشهاد هى أن يسيئوا إلى الإسلام ونبيه الكريم ، وفتنة الشباب المسلم عن دينه ، مما جعلهم عرضة لحدود الدولة وقصاصها .

دامت هذه الفتنة اثنى عشرة سنة (٨٥٠/٢٣٥ - ٨٦١/٢٤٧) وبعدها سارت الأمور سيرها الطبيعى ، واستمرت الدولة فى سياستها التى تنطوى على التسامح مع رعاياها النصارى ، وسمحت لهم بالاحتفال بأعياد (شهدائهم) وبينهم عدد من (شهداء قرطبة) .

لم يكد يمضى عشرون عامًا على إخماد فتنة (الشهداء) بقرطبة ، حتى اندلعت فى بلاد الأندلس ثورة دعيت بالفتنة الكبرى ، استغرقت ستين سنة من جهد الدولة ، وشاركت فيها عناصر المجتمع الأندلس جميعها ، واتسع مداها حتى شملت الأندلس جميعها ، وأضحى سلطان الدولة لا يتعدى فى أحيان كثيرة أسوار الحضرة ، وأتيحت الفرصة لممالك الشمال النصرانية ، لأن تتوسع على حساب المسلمين .

السبب الأصلى فى هذه الفتنة هو أن بلاد الأندلس فى عهد الأمير محمد (٨٥٢/٢٣٨ - ٨٨٦/٢٧٣) شهدت سنوات متوالية من القحط واضطراب عناصر الطبيعة ، ولم تحسن الدولة سياستها فى التعامل مع هذه الأزمة ، أو التخفيف من وطأتها ، بل إنها تمادت فى جباية العشور وغيرها من الأموال ، واستخدمت وسائل عنيفة فى هذا المجال .

كان لهذه السياسة تأثير بالغ فى رعايا الدولة ، وبخاصة المولدين والنصارى المعاهدين ، لأنهم كانوا كثرة الفئات المنتجة ، وعليهم يقع العبء الأكبر فى أداء هذه الأموال .

زاد الأمر سوءًا موقف القبائل العربية من الأجناد ، وبخاصة الشامية القيسية ، فقد كانوا فى بعض الأحيان ، يتعاملون مع مواطنيهم من الغير الشاميين ومن الغير العرب بما لا يرضيهم . ولا نغفل موقف الفريق الناقم من النصارى الذين أشعلوا فتنة (الشهداء) فى السابق ، وكانت الفتنة هذه المرة فرصة للثأر من الدولة التى حالت بينهم وبين تحقيق أهدافهم ، كما لا نغفل أيضًا موقف نصارى الشمال فى الإفادة مما يضعف خصومهم مسلمى الأندلس .

ولا نستطيع أن نعرض للفتنة الكبرى بتفاصيلها كافه ، ونركز على أهم قادتها وهو عمر بن حفصون .

ينتمى عمر بن حفصون إلى أصل إسبانى نصرانى ، أسلم أحد أجداده ، فدانت ذريته بالإسلام ، لكنهم كانوا يسرون النصرانية .

فى سنة ٢٦٧ أعلن عمر بن حفصون ثورة بكورة ريُّه Rejio جنوبى قرطبة ، وامتنع بجبل بُبَشْتَر Bobastro ، وأثار فى الأهلين من نصارى ومولدين روح العصبية ضد العرب ، ومع أن جيش الدولة توجه إليه واستنزله من حصنه ، وعاد به إلى قرطبة ، إلا أن هرب منها بعد قليل

وعاود عصيانه ، فخرج إليه الأمير المنذر (٨٨٦/٢٧٣ - ٨٨٨/٢٧٥) وحاصره ، ثم مرض أثناء الحصار ومات ، ولدى موته اتسع مدى ثورة عمر ابن حفصون ، وتزعم سائر الثوار المولدين ، واتصل بنصارى قرطبة ، واستعان بهم فى العيث بأرباض المدينة .

فى السنوات الثلاث الأولى لولاية الأمير عبد الله (٨٨٨/٢٧٥ - ٩١٢/٣٠٠) دارت بينه وبين عمر بن حفصون مناوشات ، تبادل الاثنان خلالها مدينة إستِجَة Ecija الهامة التى تعد مفتاح العاصمة ، ثم وقعت المعركة الأساسية عند حصن بُلاى Polei فى ٢ من صفر ١٦/٢٧٨ من يونية ٨٩٠ ، وأسفرت عن هزيمة عمر بن حفصون ، لكن ثورته تمادت لعدة سنوات خصوصًا عندما تنصر فى سنة ٢٨٦ ، وأجرى اتصالات مع نصارى الشمال ، ومع الفاطميين عبر البحر .

عندما ولى عبد الرحمن الناصر فى سنة ٩١٢/٣٠٠ تردد بحملاته إلى عمر بن حفصون ، كما طارد السفن الفاطمية التى كانت تنقل العون إليه وأحرقها ، وأرغمه بعد ثلاث سنوات على عقد صلح ، ثم مات عمر بن حفصون فى سنة ٩١٨/٣٠٥ ، وواصل ولده ثورته إلى أن اقتحم جيش الناصر ببشتر فى سنة ٩٢٨/٣١٥ ، وأعادها إلى حوزة الإسلام ، وبدأت الفتنة تهدأ فى أنحاء الأندلس ، إلى أن انتهت بدخول الناصر طليطلة Toledo فى سنة ٣٢٠/ ٩٣٢ .

٣ - عصر الخلافة الأموية :

(أ) الناصر والمستنصر :

ولى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بعد وفاة جده فى سنة ٩١٢/٣٠٠ ، وبولايته بدأ عصر جديد ، بلغت خلاله الأندلس ذروة مجدها ، واستمر هذا العصر حتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

قبل أن ينته عبد الرحمن من الفتنة الكبرى كان الفاطميون فى بلاد المغرب ، قد أزالوا الدولة الإدريسية ، وشرعوا يتطلعون إلى الأندلس ، فأعانوا الثوار الخارجين على بنى أمية ، وفى طليعتهم عمر بن حفصون ، كما أرسلوا جواسيس لهم ودعاة ، يتخفون فى هيئة التجار . وقد رد عبد الرحمن على ذلك بأن أعلن نفسه خليفة فى سنة ٩٢٩/٣١٦ ، وتلقب بالناصر لدين الله ، ويعنى ذلك أنه ينكر حق الفاطميين فى الخلافة ، وانصرف إلى اصطناع القبائل البربرية المناوئه لهم ، وفى مقدمتها قبيلة زناتة ، كما اصطنع الأدارسة الذين كان الفاطميون قد طردوهم إلى حجر النسر فى جبال الريف ، وأيد أبا يزيد الإباضى فى ثورته . ولم يقف الأمرعنه هذا الحد ، فاستولى الناصر على مليلة وسبته وطنجة على سواحل المغرب الأقصى ، وعندما هاجم اسطول فاطمى فى سنة ٣٤٤ القاعدة البحرية الكبيرة فى ألمرية Almería وأحرق السفن الراسية فيه ، أرسل الناصر قائده غالب فى العام التالى فهاجم مدينة الخرز وخرب سوسة وطبرقة .

لم يغفل الناصر كذلك الخطر الذى كان يتهدد دولته من ناحية الممالك الإسبانية النصرانية ، وكانت النواة الأولى لهذه الممالك قد نشأت فى أعقاب الفتح ، واعتصمت بالجبال الوعرة فى قاصية الشمال ، وتهيأت لها فترة حضانة ، بسبب ما جرى من حروب بين العصبيات العربية والبربرية فى أواخر عصر الولاة ، ثم امتدت امتدادًا واسعًا على حساب المسلمين فى عهد الفتنة الكبرى ، فجرت عدة وقائع بين المسلمين والنصارى ، وتبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة ، ومع أن الناصر أصيب بنكبة كبيرة فى الخندق Alhandega فى سنة ٩٣٩/٣٢٧ ، إلاأن جيوشه أحرزت عدة انتصارات بعدها ، واستعادت من النصارى ما كانوا استولوا عليه ، وسارع ملوك ليون León ونبرة Navarra يخطبون ود الناصر ، بل إنهم كانوا يلجئون إليه ، كى يفض النزاعات التى نشبت بينهم .

اهتم الناصر بالحركة العمرانية ، فابتنى بسفح جبل العروس شمال غربي قرطبة مدينة ملكية دعاها الزهراء ، وأجرى الزيادة الثالثة للمسجد الجامع بحيث تضاعفت مساحته ، ووصل إلى ضفة النهر ، ويعد المحراب الذى أقامه به آية من آيات الفن الأندلس الجميل ، فضلاً عن المئذنة التى ترتفع ثمانين مترًا .

فى أواخر عهد الناصر وفدت إليه سفارات من أنحاء أوربا ، أهمها سفارة أوتو Otto ملك ألمانيا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، إلى جانب سفارة من هيو Hugh أول ملوك فرنسا من أسرة كابيه Capet ، وسفارات من أمراء إيطاليا ومن بابا روما .

مات الناصر فى سنة ٩٦١/٣٥٠ ، وولى مكانه ولده الحكم الذى تلقب بالمستنصر .

عاش المستنصر فترة فى حياة أبيه وليًا لعهده ، ومع أنه شاركه فى إدارة شئون دولته فى سنوات حياته الأخيرة ، إلا أنه شغف بالعلم وأهله ، وأنشأ بقرطبة مكتبه تعد أكبر مكتبة شهدتها العصور الوسطى ، كما شجع حركة الترجمة ، وأجزل العطاء للعلماء الذين برزوا فى أيامه ، ومنهم أبو على القالى (ت ٣٥٦) صاحب كتاب الأمالى ، وابن القوطية (ت ٣٦٧) المؤرخ واللغوى والخشنى (ت ٣٦١) المؤرخ والزبيدى (ت ٣٧٩) اللغوى وغيرهم .

لم يغفل المستنصر أمر المغرب الأقصى وكان الأدارسة يسعون لأن يحلوا محل الفاطميين فيه ، فأرسل قائده غالب فى سنة ٩٧٣/٣٦٣ ، فاقتحم الحصن الذى امتنعوا به فى حجر النسر ، وعاد بقائدهم الحسن بن كنون أسيرًا إلى قرطبة على أن المستنصر واجه متاعب من جهة المجوس (الفايكنج) الذى عاودوا الإغارة على سواحل الأندلس فى سنة ٣٥٥ ثم فى سنتى ٣٦٠ ،

٣٦١ ، لكن يقظة الاسطول الأندلس منعت المجوس من أن يحققوا أهدافهم ، واضطرتهم إلى أن يعودوا من حيث أتوا .

أما عن ممالك الشمال الإسبانية ، فقد تكررت غزوات المستنصر وقائده غالب إليها ، مما دفع هذه الممالك إلى طلب الصلح ، وأتت رسلها إلى قرطبة ، واستقبلهم الخليفة فى قصره بالزهراء مثلما كان يفعل أبوه ، كما جاءت سفارات من ملك ألمانيا ومن ملك الروم .

(ب) الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأموية :

بعد وفاة المستنصر فى سنة ٩٧٦/٣٦٥ خلفه ولده هشام الذى تلقب بالمؤيد .

كان هشام صبيًا صغيرًا ، خضع لسيطرة أمه البشكنسية الأصل صبح Aurora ، وشاركها هذه السيطرة محمد بن أبى عامر المعافرى .

كان ابن أبى عامر شابًا طموحًا ينتمى إلى أسرة عربية يمانية ، صعد فى مناصب الدولة إلى أن أضحى معاونًا للحاجب جعفر ، وشارك فى مؤامرات القصر التى أدت إلى تنحية المغيرة أخى المستنصر بل إنه قتله بيديه ، ثم سعى بعد تولية هشام إلى أن يستبد به ، فتخلص من الصقالبة المناوئين له ، وأخرجهم من القصر ، وأتى بصقالبة غيرهم ، ثم تخلص من الزعماء الذين كانوا ينافسونه فى استبداده ، وبخاصة الحاحب جعفر والقائد غالب .

انفرد محمد بن أبى عامر بالسلطة ، وأضحى حاجبًا للخليفة فى سنة ٩٨١/٣٧١ ، ثم اتخذ لقب المنصور ، ودعى له على المنابر بعد الخليفة ، ونقش اسمه على السكة ، وفى سنة ٣٨٦ أضاف إلى ألقابه لقب الملك الكريم ، وبذا ظهرت فى رحم عصر الخلافة دولة جديدة ، دعيت بالدولة العامرية .

ولما كان المنصور يدرك أن أهل الأندلس ينظرون إليه على أنه مغتصب للسلطة من أصحابها الشرعيين بنى أمية ، فقد انصرف إلى البطش بالأقوياء منهم ، ثم ابتنى مقابل الزهراء مدينة جديدة دعاها الزاهرة ، صارت قاعدة له يدير منها شئون دولته ، بينما الخليفة محجور عليه فى الزهراء ، وأجرى انقلابًا فى نظام الأجناد ، ولم يعد للعرب مكانتهم التى كانت لهم فى السابق ، وأكثر من استقدام الصقالبة والبربر ليعتزبهم .

توجه المنصور إلى العدوة المغربية ، فقضى على البقية الباقية من قوة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، ثم امتد بسيادة الدولة إلى تلمسان وتاهرت بالمغرب الأوسط ، على أن أكبر انجازاته هى حربه ضد ممالك الشمال النصرانية واتخذت هذه الحرب هيئة صوائف وشوات ، توجهت إلى هذه الممالك ، وقادها المنصور بنفسه ، وزاد عددها على الخمسين ، لم يهزم فى إحداها ، وأهمها الغزوة الثامنة والأربعون فى سنة ٣٨٧/٩٩٧ إلى مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة فى أقصى الشمال ، وكان هدفه أن يضرب الإسبان فى صميم زعامتهم الوطنية والدينية .

حققت هذه الغزوات شعبية كبيرة للمنصور فى أنحاء الأندلس وغير الأندلس ، وأسفرت عن امتداد حدود الأندلس الإسلامية شمالاً على حساب النصارى ، بحيث صارت هذه الحدود قريبة مما كانت عليه فى عصر الولاة .

أحرز المنصور مكانة كبيرة بين حكام عصره ، وأتت إليه سفارات من باسيل الثانى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية (الروم) وأوتو الثالث امبراطور الدولة الرومانية الغربية (ألمانيا) ومن ملوك أسبانيا النصرانية الذين صاروا أفصالاً تابعين له ، ومنهم شانجُه Sancho Garcés ملك نبرة الذى زوجه ابنته ، فأنجبت له ولده عبد الرحمن الذى اشتهر فيها بعد بشنجول Sanchuelo .

مات المنصور فى عوده من الغزو فى سنة ١٠٠٢/٣٩٢ ، ودفن بصحن قصره فى مدينة سالم Medinaceli ونقش على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه

تالله لا يأتى الزمان بمثله أبدًا ولا يحمى الثغور سواه

عند وفاة المنصور خلفه فى الحجابة ولده عبد الملك الذى اتخذ لنفسه لقب المظفر ، ولما كان أبوه قد ترك دولة قوية مستقرة ، فإنه لم يجد صعوبة فى قمع من ناوأه من زعماء المغرب ، بل استمال بعضهم ، واضحوا من رجال دولته ، ثم تابع سياسة المنصور الجهادية ، ووصل بغزواته إلى سفوح البرتات ، وحمل ملوك إسبانيا على أن يجددوا ولاءهم ، ويحتكموا إليه فيما ينشأ بينهم من نزاعات .

على أن المظفر مات وهو بعد شابًا لدى غزوته السابعة والأخيرة فى سنة ١٠٠٨/٣٩٩ ولم يكن قد أكمل سبعة أعوام من حكمه القصير ، وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول الذى تلقب بالناصر .

تذهب بعض الروايات إلى أن عبد الرحمن هذا كانت له يدفى موت أخيه عبد الملك ، ولم تكن حاله كحال أبيه ولا حال أخيه ، إذ كان شابًا طائشًا مغرورًا ، هيأ له غروره أن يرغم الخليفة المحجور عليه هشام بأن يجعله ولى عهده ، ووضعت أحاديث تبرر نقل الخلافة من قريش إلى قحطان .

كان سلوك عبد الرحمن دافعًا لأن تحاك ضده مؤامرات وبخاصة من قبل الحزب الأموى الذى كان يترقب الفرصة ، حتى يتخلص من الدولة العامرية ، وبعد شهور قليلة قتل عبد الرحمن ، ودبت الفوضى فى أنحاء الأندلس ، وتصارع زعماؤها على السلطة ، واستعان بعضهم بنصارى الشمال ، وتداول على هذه السلطة خلفاء من بنى أمية ، وخلفاء آخرون من

عقب الأدارسة يدعون بالحموديين ، وحاق الدمار بقرطبة ، ولم يعد للزاهرة وجود ، وطالت معاناة أهل الأندلس ، إلى أن اجتمع وجوه قرطبة وأعيانها وأصحاب الرأى فيها برئاسة القاضى أبى الحزم جَهْوَر ، واستقروا فى سنة ١٠٣١/٤٢٢ على خلع آخر الأمويين وهو هشام الثالث المعتد بالله ، وابعاده وأهله إلى خارج المدينة ، وإبطال رسوم الخلافة جملةً .

بعد قليل نشأت فى قرطبة حكومة شبه جمهورية ، دعيت بحكومة الجماعة ، تولى رئاستها أبو الحزم جهور ، وبدأ دولة استمرت حتى دخلت فيما بعد فى ملك بنى عَبَّاد أصحاب إشبيلية .

على أن دولة بنى جهور لم تنتظم بلاد الأندلس جميعها ، واقتصرت على قرطبة وما جاورها ، وأضحت دولة من دول الطوائف التى سادت الحياة السياسية فى الأندلس حتى مقدم المرابطين .

٤ - الأندلس فى عصر الطوائف

دول الطوائف تعبير عن تعدد الولاءات السياسية فى شبه الجزيرة ، مقابل ولاء سياسى واحد فى المرحلة السابقة ، وهو الولاء للأسرة الأموية .

مجموع هذه الدول نحوٌ من عشرين دولة ، تفرقت إليها البلاد فى مطالع القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، وقد انتهت الحال بهذه الدول أو الممالك إلى سقوطها فى أخريات هذا القرن الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المرابطين حكام المغرب ، أو فى أيدى الإسبان ، ونستثنى هنا مملكة سرقسطة التى امتد بها العمر إلى أوائل القرن التالى .

فى تقديرنا أن ظاهرة الطوائف هذه كانت تعبيرًا عن الخصوصية الأندلسية فى أوجها ، والمنطلق لهذه الخصوصية هو البيئة التى كانت تميل إلى التعدد ، وتجعل الولاء للمجتمع الصغير وهو المدينة يفوق فى أحيان

كثيرة الولاء للمجتمع لكبير وهو الدولة الأندلسية ، كذلك فإن هذه البيئة ذاتها أعانت على التعايش - سلمًا - مع النصارى داخل حدود الأندلس وخارجها ، وأعانت ايضًا على النفور بين الأندلسيين وبين الوافدين إليهم عبر البحر من بربر المغرب والوافدين إليهم من الصقالبة .

فى عهد المنصور بن أبى عامر جرى تطور خطير ، ففى سعيه للإجهاز على العصبية العربية ، أجهز على نظام الأجناد الذى كان سمة أساسية من سمات الدولة الأندلسية ، فبعد أن كان هذا النظام يقوم على القبيلة العربية ، جعل الجند الواحد يضم أفرادًا ينتمون إلى عدة قبائل ، فضلاً عن أفراد ينتمون إلى أصول غير عربية ، وبعد أن كانوا يعتمدون فى معاشهم على اقطاعاتهم ، جعلهم يعتمدون فى معاشهم على رواتب تؤدى لهم مشاهرة .

كان هدف المنصور أن يشعر هؤلاء الأجناد بالانتماء إليه ، على أن هذا الشعور تحول بعده إلى انتماء إلى شخص الحاكم وليس إلى الدولة ، وعندما وقعت نزاعات على السلطة توزع ولاء الأجناد بين المتنازعين ، ولأنهم لم تكن لهم اقطاعات يرتزقون منها ، فقد انصرف همهم إلى نهب العامة ، وشكلوا فى النهاية طبقة عسكرية منفصلة عن الشعب الأندلسى ، وكثير منهم لم يكن يحسن العربية .

على أن ثم خطيئة أساسية ارتكبها المنصور ، ففى غزواته المتوالية إلى دار الحرب ، وقد ناهزت الخمسين ، كان يكتفى بالنصر ، وليس بالنصر النهائى ، وهذه حلول وسطية ، أسفرت عن نتائج سلبية، لأنها استفزت المشاعر الوطنية والدينية عند الجانب الآخر ، ثم إنه ترك المساحات الواسعة التى استردها من النصارى أو استولى عليها ، دون أن يهتم بتعميرها وتوطينها المسلمين ، بحيث أضحت مناطق عازلة ، أو مناطق منزوعة السلاح ، مما جعل من اليسير على النصارى فى مرحلة تالية اقتحامها .

كان من شأن هذا كله أن يسارع بسقوط الدولة التى جهد أمويون عظام فى بنائها ، وتوزعت الأندلس ثلاث مجموعات من الممالك عربية وبربرية وصقلبية ، جنح حكامها إلى اتخاذ ألقاب لم يكن ليتخذها قبلهم غير الخلفاء ، ولدينا مثال واضح فى بيتين مشهورين لابن رشيق القيروانى (ت ٤٦٣) وهو شاعر معاصر :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

سعى الملوك إلى ان يكون للواحد منهم بطانة من الشعراء ، يتغنون بفضائله وفضائل مملكته ، واهتموا بالعمائر التى تخلد ذكراهم ، دون أن تكون ثم ضرورة أساسية لها ، وانفقوا فى هذا الشأن أموالاً طائلة ، تعسفوا فى جبايتها من رعاياهم ، وكانت موضعًا لاستنكار ابن حزم (ت ٤٥٦) الذى عاصر هذه المرحلة .

وما دامت الطوائف قد استكملت استقلالها ، فإن كل واحدة منها كانت تسعى إلى الحفاظ على هذا الاستقلال من ناحية ، وإلى مد حدود سلطانها على حساب غيرها من ناحية أخرى ، وتطلب ذلك نفقات باهظة ، وعاودوا أرهلق رعاياهم بها ، والأهم من هذا كله أنهم فى اصطراعهم بعضهم مع بعض سعوا إلى طلب العون من الملوك النصارى ، وكان هؤلاء يؤيدونهم بجنودهم فيتمكنون من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم - على قول ابن حزم - يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، ولابد بطبيعة الحال من مقابل ، وكان المقابل فى البداية مالاً يؤدى إلى الملك النصرانى ، لم يلبث أن تحول إلى جزية ، ثم تحول إلى تنازل عن أراض إلى جانب الجزية .

سياسة التنازلات هذه فتحت شهية الملوك النصارى ، لأنها دعمت من قوتهم ، وأضعفت من قوة المسلمين ، وهيأت الفرصة للاعتداء عليهم .

في سنة ١٠٨٥/٤٧٨ وقعت الواقعة فقد سقطت طليطلة .

تخاذل ملوك الأندلس فى معظمهم عن نجدة طليطلة ، ولم ينصتوا إلى صريخ القاضى أبى الوليد الباجى (ت ٤٧٤) عندما دعاهم إلى الجهاد ذباً عنها ، وانصرف الواحد منهم إلى أمور مملكته وحدها ، بل إن المعتمد – ملك إشبيلية – وقد ملأه الرعب من أذفونش (الفونسو السادس) لم يوظف هذا الرعب فى مساندة المدينة التاعسة ، ولم يتحرك لمواجهة ملك ليون ، إلا بعد أن تهدد هذا مملكته نفسها ، كما فرض حصاره على سرقسطة .

لم يجد ملوك الأندلس إلا أن يطلبوا معونة إخوانهم عبر البحر ، وكانت قد بزغت عندهم قوة صحراوية كبيرة هى المرابطون وأميرهم يوسف بن تاشفين (١٠٧٣/٤٦٦ – ١١٠٦/٥٠٠) .

فى العام التالى جرت واقعة الزلاقة Sagrajas ، وانتصر المسلمون المتحدون – أندلسيين ومرابطين – على خصيمهم الإسبانى ، ولم يتبق من جيشه البالغ أربعين ألفًا سوى مائة أو مئات .

بعد المعركة مباشرة انقلب يوسف بن تاشفين إلى بلاده ، وكان بإمكانه – إذا أراد – أن يسترد طليطلة على الأقل ، لكنه لم يفعل ، وترك الفرصة لأذفونش كى يلتقط أنفاسه ، ويتهيأ لجولة جديدة مع المسلمين ، وفى الوقت نفسه دبت النزاعات بين الأندلسيين بعضهم ضد بعض ، ثم بينهم وبين المرابطين ، بل سعى عدد منهم إلى الاتصال بالنصارى ، مما أفضى إلى تعثر الحملة الإسلامية للاستيلاء على حصن لبيط Alēdo فى سنة ١٠٨٨/٤٨١ ، مما دفع ابن تاشفين في جوازه بعد سنتين إلى إزالة ممالك الطوائف سوى مملكة سرقسطة التى تأخر سقوطها فى أيدى المرابطين إلى سنة ١١١٠/٥٠٣ .

٥ - الأندلس فى عصر المرابطين :

انقسمت بلاد الأندلس فى عصر المرابطين إلى خمس ولايات هى قرطبة ، إشبيلية ، غرناطة Granada ، مرسية Murcia ، بلنسية Valencia ، ثم أضيفت ولاية سادسة هى سرقسطة ، واختص المرابطون أنفسهم بالولاية والإمارة وكان آخر من ولى منهم أبو زكريا يحيى بن غانية ، على أنه فيما عدا هذه المناصب اعتمد المرابطون على أهل الأندلس فى مناصب أخرى أخصها الكتابة والقضاء .

كانت عدة الجيش المرابطى سبعة عشر ألف فارس ، موزعين على أقطار الأندلس ، لكنهم كانوا يعهدون بالدفاع عن الثغور إلى الأندلسيين ، لخبرتهم فى هذا المجال ،وامتلكوا بالأندلس أساطيل قوية دائمة ، قواعدها فى المرية وقادس Cádiz والجزيرة الخضراء Algeciras وطريف Tarifa وسبتة .

لم يهمل المرابطون أمر الجهاد ، وخاضوا معارك عديدة ، من بينها معركة أُقليش Uclés ، فى سنة ٥٠١/١١٠٨ ، وكان أذفونش السادس قد اعتقد أن موت غريمه يوسف بن تاشفين ، يعنى أن يعاود الظهور بالساحة الأندلسية ، فعاث فى إقليم إشبيلية ، وأرسل قائده الكبير ألبارهانيث لحصار المسلمين فى حصن أُقليش ،حيث دارت معركة كبيرة ، تشبه الزلاقة فى ضراوتها ، وانتهت إلى هزيمة النصارى ، ومصرع سبعة من قوامسهم ، ومعهم ولد أذفونش الوحيد ويدعى شانجه .

نتيجة لمعركة أقليش مات أذفونش غمًا لفقد ولده ، على أنه بنصر أقليش سقطت عدة حصون مجاورة فى أيدى المسلمين ، وقاد على بن يوسف ابن تاشفين سلسلة من الغزوات لأراضى النصارى ، واستولى فى إحداها على طلبيرة Talavera ، وحاصر طليطلة ، لكنه لم يستطع أن يأخذها لمناعتها ، واكتفى بتخريب أحوازها .

فى الوقت نفسه توجهت حملة مرابطية أخرى إلى الغرب ، حيث كانت مملكة البرتغال فى طور النشأة ، واتخذ مؤسسها هنرى البرجونى (زوج ابنة اذفونش السادس) قُلُمْرِيَّة Coimbra عاصمة له ، فاستعاد المسلمون يابُرة Evora وأُشبونة Lisboa (لشبونة) وشنترين Santarém ، ووصلوا فى زحفهم إلى مقربة من قلمرية ، ولم يستطع هنرى أن يدفع هذه القوات .

لم يغفل المرابطون أمر سرقسطة ، وهى مملكة الطوائف الوحيدة التى كانت خارجة عنهم ، وكان صاحبها عماد الدولة بن هود ، قد ارتمى فى أحضان النصارى ، وأفتى الفقهاء بخلعه ، ونجح المرابطون فى دخول المدينة فى سنة ٥٠٣/١١١٠ ، وكان استيلاؤهم عليها حافزًا لهم على استعادة الجزائر الشرقية (ميورقة Majora ، منورقة Minora ، يابسة Ibiza) بعد ست سنوات .

على أن المسلمين أصيبوا فى سنة ٥١٢/١١١٨ بنكبة كبيرة فى سرقسطة ، تشبه نكبتهم الكبيرة فى سنة ٤٧٨/١٠٨٥ فى طليطلة .

كانت إمارة أَرَغونة Aragón قد نشأت جنوبى البرتات ، ثم اتحدت مع مملكة نبرة ، لتنشأ مملكة جديدة على حدود الثغر الأعلى ، واستطاع أذفونش الأول ملك أرغونة الذى دعى بالمحارب El Batallador أن يستولى على بعض قواعد سرقسطة ، ثم فرض حصاره عليها ، وأعانه صليبيون قادمون من خارج إسبانيا ، إلى أن دخل المدينة ، ولم يلبث أن جعلها عاصمة له وقاعدة لمتابعة غزواته فى شرقى الأندلس حيث أنزل بالمرابطين هزيمة كبيرة فى معركة كُتُنْدَة سنة ٥١٤/١١٢٠ ، وهلك فيها عدد كبير من المسلمين ، وفى أعقابها سقطت فى يديه مدن عديدة .

كان لما أحرزه أذفونش من انتصارات على المرابطين حافزًا له فى ٥١٩/١١٢٥ ، لأن يخترق الأندلس من أقصاها إلى اقصاها ، حتى وصل

إلى ساحل البحر مما يلى غرناطة ، وأيده النصارى المعاهدون فى غزوته بعدة آلاف من مقاتلتهم ، وأخفق المرابطون فى التصدي له .

نتج عن نقض المعاهدين لعقد الذمة أن هرب عدد منهم ، صحبة ملك أرغونة فى عوده شمالاً ، وأفتى ابن رشد (الجد ت ٥٢٠) بتغريب الباقين ، فرحل معظمهم إلى المغرب .

جدد أذفونش غزواته مرة أخرى ، وكانت هذه المرة إلى إفراغة Priego ، ليصل إلى مدينة طرطوشة Tortosa الساحلية الهامة ، وحاصر إفراغة حصارًا شديدًا ، وهرع المرابطون لنجدتها ، فدارت تحت أسوارها فى سنة ١١٣٤/٥٢٨ معركة أفضت إلى هزيمة للنصارى تشبه هزيمتهم فى أقليش ، ومثلما مات أذفونش الليونى بعد هزيمته غمًا ، فكذا كانت حال أذفونش الأرغونى .

بيد أن المرابطين لم يستثمروا انتصارهم هذا فى أن يزحفوا إلى سرقسطة ويستردوها ، وهم هنا يكررون الغلطة ذاتها التى إرتكبوها قبل خمسين عامًا بعد انتصارهم فى الزلاقة .

كانت معركة إفراغة خاتمة المعارك الكبيرة التى خاضها المرابطون فى الأندلس ، لأنهم تفرغوا بعدها لمناهضة الثورات التى قام بها الأندلسيون ضدهم ، وكذلك لمناهضة الموحدين الذين قاموا ضدهم بالمغرب .

لم ينس الأندلسيون ما فعله المرابطون معهم ، بعد سحق الطوائف ، وما جرى من اذلالهم ، كما صدمهم ما اتسمت به السياسة المرابطية من تزمت تجاههم ، فثاروا فى سنة ١١٢١/٥١٤ بقرطبة ، ومع أن المرابطين قمعوا ثوراتهم ، إلا أنهم عاودوها ، عندما ترامت إليهم أخبار الصراع بين المرابطين والموحدين ، وتعددت مراكز هذه الثورة ، وأكبرها الثورة التى تزعمها أحمد بن قسى فى غربى الأندلس .

ومثلما حدث في زمن الطوائف ، فقد استنصر بعض زعماء هذه الثورات بملوك النصارى ، وبخاصة أذفونش السابع ملك ليون الملقب بالقيصر (والذى عرف عند المسلمين بالسليطين) وقد استطاع في النهاية أن يدخل قرطبة مساندًا لثوارها ، ولم يفارقها إلا عندما علم باستعداد الموحدين لاقتحام الأندلس .

على أن أكبر الضربات التي وجهت إلى الأندلس في هذه الحقبة المضطربة هي استيلاء الحملة البرية البحرية التي شاركت فيها قشتالة Castilla ونبرة وأرغونة ، فضلاً عن جنوة Genoa وبيشة Piza على ثغر المرية الكبير في سنة ١١٤٧/٥٤٢ ، كما إن سائر القواعد الهامة في الثغر الأعلى تساقطت الواحدة تلو الأخرى ، وعلى رأسها طرطوشة ولاردة Lérida وإفراغة ومِكْناسَة .

٦ – الأندلس في عصر الموحدين :

بعد أن صارت للموحدين دولة كبيرة في بلاد المغرب ، توجهوا بأبصارهم إلى الأندلس ، وكان قد كثر فيها الثوار ، ودخل بعضهم في طاعة الموحدين ، وتردد بعضهم الآخر في دخولها ، أو استمر في ثورته ، ومن هؤلاء بنو غانية ، وينتمون إلى المرابطين ، وقد انسحبوا إلى دانية Denia ، ومنها إلى الجزائر الشرقية ، ومنهم أيضًا محمد بن سعد بن مردنيش وصهره ابن همشك في مرسية ، وصار الصراع بين الموحدين وهؤلاء سجالاً .

كان هم الموحدين الأكبر هو استرداد ألمرية ، التي صارت بحوزة السليطين أذفونش السابع ، وقد تم لهم ذلك في سنة ١١٥٧/٥٥٢ ، على أنهم لم يهنئوا بنصرهم طويلاً ، لأن أذفونش الأول Affonso Inrique (ويعرف عند المسلمين بابن الرنق) أول ملوك البرتغال انصرف إلى غزو القواعد الإسلامية في غربي الأندلس ، فاقتحم أشبونة ، ثم تقدم إلى شنترين ثم

باجة Beja ، وأخذ يتهدد بطليوس Badajoz ، وتنبه عبد المؤمن إلى خطره متأخرًا ، وما كاد يتجهز لحربه حتى وافاه أجله في سنة ١١٦١/٥٥٨ .

استطاع أبو يعقوب يوسف أن يدفع هجوم البرتغاليين على بطليوس فى سنة ١١٧٠/٥٦٦ ، كما أخمد ثورة ابن مردنيش ، ثم عاود نضاله مع البرتغاليين ، وتوجه إليهم فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ بجيش كبير يربو على المائة ألف هدفه شنترين ، لأنها كانت القاعدةالتى ينطلق منها البرتغاليون لغزو أراض المسلمين ، لكن حملته هذه تعثرت ، ورفع المسلمون الحصار عنها ، واتخذوا طريقهم إلى إشبيلية لكنهم لم يحسنوا تنظيم صفوفهم ، مما جعلهم هدفًا لهجمات مضادة من أعدائهم ، ومع أن المسلمين قاتلوا ببسالة ، وفتكوا بالعديد من أعدائهم ، إلا أن خليفتهم أصيب بجراحات خطيرة ، فحمله رفاقه على محفة ، وأسلم الروح قبل أن يصل جيشه إلى إشبيلية .

لدى وفاة أبى يعقوب يوسف خلفه ولده أبو يوسف يعقوب الذى تلقب بالمنصور ، وقد وجه جهوده لوقف تقدم البرتغاليين الدين استولوا على شِلْب Silves فى سنة ١١٨٩/٥٨٥ ، فاستعادها بعد عامين ، ثم خرج بحملة كبيرة فى عام ١١٩٥/٥٩١ ، وجعل وجهته قلعة رباح Calatravá ، فى صميم أراضى مملكة قشتالة .

عندما علم أذفونش الثامن بخبر هذه الحملة ، غادر طليطلة فى جيش كبير ، متجهًا إلى قلعة رباح ، ثم عسكر قرب الأرك Alarcos ، وهو حصن من أعمال القلعة .

بدأت المعركة فى ٩ من شعبان ١٨/٥٩١ من يوليو ١١٩٥ بهجوم من القشتاليين على قلب الجيش الإسلامى ، فتقدمت قبائل العرب والمتطوعة، وأحاطت بأعدائهم من كل جانب ، واضطروهم إلى الهرب صوب الحصن ، لكن المسلمين حالوا بينهم وبينه ، وأعملوا القتل فيهم ، ثم أحاطوا بالحصن

يظنون أن أذفونش يعتصم به ، لكنه كان قد غادره فى عشرين من رجاله ، ثم دخل المسلمون الحصن عنوة .

كانت معركة الأرك من المعارك الكبيرة التى نصر الله فيها المسلمين ، بحيث يمكن أن نعتبرها أختًا للزلاقة ، وكانت نتيجتها المباشرة ، أن توقف المد النصرانى إلى حين ، واستعاد المسلمون عدة حصون فى غربى الأندلس ، كما استعادوا قلعة رباح ، واعتزم المنصور متابعة نصره ، فيستولى على طليطلة ، لكن دخول الشتاء منعه من ذلك .

لم يحاول المنصور فى غزواته التالية استعادة طليطلة ، ثم اكتفى بهدنة مع النصارى ، ولم يلبث أن مات وهو ما يزال شابًا فى سنة ١١٩٩/٥٩٥ .

كان أذفونش قد اعتزم أن يأخذ بثأر هزيمته فى الأرك ، وأيدته البابوية ، كما أيدته الممالك الإسبانية الأخرى ، وأتاه صليبيون من أنحاء أوربا كافة ، فخرج من طليطلة ، واستولى فى طريقة على قلعة رباح ، ثم وصل إلى العقاب ، وهو سهل مجاور لمدينة جيان Jaén ، تقع إلى القرب منه قرية تدعى تولوسا ، لذا فقد دعيت المعركة عند الأسبان Las Navas de Tolosa .

فى يوم ١٥ من صفر ١٦/٦٠٩ من يوليو ١٢١٢ دارت معركة العقاب بهجوم شنه النصارى على مقدمة الجيش الموحدى ، لكن ميمنة المسلمين وميسرتهم رد تاجناحى الجيش النصرانى ، وبدأ النصارى فى الفرار ، على أن أذفونش ثبت ومعه قواته الاحتياطية ، وقاتل قتال اليائس ، فانتظمت صفوفه وركزوا فى هجومهم على القلب ، واندفعوا نحو الحرس الخلافى ، وحمى وطيس القتال ، ورغمًا عن شجاعة الخليفة وحرسه ، إلا أنه لم يجد مندوحةً من الفرار إلى جيان ، بينما فلول جيشه تفر إلى كل ناحية ، والنصارى يعملون القتل فيهم ، وقبل أن تغيب شمس هذا اليوم ، كانت المعركة قد حسمت نهائيًا لصالحهم .

كانت الهزيمة شديدة الوقع على المسلمين ، فعشرات الآلاف منهم هلكوا في المعركة ، وعاد الناصر يجرر أذيال الخيبة إلى مراكش ، فوافاه أجله - وهو ما يزال شابًا - بعد شهور .

ترتب على المعركة أن بدأت الدولة الموحدية في بلاد المغرب مرحلة أفولها ، أما في الأندلس فإن النصارى لم يتوانوا في استثمار الفرصة التي واتتهم بهزيمة المسلمين المروعة في العقاب ، وشغل الموحدون بنزاعاتهم الداخلية ، وأخذت القواعد والمدن الأندلسية تتهاوى واحدة فواحدة في أيدي النصارى ، ومنها إشبيلية ، جيان ، مرسية ، بلنسية ، وكانت قمة المأساة دخول فرذلند Fernando الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس قرطبة في ٢٢ من شوال ٦٣٣ ، ٢٩ من يونية ١٢٣٦ .

كانت مهمة التصدي للزحف النصراني - وقد تخلى الموحدون عن الأندلس - من شأن أهل الأندلس أنفسهم ، وبرز على الساحة زعيمان عربيان هما محمد بن يوسف بن هود الجذامي الملقب بالمتوكل ومحمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الملقب بالشيخ ، ولم يمهل القدر أولهما سوى سنوات قليلة ، ثم انتهت حياته بأن اغتاله بعض أصحابه في سنة ١٢٣٦/٦٣٣ ، أما الآخر ويعرف أيضًا بابن الأحمر ، ويرتفع نسبه إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه ، فإنه جعل معقله مدينة غرناطة وحصنها ، وأتته أجناد من أنحاء الأندلس ، وامتدت سيطرته إلى مدن مجاورة ، وبعد سقوط قرطبة دخل في ولاء ملك قشتالة وصار في جملة أتباعه ، وأعانه في الاستيلاء على إشبيلية .

تنتمي إلى هذا المرحلة المحزنة من تاريخ الأندلس رائعة ابن الأبَّار (ت ٦٥٨) ومطلعها :

أنجد بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وكذا رائعة الرُّندي (ت ٦٨٤) ومطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

٧ – مملكة غرناطة والموريسكوس :

(أ) مملكة غرناطة :

كانت مملكة غرناطة تقع فى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة ، وراء نهر الوادى الكبير ، وتهيأت لها موارد طبيعية مناسبة ، أعانت على ازدهارها ، فتوافد إليها مهاجرون أندلسيون من مدن إسلامية أخرى ، وعاشت فيها أقلية نصرانية من المستعربين ، إلى جانب عدد من اليهود . ويذهب البعض إلى أن هذه المملكة على صغر حجمها ، كانت تضم زهاء خمسة ملايين ، يتباهى معظمهم بأصولهم العربية ، أما الأجناد فالكثرة الظاهرة فيهم كانوا من البربر ، وبخاصة بنى مرين .

أما العاصمة وهى غرناطة فكانت فيما سلف من عصور من أعمال كورة إلبيرة Elvira ، نزلها جند دمشق إبان حركة الاستقرار العربى بعد الفتح ، وفى مرحلة سقوط الخلافة الأموية ، خربت مدينة إلبيرة ، وصارت غرناطة قاعدة الكورة ، ولم يلبث أن غلب اسمها على الكورة ذاتها .

كانت مملكة غرناطة هى رابعة القوى السياسية فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد ممالك قشتالة وأرغونة والبرتغال ، وشغلت مساحة تقدر بعشر مساحة البلاد ، ورغمًا عن كونها أضعف هذه الممالك إلا أنها عاشت ما ينيف على القرنين والنصف القرن ٦٣٥/١٢٣٨ – ٨٩٧/١٤٩٢ ، والسبب الحقيقى لامتداد العمر بهذه المملكة ، يكمن على نحو أساسى فى النزاعات بين الممالك النصرانية الثلاث ، وفى النزاعات داخل المملكة الأساسية قشتالة ، وكانت غرناطة تتدخل أحيانًا فى هذه النزاعات ، وتناصر فريقًا على حساب آخر .

تحددت سياسة غرناطة فى مصانعة أرغونة ، وهى المنافس الأساس لقشتالة ، كما تحددت أيضًا فى التحالف مع بنى مرين سلاطين المغرب الأقصى ، واحتكرت أسرتهم مشيخة الغزاة زهاء قرن من الزمان ، لكنها

كانت تنزع أحيانًا إلى التخلى عنهم ومصانعة قشتالة ، عندما تستبد بها المخاوف منهم . وخلال المائة العام الأولى من تاريخ غرناطة تبادلت وقشتالة النصر والهزيمة ، واستطاعت غرناطة فى سنة ١٢٧٥/٦٧٤ أن تحقق نصرًا كبيرًا على غريتمها فى وقعة قرب مدينة استجة ، أعانها فيها المغاربة ، وقد أعاد هذا النصر ذكرى معركتى الزلاقة والأرك .

وصلت مملكة غرناطة إلى ذروة مجدها فى النصف الأخير من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وسادت حال من الهدوء على حدودها ، وامتدت هذه الحال على نحو أو آخر إلى السنوات الأولى من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، إلى أن عاودت حركة الاسترداد نشاطها ، ثم بلغت مدى خطيرًا بسقوط جبل طارق فى سنة ١٤٦٢/٨٦٧ .

خلال عصر مملكة غرناطة استمر عطاء الأندلسيين الحضارى يتدفق ، كما كانت حاله قبل هذا العصر ، على أن معظم هذا العطاء تحدد فى فن العمارة ، ولدينا مثال الحمراء Alhambra ، كما تحدد فى الأدب وبخاصة الشعر ، ولدينا مثال ابن الخطيب (ت ٧٧٦) ولا نشاهد آثارًا واضحة فى العلوم العقلية والطب .

خلال النصف الأخير من القرن التاسع ضعف أمر مملكة غرناطة ، بسبب النزاع على العرش داخلها ، ثم افتقارها إلى الظهير المغربى بذهاب دوله بنى مرين فى سنة ١٤٦٤/٨٦٩ ، ولم يكن خلفاؤهم من بنى وطاس من القوة ، بحيث يستطيعون عون مملكة غرناطة .

الأهم من ذلك ما جرى من تطوارت فى إسبانيا النصرانية ، ففى سنة ١٤٧٤مات إنريك الرابع ملك قشتالة ، فخلفته أخته إيسابيل Isabel ، التى كانت متزوجة من الأمير فرناندو الأرغونى ، وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أرغونة ، ثم اتحدث المملكتان الإسبانتيان ، ليبدأ العصر

الذهبى فى تاريخ إسبانيا ، وهو العصر الذى يمتد حتى نهاية القرن السادس عشر .

بدأ فرناندو وإيسابيل حملتهما لغزو مملكة غرناطة ، واستغرق هذا الغزو عدة سنوات ، إلى أن صارت جيوشهما إزاء أسوار الحضرة نفسها ، وعبثًا طلب أهلها عون إخوانهم المماليك فى القاهرة والعثمانيين فى إسلامبول ، ثم صبروا على الحصار الذى طال أمده ، ولم يجدوا إلا التفاوض مع أعدائهم ، وانتهت المفاوضات إلى معاهدة من ست وخمسين مادة ، وصل إلينا نصها العربى كما وصل إلينا نصها القشتالى ، والروح العامة لهذه المعاهدة طيبة ، فهى تنص على بقاء المسلمين على حالهم التى كانوا عليها ، وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملة ، ولا يؤدون من الأموال إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم ، وأن يسيروا وفق شرائعهم ، وسمح لمن يشاء بالعبور إلى المغرب بأمواله وأولاده ، وذيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان عهدهما ويضمنانه بدينهما وشرفهما الملكى .

فى اليوم الثانى من ربيع الأول ٨٩٧/٢ من يناير ١٤٩٢ دخل الملكان الكاثوليكيان المدينة ، ورفعت راية القديس يعقوب على أعلى الأبراج بحمراء غرناطة ، وانطلق الرهبان يرتلون : الحمد لله Te Deum Laudamus ، وغادر أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة مدينته إلى حيث يقيم بقرية ، اقطعها له ملك أسبانيا ، فأقام بها مديدة ، عبر بعدها البحر إلى المغرب ، واستقر بفاس إلى أن مات فى سنة ١٥٣٤/٩٤٠ ، وتدهورت الحال بولده بعده ، وصاروا يعيشون على أموال الصدقات .

(ب) الموريسكوس :

في أعقاب تسليم غرناطة ظهر تيار قوى بين سكانها يتوجس من غد غير مأمون ، فشرع بعضهم فى بيع أرضه وعقاراته والرحيل إلى المغرب .

كانت السياسة الأسبانية تجاه المسلمين مترددة ، فكانت الدولة ترى فى المسلمين الذين يشكلون نحو عشرين فى المائة من مواطنيها أكثر هؤلاء المواطنين نشاطًا وأوفرهم حضارة ، فى حين كانت الكنيسة تراهم كفارًا ، يجب تنصيرهم ، وإلا فالقتل أو النفى أو الاسترقاق .

انصاعت الدولة لتحريض الكنيسة ، وبعد سبع سنوات فقط من تسليم غرناطة استدعى الملك فرناندو الكردينال ثيسنيروس Francisco Jimenéz de Cisneros مطران طليطلة إلى غرناطة ، فبدأ وجمع فقهاء المدينة وأعيانها ، وأغدق عليهم ، واستطاع أن ينصر بعضهم بالحسنى ، ثم صعد اجراءات التنصير ، وحول المساجد إلى كنائس ، وجمع كتب المسلمين ، وكانت تعد بالآلاف ، وأضرم فيها النار ، سوى ثلاثمائة كتاب فى الطب والعلوم .

أسفرت هذه السياسة عن ظهور من يعرفون بالموريسكوس Moriscos ، وهى صيغة تصغير أو تحقير من Moros أى مسلمون وصارت تعنى من الناحية العملية النصارى الجدد Cristianos Nuevos أو المسلمين المنصرين Moros Cristianados .

ترتب على هذه السياسة أن ثار المسلمون فى جبال رنده Ronda ، وكان لهذه الثورة أثرها فى اعتدال السياسة الأسبانية إلى حد ما ، لكنه فرض على المسلمين أن يقيموا فى أحياء خاصة بهم فى المدن تدعى Moreriá ، يتخذون علامات معينة ولا يحملون سلاحًا .

استمرت سياسية التنصيربقية عهد فرناندو حتى مات فى سنة ١٥١٦ ، ثم تصاعدت فى عهد حفيده وخليفته كارلوس الخامس (شارلكان) ، وكان قد خضع عدة سنوات لوصاية ثيسنيروس وأصدر فى سنة ١٥٢٤ مرسومًا

بتنصير المسلمين أو الإسترقاق أو النفى ، كما يأمر بإعدام المتنصر الذى يعود إلى دين آبائه ، وأن يحول ما تبقى من مساجد إلى كنائس . والأهم من هذا كله نشط ديوان التحقيق La Inquisición ، وغنى عن البيان ما كان يحظى به هذا الديوان - الذى يعرف أيضًا بمحاكم التفتيش - من سمعة سيئة عبر العصور .

وصلت سياسة التنصير إلى ذروتها فى عهد فيليب الثانى ١٥٥٥ - ١٥٩٨ ، فأصدر فى سنة ١٥٦٧ مرسومًا ، يحظر على الموريسكوس حمل السلاح ، أو التحدث بالعربية ، أو ارتداء ملابس عربية ، أو التسمى بأسماء عربية ، كما يحظر الحجاب على نسائهم ، وأمر بهدم الحمامات العامة والخاصة ، ومراقبتهم أيام الجمع والأعياد الإسلامية ، وجعل عقوبة من يخالف هذا المرسوم تصل إلى الإعدام .

ترتب على هذه السياسة أن قام الموريسكوس فى سنة ١٥٦٨ بثورتهم الكبيرة فى جبال البشرات Alpujarras ، واستطالت هذه الثورة قرابة ثلاث سنوات ، قادهم فيها زعماء نسبهم فى بنى أمية ، إلى أن تم إخمادها فى مارس سنة ١٥٧١ .

ترتب على إخفاق الموريسكوس فى ثورتهم إلى اقتناعهم فى جملتهم بعدم الجدوى من المقاومة ، فأظهروا جميعهم نصرانيتهم ، لكن غالبهم أسر إسلامه ، ولما كانوا قد فقدوا على وجه التقريب لغتهم العربية ، وصاروا يتحدثون بالقشتالية أو القشتالية المختلطة بالعربية ، فإنهم شرعوا فى كتابة هذه اللغة بحروف عربية ، ومن ثم عرفت لغتهم بالألخميادو Aljamiado وهو تحريف إسبانى للأعجمية .

وصلت إلينا بعض هذه الكتابات ، وهى توضح أن الموريسكوس حافظوا فى معظمهم على دينهم الحنيف ، فموضوعات الألخميادو موضوعات دينية من فقه وحديث وتفسير وسيرة ، على أن الأفكار الإسلامية فى الألخميادو شابتها فى بعض الأحيان أفكار نصرانية .

بيد أن عددًا من الموريسكوس عبروا عن رفضهم للحال التى هم عليها، بالمشاركة فى الغارات التى قام بشنها بعض المجاهدين الأتراك ، وغيرهم من رعايا الدولة العثمانية والمغاربة على ثغور إسبانيا الشرقية والجنوبية ، وكانت مشاركة هؤلاء الموريسكوس ذات فائدة كبيرة ، بحكم معرفتهم الدقيقة بأحوال إسبانيا وطرقها ومسالكها وكذا لغتها ، مما كان يدفع السلطات الإسبانية إلى نزع سلاح الموريسكوس المقيمين لدى هذه الثغور .

أشهر هؤلاء المجاهدين المسلمين هو خير الدين المعروف عند الأوربيين بذى اللحية الحمراء Barba Rosa وقد تردد بغاراته على الشواطئ الأسبانية ، وكانت هذه الغارات تفضى عن تحرير أعداد كبيرة من الموريسكوس وإلى استرقاق أعداد أخرى كبيرة من الإسبان .

نتيجة لهذا التحدى من قبل المسلمين داخل إسبانيا وخارجها ، فإن السياسة الأسبانية فى عهد فيليب الثالث الذى ولى فى سنة ١٥٩٨ بدأت تتجه إلى منحى جديد ، وهو التفكير فى نفى الموريسكوس .

فى ٢٢ ديسمبر من سنة ١٦٠٩ صدر مرسوم النفى ، وكان له وقع سيء على الموريسكوس ، وحاول بعضهم دون جدوى مقاومته ، واضطر غالبهم إلى الرضوخ والرحيل على مراكب مخصوصة أعدتها الدولة ، واتجهت الكثرة إلى بلاد المغرب ، واتجهت أعداد أقل إلى فرنسا واسلامبول والشام ومصر .

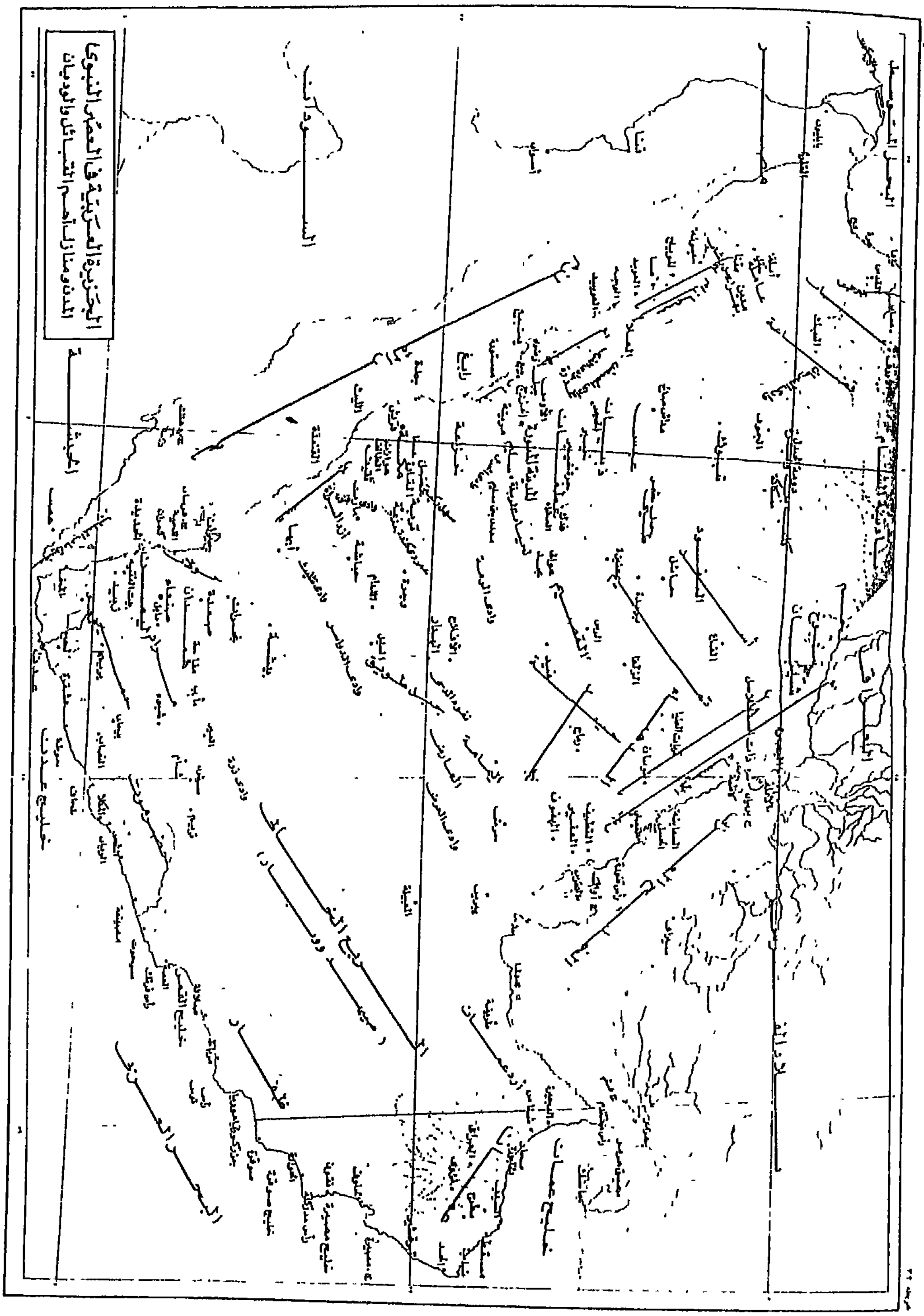
يقدر عدد الموريسكوس الذين تم ترحيلهم بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٤ بنحو المليون ، وإن كان البعض يقفز بهذا العدد إلى ثلاثة ملايين .

ورغمًا عن النفى فإن عدة آلاف من الموريسكوس ظلوا يقيمون فى إسبانيا على نحو أو آخر ، بل إن بعض من تم نفيهم عادوا إلى وطنهم ، وهو ما توضحه سجلات ديوان التحقيق فى إسبانيا وفى امريكا أيضًا ، حيث هاجر

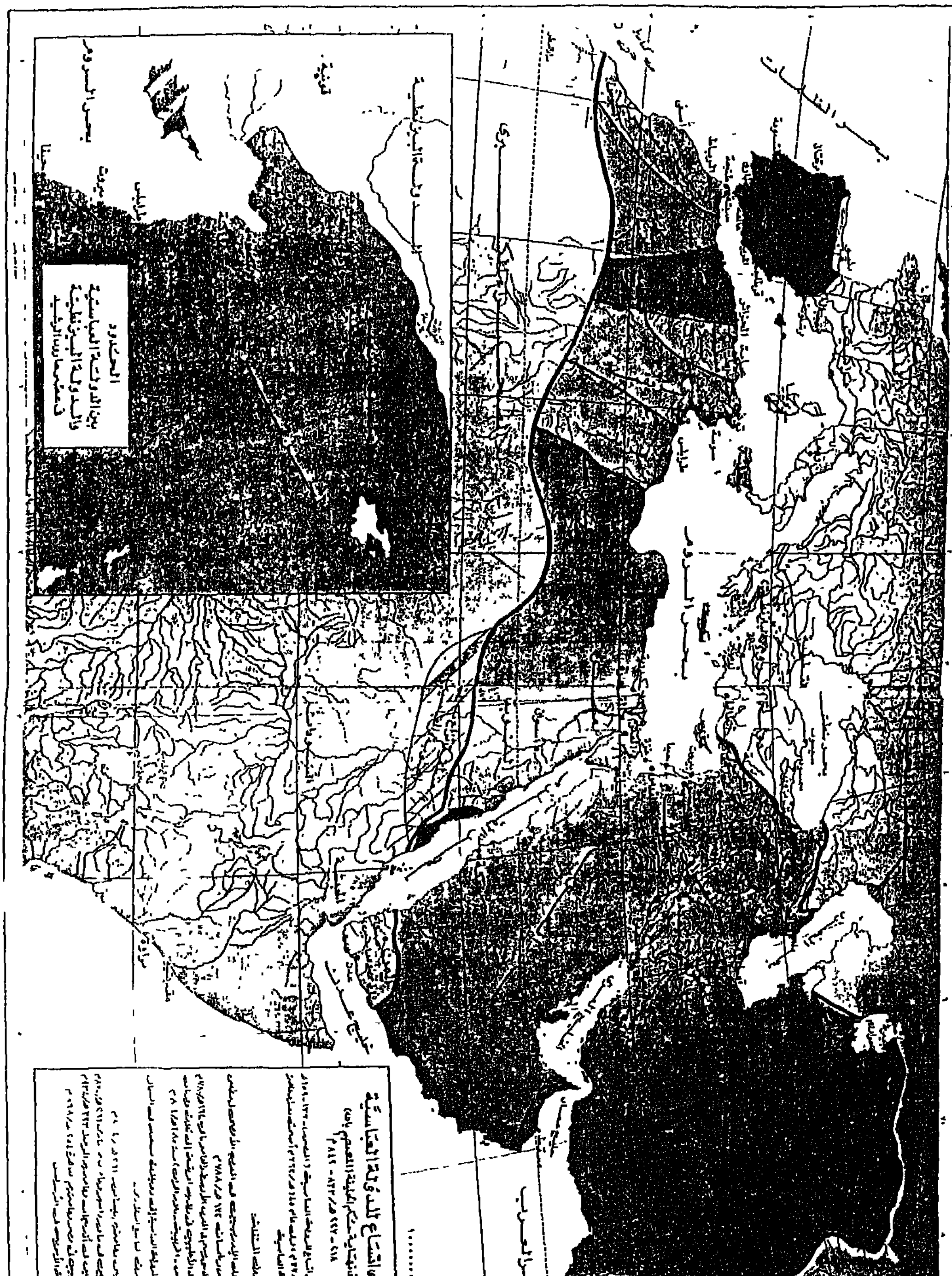
بعض الموريسكوس ، وفى وقت متأخر يعود إلى سنة ١٧٦٩ اكتشف مسجد صغير فى قرطاجنة Cartagena ، أنشأه بعضهم ، إلا أننا لا نسمع عن وجود لهؤلاء المسلمين بعد ذلك ، فإنهم لم يلبثوا أن اندمجوا فى سائر الشعب الإسبانى ، وفقدوا خصائصهم العرقية والدينية .

وإذا كان نفى الموريسكوس قد حقق الوحدة الوطنية والدينية لإسبانيا ، وهو ما كان يسعى إليه ملوكها والكنيسة ، إلا أن هذا النفى حرم إسبانيا من أرقى عناصر سكانها ، وأوفرها نشاطًا وحيوية ، مما كان له أثره – مع عوامل أخرى – فى انهيار أحوالها على نحو عام ، وترديها خلال القرن السابع عشر، وانتهاء العصر الذهبى فى تاريخها .

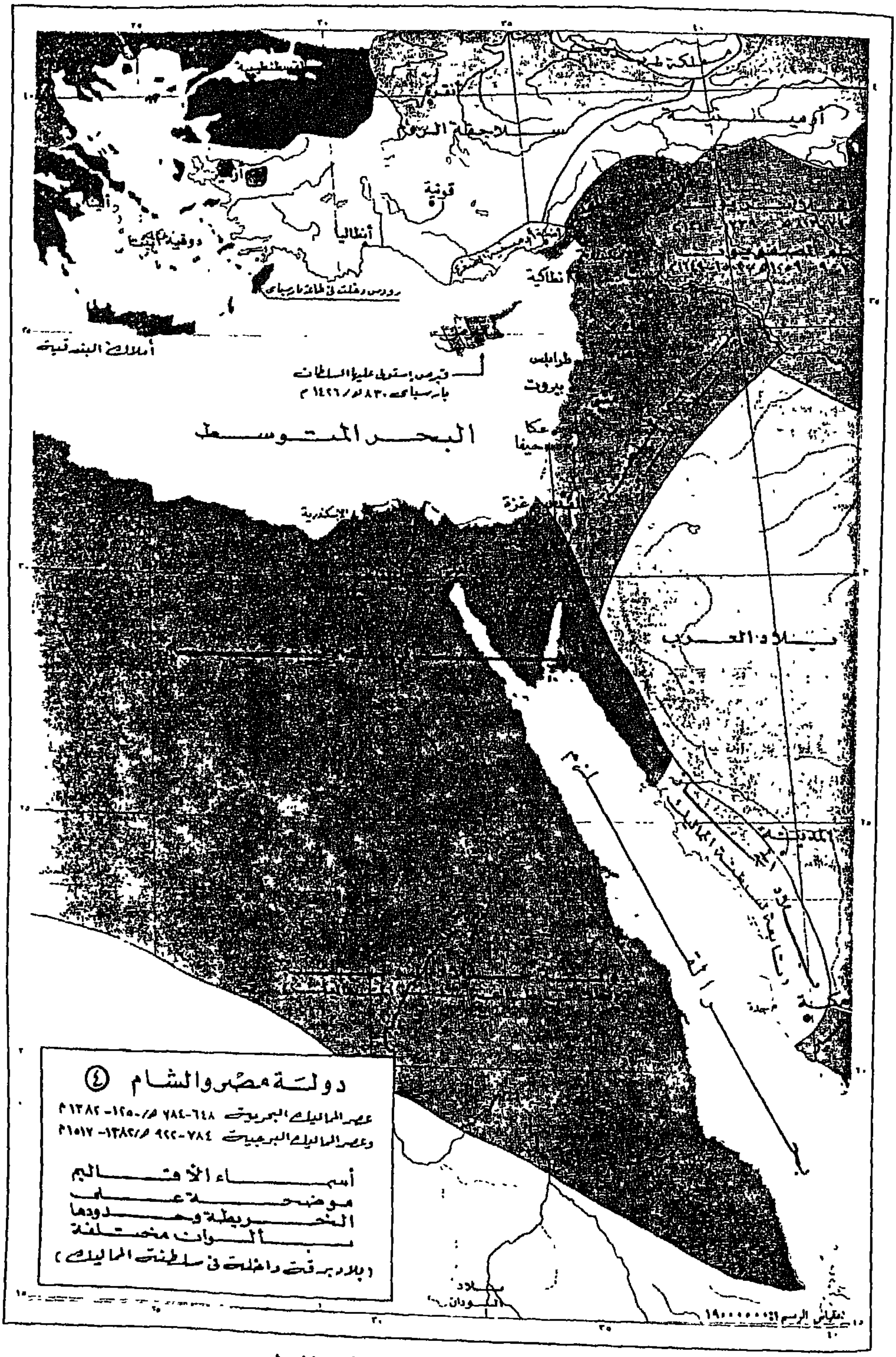
Osama



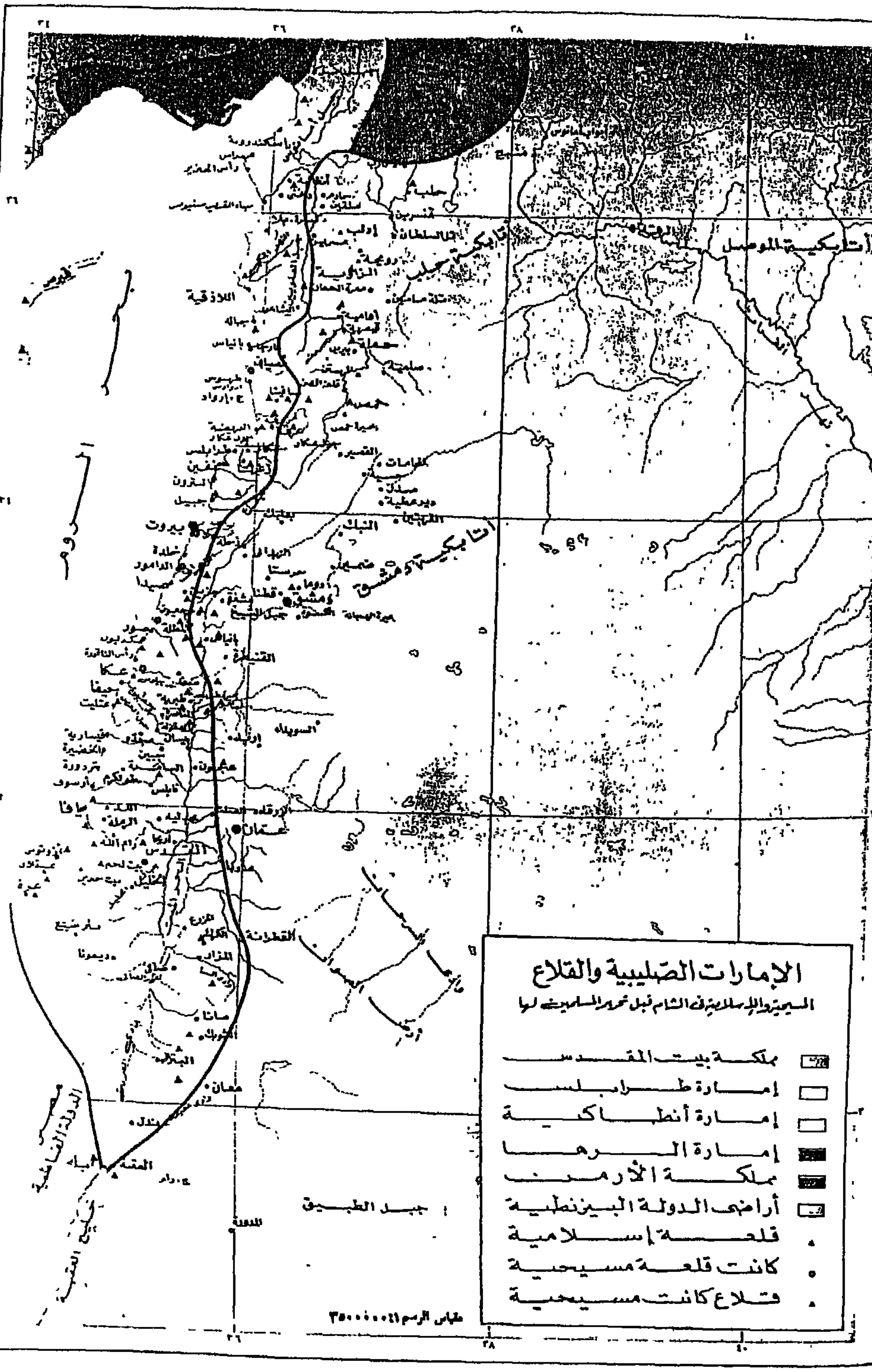
أطلس تاريخ الإسلام ص ٥٤ – ٥٥



أطلس تاريخ الإسلام ص ١٤٨ - ١٤٩



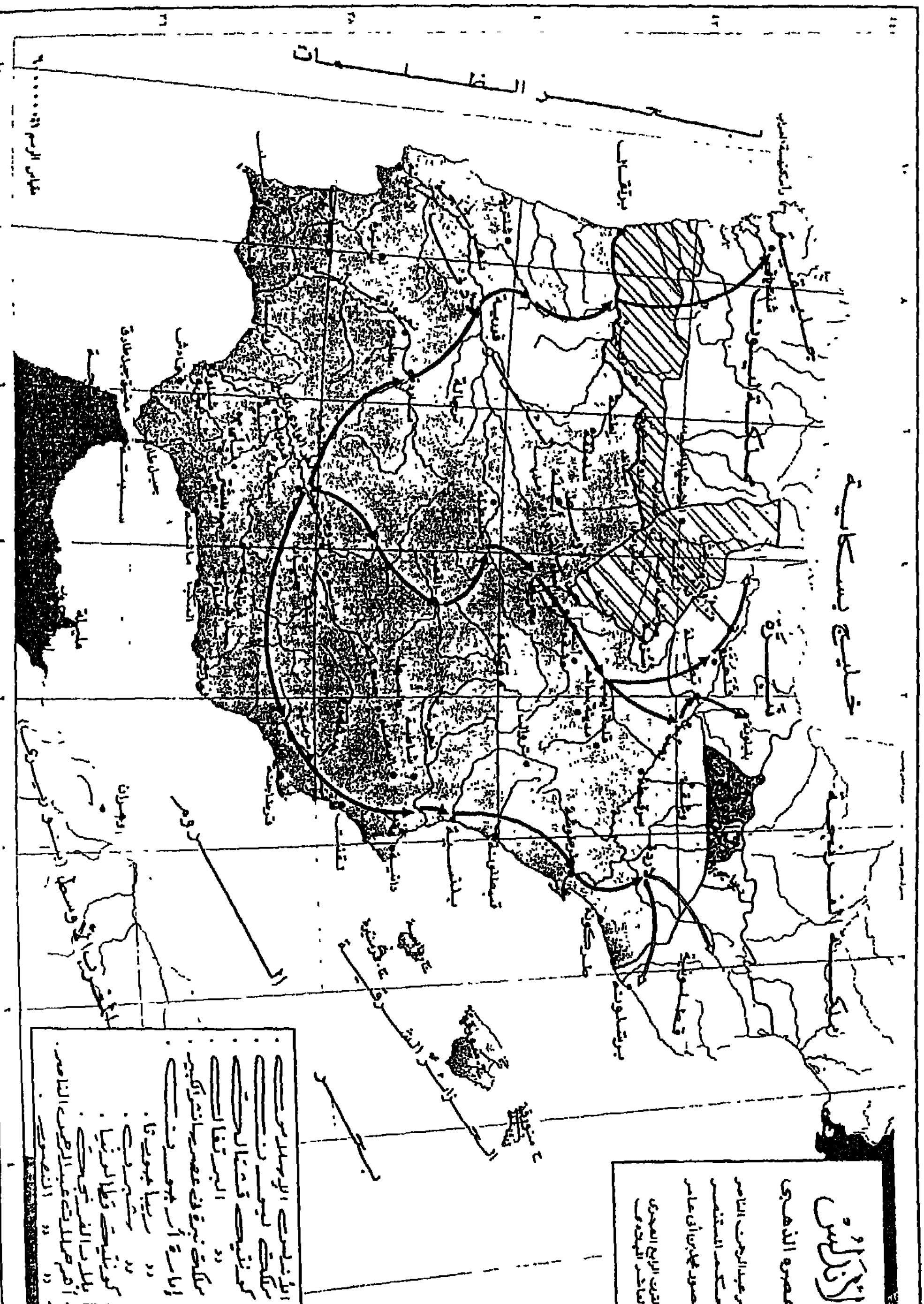
أطلس تاريخ الإسلام ص ١٥٦ - ١٥٧



أطلس تاريخ الإسلام ص ١٧٢



أطلس تاريخ الإسلام ص ٢٦٢



أطلس تاريخ الإسلام ص ٣٠٥

نخبة من المراجع

أبو زهرة : محمد

١ - تاريخ المذاهب الإسلامية

أرنولد : توماس (ت ١٩٣٠م)

٢ - الدعوة إلى الإسلام

أمين : أحمد (ت ١٩٥٤م)

٣ - فجر الإسلام وضحاه

حِتِّى : فيليب (ت ١٩٧٨م)

٤ - تاريخ العرب

حسن : حسن إبراهيم

٥ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى

٦ - النظم الإسلامية (بالإشتراك مع على إبراهيم حسن)

سالم : السيد عبد العزيز

٧ - تاريخ العرب قبل الإسلام

٨ - تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى

سرور : محمد جمال الدين (ت ١٩٩٢م)

٩ - الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية

١٠ - الدولة الفاطمية فى مصر

١١ - سياسة الفاطميين الخارجية

١٢ - قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد (ص)

عاشور : سعيد عبد الفتاح

١٣ - الحركة الصليبية

١٤ - مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك

العبادى : أحمد مختار

١٥ - فى التاريخ الأيوبى والمملوكى

١٦ - فى التاريخ العباسى والفاطمى

١٧ - فى تاريخ المغرب والأندلس

عرفة : محمود

١٨ - تاريخ العرب قبل الإسلام

العقاد : عباس محمود (ت ١٩٦٤م)

١٩ - العبقريات

على : جواد

٢٠ - المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام

عنان : محمد عبد الله (ت ١٩٨٦م)

٢١ - دولة الإسلام فى الأندلس

قاسم : قاسم عبده

٢٢ - الأيوبيون والمماليك (بالاشتراك مع على السيد على)

٢٣ - الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية

كُحيلة : عُبادة بن عبد الرحمن رضا

٢٤ - تاريخ النصارى فى الأندلس

لويس : برنارد

٢٥ - العرب فى التاريخ

محمود : حسن أحمد

٢٦ - العالم الإسلامى فى العصر العباسى (بالإشتراك مع أحمد إبراهيم الشريف)

مصطفى : شاكر

٢٧ - دولة بنى العباس

مؤنس : حسين (ت١٩٩٦م)

٢٨ - أطلس تاريخ الإسلام

٢٩ - فجر الأندلس

٣٠ - معالم تاريخ المغرب والأندلس

هيكل : محمد حسين (ت ١٩٥٦م)

٣١ - حياة محمد

كتب أخرى للمؤلف

١ - صقر قريش ؛ عبد الرحمن الداخل . القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٩٦٨ (أعلام العرب - ٧٦) (نفد)

٢ - عن العرب والبحر . القاهرة ، ١٩٨٩.

٣ - أندلسيات . القاهرة ، ١٩٨٩

٤ - تاريخ النصارى فى الأندلس . القاهرة ، ١٩٩٣

٥ - الزُّط والأصول الأولى لتاريخ الغجر . القاهرة ١٩٩٤

٦ - الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٥

٧ - قراءة جديدة فى عهد عمر . القاهرة ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٦

رقم الإيداع ٩٤٤٥ / ٩٦
I. S. B. N. 977-19-1552-5

المطبعة الإسلامية الحديثة
٤٢ ش دار السعادة - حلمية الزيتون
القاهرة - ت : ٢٤٠٨٥٥٨

الطبعة الأولى

الغلاف هدية من الفنان سعيد المسيرى

رقم الإيداع ٩٤٤٥ / ٩٦
I. S. B. N. 977-19-1552-5

المطبعة الإسلامية الحديثة

٤٢ ش دار السعادة – حلمية الزيتون

القاهرة – ت : ٢٤٠٨٥٥٨